محمد حسنين هيكل

الطريق الى رمضان

دار النهار للنشر

صمم الغلاف : ابراهيم عيد

الاخراج : هنري ابي نادر



الطـريق
الى رمضان

إهـــــــداء٢٠٠٧

الدكتورة / سميحة المهدي

جمهورية مصر العربية

محمد حسنين هيكل

الطريق الى رمضان

نقله الى العربية

يوسف الصبّاغ

DL دار النهار للنشر

مقدمــــة

لم اكتب للطبعة الانجليزية من هذا الكتاب ـ وهى الأصل فيــه
ـ أيـة مقـدمات ، وانما تركت الكتاب يقدم نفسه بنفسه وتركت للناس أن يحكموا عليه .

واعترف أنني شعرت بكثير من العرفان عندما وجدت الكتاب ضمن قائمــة أروج خمســة كتب في بريـطانيـا في اول أسبـوع صدر فيه عن دار « كولينز » أكبر دور النشر في لندن .

ولم أكن انوى أن أكتب للطبعة العربية ـ وهي ترجمة له عن الانجليـزية ـ أية مقدمات عملا بنفس المنطق ، منطق أن اترك الكتاب يقدم نفسه بنفسه ، واترك للناس أن يحكموا له .

ولكن الضجـة التي ثارت حينـما نشرت بعض الأجـزاء منه مسلسلة في « النهـار » أو منقولة عن « النهار » ، هي التي دعتني إلى محاولة كتابة مقدمة .

هل هي مقدمة بالضبط ؟

لا أظن !

هل هي محاولة رد ؟

لا أظن أيضا !

أقـرب هي الى أن تكـون إيضـاحات سريعة أقدمها بغير ضغط أو الحاح .

□

عنـدمـا بدأت « النهار » وتبعتها صحف اخرى في نشر حلقات

مسلسلة من بعض فصول هذا الكتاب « الطريق الى رمضان »
كنت في زيارة لايران ، أحاول أن أستكمل كتابي القادم عن العالم العربى ، بنظرة عليه ، واقفا هناك عند تخومه القريبة جغرافيا أو حضاريا .

وعدت لأجد ضجة لم تكن لي على بال ، ووجدت لازما علي أن أوضح وجهة نظري كاملة أمام من ساءهم بعض ما كتبت عن غير قصد ، وبغير سبب ، في صلب الكتاب يمكن أن يسىء !

قلت ما يأتي :

١ ـ أليس الأولى قبل ابداء رأي في الكتاب أن ننتظر حتى يكون امامنا نص كامل له ، وهل يمكن الحكم على كتاب من مقتطفات تنتقى منه للنشر الصحفي؟

حتى النقاد في العالم كله لا يحكمون على كتاب قبل أن يكون امامهم ، يعرض عليهم كل قصته ، ومن ثم تكون أمامهم الفرصة لتقييمه على أساس سليم .

فكيف اذا كان النقد أكبر من مجرد حكم أدبي ، وإنما هو حكم سياسي؟!

٢ ـ لماذا القفز بهذه السرعة الى مقولة « تزييف التاريخ »؟ ولماذا أقوم أنا بذلك ، وأي مصلحة لي فيه؟

عندما يقدم كاتب على تزييف التاريخ ، فهو يفعل ذلك لمصلحة .

يزيف التاريخ لحساب حاكم أو لمصلحة سلطة ، فالمصالح عند الأثنين .

المصالح عند الأحياء الأقوياء ، وليست عند الموتى والضعفاء .

٣ ـ قد يكون هناك خطأ وقعت فيه ، ولكن ذلك اذا حدث له من حسن النية شفيع .

وأنا لم أدع لنفسي صفة المؤرخ .

الذين عاشوا وقائع من التاريخ لا يستطيعون التأريخ لها ، لأن رؤيتهم مشوبة بتجربتهم الذاتية ، وقصارى ما يستطيعون تقديمه هو شهادة للتاريخ وليست تأريخاً ، وهناك فارق ضخم بين الاثنين .

ومع ذلك فلعلني أكون أسعد الناس لو أن أحداً قال لي : « أنك كتبت كذا وكذا . . . ولكن الحقيقة كانت كذا وكذا » .

ولـو أنني اقتنعت لسجلت اقتناعي ، ولتراجعت عما كتبت شاكرا ومقدراً لشعاع من الحقيقة أنار أمامي ما كان شاحباً أو معتماً !

٤ ـ بالنسبة الى ما أبديت من آراء ـ بعد ما رويت من وقائع ما عشت ـ فإن رأيي هو رأيي أتحمل مسئوليته ، وقد فعلت !

ولم أخف أنه كان لي رأي مختلف في طريقة إدارة الصراع السياسي ، مُنذ إنتهت حرب أكتوبر العظيمة .

ولكنني قلت ، وما زلت أقول : أن هناك مسافة شاسعة بين الرأي والقرار .

الرأي حق لكل إنسان .

وأما القرار فواجب ثقيل يحمله هؤلاء الذين وضعت فيهم الشعوب ثقتها ، خصوصا اذا كانوا يتحركون ومن حولهم أجهزة مسؤولة تضع أمامهم أدق المعلومات وتطرح أمامهم كل المحتمل من البدائل والخيارات .

□

قلت ذلك في توضيح وجهة نظري كمنطق عام . ثم دخلت في بعض التفاصيل أتخذ منها مجرد نماذج لا أكثر ولا أقل . أ ت :

ـ لقد ذكروا أنني كتبت أنه كانت هناك خطط لعمليات هجومية قبل خطة « بدر » التي نفذت بجسارة واقتدار في أكتوبر ١٩٧٣ .

وهذا صحيح بالقطع ، ولست أعرف ماذا فيه يسيء إلى أحد؟ أية إساءة إلى أحد أن أقول أن الفريق عبد المنعم رياض بدأ مع نهاية سنة ١٩٦٧ يضع التصورات الأولى لعملية هجومية؟

أليس ذلك واجب أي قائد عسكري ، فضلا عن قائد ممتاز في مكانة عبد المنعم رياض؟

أليس ذلك واجب أي جيش وطني ، فضلا عن جيش واجه صدمة لم يكن يستحقها سنة ١٩٦٧ ، وأحس أنه مسنود بارادة

شعبية رفضت الهزيمة وقبلت كل مخاطر استمرار الصراع؟
كانت هناك تصورات لخطة وضعها عبد المنعم رياض .
وكانت هناك خطة . . . بل خطط وضعت بينها الفريق محمد فوزي يتولى مسؤولية وزارة الحربية في مصر والقيادة العامة لقواتها المسلحة .
ولم يكن الاسم الرمزي للخطة « تحرير » ، وانما كانت « تحرير » مناورة عسكرية للتدريب ، ذلك ما قلته ، وقلت أيضاً أد الاسم الرمزي للخطة كان « جرانيت رقم واحد » ، وقد بتعتها خطة معدلة لها باسم « جرانيت رقم اثنين » ، وكان هناك مشروع لم يكتمل باسم « جرانيت رقم ٣ » .
ولا أريد أكثر من ذلك أن أستطرد إلى التفاصيل .
ولعلي أضيف أن أحداً لا يمكن أن يتصور أن الخطوط التي وضعتها قيادة الجيش المصري تحت عبد المنعم رياض سنة ١٩٦٧ ، أو أن الخطط التي وضعتها قيادة الجيش المصري تحت محمد فوزي ، كانت هي بذاتها التي أخرجت من الثلاجة في سنة ١٩٧٣ ، ونفذت باسم « بدر » .
لابد أن تغييرات كثيرة طرأت على هذه الخطط ، وفق الظروف المتغيرة ، ووفق تطور التسليح ، وفق عوامل أخرى عديدة .
ولا يمكن أي خطوط سابقة على « بدر » ولا أي خطط قبلها أن تنقص من أهمية الجهد الذي بذل في إعداد « بدر » ، وكثير منه يعود الفضل فيه إلى أحمد إسماعيل وإلى عبد الغني الجمسي .
ليس هناك عمل عظيم يقفز من الفراغ فجأة .
وليست هناك ثمر بغير أشجار . . . ولا أشجار بغير بذور !
ومع ذلك ، فان العبرة ليست بالخطط . . . وإنما العبر بالقرار السياسي الذي يضع هذه الخطط موضع التنفيذ ، ولا يمكن قوة على الأرض أن تنسب قرار أكتوبر العظيم إلى أحد غير صانعه ، وهو أنور السادات . . . ذلك قرار سوف يظل مجداً مقيما له ، ومجدا مقيما لمصر ، ومجدا مقيما للعرب .
ولقد كنت بنفسي أول من أطلق على أنور السادات وصف « صاحب قرار أكتوبر » ، ولا أظن إن أنور السادات يريد مدخلا

إلى التاريخ غير كونه فعلا « صاحب قرار أكتوبر » العظيم .

□

قلت :

ـ لقد ذكروا أنني تحيزت للفريق محمد أحمد صادق ، ولا أظنني فعلت ذلك . لقد أدى الرجل واجبه والحكم عليه للتاريخ ، أخطأ أو أصاب .

ومع ذلك فلقد كنت مختلفاً مع الفريق صادق ، وذلك واضح في « الطريق إلى رمضان » في عدد من النقط :

● أختلفت معه في موقف من الاتحاد السوفياتي ظننت فيه أنه يدفع الأمور إلى أبعد مما تحتمل الأمور .

● وأختلفت معه في عدم تقديرة لاهمية استراتيجية الحرب المحدودة ، باعتبارها الممكن الوحيد في عصرنا وفي ظروفنا ، خصوصاً اذا استطعنا إستغلال آثارها السياسية ووصلنا بها إلى نتائج إيجابية يمكن أن تكون بغير حدود .

وكان رأيي ـ على خلاف مع رأيه ـ أن الحرب المحدودة هي الحرب الوحيدة التي نستطيع أن نخوضها وأن نقودها ـ فضلا عن ظروف العصر !

ولم تكن تربطني صداقة خاصة أو وثيقة بالفريق صادق . . . لقد عرفت الرجل عندما كان يقود القوات المسلحة المصرية ، وقدرت فيه مزاياه ، وأختلفت مع العديد من آرائه ، ولكني رفضت أن أقاطعه بعد أن فقد منصبه ، ربما لاني أعتبر أن معرفة الناس من خلال مناصبهم ـ فقط ـ عيب لا يليق !

هذه هي الحقيقة .

□

قلت :

ـ لقد ذكروا أنني أعطيت للمملكة العربية السعودية دوراً في قرار إخراج الخبراء السوفيت من مصر .

ولم يكن ذلك بين ما كتبت .

لقد أشرت إلى بعض الشخصيات السعودية في معرض رسالة وصلت إلى الرئيس السادات « من تحت المائدة » ، كما

قال بنفسه في مؤتمر صحفي . . . رسالة قيل له فيها « أرح نفسك . . . الباب هنا والمفتاح هنا . . . والحل عندنا في واشنطن » .

قلت أن قرار إخراج الخبراء السوفيات كان في رأس أنور السادات ، وكان قد وصل إليه بعد ظروف رآها داعية إليه ، وقد شرحت كثيراً من هذه الظروف ضمن فصول هذا الكتاب .

وفيما يتعلق بالرسالة التي جاءت « من تحت المائدة » ـ حسب تعبير الرئيس السادات ـ فلقد كان كل ما فعلته هو ذلك كل شيء » .

□

ولقد تطور الهجوم عليَّ ـ ولعلي أقول تدهور ـ إلى درجة إستعمال وصف « الكذاب » في إشارة إليَّ صريحة .

والغريب أن ذلك كان في معرض كلام يقول بأنه لم تكن هناك خطط هجومية مصرية ، قبل أن يتولى المشير الراحل أحمد اسماعيل قيادة القوات المسلحة المصرية .

وكان اعتقادي أن نقل هذا الكلام جاء مشوهاً ، فكيف يمكن أن يقال بأنه لم تكن هناك خطط هجومية مصرية قبل قيادة أحمد إسماعيل ، في حين أن أحمد إسماعيل لم يتول منصبه إلا في أكتوبر ١٩٧٢ . بينما نحن نتذكر أن الرئيس السادات أعلن سنة ١٩٧١ سنة للحسم ، وكان متجهاً إلى معركة قبل نهايتها ، لولا أن فاجأته ظروف الحرب في شبه القارة الهندية بين الهند وباكستان كما أعلن بنفسه للأمة . . . .

فهل يعقل أنه كان متجهاً إلى معركة من دون خطة ، أو أن المعقول أكثر ـ هو أنه كانت هناك خطط قبل أحمد إسماعيل ؟

وأنا أحترم الرجل ، وأريد كل الانصاف له ، ولكني لا أتصور في هذا السبيل أن أتجن على الحقيقة . . . على جيش مصر ، وعلى إرادة شعب مصر .

وللرجل ، على كل حال ، فخر يكفيه من خطة « بدر » ومن قيادة تنفيذها .

وأعترف أن وصف « الكذاب » لم يغضبني موجهاً من مصدره ، ولم ألجأ إلى القضاء - كما أراد بعض الاصدقاء - لأني ببساطة لم أعتبر أنني أهنت .

ومهما يكن ، فلقد أحسست بعرفان كبير حين بعث الرئيس أنور السادات من سالزبورج يطلب التحقيق مع الذين أستغلوا ما نسب إليه خلافاً لما قال ، وكان مطلبه في التحقيق « أنه لا يريد أن ينسب إليه ما لم يقله ، وأنه لا يقبل أن يستغل في تسوية حسابات شخصية » .

ومن جانبي ، فليست لدي حسابات شخصية أريد تسويتها مع أحد ، فأنا أعرف نفسي ، وأظنني أعرف الآخرين ، واذا قررت أن أتكلم فلن يكون ما أقول به تصفية لحساب شخصي ، وأنما سيكون حساب قيم أخلاقية ووطنية !

□

تظل لدي ملاحظتان :

● الأولى أن من بين مشاكلي أنني أكره الخوف لأني أؤمن بالحب دون أن أسمح لنفسي بالمتاجرة فيه !

ولقد أحببت جمال عبد الناصر ، ولهذا لم أخف منه .

وأحببت - ومازلت - أنور السادات ، ولهذا لا أخاف منه ! وأتذكر أنني قلت له مرة :

- « أن الذين يخافون لا يحبون ، والذين يحبون لا يخافون . . . » .

● والملاحظة الثانية ، هي أنني كنت في لندن أثناء الاحتفال بصدور الكتاب عن « الطريق إلى رمضان » .

وبين برامج الاحتفال كان هناك مؤتمر صحفي في مبنى دار « كولينز » للنشر ، حضره أكثر من مائة صحفي بريطاني وغير بريطاني من الذين يعملون ويتابعون الاخبار من لندن .

ودخلت إلى المؤتمر منتظراً أن يتوجه إليَّ بعضهم أو أحدهم بسؤال عن الضجة التي ثارت هنا حول بعض الوقائع في كتابي .

ولقد دهشت .

ومازلت حتى الآن أتساءل :

ـ أليس غريباً أن واحداً منهم ـ حتى واحداً فقط ـ لم يوجه إلي سؤالا كنت أنتظره ؟

سؤال يقول :

ـ لقد ذكرت كذا وكذا ، ولكنهم خالفوك فيما ذكرت . . . فما هو تعليقك ؟» .

لم أسمع هذا السؤال أو شيئاً قريباً منه . . .

ولم أعط جواباً بالتزيد ولا بالتطفل .

لقد وجدوها زوبعة في فنجان صغير للقهوة العربية المرة ، فلم يشربوا ، ولا أنا شربت !!

محمد حسنين هيكل

رقم الإيداع : ١٩٨٨/٢٤٧٨

الفصل الأول
المفاجأة

في صبيحة يوم الأربعاء ٢٢ اغسطس (آب) ١٩٧٣ توجه ثمانية من الضباط المصريين وستة من الضباط السوريين واحدا تلو الآخر من نادي الضباط في الاسكندرية إلى مقر القيادة البحرية في رأس التين الملكي. كان الضباط السوريون قد وصلوا من دمشق قبل يوم أو يومين، ودخلوا كل على انفراد حيث انضموا إلى مجموعة الضباط المصريين وغيرهم من ضباط البلاد العربية الأخرى، كذلك مجموعة الفنيين الروس الذين كانوا يستخدمون النادي ولاسيما في مثل هذا الوقت من السنة... ذروة موسم أجازات الصيف. وكانوا جميعا يرتدون الملابس المدنية، ولم يكن هناك سبب يجعل منهم موضوع اهتمام خاص.

وفي غرفة مقر القوات البحرية كان الفريق أول أحمد اسماعيل وزير الحربية يجلس وسط جانب من مائدة طويلة تتوسط الغرفة. وكان يجلس أمامه نظيره اللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري، يحيط بهما على الجانبين كبار ضابط القوات المسلحة المصرية والقوات المسلحة السورية: رئيسا الاركان، وقائدا العمليات، ومديرا المخابرات، وقائدا البحرية، وقائدا القوات الجوية، وقائدا الدفاع الجوي. على أنه لما كان المنصبان الاخيران يشغلهما في سوريا ضابط واحد فقد اقتصرت عدد الضباط السوريين في هذا الاجتماع على ستة منهم في مقابل سبعة من المصريين. وكان الشخص الرابع عشر الجالس إلى المائدة ضابطا مصريا آخر هو اللواء بهي الدين نوفل رئيس أركان القيادة المصرية - السورية الاتحادية.

كانت الغاية من اجتماعهم، هي وضع اللمسات الأخيرة لخطة الهجوم في وقت واحد على القوات الاسرائيلية التي تحتل أرض سيناء المصرية، والجولان السورية، يتم خلال خريف تلك السنة. وكان التخطيط لمثل هذا الهجوم قد بدأ قبل ذلك بوقت طويل... في صورة أو في أخرى كنتيجة

عاجلة لهزيمة ١٩٦٧ ، واتخذ بطبيعة الحال اشكالا متعددة طبقاً للشريك أو الشركاء الذين كان المفروض أن تتعامل مصر معهم ، ولم يأخذ شكله النهائي إلا بعد أن تم انشاء المجلس الموحد للقوات المسلحة المصرية والسورية في ٣١ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٣ . وقبل ذلك كانت ليبيا شريكاً نشطا في التخطيط ، ولكن حين تبين أن للرئيس معمر القذافي رئيس ليبيا تصوروا مختلفا عن تصور مصر وسوريا بالنسبة إلى الطريقة التي يدار بها الهجوم ، فان الرئيسين المصري والسوري قررا المضي في تجهيزاتها من دونه .

وقد اتخذت اشد الاحتياطات لضمان عدم تسرب أية إشارة إلى ما تحمله الرياح . فالغرفة التي اجتمع فيها الضباط الأربعة عشر فتشت أكثر من مرة للتأكد من عدم وجود أجهزة للتصنت فيها ، ولم يسمح بدخول أية أجهزة الكترونية إليها مهما يكن نوعها . كذلك لم يسمح لاحد بأن يدون أية ملاحظات باستثناء ضابط واحد هو اللواء عبد الغني الجمصي المدير المصري للعمليات الذي كان يسجل محضر الاجتماع بالقلم ، ثم يعد نسختين منه يسلم أحداهما للفريق سعد الشاذلي رئيس الاركان المصري ليقدمها بدوره إلى الرئيس أنور السادات ، والثانية إلى اللواء يوسف شكور رئيس الاركان السوري ليقدمها إلى الرئيس حافظ الأسد . ولم يكن مسموحا للضابط ـ بعد الاجتماع ـ أن يتصلوا بعضهم بالبعض سواء عن طريق الكتابة أو التلفون . وأي اتصال بينهم كان لابد أن يتم عن طريق المحادثة الشخصية ، والمحادثة الشخصية وحدها .

واستمر الاجتماع ستة أيام ، لان عددا غير قليل من النقاط لم يكن قد تم الاتفاق عليه بعد ، على رغم أن الخطة في مجموعها كان اتفق عليها منذ شهر ابريل (نيسان) . وحين انفض الاجتماع أخيرا في أغسطس (آب) ، عادت غالبية الضباط السوريين إلى اللاذقية بطريق البحر من الاسكندرية ، بينما عاد الباقون إلى بلادهم بالطائرة . ومع ذلك فانه على رغم محادثاتهم المكثفة ، ظلت هناك نقطتان لم يتم الاتفاق عليهما حين انتهى الاجتماع ، ولم يكن هناك سبيل آخر سوى عرضهما على الرئيسين لاتخاذ قرار في شأنهما . كانت النقطتان تتعلقان بالموعد المحدد للهجوم: اليوم والساعة . . . يوم الهجوم وساعة الصفر .

ووضع المخططون فترتين بديلتين للهجوم ، أحداهما بين ٧ سبتمبر و ١١ سبتمبر (ايلول) ، والثانية بين ٥ أكتوبر و ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) . ولم تكن هناك حماسة كبيرة للفترة الأولى من الفترتين ، ومع ذلك فقد احتفظ بها كبديل يستخدم في حالة وجود أسباب سياسية قوية ـ لا يعرف بها المخططون ـ تجعل من الأفضل القيام بالهجوم في وقت مبكر ، وأن يكن شهر سبتمبر (ايلول) قد استبعد في النهاية ، نتيجة لقرار

خاص بموعد الهجوم كان المخططون قد اتفقوا عليه بالفعل ، وهو القرار الخاص ببدء العد التنازلي قبل الموعد المحدد بعشرين يوما . وهكذا بدأ أنه لابد للحرب أن تكون في اكتوبر (تشرين الأول) ، وان تركت مسؤولية تحديد موعدها للرئيسين . كذلك كان هناك اعتبار آخر خاص بتحديد الموعد، وهو مطلب السوريين أن يكون لهم عد تنازلي خاص بهم مدته خمسة أيام لإتاحة الفرصة لهم لتفريغ معامل التكرير في حمص باعتبارها هدفا يكاد يكون من المحقق أن يتعرض لقنابل الاسرائيليين ، بمجرد أن يبدأ القتال . ولقد تعلم المصريون خلال حرب الاستنزاف أن الضرر الذي يمكن أن يلحق بمعامل التكرير الفارغة ، إذا ضربت بالقنابل ضئيل نسبياً ، في حين يمكن أن يبلغ الضرر مبلغ الكارثة إذا ضربت هذه المعامل وهي ملأى بالبترول . ولقي هذا المطلب السوري استجابة ، وإن يكن ترتب عليه بعض سوء الفهم في مابعد.

وبالنسبة إلى ساعة بدء المعركة، فان المصريين كانوا يفضلوا أن تكون بعد الظهر ، فذلك يعني أن قواتهم يمكن أن تبدأ عبور القناة والشمس وراءهم وأمام عيون الجنود الاسرائيليين . ومعناه أن يكون لديهم بضع ساعات للعبور ، في ضوء النهار ، تتبعها ٦ ساعات في ضوء القمر تتم خلالها عملية بناء الجسور على القناة ، تتبعها ٦ ساعات أخرى من الظلمة الحالكة تعبر القوات المدرعة خلالها القناة . أما السوريون فكانوا يريدون أن يبدأوا الهجوم مع أشعة الفجر الأولى ، لأنهم سيتوجهون في هجومهم غرباً ، ولم تكن رغبتهم أقل من رغبة المصريين في أن تكون الشمس وراءهم . وقدمت اقتراحات عدة للتوفيق بين الجانبين ، منها - مثلاً - اقتراح من المصريين أنهم مستعدون للموافقة على أن يبدأ السوريون هجومهم مع أشعة الفجر الأولى ، ثم يتبعهم المصريون بالهجوم بعد الظهر . لكن السوريين اعترضوا على الاقتراح ، على أساس أنه سيتركهم وحدهم في المعركة ساعات عدة ، فضلا عن أنه سيقضي على عنصر المفاجأة المزدوجة على الجبهتين . وعندئذ اقترح المصريون أن يبدأوا هم بالهجوم بعد ظهر اليوم المحدد للمعركة ، على أن يتبعهم السوريين بالهجوم مع أول ضوء للفجر في اليوم التالي . لكن السوريين اعترضوا وقالوا أن تنفيذ الاقتراح لا يفقد عنصر المفاجأة قيمته فحسب ، وانما قد يؤثر عليه سياسيا أيضا ، لأنه سيظهر السوريين في مظهر المتخلف وراء المصريين .

وبينما كانت المناقشة دائرة في الاسكندرية ، كان الرئيس السادات يقوم بجولة حملته إلى المملكة السعودية وقطر وسوريا . وكان توقفه في السعودية وقطر - إلى حد كبير - جزءا من خطة الخداع الواسعة التي كانت قد بدأت بالفعل ، والتي كانت تهدف إلى أن تترك الانطباع أن

الرئيس ـ شأنه في ذلك شأن بقية المصريين ـ يقوم برحلة عمل عادية . أما زيارته لسوريا فان هدفها كان أخطر بكثير . ففي خلال وجود الرئيس السادات في دمشق عاد اللواء طلاس اليها وقدم إلى الرئيسين السادات والأسد تقريرا عما تم الاتفاق عليه في الاسكندرية ، وكذلك عن النقطتين اللتين لم يتم بشأنهما اتفاق . وقد اتفق الرئيسان على استبعاد شهر سبتمبر (ايلول) موعدا للمعركة ، واتفقا بالتالي على أن يبدأ الهجوم في وقت ما خلال الفترة ما بين ٥ و ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) على أن يفوض الرئيس السادات باعتباره قائدا أعلى للقيادة الموحدة في اختيار اليوم الموعود . وفي ليلة ٢٧ أغسطس (آب) طار الرئيس السادات عائدا إلى القاهرة ، وكان في استقباله في المطار الفريق أحمد اسماعيل الذي قدم إلى الرئيس صورة أكثر تفصيلا عن محادثات الأركان المشتركة . وقد وافق الرئيس على كل ما تم في هذه المحادثات في ما عدا طول فترة العد التنازلي ، فقد كان يرى أن الأيام العشرين المطلوبة فترة طويلة ، وان خمسة عشر يوما تكون أمرا طبيعيا وفيها الكفاية . وقد كان . . . وتم الاتفاق على التعديل .

ثم اعقبت ذلك في الأيام الثلاثة الأولى من شهر سبتمبر (ايلول) سلسلة من الاجتماعات حضرها أولئك الضباط المصريين الذين اشتركوا في محادثات الاركان في الاسكندرية ، مضافا اليهم قائدا الجيشين اللذين ستوكل إليهما مهمة الهجوم عبر القناة . وفي هذه الاجتماعات استمع القائدان إلى شرح للموقف ، لكنهما لم يطلعا على التواريخ ، وتم التأكيد عليهما ضرورة كتمان كل شيء وعدم التحدث عن أي معلومات في هذا الشأن إلى أي مخلوق كان .

وقد حدث في أواخر أحد هذه الاجتماعات أن قدم اللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية تقييما لرد الفعل المحتمل لدى العدو بالنسبة إلى الهجوم . وكان التقييم الذي قدمه اللواء نصار مبنيا على ثلاثة مصادر : أولها ـ دراسة مكثفة أعدت عقب المناورات الاسرائيلية التي أجريت في شهر مايو (آيار) ، والتي كان من الواضح أنها تستهدف تحذير مصر ، في اعقاب الحشود المصرية في المنطقة في ذلك الوقت ، من أنه إذا حاولت قواتها عبور القناة فانها ستتعرض للابادة . وثانيها ـ توزيع القوات الاسرائيلية المعروف في سيناء في تلك الفترة . وثالثها ـ المعلومات لدى جهاز المخابرات .

وبعدما انتهى اللواء نصار من عرض تقييمه ، وجه اللواء سعد الشاذلي رئيس الاركان المصري سؤالا أثار نقاشا حيا وطويلا . فقد سأل المخابرات العسكرية عن تقديرها للموعد الذي يحتمل أن يتوصل فيه العدو إلى كشف الاستعدادات المصرية . وكان الرد أن المتوقع بالنسبة إلى

العدو أن يعرف بهذه الاستعدادات قبل خمسة عشر يوما من بدء الهجوم . وفي كلمات أخرى ، فان العدو سيكون في موقف يمكنه من تحريك احتياطه بمجرد أن يبدأ العد التنازلي . ومعنى ذلك ، أن الموجات الأولى من المشاة الذين سيعبرون القناة سيتركون وحدهم لمدة قد تصل إلى ١٨ ساعة (حتى ضوء الفجر الأول من اليوم التالي للهجوم) قبل أن تستطيع القوات المدرعة أن تقدم لهم العون الفعال .

وهنا واجهت القيادة المصرية مشكلة بدت في باديء الأمر مستعصية على الحل . ذلك أنه ، إذا كان عنصر المفاجأة التامة مستحيلا كما لاح عندئذ ، فان ذلك يعني أن القوات الأولى التي ستعبر القناة ستواجه على وجه التأكيد القوة الكاملة للمدرعات الاسرائيلية . صحيح أن من الممكن إعداد شيء للاسراع في عمليات إقامة الجسور على القناة بحيث تعبر المدرعات المصرية قبل الموعد المحدد لعبوره ، لكن ذلك ليس حلا حقيقيا ، لان الجسور يمكن أن تضرب بالقنابل ، كما أنه في أية حال لن يحول دون أن تترك قوات المشاة وحدها لساعات عدة ، وأن تواجه خطر الإبادة ، وهو خطر يمكن أن يكون مؤكدا . انقضت أيام عدة قبل أن يتم العثور على جواب عن السؤال . وكان الحل أن يزود الـ ٨ آلاف جندي الأول من جنود الصاعقة وجنود فرق المشاة الذين سيتبعونهم مباشة بقذائف مضادة للدبابات وقذائف مضادة للطائرات على نطاق يفوق بمراحل كثيرة كل ما كان متصورا من قبل . ومن أجل هذا الغرض فان الجيش الأول جرد تماما تقريبا مما لديه من قذائف « المالوتكا » و« الستريلا » وسلمت كلها إلى قوات الهجوم . وكانت هذه الأسلحة هي التي مكنت قوات المشاة من الصمود . وقد اعترف الجنرال ديان في ما بعد أن ما فاجأ القوات الاسرائيلية لم يكن حداثة هذه الأسلحة ، بقدر كثافتها العددية الهائلة المتوافرة لدى المصريين فى بدء المعركة . وقد كانت تلك المفاجأة من أهم ملامح حرب أكتوبر (تشرين الأول) في أيامها الأولى .

وفي هذا الاجتماع قدم كذلك اقتراح ، أنه إذا أمكن توسيع مدى خطة الخداع فقد يتيسر خفض الفترة التي يمكن اسرائيل أن تعترف خلالها بالاستعدادات المصرية من خمسة عشر يوما إلى أربعة أو خمسة أيام . وكان الفريق أحمد اسماعيل يرى أن مثل هذه الفترة كافية تماما لتحقيق النجاح ، بالنظر إلى فترة الخمسة أيام إلى السبعة أيام التى تقدر القيادة المصرية أنها ضرورية للتعبئة الكاملة في اسرائيل ، وان يكن يفضل أن تقصير الفترة التي يمكن العدو فيها أن يعرف ، إلى ثلاثة أيام مثلا . يضاف إلى ذلك ان التعبئة في اسرائيل قد تتطلب وقتا اطول ، نظرا إلى أن اعلانها سيكون في فترة الاعياد والاجازات التي سيكون آخرها عيد يوم الغفران (يوم كيبور) فضلا عن الاستعدادات للانتخابات العامة التي كان

من المقرر اجراؤها يوم ٣١ أكتوبر (تشرين) .

وكجزء من خطة الخداع ، تقرر أن يتم التوزيع النهائي للقوات تحت ستار الاستعدادات للمناورات السنوية التي تجري في الخريف . وهذه المناورات التي اطلق عليها الاسم الرمزي « تحرير ٢٣ » قد وضعت خططها المستقلة منذ مدة طويلة . وكان لابد للمخابرات الاسرائيلية أن تكون على علم بها خصوصا أن الاشارات الخاصة بها كانت ملء الجو . وتبعا لذلك ، فانه حين انتقلت القيادة إلى نقطة متقدمة على طريق القاهرة ـ السويس عرفت في ما بعد باسم المركز الرقم ١٠ لتتخذ منه مقرا لعمليات المعركة ، شهد المركز عملية تغطية جدرانه بخرائط مناورات « تحرير ٢٣ » . وكان من السهل نسبيا أن تتحول القوات المشتركة في مناورات « تحرير ٢٣ » لتتخذ مراكزها استعدادا لشن حملة « بدر » ، وهو الاسم الرمزي الذي أطلق على حملة الهجوم المصري ـ السوري المشترك .

على أن خطة الخداع شملت في طبيعة الحال ميدانا أوسع من هذا بكثير . وكما فعل مونتجومري قبل معركة العلمين ، فان الدراسات التي أجريت في شأن خطة الخداع بدأت مع خطة العمليات في وقت واحد ، واستمرت متوازية معها ، وشملت كل الميادين : العسكرية والديبلوماسية والاعلامية . كانت القوات تتحرك إلى جبهة القناة في أثناء الليل ، بينما كان بعض عناصرها يسحب في أثناء النهار بطريقة ملفتة للانتباه (لتعود إلى مراكزها في أثناء الليل بطبيعة الحال) . وعلى الضفة للقناة أقيم سد رملي عال أنشاؤه في نهاية العام ١٩٧٢ ، وبلغت نفقاته ٣٠ مليون جنيه . وكان الغرض البادي منه هو توفير المزيد من الحماية ضد أي هجوم اسرائيلي ، في حين أنه في الحقيقة ساعد إلى حد كبير على اخفاء حشود المدفعية والدبابات . وكان مندوبو مصر وسوريا في مؤتمرات عدم الانحياز وفي الامم المتحدة وفي غيرها من الاجتماعات يتحدثون بأسلوب السلام (ولابد هنا من القول أنهم لم يكونوا يعرفون الغرض من التوجيه الصادر اليهم بالتحدث بهذا الاسلوب) ، بينما كانت الصحف والإذاعة قد وجهت إلى ابراز اهتمام مصر وسوريا بالبحث عن حل سلمي لنزاع الشرق الأوسط ، وإظهار عدم الرضا عن الخطب والعمليات العسكرية التي يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون .

ومع ذلك ، وعلى رغم ما اظهرته خطة الخداع من نجاح ، فان الموقف كان مدينا بالكثير إلى ذلك الحليف المتقلب : جنرال « حسن الحظ » ! لقد كان من المغالاة فى ذلك الوقت أن يأمل أحد في أن يلعب الحظ هذا الدور فيجعل الرأي العام الاسرائيلي في بداية اكتوبر (تشرين الأول) منهمكا تمام الانهماك في مواجهة القرار الذي اتخذته الحكومة النمسوية باغلاق معسكر اللاجئين في شوناو . تضاف إلى ذلك منحة أخرى هي أن الجنرال

ياريف مدير المخابرات الاسرائيلية ، وهو ضابط معروف بدهائه الشديد ، كان قد اقصي عن رئاسة المخابرات العسكرية الاسرائيلية قبل سنة ، وابدل بالجنرال زئيرا الذي كان يعتقد اعتقادا جازما أن المصريين لن يستطيعوا في أي ظرف من الظروف أن يشنوا هجوما . ومن حسن الحظ أيضا أن الاسرائيليين توصلوا إلى استنتاجات خاطئة بالنسبة إلى المعركة الجوية المشؤومة التي حدثت فوق سوريا يوم ١٥ سبتمبر (ايلول) واسقطوا فيها ١٢ طائرة سورية . لقد أدت هذه المعركة إلى ازدياد كبير في التوتر ، وثارت المخاوف من أن يتعرض السوريون لاغراء رد الضربة فينهكون أنفسهم قبل أن تبدأ المعركة الحقيقية . وقد حشدوا بالفعل بعض القوات في جبهتهم ، وحركت مصر بعض قواتها إلى الخطوط الامامية ، لكن ذلك كله كان كجزء من مناورات « تحرير ٢٣ » . بل أن الأمر صدر في مصر بتعبئة جزئية حتى يتسنى لقوات الاحتياطي أن تشترك في مناورات « تحرير ٢٣ » التي كان مقررا أن تستمر من أول أكتوبر إلى ٧ اكتوبر (تشرين الأول) . ولم يكن هناك شك في أن الاسرائيليين التقطوا كل الاشارات المتعلقة بالنتائج المترتبة على المعركة الجوية التي دارت فوق سوريا ، ولا شك كذلك في أن هذه الاشارت لعبت دورا في تحويل انظارهم عن الخط الحقيقي . اضافة إلى ذلك كله ، فقد وقع بالصدفة غير المدبرة ، حادث صغير لكنه مهم ، حين وقعت أحدى الشركات الامريكية في ذلك الوقت نفسه اتفاقية لانشاء خط انابيب للبترول ينتهي عند الأدبية على خليج السويس ، ويدخل على وجه اليقين فى نطاق دائرة العمليات العسكرية إذا ما اشتعل القتال في جبهة القناة . لقد اتخذ توقيع هذه الاتفاقية كقرينة أخرى على أن مصر تتوقع فترة سلام طويل .

وقد ادعى الامريكيون في مابعد انهم عرفوا بخطط حملة « بدر » في شهر مايو (أيار) . وإذا كان هذا صحيحا فانه يكون نوعا من التفاخر السخيف ، لان المفاجأة في هذه الخطة لم تكن أقل بالنسبة لهم عنها بالنسبة إلى غيرهم ، ويقينا أنهم قاموا فى الشهور الأخيرة بعمليات تجسس متزايدة ومكثفة فوق مصر مركزين هذه العمليات على الجوانب العسكرية . وبدأ قبل أول سبتمبر (ايلول) أن مستوى هذه العمليات أصبح غير محتمل . وهم لم يكونوا يستخدمون ملحقيهم العسكريين أنفسهم في هذه العمليات ، لان العلاقات الديبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة كانت قد قطعت في العام ١٩٦٧ ولم تستأنف ، إنما كانوا يستخدمون الملحقين العسكريين لسفارات عدد من الدول الاخرى ، خصوصا الملحق العسكري لاحدى الدول الآسيوية . وقد رتبت المخابرات المصرية لهذا الملحق قبل فترة طويلة حادثا مؤسفا ، إذ تعرضت سيارته لتصادم نشب على أثره اشتباك ضرب خلاله الملحق ضربا مبرحا ظل يعالج منه في

المستشفى بضعة أشهر . وبعد ذلك أعلن أن رئيس بعثة المصالح الأميركية في السفارة الأسبانية شخص غير مرغوب فيه لان نشاطه بدأ يزداد في فترة الصيف .

●●●

كان التاريخ أوائل شهر سبتمبر (ايلول) حين دخلت للمرة الأولى دائرة من يعرفون سر المعركة المقبلة . ففي بداية الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر (ايلول) طلب مني الرئيس السادات أن اتوجه لمقابلته في استراحته في برج العرب قرب الاسكندرية . وحين وصلت إلى هناك كان الرئيس ينزل درجات السلم متجهاً إلى سيارة مرسيدس بنية اللون تقف أمام مدخل الاستراحة . وقال وهو يدخل السيارة ليجلس في مقعد السائق : « تعال أجلس بجانبي » . وقد دهشت لذلك ، لأن الرئيس قلما يقود سيارة بنفسه . وعندما حاول الحرس أن يجلسوا في المقعد الخلفي أوقفهم الرئيس ، وطلب منهم أن يتبعوه في سيارات أخرى .

وفي العادة ، كان الرئيس يتوجه من استراحته إلى كابينة على شاطىء البحر تبعد نحو خمسة كيلومترات . لكني لاحظت هذه المرة أنه يقود السيارة في اتجاه مضاد ، عبر الطريق الصحراوى المؤدي إلى واحة كينج مريوط ، حيث استراحة أخرى يحبها الرئيس . وبمجرد أن انطلقت بنا السيارة بدأ الرئيس يتحدث عن الحرب . وكنا نجتاز بعض الحقول التي زرعت حديثا ضمن برنامج استصلاح الأراضى ، حين أشار الرئيس اليها وقال : « انظر إلى هذه الخضرة كلها . . إلى هذه الحياة الجديدة النامية . . أظن انني سأقيم هنا بعد أن ننهي معركتنا . سأقيم في مزرعة صغيرة فيها بعض الجياد ، واقضي بقية عمري متنقلا بين الصحراء والبحر . . .

وعلى رغم اني - ككثيرين غيري - كنت في ذلك الوقت أشعر بأن ثمة شيئا في الجو ، فلم تكن لدي على وجه التحديد فكرة عما هو متوقع حدوثه بالضبط أو عن موعد حدوثه . ولذا رأيتني اقول للرئيس أن عليه في هذه الحال ان ينتظر طويلا حتى يحين موعد اعتزاله .

وبادرني بقوله : « اتظن ذلك حقيقة ؟ . اعتقد ان كثيرين من الناس يظنون اننا لن نقاتل ابدا » .

وقلت : « أظن أن القتال قدرنا » .

فقال : « لكن هناك كثيرين في العالم العربى لايتفقون معك ، وهم قد فقدوا الأمل في اننا سنقاتل ابدا » . وأضاف : « والله اننا سنفاجئهم » ثم نظر إلي وقال : « واظن انك نفسك ستفاجأ أيضا » .

قلت : « لماذا ؟ » .

قال الرئيس : « سأفضي اليك بسر . هل تملك أعصابا قوية ؟ ان معركتنا

ستبدأ في موعد لا يتجاوز أسابيع تعد على أصابع اليد الواحدة من الان » .
قلت : « سيادة الرئيس . . لماذا تقول لي ذلك ؟ اني لن استطيع أن انام بعد الأن . . . »
قال الرئيس مبتسما : « وأنا لاأريدك أن تنام » .

وكنا عندئذ وصلنا إلى الاستراحة في كينج مريوط . وجلسنا في الشرفة التي زينت ببعض الزهور . وبدأ ساعتها ان المشهد غير مناسب للحديث عن حرب وشيكة . وقلت للرئيس شاكيا : « أنى أشعر بعبء ثقيل على كتفى . هل صحيح ان المعركة ستبدأ خلال أسابيع قليلة على هذا النحو ؟ » .

ورد الرئيس بأنها قد تبدأ خلال شهر . وهنا بدأ يسرد صورة كاملة لتصوره الكامل عن الموقف . وكان شرحه منطقيا مترابطا وفياضا بالحيوية . وظل على امتداد ساعة كاملة يتكلم عن خطته والتصور الذي كان وراءها ، والمشاكل التي لاتزال تنتظرالحل .
وقال الرئيس : « إن هذه فرصتنا الأخيرة ، وإذا لم نتنهزها ، فاننا سنجد انفسنا في النهاية وقد فاتنا القطار . إن مصر ، من ناحية ، لن تتلقى مزيدا من السلاح أكثر مما تلقته ، وهي الآن في قمة قدرتها العسكرية . ومن ناحية أخرى . .من الناحية الدولية . . فان مصر تلقى الآن كل تأييد الذي لم تكن تحلم به ابدا من جانب الشعوب العربية ودول عدم الانحياز ، وفي الأمم المتحدة ، وفي كل مكان . وقد بدأ الناس يقولون : ما الفائدة من قرارات التأييد التي طلبتموها منا وقدمناها اليكم ؟ ليس هناك ما يحدث على الاطلاق . فما الذي تنتظرنه ؟. . . ان الناس سرعان ما سيفقدون اهتمامهم . ثم ان هناك الموقف الاقتصادى . . ومن المستحيل أن نتحمل حالة « اللاسلم واللاحرب » طويلا . واذا لم نحصل على جرعة مالية كبيرة في صورة معونة ، فان العام ١٩٧٤ سيأتي بأزمة . ولا يمكن أن تأتى مثل هذه الجرعة وعلى النطاق المطلوب ، الا من بعض الدول العربية . لكن العرب لن يقدموا إلى مصر قرشا آخر ، إلا إذا كان هناك تحرك ما . إما في الجبهة الداخلية فإن الشعب بدأ يفقد صبره » .

وتحدثنا لفترة عن مشاكل مصر الداخلية ، وفي أثناء هذا الحديث اتخذ الرئيس قرارين ، كلاهما يستهدفان ايجاد جو من الصفاء . الأول : خاص باسقاط التهم القائمة في المحاكم ضد الطلبة الذين اشتركوا في مظاهرات العام ١٩٧٢ . والثاني : خاص باعادة نحو ٧٠ إلى ٨٠ من الكتاب والصحافيين الذين فصلوا من عضوية الاتحاد الاشتراكي ، وكانوا مهددين بفقدان مناصبهم في أوائل ذلك العام .

وبعد ذلك انتقل الحديث إلى عدد من النقاط المهمة التي لم يكن الرئيس قد اتخذ قرارا في شأنها بعد . أولها : البحث عن ذريعة تكون مبررا للعملية العسكرية . وكان من بين الأفكار التى طرحتها بعض الجهات المسؤولة على الرئيس ، أن تقوم أحدى الغواصات المصرية بإطلاق نيرانها على ناقلة إسرائيلية ، لكن الرئيس رأى أنها فكرة غير صائبة ، الاسرائيليين سيردون يقينا على ذلك بعنف ، ولا يمكن أحد أن يتنبأ بما سيكون ذلك من أثر فى الموقف الدولى .

وقد أبدى الرئيس قلقه بشأن خدمات الاعلان والاتصالات مع بقية أنحاء العالم . وكان يدرك كل الادراك على الميزات الضخمة التى تتمتع بها إسرائيل بالنسبة إلى سماع وجهة نظرها فى الخارج . واعربت له عن اعتقادى أنه إذا كان لدينا شيء نقوله ثابت ومحدد ومعقول ، فإن العالم سيصغى إليه ويتقبله ، حتى ولو كان راديو القاهرة مصدره الوحيد .

وكان من بين المسائل الأخرى الكبرى التى لم يتخذ فى شأنها قرار بعد مسألة : الجهات التى يجب أن نخبرها . . وما يمكن أن نخبرهابه . . متى نخبرها به . ما الذى يجب أن يقال للسوفييت ؟ . . ولزعماء عدم الانحياز ولاسيما تيتو والسيدة غاندي؟ . . . ولأوروبا الغربية التي تعني أساسا هيث وبرانت وبومبيدو ؟ . . . ولمؤيدي مصر في افريقيا وآسيا ؟ صحيح ان كلا منهم سيوضع في الصورة تماما بمجرد ان تطلق الطلقة الاولى ، ولكن هل من الضروري أن يبلغ أي منهم بالأمر قبل اطلاق الطلقة الأولى ؟

كان أهم قرار هو القرار الخاص بما يجب اتخاذه بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي . وقد تباحثنا في ذلك كثيرا ، وانتهى الرئيس إلى ضرورة ابلاغهم على نحو ما بالامر مقدما ، واعددت بعد ذلك صيغة رسالة إلى بريجنيف ، كما أعددت في ما بعد صيغ مطابقة لكل من تيتو والسيدة غاندي ، وثلاثة مثلها لهيث وبرانت وبومبيدو ، على أن ترسل كلها بعد بدء العمليات العسكرية . أما بالنسبة إلى الأمم المتحدة ، فقد كان المتوقع أن يكون السناريو على الوجه التالى : تصل أنباء القتال إلى نيويورك . يدعى مجلس الأمن إلى الاجتماع . تعرض مصر قضيتها . وعليه اصدر الرئيس تعليماته إلى مكتب السيد حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي بأن يعد مذكرات لتقديمها إلى مجلس الأمن والجمعية العامة .

على أن أيا من هذه الرسائل لم تسلم في النهاية إلى أصحابها . فلم يتذكرها أحد وسط زحمة الأحداث وحماستها . وبدا من الأسهل كثيرا استدعاء السفراء في القاهرة وابلاغهم بما كان من الواجب وقتها ابلاغهم به .

وثمة أمر واحد أكد الرئيس عليه بصفة خاصة في مجرى حديثنا . ذلك

هو غضبه مما وصفه بـ « العجرفة غير المحتملة » من جانب الاسرائيليين .
وكان في ذلك الصباح ، قرأ في الصحف تصريحات للجنرال ديان عن انشاء ميناء ياميت على الأراضي المصرية عند حدود قطاع غزة المحتل .
وقد كان من بين هذه التصريحات قول ديان : « انظر إلى ذلك . . . » . وقال الرئيس : « لو كان علينا أن نحارب لمجرد هذه الجملة ومـاتعنيه من حماقة القوة ، لوجب علينا أن نحارب » .

ولقد كان هناك قرار حكيم جداً اتخذه الرئيس في ذلك الوقت ، وهو الا يذهب إلى مقر قيادة العمليات في القيادة العسكرية ، الا إذا طلب اليه ذلك بصورة محددة . وقال ان القائد الاعلى لقوات البلاد المسلحة مدني ، وهو إذ يذكر مآسي العام ١٩٦٧ فانه بدا مصمما على أن يتولى العسكريون المحترفون إدارة عملياتهم بأنفسهم . لقد كان وجود المشير عبد الحكيم عامر في منصب القائد العام للقوات المسلحة في العام ١٩٦٧ راجعا لاعتبارات سياسية أكثر منه لاعتبارات عسكرية . ولم يكن مفروضا ولا كان متصورا له يقود عمليات عسكرية . ذلك ان دراسته العسكرية توقفت عندما وصل إلى درجة الرائد . وفي هذه المرة ، فان الرئيس سيكون مع القيادة في المراحل الأولى من المعركة حتى يظهر بوضوح أن المسؤولية السياسية مسؤوليته ، ثم يتركهم بعد ذلك ولا يعود اليهم ، الا إذا كانت قرارات حاسمة لابد من اتخاذها .

كذلك فان الرئيس اتجه إلى تشكيل عدد من اللجان المتخصصة . وقد تصور أن تكون هناك لجنة للشؤون الخارجية يرئسها الدكتور محمود فوزي مهمتها الاتصال بالحكومات الاجنبية ، وبها قسم خاص للاتصال بالصحافة الاجنبية . وتصور أن تكون هناك لجنة برئاسة حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية وممدوح سالم وزير الداخلية لشؤون الدفاع المدني والاغاثة ، وتصور لجنة أخرى برئاسة سيد مرعي مساعد رئيس الجمهورية مهمتها ضمان سريان الحياة في البلاد بصورة طبيعية قدر الطاقة ، وتصور لجنة غيرها برئاسة محمود رياض الامين العام لجامعة الدول العربية مهمتها تعبئة الرأي العام العربي ، وخاصة بالنسبة إلى اية اجراءات محتملة ضد المصالح الأمريكية .

وكانت الفكرة ان تعمل هذه اللجان من قصر الطاهرة الذي تقرر ان يكون مقر القيادة السياسية للرئيس . وهذا القصر بناه محمد طاهر باشا أحد ابناء عمومة الملك فاروق ، وقدمه الملك فاروق هدية زفاف إلى الملكة فريدة زوجته الاولى . فلما قامت الثورة أصبح القصر قصرا للضيافة ، وعاش فيه عبد الناصر في صيف سنة ١٩٥٦ ، حين اعلن تأميم قناة السويس حتى تنتهي الاصلاحات التي كانت تجري في منزله في منشية البكري . وقد ادخل فيه الكثير من الاجهزة التكنولوجية حين قرر الرئيس

السادات أن يتخذ منه مقرا لقيادته ، منها ثلاث أجهزة للاتصال المباشر بالقيادة في الميدان ، والاتصال المباشر بالرئيس الاسد في دمشق ، وبالرئيس القذافي في طرابلس . ومع ذلك ، فلم يستخدم أي جهاز من هذه الأجهزة خلال المعركة ، كما لم تشكل في الواقع أي لجنة من اللجان التي سبق ذكرها لكي تؤدي مهمتها المقررة لها ، لأسباب منها أنه كان على بعض اعضائها البارزين ان يؤدوا مهمات ثقيلة عاجلة في مواقع اخرى ، ومنها ان الرئيس رأى في النهاية ان وجود عدد كبير من اللجان سيكون عبئا على اكتافه اكثر منه عونا .

وفي يوم أول اكتوبر (تشرين الأول) وصل إلى القاهرة الرائد عبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا . استقبله الرئيس في الصباح ، لكنه لم يذكر له أي تفاصيل محددة عن موعد العملية المقبلة ، وان كان طلب منه الاسراع في ارسال الأسلحة التي وعدت ليبيا بارسالها ، ومنها القذائف المضادة للمدرعات والقذائف المضادة للطائرات . ولتأكيد الحاجة الملحة إلى الاسراع في ارسالها اتصل الرئيس مرة اخرى بجلود ، وهو يستعد لركوب طائرته في الساعة الثالثة بعد الظهر عائدا إلى طرابلس ، وقال له : « ان ما تحدثنا في شأنه في الصباح يجب ان يصل بأسرع وقت ممكن . انها مسألة ساعات . فلا تتأخر » .

وكنت مع الرئيس حين اتصل بجلود تلفونيا . واجرى الرئيس الاتصال في الشرفة امام غرفة نومه في منزله في الجيزة . كان الرئيس صائما ، يجلس على مقعد مريح ، ويرتدي البيجاما وفوقها « روب دي شامبر » بني اللون . وقال لي الرئيس بعد ان فرغ من محادثته : « لا أريد أن اغالي بما لدي . . ولكن أمامنا الأن نقطة لم نتخذ فيها قرار بعد وهي : السوفييت » . قلت اني ارى انه لابد من ابلاغ السوفييت بطريقة أو بأخرى ، حتى ولو بأسلوب غامض . وكان الرئيس بدوره مقتنعا بأن عليه ان يخبرهم مقدما ، ولكن من دون ذكر أي تفاصيل عن الموعد . وكان تبريره لذلك انه وان كان واثقا من انهم لن يبلغوا الامريكيين اية معلومات في هذا الصدد ، فانه بمجرد ان يبدأ القتال ويتضح انهم كانوا يعلمون بكل شيء عنه ، سيوضعون في مركز حرج امام الامريكيين ، وليست هناك حاجة الى احراجهم . ومع ذلك فانهم إذا كانوا ـ لسبب من الاسباب ـ لايريدون للقتال ان ينشب في ذلك الوقت فقد يعطون الامريكيين اشارة بذلك . ومن ناحية اخرى فانهم سيظنون انهم يخدمون مصر إذا اتصلوا بالامريكيين وطلبوا اليهم ان يضغطوا على الاسرائيليين « لتحسين سلوكهم » . ولم يكن الأمر واضحا على الاطلاق بالنسبة الى احد في ما يختص بالمدى الذى اليه الوفاق بين القوتين « العظمين » ، ولا لاسلوب المتبع في شأنه .

وهكذا قرر الرئيس ان يستقبل السفير السوفييتي فلاديمير فينوجرادوف ، وان يبلغه تحذيرا عاما ان خرق وقف اطلاق النار أصبح امرا محتملا والا يقدم اليه بأي صورة من الصور أي معلومات محددة عن التواريخ . ورفع سماعة التليفون وطلب من سكرتيره أن يتصل بالسفير السوفييتي ويبلغه ان الرئيس ينتظره في نحو الساعة السابعة . وحين جاء السفير قال له الرئيس انه لم يعد في استطاعتنا ان نتحمل العجرفة الاسرائيلية أكثر من ذلك ، واشار الى تصريح ديان في شأن ميناء ياميت . ثم قال : « وربما نجد انفسنا مضطريين الى التحرك بسرعة » . وقال السفير السوفييتي ما يقوله السفراء السوفييت عادة : « سأبلغ موسكو » . فقال الرئيس : « ارجو ان تبلغ ذلك لبريجنيف فقط » . فرد فينوجرداوف : « اظن اني اعرف ـ ومن دون حاجة الى انتظار رد بريجنيف ـ ما سيقوله . انه سيقول ان القرار قراركم ، واننا ـ كأصدقاء ـ سنبذل كل ما في وسعنا لمساعدتكم » . وقال الرئيس : « قل لبريجنيف ان الايام المقبلة ستكون اختبارا حقيقيا وعمليا للمعاهدة السوفييتية ـ المصرية » . وعند هذه النقطة بدأ فينوجرادوف يسجل مذكرات .

وبعد أن انتهى الرئيس من لقاء السفير السوفييتي ثارت مسألة ما إذا كانت هناك ضرورة لابلاغ الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الذي كان في ذلك الوقت موجودا في نيويورك لحضور جلسات الجمعية العامة للامم المتحدة . (وفي واقع الامر ، فان اسماعيل فهمي وزير السياحة والمفروض أن يقوم بأعمال وزير الخارجية في غياب الدكتور الزيات في تلك الاثناء كان في طريقه إلى فيينا يحمل رسالة إلى المستشار كرايسكي الذى كان يعرفه معرفة شخصية ، منذ كان سفيرا لمصر في النمسا . وهكذا ، فانه حين نشبت الحرب لم تكن لجنة الشؤون الخارجية المقترحة قد قامت بالفعل) . وتقرر بعد مناقشة ، عدم ارسال أية رسائل اليه . وقد قدم اقتراح بايفاد رسول اليه حتى لا يفاجأ تماما عندما يبدأ القتال ، ولكن الاقتراح رفض بعدما تلقى الرئيس برقية من الزيات يوم ٣ اكتوبر (تشرين الأول) يقول فيها ان كيسينجر طلب أن يجتمع معه يوم الجمعة ٥ أكتوبر (تشرين الأول) لمناقشته حول الموقف بصفة عامة . وكان الرأي أنه إذا اطار رسول إلى الزيات يوم الاربعاء بحيث يصل إلى نيويورك يوم الخميس ، فان ذلك يعني أن الزيات سيذهب إلى الاجتماع مع كيسينجر وهو على علم إلى حد ما بما يوشك أن يحدث ، وفي ذلك ما يسبب له ارهاقا شديدا . وهكذا تقرر ان يبقى الدكتور الزيات في الظلام . . بل حتى ان يستخدم كمصدر بريء للخداع . ومن الطبيعي ان الزيات لم يكن في مابعد سعيدا بما جرى .

وفي ذلك اليوم نفسه دعا الرئيس السادات مجلس الأمن القومي ـ وهو

هيئة سياسية تضم ، الى جانب الرئيس ، نائبي الرئيس ، واثنين من مساعديه ، ونواب رئيس الوزراء ، ووزير الحربية ، ومدير المخابرات العامة ، كما يضم في العادة مدير المخابرات الحربية ـ الى اجتماع عقد في غرفة الطعام في منزل الرئيس بالجيزة في الثامنة والنصف مساء (كان ذلك في شهر رمضان حيث يستمر الصيام إلى المغرب) واوضح فيه الرئيس انه قد يصبح من الضروري في المستقبل القريب ان نخرق وقف اطلاق النار . وسئل الرئيس عن نوع المعركة التى يتوقع ان تنشب كنتيجة لذلك فأجاب بانه يتوقع ان تكون معركة محدودة . وحاول بعض الحاضرين ان يفهموا منه بتحديد اكثر ما يعنيه بالمعركة المحدودة . وعندئذ انبرى الدكتور محمود فوزي نائب الرئيس ، فضرب مثلا على ذلك بالفارس الياباني « الساموراي » الذي كان يحمل دائما سيفين احدهما طويل والآخر قصير ، وقال : « اظن اننا سنستخدم سيفنا القصير » .

وسئل الرئيس ايضا عما إذا كان يعتقد أن البترول سيستخدم كسلاح في المعركة . وكان رده انه لا يظن ان في استطاعته ان يتقدم سلفا بأية مطالب من الدول العربية المنتجة للبترول ، وان اي مطلب من جانب مصر سيلقى الاستجابة بمجرد ان يبدأ القتال . كذلك ، تحدث الرئيس قليلا عن الوفاق الدولي ، مشيرا إلى ما يبدو من أن القوتين العظميين قد توصلتا الى اتفاق في شأن كل المسائل بما في ذلك أزمة الشرق الأوسط ، وهو ما يجعل هذه الفرصة فرصة اخيرة للقيام بعمل من جانبنا .

وفي اليوم التالي كان الدور للعسكريين . فقد دعا الرئيس المجلس الاعلى للقوات المسلحة (مجلس الحرب) الى الاجتماع . وهذا المجلس يضم وزير الحربية ، ورئيس الأركان ، ومدير العمليات ، وقائد السلاح الجوي ، وقائد البحرية ، ورؤساء كل ادارات الخدمات . وكان بعض الحاضريين بطبيعة الحال يعرفون كل ـ أو تقريبا كل ـ خطط « بدر » ، اما الباقون فكانوا يعرفون ان العد التنازلى قد بدأ ، وان كانوا لا يعرفون كيف أو متى سيبدأ القتال .

وفي هذا الاجتماع قرأ الرئيس على كبار الضباط توجيهاته بالنسبة إلى المعركة . وكان الرئيس قبل الاجتماع مباشرة قد استدعى أحد سكرتيريه ، وطلب اليه ان يأتي بآلة كاتبة وأملى عليه توجيهاته . وكان السكرتير كمن لا يصدق ما سمعته اذناه . وقد شكر الرئيس سكرتيره بعدما انتهى من املائه ومنحه علاوة .

وقد تضمنت التوجيهات عرضا للجهود التي بذلتها مصر للوصول إلى حل سلمي لمشكلة الشرق الأوسط ، واعاد شرح الكثير مما شرحه لي في استراحة كينج مريوط ، وقال انه إذا كان لا مفر من العودة الى استخدام السلاح ، فلابد أن يحدث ذلك الان لا في ما بعد . فاستراتيجية اسرائيل تستهدف ان تجعل العالم كله ـ بما فيه نحن أنفسنا ـ يعتقد ان من العبث

بالنسبة إلى العرب ان يحاولوا تحديها ، ولابد لهم من ان يقبلوا أي شروط للتسوية تريد أن تفرضها عليهم . ولذلك فلا مفر من أن نثبت خطأ هذه الاستراتيجية . وقال الرئيس: «أنى اعتقد أنه اذا أمكن أن نتحدى بنجاح نظرية العدو القائمة على أساس تفوق قواته الدائم، فان الآثار القريبة المدى والبعيدة المدى التى ستترتب على ذلك سوف لاتعد ولا تحصى . أنها ـ على المدى القصير ـ ستجعل فى الامكان الوصول الى حل مشرف لمشكلة الشرق الاوسط ، كما أنها ستؤدى ـ على المدى الطويل ـ الى تعديلات متصاعدة فى السيكولوجية العدوانية للصهيونية ».

وفى هذا الاجتماع الثانى سأل الرئيس عما اذا كانت هناك أيه اشارة الى أن فى اسرائيل أى ادراك لتحركاتنا ، وتلقى على سؤاله ردين مختلفين . الأول يقول أنه حيث أن الجنرال جونين القائد الاسرائيلى للجبهة الجنوبية قد زار فى صباح ذلك اليوم مواقع متقدمة فى سيناء، فقد تحمل هذه الزيارة معنى ادراك تلك التحركات . أما التقرير الثانى، فقد أوضح أنه ليس هناك أى تغيير فى توزيع قوات العدو، وهو ما يحمل معنى عدم الأدراك .

واعرب الفريق الشاذلى رئيس الاركان المصرى عن رأيه فى أننا نسبق الاسرائيليين ، وقال أنهم حتى لو ادركوا فى تلك الليلة نيتنا للهجوم، فإن تعبئتهم لن تتم قبل أن يبدأ الهجوم . ثم قدم تحليلا مفصلا عن القوات التى يمكن اسرائيل تعبئتها خلال اليومين الاولين، رأى فيه الرئيس السادات ما يدخل الطمأنينة الى القلب .

واذكر أننى سألت الرئيس مرة عما اذا كان يعتقد أن فى امكاننا أن نفاجىء العدو، فرد بقوله :«استراتيجيا لا . . بسبب الجبهة الواسعة جدا التى سنهاجم فيها. أما تكتيكيا . . فنعم نستطيع ذلك ». والحقيقة أننا استطعنا أن نفاجئهم استراتيجيا وتكتيكيا .

ومما يمكن استخلاصه من «لجنة اجرانات» التى شكلتها الحكومة الاسرائيلية للتحقيق فى الاحداث التى ادت الى حرب اكتوبر (تشرين الاول) ، فليس من اشارة الى أنه كانت لدى الاسرائيليين أيه فكرة عن استعداداتنا طوال الفترة التى تمت فيها . ومن الغريب حقيقة أن نرى كيف أن التفكير الرسمى الاسرائيلى على كل المستويات المدنية والعسكرية كان مأخوذاً باعتقاد جازم أن مصر لن تحارب . وكان الاستثناء الوحيد تقريباً ـ بحسب ما جاء فى تقرير اجرانات ـ هو التحذير الذى وجهه الجنرال ديان وزير الدفاع الى هيئة الاركان العامة يوم ٢١ مايو (ايار) وقال فيه :«نحن ، اعضاء الوزارة نقول للاركان العامة : أيها السادة استعدوا للحرب من فضلكم . . ضد اولئك الذين يهددون بشن الحرب وهم مصر وسوريا . . . . . . وعلينا أن نضع فى الحساب أن تجدد القتال يمكن أن يحدث فى نهاية الصيف » .

ومع ذلك فان اسرائيل عاشت قبل ذلك فى اوائل شهر مايو (ايار) فى خوف زائف عقب الاجتماعات العسكرية التى تمت فى مصر والتى تم فيها (وهذا بطبيعة الحال شىء لم يستطيعوا أن يعرفوه) وضع خطة عملية بدر . فقد اصدر الاسرائيليون عندئذ قرار لاضرورة له الى التعبئة، وكلفهم ذلك اموالا كثيرة ، وبعدها بدوا وكأن اهتمامهم قل بالتطورات الجارية على الجانب الآخر من القناة .

ويجب الاعتراف بأن الجنرال ديان انتقل الى الجبهة الشمالية يوم ٢٦ سبتمبر (ايلول) عقب اشارة تحذير من الجنرال اسحق هوفى قائد تلك الجبهة يعرب فيها عن عدم ارتياحه للتعزيزات السورية، واصدر اوامره بتعزيز الدبابات والمصفحات ، لكنه اجل اتخاذ أى اجراء آخر الى ان يستشير جولدا مائير رئيسة الوزراء ، وكانت فى ذلك الوقت فى فيينا ترجو المستشار النمسوى الدكتور كرايسكى أن يوقف قراره باغلاق معسكرات النمسا فى وجه المهاجرين اليهود المتجهين من روسيا الى اسرائيل . والواقع أن اهتمام الاسرائيليين كلهم ، ابتداء من رئيسة الوزراء فنازلا ، كان مركزا على فيينا ، الى حد عدم الاهتمام الكامل بما يجرى عبر القناة . وفى ذلك اليوم نفسه فقط . . يوم الثلاثاء . . عادت مسز مائير الى اسرائيل من فيينا .

وقد اشار الرئيس السادات فى توجيهاته الى نشاط منظمات المقاومة الفلسطينية . وفى يوم الاثنين هذا، وصل عدد من ضباط المقاومة ونحو ١٢٠ من رتب اخرى الى القاهرة للاشتراك فى المعركة . وقد جاؤوا بدعوة كان الرئيس وجهها الى منظمة «فتح» قبل ذلك ببضعة اسابيع يطلب فيها الاجتماع ببعض كبار المسؤولين . وفى لقائه بهم اوضح الرئيس لصلاح خلف (أبو اياد) وفاروق قدومى (أبو اللطف) أن الموقف متوتر جدا ، وأن مصر مضطرة الى تنشيط جبهة القناة، وفهما من الحديث أن ما تعتزمه مصر هو استئناف حرب الاستنزاف ، وأن مهمة المقاومة ستكون على الارجح الاشتراك فى عمليات فدائية داخل سيناء .

وللمناسبة ، ففى هذا اليوم نفسه، الثانى من اكتوبر، (تشرين الأول) وقعت واحدة من تلك الحوادث السخيفة غير المتوقعة لخرق ستار السرية، كان من الممكن أن يترتب عليها افساد العنصر الباقى من عناصر المفاجأة . ففى ذلك اليوم ، نشرت وكالة أنباء الشرق الاوسط نبأ يقول أن الجيشين الثانى والثالث ـ وهما الجيشان اللذان أوكلت اليهما مهمة شن الهجوم عبر القناة ـ قد وضعا فى حالة تأهب. وكان المفروض أن يصدر هذا الخبر فى نشرة خاصة محدودة ترسل الى عدد قليل جداً من كبار المسؤولين ، لكنها ـ نتيجة خطأ من محرر الآلة الكاتبة ـ ارسلت على كل آلات «التيكرز» والى جميع المشتركين . وحدثت ضجة شديدة اعقبها قرار

بخفض درجة مدير الوكالة . ومع ذلك لم يترتب على نشر النبأ أى ضرر.

وامضى الرئيس صباح يوم الاربعاء ٣ اكتوبر (تشرين الاول) فى وضع اللمسات الأخيرة للخطط السياسية والعسكرية وللبلاغات التى تقرر اصدارها. وقدم له حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومى مسودات البيانات التى ستلقى باسم مصر فى مجلس الأمن، والتعليمات التى سترسل الى الدكتور محمد حسن الزيات فى نيويورك عقب بدء القتال مباشرة . (وقد ذكر تقرير لجنة اجرانات ان جولدا مائير قضت الصباح فى تقديم تقرير الى وزرائها عن مهمتها فى فيينا) .

وفى الصباح نفسه امكن العثور على الذريعة التى ستتخذها مصر بدءا للقتال . كان توتر الموقف يتصاعد ويشتد على كل الجوانب، وتقرر التذرع بالادعاء أنه وسط هذا التوتر كله قام الاسرائيليون بهجوم على الزعفرانة فى البحر الاحمر. وكان التوقيت قد اصبح الآن واضحا من الناحيتين السياسية والعسكرية . وكان القرار ان يقطع راديو القاهرة ارسال البرامج العادية فى الساعة الاولى والنصف من بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ليذاع منه نبأ يقول: «جاءنا الآن أن عناصر من القوات الاسرائيلية المسلحة هاجمت مواقعنا فى الزعفرانة. وهذا الهجوم يمثل خرقا خطيراً لوقف اطلاق النار، وقد ابلغ الامر مجلس الأمن». وبعد اذاعة النبأ يستأنف الراديو اذاعة البرامج العادية ، على ان تقطع فى الساعة الثانية لتبدأ اذاعة المارشات العسكرية لمدة ١٠ دقائق ، تعقبها اذاعة نبأ عن رد مصر على العدو الذى لايحترم قرارات مجلس الأمن أو الرأى العام العالمى، ثم عودة الى مزيد من المارشات العسكرية حتى الساعة الثانية والنصف حيث تبدأ نشرة الاخبار بانباء عن الهجوم الاسرائيلى، ومذكرة مصر الى مجلس الأمن، ورد مصر على الهجوم. وبعد قراءة خبرين عاديين يقطع المذيع القراءة ليعلن : « تلقينا على الفور البيان التالى : بدأت الآن عمليات عسكرية واسعة النطاق ، وتوجه الرئيس انور السادات القائد الاعلى للقوات المسلحة الى مقر قيادة الجيش ليتولى الاشراف عليها بنفسه ». وكان هذا هو البلاغ الاول عن الحرب.

وفى اليوم نفسه . . الاربعاء . . طار الفريق أول احمد اسماعيل وزير الحربية واللواء بهى الدين نوفل رئيس هيئة اركان حرب القيادة الاتحادية من القاهرة الى دمشق ، واضطرا وسط خطورة الموقف الى تجاهل مبدأ أساسى من مبادىء الأمن بعدم سفر اثنين من كبار الضباط على طائرة واحدة. وكان لرحلتهما هذه هدفان : ابلاغ السوريين اختيار ٦ اكتوبر (تشرين الاول) لبدء حملة «بدر»، والوصول الى اتفاق نهائى فى شأن الساعة التى يبدأ فيها الهجوم . وكان اللواء نوفل قد اتصل بالفريق أول احمد اسماعيل قبل ذلك بيومين ملحا على ضرورة ابلاغ السوريين على

الفور اختيار يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) حتى تتوافر لهم الأيام الخمسة التي وعدوا بها لتفريغ معامل التكرير في حمص. ورأى الفريق أول احمد اسماعيل أن هذا القرار من الخطورة الشديدة بحيث لايمكن ارساله باللاسلكى حتى ولو بالشيفرة. وكان من المقرر أن يسافر هو نفسه الى دمشق في اليوم التالى (الثلاثاء)، واقترح أن يصحبه اللواء نوفل في رحلته ، لكن الرحلة تأخرت يوما آخر . . . الى يوم الاربعاء .

وفي دمشق اجتمع الاثنان مع اللواء طلاس واللواء شكور . وحين ابلغاهما قرار موعد بدء عملية «بدر» ابدى اللواء شكور ضيقاً، واحتج بأن في ذلك خرقاً للوعد الذى قطع لهم بمنحهم فترة خمسة أيام كاملة لتفريغ معامل التكرير في حمص ، وقال أنه من المستحيل أن تبدأ سوريا بالهجوم يوم ٦ ، ولابد من التأجيل يومين، كما ابدى قلقه البالغ من النبأ الذى اذاعته وكالة أنباء الشرق الأوسط عن وضع الجيشين الثانى والثالث في مصر تحت التأهب. ورد الفريق أول احمد اسماعيل بأن أى تأجيل سيكون في غاية الخطورة ، ذلك أنه حتى لو فرض أن اسرائيل لم تلتقط نبأ وكالة انباء الشرق الاوسط ، فان من الممكن في أية لحظة أن تنتبه الى التصاعد الشديد في الاستعدادات المصرية في جبهة القناة، بعدما بات من المتعذر اخفاؤها، وأملنا الاكبر أن نهاجم باسرع وقت ممكن، فكل يوم يتأجل يتيح للعدو فرصة ٢٤ ساعة اخرى يحسن استخدامها . وهنا قال القائدان السوريان ، أن هذا خلاف لايمكن أن يحله الا الرئيس الاسد.

وبالنسبة الى الساعة التي يبدأ فيها الهجوم ظل اللواء شكور متمسكا بأن يبدأ السوريون هجومهم مع ضوء الفجر الاول، بينما ظل المصريون الذين تدربوا على القتال ليلا متمسكين ببدء الهجوم بعد الظهر . وقد حاول الفريق أول احمد اسماعيل اقناع اللواء شكور بأن الفجر هو بالضبط الفترة التي يرجح ان يتوقعها الاسرائيليون للهجوم عليهم، لذلك فان من الافضل جداً بالنسبة الى الهجوم عبر القناة الانتظار الى ان تصبح الشمس في اعين العدو. (وكل وجهات النظر هذه كانت في الحقيقة نوقشت من قبل). وعند هذه النقطة تدخل اللواء نوفل ليقول أنه اذا بدأت الطائرات السورية غاراتها المقررة على مطارات «رامات دايفيد» و«عقير» فان الطيارين قد يجدون اهدافهم مغطاة بالضباب . . . وهو ما ثبتت صحته بعد ذلك .

وهكذا تقرر أن تعرض النقطة الثانية ـ ساعة بدء الهجوم ـ على الرئيس الاسد أيضاً. وفي الاجتماع مع الرئيس الاسد عرض الجانبان وجهات نظرهما ، مع تأكيد من جانب الفريق أول احمد اسماعيل أنه اذا فاتت هذه الفرصة فسيمضى وقت طويل قبل أن يمكن تنسيق العمل على الجبهتين في مثل هذه الظروف المؤاتية . وكان مما قاله : «أننا نقوم

بمخاطرة .. لكنها مخاطرة محسوبة»، واقترح - كحل وسط - أن يبدأ الهجوم فى الساعة الثانية بعد الظهر .

وقال الرئيس الاسد أنه لايود أن يتسبب فى أيه تعقيدات فى اللحظة الاخيرة، وأضاف : «أنى موافق على يوم ٦ ، وموافق على البدء فى الساعة الثانية بعد الظهر، لأنها تهيىء لكل منا بعض المزايا». وقال اللواء شكور أن حماسة السوريين بالنسبة الى المعركة لم يتأثر على الاطلاق بالغيرات التى حدثت، واضاف: «اذا حدث فشل على الجبهة المصرية فانه سيكون بمثابة نهاية العرب، ونهاية سوريا أيضاً. اما اذا حدث الفشل على الجبهة السورية ، فلن يكون فى ذلك النهاية. أن آمالنا كلها معلقة على مصر».

وسأل الرئيس الاسد القائدين عما اذا كانا يظنان أن الاسرائيليين سيضربون المدن، وما اذا كنا نحن سنضرب المدن حتى لو لم يضربوها هم . ورد الفريق أول احمد اسماعيل بأننا مستعدون ، وقال: اذا ضربوا مدننا فاننا سنضرب مدنهم ». وقال اللواء شكور: «نصيحتى.. وللتاريخ .. أن نتجنب ضرب المدن بقدر الطاقة»، ثم اعاد تأكيداته على أن تبذل سوريا كل مافى وسعها لضمان النجاح على الجبهة المصرية، وقال: «اذا سقطت دمشق فان من الممكن استعادتها ، اما اذا سقطت القاهرة، فان الامة العربية كلها ستسقط ».

واتفق فى الاجتماع على الا يسافر الفريق أول احمد اسماعيل واللواء نوفل مرة اخرى على طائرة واحدة، وعلى ان يعود اللواء نوفل عن طريق عمان لأبلاغ الاردنيين تحذيرا بقنعا بالنسبة الى خطورة الموقف . وقد اجتمع برئيس الاركان الاردنى فى عمان ، وابلغه أن لدى مصر معلومات أن الاسرائيليين يعبئون قواتهم ، وانهم ربما كانوا يخططون لشىء ضد سوريا، ونصح الاردنيين باعلان حالة التأهب والاستعداد لأى احتمال . كذلك فانه انتهز فرصة وجوده هناك ليتفق على شيفرة جديدة للاتصال مع عمان .

وطبقا لما يقوله تقرير لجنه اجرانات فانه فى الوقت نفسه من يوم ٣ اكتوبر (تشرين الاول) الذى كان فيه الرئيس الاسد مجتمعا بالفريق أول احمد اسماعيل فى دمشق ، كانت جولدا مائير - وقد عادت من فيينا - قد دعت الى اجتماع حضره آلون وجاليلى وديان والبريجادير جنرال آريي شاليف نائبا عن الجنرال زاعيرا مدير المخابرات الحربية الذى كان يومها يشكو من الانفلونزا. وفى هذا الاجتماع عرض شاليف تقريرا للمخابرات ينتهى بأن «امكان شن حرب من جانب المصريين والسوريين امر غير محتمل فى نظرى ، لأنه لم يحدث أى تغيير بالنسبة الى تقييم لموقف القوات فى سيناء يدفعهم الى شن الحرب». ولم يكن بين الحاضرين من

اختلفت وجهة نظره مع هذا التقييم . وفى نهاية الاجتماع قررت جولدا مائير أن تضع مسألة الأمن على الحدود فى جدول اعمال الاجتماع العادى لمجلس الوزراء المقرر انعقاده يوم ٧ اكتوبر (تشرين الاول) .

وحين عاد الفريق أول احمد اسماعيل الى القاهرة مساء يوم الاربعاء، دعا كبار الضباط الى اجتماع شرح فيه نتائج محادثاته فى دمشق ، وسأل عما اذا كانت هناك أية دلائل على أن العدو ادرك حقيقة ما يحدث. وأجيب عن سؤاله بأنه ليس هناك شىء ايجابى يمكن ان يقال فى هذا الشأن لكنه مع ذلك اصدر امرا آخر يستهدف تعزيز صورة الخداع . . واتفق على ان يعود بعض جنود الاحتياط الذين استدعوا فى سبتمبر (ايلول) للاشتراك فى مناورات «تحرير ٢٣» الى بيوتهم ، على ان يكونوا فى مواقعهم مرة اخرى يوم ٦ .

وكان من بين لمسات خطة الخداع واحدة من نصيب صحيفة «الاهرام». فقد اعطى مندوبها العسكرى نبأ صغيراً يقول أن القائد العام أعد قائمة ليسجل فيها من يود من الضباط السفر للعمرة اسمه . وحين رأيت النبأ فهمت ما يعنيه . وقلت للفريق أول احمد اسماعيل : « لابأس . ان معنى ذلك اننا سنصبح كذابين . لكنى اقبل ذلك من اجل خاطرك». وبعد ذلك ، وحيث كان من المعروف ان الاسرائيليين يحصلون يوميا على نسخة مبكرة من «الاهرام» عن طريق قبرص ويدرسونها بعناية، فقد طلب الى «الاهرام» أن تنشر نبأ آخر يقول أن وزير الحربية يستعد لأجتماعه مع وزير الدفاع الرومانى الزائر لمصر يوم ٨ اكتوبر (تشرين الاول) . وكانت المخابرات هى التى كتبت النبأ ، واتفق على ان يصدر منسوبا الى مندوب «الاهرام» العسكرى الذى يكتب مقالا عن تصعيد الاسرائيليين للموقف على الجبهة الشمالية محذراً الاسرائيليين بأنهم يلعبون بالنار لأن مصر لن تقف موقف المتفرج الخ . . . وكان ذلك كله جزءا من الجو العام لتعزيز الخطة من دون تقديم شىء يمكن أن يكون ذا فائدة حقيقية للعدو .

كذلك فان الفريق أول احمد اسماعيل اصدر اوامره بأن يعدل تقدم مناورات «تحرير ٢٣» لتتفق مع متطلبات الموقف المتصاعد على الجبهة الشمالية ، خصوصا ان الكلام فى الصحف كان قد كثر فى كل مكان عن التوتر الذى اعقب المعركة الجوية فوق سوريا، وكان من شأن عدم اتخاذ أى أجراء فى هذا الشأن أن يثير الشكوك . وطلب من المخابرات تقديرا لعدد القوات التى يمكن اسرائيل ان توفرها للجبهة الاردنية فى حالتين: حالة اشتراك الاردن فى المعركة ، وحالة وضع قواته فى حالة تأهب فقط.

وعند هذا الحد لم يكن فى مصر من لايشعر بأن ثمة شيئاً وشيك الوقوع، وان لم تكن هناك أية اشارة الى أن الاسرائيليين يعرفون شيئاً. وبدا ذلك امرا غير مصدق . ومرة اخرى كانت هناك بعض القرائن

الواضحة التى يحتمل ان تقع فى يد اسرائيل . وعلى سبيل المثال فقد كانت هناك مادة كيماوية معينة ترش على ملابس الجنود لتحميهم من نار النابالم (لقد لقى عدد كبير جدا من الرجال عام ١٩٦٧ مصرعهم حرقا بالنابالم الذى استخدمه الاسرائيليون من دون تمييز ضد القوات المنسحبة بغير انتظام فى سيناء). وهذه المادة لاترش على الملابس الا مرة واحدة، وبالتالى تصبح الملابس عديمة الفائدة بعدها. ولهذا السبب، فانها لاتستخدم فى المناورات ابدا . ومع ذلك فقد صدر الامر باستخدامها فى ساعة مبكرة من صباح يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول).
ولدى الاسرائيليين ـ كما تعرف السلطات المصرية جيدا ـ هيئة تجسس نشطة تعرف باسم «متيكال» ، وتتكون من عدد من اليهود معظمهم من المصريين ـ يتكلمون اللغة العربية ـ تسللوا الى منطقة القناة وجهزوا بأدوات ارسال المعلومات الى اسرائيل . ومن المحتمل ان يكون هؤلاء الجواسيس قد ابلغوا رؤساؤهم ما حدث فهيأوا للقيادة الاسرائيلية العليا فترة تحذير مدتها ست ساعات على الاقل . كذلك فان القذائف التكتيكية نقلت الى منصاتها فجر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) . وكان هناك احتمال ان تكون عملية النقل هذه قد رصدت وابلغت الى الاسرائيليين أيضاً وزودتهم بالتحذير .

وعلى سبيل المثال أيضاً ، فان العديد من الملحقين العسكريين شاهدوا معدات انشاء الجسور تنقل عبر الطريق الخلفى قرب مطار القاهرة الى طريق السويس . والأخطر من ذلك أن مسؤولا كبيرا فى الخطوط الجوية المدنية المصرية بلغ به الاقتناع أن الموقف يتصاعد بدرجة قد تكرر معها اسرائيل ضربتها الجوية الوقائية فى العام ١٩٦٧ الى الحد الذى جعله يرسل عن طريق «التلكس» امرا الى كل طائراته فى الخارج يطلب منها أن تبقى حيث هى . وحيث أن مطار القاهرة يقع بالقرب من احدى القواعد الجوية ، فان هذا المسؤول ـ اضافة الى ذلك ـ اصدر امرا بالغاء كل الرحلات الجوية وباجلاء جميع الطائرات ، وبينها عدد من طائرات «البوينج» الجديدة التى كان لخوفه عليها مايبرره . وهكذا لم يجد مئات المسافرين الذين توجهوا الى المطار طائرات يسافرون عليها . وحين سمع الفريق أول احمد اسماعيل بالنبأ ساوره القلق، وطلب وزير الطيران المدنى ان تستأنف كل الطائرات رحلاتها العادية. ولكن كانت قد مرت عندئذ ست أو سبع ساعات . وكان هذا الاجراء من جانب مسؤول شركة الطيران المصرية ـ وان لم يكن فى وسعه بطبيعة الحال أن يعرف ذلك ـ مناقضا تماما لخطة الخداع العامة التى كان من بين ما تضمنته ان يستمر الضباط فى حضور كل الحفلات التى يدعون اليها ، وان يستمر الجنود فى السباحة فى القناة حتى آخر لحظة ، وهكذا . . .

وفي يوم الخميس ٤ اكتوبر (تشرين الاول) كان الرئيس السادات يستعد للانتقال من منزله في الجيزة الى قصر الطاهرة حين طلب السفير السوفييتي مقابلته على عجل. وقد حضر في نحو الساعة السابعة مساء يحمل معه رد بريجنيف على الرسالة التي سلمه اياها الرئيس يوم الاثنين . وكما كان متوقعاً فان بريجنيف اعرب عن وجهة نظره في ان القرار الخاص بأية عمليات قرار يتخذه الرئيس وحده، واضاف ان الاتحاد السوفييتي سيقدم اليه عون الصديق . لكن بريجنيف طلب أيضاً ان يسحب المستشارين المدنيين الروس واسرهم من مصر . وحار الرئيس في امر هذا الطلب ، لكنه وافق عليه غير راض عنه، وانتهز الفرصة ليؤكد على ضرورة الاسراع في ارسال بعض المعدات التي طلبتها مصر من الاتحاد السوفييتي ولم تصل .

وبعدما انتهت مقابلة السفير السوفييتي انتقل السادات الى قصر الطاهرة حيث ارتدى الملابس العسكرية ، وعقد اجتماعا اخيرا حضره نواب رئيس الوزراء ، ووزيرى الحربية والداخلية ، وحافظ اسماعيل ، واتفق خلاله على اجراء تعديلات جذرية في اللجان الخاصة التي كان من المقرر تشكيلها لمعاونة الرئيس . فقبل كل شيء كانت هناك رسالة من اسماعيل فهمي الموجود في فيينا يقول فيها ان المستشار كرايسكي طلب اليه البقاء لأنه يريد ان يجتمع به مرة اخرى بعد ظهر يوم الجمعة، ويسأل : هل يعود ام يبقى؟ وقد طلب منه الرئيس السادات الا يلغى هذا الاجتماع ،لأن التغيير قد يتسبب اثارة التعليقات . وهكذا فان وزير الخارجية ووزير الخارجية بالنيابة القائم باعماله في لجنة الشؤون الخارجية المقترحة سيكونان خارج القاهرة . وتقرر بعد ذلك الغاء لجنة الشؤون الداخلية بحيث تحل محلها مجموعة من داخل الوزارة نفسها برئاسة الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء. ونقل سيد مرعى من الجبهة الداخلية ليتولى الاتصالات مع الدول العربية ، كما عهد الى الدكتور عزيز صدقي الذى كان وزيرا للصناعة طوال سنوات عدة وله صلات طيبة بالحركة العمالية، أن يتولى مسألة المنشآت الاميركية في الشرق الاوسط . وكان المأمول ان تتعاون الدول المنتجة للبترول بالضغط على الاميركيين ، فاذا لم تتحقق هذه الآمال فقد يصبح من الضرورى التفكير في وسائل اخرى لممارسة الضغط .

ولقد كان من أهم المسائل التي شغلت الرئيس خلال الساعات القليلة الاولى لوجوده في قصر الطاهرة رد بريجنيف الذى حمله فينوجرادوف . كان الجزء الاول من الرد هو ماكان الرئيس يتوقعه ، وهو أن الروس تركوا قرار خرق وقف اطلاق النار له . لكن ما اثار حيرته هو الجزء الثاني من الرسالة ، وهو مطلبهم الخاص بالسماح لهم بسحب المستشارين

المدنيين الروس واسرهم . ومالذي يعنية ذلك؟ وهل في ذلك ما يحمل معنى انهم يخشون نتيجة المعركة؟ أو أن ذلك يعكس بعض جوانب توازن القوى العالمي؟ واذا كان ذلك هو السبب فهل يمكن ان يعني ذلك أن الروس لن يقدموا اليه العون الذي يتوقعه؟ وفي آخر الأمر أوى الرئيس الى فراشه في الساعة الرابعة صباحاً من يوم الجمعة ٥ اكتوبر (تشرين الاول) .

وفي هذه الاثناء كان المركز الرقم ١٠ اغلق تماما بالنسبة الى العالم الخارجي . كان على كل من كان يسمح له بالدخول ان يبقى داخله . . لا خروج مطلقا . فالكل عندئذ كان على علم بموعد المعركة واهدافها . ولم ينم احد من الموجودين في المركز الرقم ١٠ أو في المركز الرقك ٣ لفترة طويلة في تلك الليلة . الكل كان يسأل: « هل عرف الاسرائيليون؟» . وفي نحو الساعة التاسعة والنصف صباحا ارسلت طائرتان اسرائيليتان للإستطلاع والتصوير، لكنهما لم تدخلا المجال الجوي المصري لأن أجهزة كاميراتهما تستطيع التصوير من داخل سيناء . وقد التقطت القوات المصرية اشارات أجهزة الاستطلاع وايقنت ان الاسرائيليين لابد أن يكونوا قد عرفوا الآن على الاقل بوجود معدات الجسور والعبور الموجودة بالقرب من القناة. كذلك فانه بدا من غير الممكن انهم لم يعرفوا أن ٦ طائرات من طراز «اليوشن» قد هبطت بين الساعة السابعة من الظهر لتحمل المستشارين واسرهم ثم غادرت ارض المطار. وبازدياد التوتر، كنت تشاهد القرآن الكريم على العديد من مكاتب الضباط .

وفي تلك الليلة ـ ليلة الخميس / الجمعة ـ كان الاسرائيليون يتلقون سيلا متزايدا من المعلومات عن تحرك قواتنا ، لكنهم ـ بحسب ما يقول تقرير لجنة اجرانات ـ لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد تمكنوا من معرفة حقيقة ما يجري . وفي الوقت الذي اوى فيه الرئيس السادات الى فراشه، كان ديان يوقظ من نومه ليجتمع بالجنرال اليعازر رئيس الاركان . وقد قرر كلاهما أن يتوجها الى منزل جولدا مائير وطلبا من الجنرال زائيرا نائب مدير المخابرات أن يصحبهما ، وقدموا اليها صورة للموقف ، وقال اليعازر أنه قد يضطر الى وضع القوات المسلحة في حالة تأهب قصوى . وعلى رغم أنه لم يطلب اعلان التعبئة العامة، فانه اقترح الغاء الاجازات في الوحدات الجوية والمدرعة، وقال انه سيحشد المدرعات على الجبهتين . وقررت جولدا مائير ان تدعو مجلس الوزراء الى الاجتماع بعد الظهر، بحيث يتسنى لجميع الوزراء الوقت الكافي للحضور ، لكنها عادت فرأت أن الموقف اخطر من ذلك، ودعت اعضاء وزارتها الكبار الى اجتماع يعقد عند الظهر . وقد حضر هذا الاجتماع كل من بارليف وديان وحزاني وبيريز وجاليلي ورئيس الاركان ونائب مدير المخابرات الذي كان تقديره «أننا لا

نواجه حربا شاملة» ، وايده فى ذلك اليعازر . واتفق على عدم اصدار أمر بالتعبئة العامة الى ان يتوافر المزيد من الادلة عن نوايا العدو.

ويوم الجمعة ٥ اكتوبر (تشرين الاول) اجتمع الدكتور الزيات بثلاثة من وزراء خارجية الدول الغربية الموجودين فى نيويورك :كيسنجر وجوبير ودوجلاس هيوم. وقال له كيسنجر انه لم يبدأ بعد بحث «دوسيه» الشرق الاوسط وأن على المصريين أن يستعدوا لفتحه بعد انتهاء الانتخابات الاسرائيلية . وقال أيضاً أنه يأمل فى ان يستطيع القاء نظرة عليه قبل نهاية السنة . وقال له جوبير أنه آسف لأن مصر مستمرة فى اثارة المشكلة نفسها فى الامم المتحدة عاما بعد عام ، وأنه لا أمل فى أى تغيير ما لم يفعل المصريون انفسهم شيئا . امنا دوجلاس هيوم فلم يكن يرى أى عامل جديد فى الموقف ، ومن رأيه ان على المصريين أن يحاولوا التفاوض مع الاسرائيليين بعد انتهاء الانتخابات الاسرائيلية .

واحس الزيات بشعور من الانقباض فى اعقاب هذه المحادثات ، ونسى أنه كان مدعوا فى ذلك المساء الى حضور حفلة فى بيت الدكتور عصمت عبد المجيد مندوب مصر الدائم لدى الامم المتحدة اقامها تكريما له . وقد ذهب الى الحفلة بعد اتصال تلفونى يذكره بها . وهناك قال لمضيفه أنه لا يرى مبررا للحفلة ، واضاف: «لا استطيع أن اعرف ما نحتفل به الليلة . . الا أن يكون عيد الغفران : (يوم كيبور) !!

وهناك فى المركز الرقم ١٠ حدث بعد ظهر يوم الجمعة مشهد مؤثر بدأه الفريق أول احمد اسماعيل بحضور الرئيس السادات . فقد طلب من جميع الحاضرين ان يقسموا على القرآن القسم التالى : «نقسم بالله العظيم على هذا القرآن أن يبذل كل منا ما فى وسعه حتى النفس الآخير لننجز المهمة الملقاة على عاتقنا».

وفى تلك الليلة حضر الى بيتى الدكتور اشرف غربال مستشار الرئيس للشؤون الصحافية، وجلسنا معا فى غرفة مكتبى نراجع التفاصيل الأخيرة للبلاغات والمذكرات التى سرعان ما سنحتاج اليها . وكنا كذلك ننتظر وصول انباء من الزيات عما تم فى اجتماعه مع كيسنجر، لكن ذلك تأخر .

وفى تقرير أجرانات أن الساعة كانت الخامسة من صباح يوم ذلك السبت ٦ اكتوبر (تشرين الاول) حين تلقى ديان فى منزله مكالمة تلفونية (لم يذكر التقرير ممن كانت المكالمة) تبلغه أن احتمال حدوث هجوم فى يوم كيبور يجب أن يكون الآن امرا متوقعا حتما ، لكن المتحدث حدد موعد بدء الهجوم بالساعة السادسة لا الساعة الثانية . واتصل ديان بالجنرال اليعازر رئيس الاركان الذى اوصى باعلان التعبئة الكاملة حتى يمكن اتخاذ الاستعدادات للقيام بهجمات مضادة واسعة النطاق بعد ان يتم

احتواء هجمات العدو الاولى، بينما طلب ديان مجرد تعبئة قوات كافية لعمليات الدفاع فقط. وترتب على ذلك تأخير ساعتين فى انتظار قرار رئيسة الوزراء بالتعبئة العامة. وقد صدر القرار فى الساعة التاسعة والربع بعدما بحثت مسألة توجيه ضربة وقائية ورفضت . وتقول لجنة اجرانات أيضاً أن هذا القرار اتخذ لأسباب سياسية ، واعتقد شخصياً أن أى محاولة للقيام بضربة وقائية ضد مصر كان المفروض أن توجه لجدار الصواريخ ، لكن مثل هذه الضربة كانت ستفشل تماما من الناحية العسكرية ، فضلا عن انها ستكون محفوفة بالمخاطر من الناحية السياسية . فهى لم تكن ستؤثر على الاطلاق على خطة الهجوم المصرى . وقد استدعت جولدا مائير السفير الامريكى الى مكتبها فى الساعة العاشرة والنصف ، وعقدت اجتماعا لوزرائها فى الساعة الثانية عشرة . وقد وردت الانباء الاولى عن الهجوم المصرى وكان مجلس الوزراء لايزال منعقدا .

وقد اتصلت جولدا مائير بوزير خارجيتها أبا ايبان الموجود فى نيويورك بالتلفون فى نحو الساعة العاشرة و١٢ دقيقة (هناك دائرة تلفونية مغلقة بين وزارة الخارجية الاسرائيلية فى القدس والسفارة الاسرائيلية فى واشنطن ، لكن هذه الدائرة لم تستخدم فى هذا الاتصال لأن أبا ايبان كان يحضر جلسات الجمعية العامة فى نيويورك ويقيم فى فندق والدورف أستوريا فى نيويورك). وطلبت مائير الى ايبان ان يتصل بكيسنجر، وان يطلب الاجتماع بنيكسون ، ويقنع نيكسون بالاتصال بريجنيف عبر الخط التلفونى الساخن (المباشر) ويبلغه ان لدى الاسرائيليين دلائل قاطعة على ان المصريين على وشك أن يهجموا ، وانه اذا كان السبب فى ذلك هو ما نشرته الصحف العالمية عن الحشود الاسرائيلية ، فان فى استطاعته أن يؤكد لبريجنيف ان اسرائيل ليست لديها أى نية للهجوم. وعلى بريجنيف أن يبلغ هذه الرسالة للرئيس السادات . وقالت جولدا مائير لايبان أن كل دقيقة لها اهميتها .

وصباح السبت اتصل الرئيس السادات تلفونيا بالسفير السوفييتى من قصر الطاهرة ودعاه الى مقابلته فى الساعة الحادية عشرة والنصف. وكان الرئيس لايزال قلقا بالنسبة الى نوايا السوفييت . كانت الطائرات السوفييتية قد جاءت لتنقل المدنيين ، لكنهما لم تكن تحمل أيه معدات وقال الرئيس : «لقد كنتم فى منتهى السرعة بالنسبة الى المدنيين من ابنائكم ، لكنكم لم تكونوا بمثل هذه السرعة بالنسبة الى المعدات التى طلبتها ». وقال الرئيس بدوره ان كل دقيقة لها اهميتها . واذكر انى حين سألت فينوجرادوف فى ما بعد عما اذا كان قد فهم من هذه المحادثة التلفونية شيئاً مما كان فى الجو، اجاب أنه استنتج أن هناك عملية ما

على وشك أن تبدأ ، لكنه لم يدرك انها ستبدأ بعد ذلك بساعتين فقط . وعلى أية حال فانه اتصل ببريجنيف على الفور عن طريق وصلة تلفونية خاصة بين السفارة السوفييتية فى القاهرة وموسكو انشئت يوم اقيم نظام الدفاع السوفييتى فى مصر سنة ١٩٧٠ .

ولابد من القول أن مسألة توقيت هذه الاحداث والرسائل كلها مسألة هامة وموضع بعض الجدل . ففى مؤتمره الصحافى الذى عقده كيسنجر يوم ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) قال : «أن الأزمة بالنسبة الينا بدأت فى الساعة السادسة من صباح يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) حين ايقظت بالتلفون وابلغت أن حربا عربية - اسرائيلية قد بدأت ». ومن هذا يفهم ان القتال قد بدأ . لكن فرق الوقت بين نيويورك والقاهرة او تل ابيب هو ٧ ساعات . ومعنى ذلك ان الساعة السادسة صباحا فى نيويورك تعنى الواحدة بعد الظهر فى القاهرة . ولم تبدأ عملية «بدر» الا فى الساعة الثانية بعد الظهر ».

كذلك ، فان جولدا مائير اتصلت تلفونيا بايبان بين العاشرة والربع والعاشرة والنصف، ثم استقبلت السفير الامريكى الذى حاول على الفور الاتصال بالبيت الأبيض وبالمخابرات الامريكية ، كما حاول ايقاظ كيسنجر الذى كان احد مساعديه قد ايقظه بالفعل لابلاغه ان ايبان يريد محادثته لأمر مهم وعاجل جدا . وهكذا، فانه يكون تحدث الى ايبان فى السادسة و١٠ دقائق (الواحدة و١٠ دقائق بتوقيت القاهرة) وبعد ان حصل كيسنجر على بعض التأكيدات من المخابرات الامريكية والبنتاجون، اتصل بالزيات الذى كان بدوره يقيم فى فندق والدورف استوريا ليبلغه ان ايبان اتصل به توا ، وقال له ان لدى اسرائيل معلومات أن مصر تعتزم الهجوم، وان ذلك ربما يكون نتيجة سوء فهم يمكن توضيحه . ثم قال «أن كنتم تظنون أن اسرائيل ستهاجمكم فانى استطيع أن اؤكد لك أن هذا غير صحيح . فهل يمكنك ان تبلغ هذه الرسالة للرئيس السادات على الفور؟». وسأله الزيات كيف يمكنه أن يبلغها وليست هناك وسيلة لأتصاله بالقاهرة . فرد كيسنجر قائلا : «سأطلب الى مكتبى ان يرتب لك على الفور خطا من البيت الابيض ينقله لك ». وتم ذلك بالفعل ، وامكن الاتصال بالقاهرة على الفور . وفى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين كان الزيات يتحدث الى حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومى بعد ان تعذر الوصول الى الرئيس نفسه . وابلغ الزيات حافظ اسماعيل بما قاله له كيسنجر ، ورد حافظ اسماعيل أن مصر لم تهاجم اسرائيل ، وأن اسرائيل هى التى تهاجم مصر فى خليج السويس . وعاد الزيات فاتصل بكيسنجر وابلغه ما قاله له حافظ اسماعيل . ورد كيسنجر أنه ليست لديه معلومات فى هذا

الصدد، وأنه سيعاود الاتصال به . وبعد ذلك بخمس دقائق ، فى الواحدة والنصف تماماً ، اذاع الراديو نبأ الغارة على الزعفرانة . وفى الواحدة و٣٥ دقيقة تلقى حافظ اسماعيل مكالمة تلفونية اخرى، وكانت هذه المرة من فينوجرادوف يسأل عما اذا كان يستطيع أن يقابل الرئيس السادات . لكن الرئيس لم يكن على استعداد لمقابلته ، اذا كان الغرض منها محاولة وقف الهجوم الذى لم يكن قد بقى على بدئه الا اقل من نصف ساعة . وقيل لفينوجرادوف أن الرئيس غير موجود ، فقال لحافظ اسماعيل أن اسرائيل اتصلت بالامريكيين شاكية انكم تعدون لهجوم عليها . وقيل له ان اسرائيل هى التى تهاجمنا بالفعل. وهذا كله يبين بجلاء مدى سرعة الاتصالات عند الازمات فى هذا العصر الحديث . ففى خلال نصف ساعة فقط اتصل كيسنجر بايبان والزيات وبموسكو ، واتصل الزيات كما اتصلت موسكو بالقاهرة .

وكان الرئيس السادات انتقل فى الساعة الثانية عشرة والنصف الى المركز الرقم ١٠ بعدما استقبل فينوجرادوف (فى الحادية عشرة والنصف من صباح يوم السبت . وكانت الصورة هناك مختلفة تماما عما كانت فى اليوم السابق حين أدى الحاضرون قسم تأدية الواجب . كانت الخرائط المعلقة على الجدران عندئذ لمناورات «تحرير ٢٣» ، لكنها فى هذا اليوم اختفت ، وحلت محلها خرائط «بدر» ، وكان الرئيس يرتدي زيه العسكري كقائد اعلى للقوات المسلحة .

وفى تل ابيب اجتمع الجنرال زئيرا مدير المخابرات الحربية مع جولدا مائير ، وعقد بعد الاجتماع مؤتمرا صحافيا للمراسلين العسكريين الاسرائيليين . وفى اثناء حديثه عن الموقف على جبهة القناة دخل مدير مكتبه قاعة الاجتماع وقدم اليه ورقة القى عليها نظرة وقال للحاضرين: « انها تقول أن حربا قد تنشب فى أى لحظة». ثم اكمل ماكان يتحدث فيه . وماهى الا برهة حتى قدمت اليه ورقة اخرى القى عليها نظرة ثم غادر القاعة وعاد ليقول : «أيها السادة . . . الاجتماع انتهى». وفى اثناء نزول المراسلين فى مصعد وزارة الدفاع ، كانت صفارات الانذار قد بدأت تدوى فى الجو .

وفى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة (ساعة الصفر) بدأت أولى الانباء عن المعركة تصل الى المركز الرقم ١٠ . وكان الرئيس والفريق أول احمد اسماعيل يستمعان الى النبأ بدهشة ، وبدأ وكأن ما يرونه مجرد عملية تدريب . وكان النبأ يقول: « المهمة انجزت . . المهمة انجزت». وكان ذلك اجمل من ان يصدق . وفى الثالثة والنصف اتصل الرئيس السادات تلفونيا بفينوجرادوف ، كان يريد أن يكون السفير السوفييتى أول من يعلم بما حدث ، ليطمئنه اولا ، وليعده للمطالب الخاصة بتعويض المعدات

التي لم يكن طلبها ليتأخر طويلا. وقد قال لى فينوجرادوف فى ما بعد أنه كان يتناول طعام الغداء بمفرده فى الطابق الثانى من مبنى السفارة حين قيل له أن الرئيس يتنظر على التلفون . ودهش، لأنه كانت هناك منذ مدة وصلة تلفونية خاصة بين الرئاسة والسفارة، وواضح أن هذه المكالمة جاءت على الخط العادى. وسأل فينوجرادوف : «أمتأكد انت من انه الرئيس؟»، وجاء الرد بالتأكيد . فأخذ السماعة، وسمع صوتا يقول باللغة العربية : «السفير»؟. ورد بالانجليزية : «نعم . انا السفير». فقال المنادى : «الرئيس يريد أن يتحدث اليك». ولم يصدق فينوجرادوف ان الرئيس هو الذى يطلبه على الخط العادى فى ذلك اليوم، لكنه سمع صوت السادات نفسه ـ وكان ضاحكاً ـ يقول له : « فينوجرادوف . . ان اولادى يركبون الآن خط بارليف . لقد عبرنا القناة . وأريدك ان تتصل تلفونيا باصدقائنا فى موسكو وتقول لهم ان اولادى يقفون الآن على الضفة الشرقية للقناة ». ورد فينوجرادوف : « تهنئتى كلها . . ياسيادة الرئيس». وقال الرئيس : « الفريق أول احمد اسماعيل معى ، ويريد أن يتحدث اليك لأن هناك الكثير يحتاج اليه منكم لأكمال المهمة ». واعطى الرئيس سماعة التلفون للفريق أول احمد اسماعيل الذى قال له أن الموجة الاولى عبرت فى امان ، وان الكثير من النقط الحصينة على خط بارليف قد سقطت ، وان الخط كله فقد قيمته بالفعل .

ولم تكن فرحة الرئيس والقائد العام ودهشة السفير بالامر المستغرب. ذلك أن الخبراء العسكريين كلهم، بما فيهم الخبراء السوفييت ، كانوا على الدوام يؤكدون خطورة القيام بهجوم عبر القناة، وصعوبة دك استحكامات خط بارليف ، تحت وطأة نيران المدافع وقنابل الطائرات، واحتمال استخدام النابالم فى القناة . وكانت القيادة المصرية مستعدة لتحمل خسائر بشرية تصل الى ٢٦ ألف مقاتل فى المرحلة الاولى للهجوم، فلما انجزت المهمة فى هذه السرعة من دون خسائر تذكر ، احس الجميع كأنهم فى حلم . وقد سارع فينوجرادوف فعقد اجتماعا لأثنين من الجنرالات من اعضاء السفارة لمعاونته فى اعداد تقرير يبعث به الى موسكو .

وحدث بعض التأخير فى نقل الجيش الثالث عبر القناة بسبب بعض المشاكل الخاصة بمعدات الجسور . وكان ذلك مدعاة قلق من جانب الرئيس السادات ، لكنه يشعر بأن عليه ان يترك الامر للعسكريين يحلون هذه المشاكل ، وهكذا فانه عاد الى قصر الطاهرة. وفى تلك الاثناء كانت الانباء عن اقتحام خط بارليف وافقاده قيمته بعد ثلاث ساعات فقط من القتال قد انتشرت فى العالم ، وبدأ الرئيس يتلقى سيلا من المكالمات من زعماء العالم العربى. وكان أول من اتصل به الرئيس العراقى احمد

حسن البكر الذى اشترك عدد من طياريه بطائراتهم من طراز «هوكر هنتر» فى الطلعات الجوية الاولى ، وتبعه الملك حسين ملك الاردن ، فالرئيس الجزائرى هوارى بومدين، فالرئيس التونسى الحبيب بورقيبة. وقد اعربوا جميعهم عن تهانيهم الحارة، وسألوا عن الطريقة التى يمكنهم فيها تقديم العون .

وبعد ١١ ساعة من بدء المعركة وصلت من نيويورك برقية بالشيفرة من الزيات تقول أن كيسنجر عاد الى واشنطن ، وانه اتصل بالزيات من هناك واثار بضع نقاط «اولها ، انه كان متفائلا بعد حديثة مع الزيات يوم ٥ اكتوبر (تشرين الاول) فى ان يبدأ كلاهما جهدا جديدا ومؤثرا من اجل الوصول الى تسوية ، لكن احداث اليوم جاءت مفاجئة تماما ، ويخشى ان تخرج الامور من ايدينا اذا لم يتوقف القتال خلال فترة معقولة . ثانيا ، أن التقييم الامريكي - وقد يكون ذلك خطأ بطبيعة الحال - هو أن المصريين هم الذين بدأوا القتال . ثالثا، أن الامريكيين يقدرون انه اذا استمر القتال فانه سينتهى بنصر للاسرائيليين ، وان قيام الاسرائيليين بهجوم مضاد شامل امر مرجح فى اية لحظة خلال الثمانى والاربعين ساعة المقبلة. رابعاً، اذا حدث ذلك فانه يريد أن يؤكد للمصريين ان الولايات المتحدة لن تسمح لأسرائيل باحتلال مزيد من الاراضى . خامساً، انه - كيسنجر - سأل الزيات عن رأية فى فكرة قرار يصدره مجلس الأمن بوقف اطلاق النار مع عودة الى الخطوط التى كان الجانبان يحتلانها قبل بدء القتال. سادساً، انه يرى أن أى مناقشة فى الجمعية العمومية عندما تجتمع يوم الاثنين لن تؤدى الا الى تعقيد الموقف ».

وقال الزيات أن رده كان على الوجه التالى: اولا، انه فهم مما قاله كيسنجر فى اجتماعهما يوم ٥ اكتوبر (تشرين الاول) ان اسرائيل مقتنعة تماما بقدرتها على اطالة اجل وقف اطلاق النار الى ما لا نهاية ، وليست لديها اية نية لتغيير الموقف الراهن . وكان كيسنجر قال له ان الولايات المتحدة غير قادرة على اجبار اسرائيل على قبول نوع التسوية الذى يمكن أن تقبل بها مصر. وعلى ذلك فانه ايا تكن النتائج التى ستسفر عنها احداث اليوم، وايا يكن ما سيتبين انه مصدرها ، فانه من الواضح ان قناة السويس لايمكن اعتبارها بعد الآن حاجزا لايمكن اجتيازه، كما لايمكن اعتبار وقف اطلاق النار حالة دائمة . ثانيا، ان عودة العرب الى الخطوط التى كانوا يحتلونها قبل بدء القتال معناه بالنسبة الى مصر تراجع الى ما وراء قناة السويس ، وهو امر لايمكننا قبوله ، فضلا عن ان ذلك شيء لايجرؤ هو نفسه - الزيات - حتى على أن يقترحه على القاهرة . وقد يكون من المناسب اكثر ان يرتبط قرار جديد يصدر بوقف اطلاق النار بالعودة الى خطوط ما قبل يونيو(حزيران) ١٩٦٧ بدلا من خطوط ما قبل ٦

اكتوبر (تشرين الاول) . ثالثا، انه ليست لديه تعليمات من القاهرة بالنسبة الى اثارة المسألة امام مجلس الأمن أو الجمعية العمومية ، ولكن اذا كانت لديه ـ كيسنجر ـ أي مقترحات معقوله يتقدم بها فانه مستعد لأبلاغها الى القاهرة. رابعاً، أن كيسنجر رد انه فهم ما قاله الزيات له ، لكنه يريد أن يبلغه رساله عليه أن يمحصها جيدا: ان احداث اليوم بالغة الاهمية . (وهنا نقل الزيات كلام كيسنجر بالانجليزية). «لقد سجلتم نقطة قوية ، لكنني آمل الا تتصرفوا بطريقة تخرج الامور من دائرة سيطرتكم». واخيرا قال كيسنجر انه سيعاود الاتصال بالزيات فى اليوم التالى .

●●●

كيف حدث أن فوجىء الاسرائيليون كلياً ـ استراتيجياً وتكتيكيا على السواء ؟

١ ـ فى رأيى ان الاسرائيليين اساؤوا فهم التاريخ تماما. فالاختلاف بين الاسطورة والتاريخ ـ وهذا واحد من المآزق الخفية للصهيونية يمكن أن يؤدى الى الخلط بين الاثنين ـ هو انك حين تتعامل مع الاسطورة، فانك تتعامل مع شىء محدد، جامد ، ومن اعمال الماضى، فى حين أن التاريخ عملية مستمرة . واذا فكرت فى طريقة الاسطورة فانك ستجد نفسك تتعامل مع الثوابت لا مع المتغيرات .. مع السطح وليس مع الاعماق . والصهيونية اسيرة اسطورتها: اسطورة الشعب المختار والارض الموعودة و «الماسادا» وغيرها .

٢ ـ ان الاسرائيليين قللوا تماما من شأن ميزان القوى بين العرب واسرائيل . فتوازن القوى العسكرى أو السياسى بين ١٠٠ مليون عربى و٣ ملايين اسرائيلى لايمكن الابقاء عليه الى الابد . وربما كان من الممكن للاتحاد السوفييتى والصين ـ ٣٠٠ مليون فى مقابل ٨٠٠ مليون ـ أن يحتفظا بنوع من التوازن على رغم هذا الفارق العددى ، ولكن نسبة ١٠٠ الى ٣ نسبة لايمكن تعقلها. ومع التكنولوجيا الحديثة تصبح الفجوة من حيث عدد السكان اكثر اهمية . وعلى سبيل المثال، فان قذيفة ستريللا (سام ٧) التى لعبت ذلك الدور الكبير فى حرب اكتوبر (تشرين الاول) سلاح صغير وبسيط نسبيا يمكن رجلا واحداً ان يحمله ويطلقه ويشغله من دون معرفة تكنولوجية واسعة. ومع ذلك ، فانه سلاح فتاك بالنسبة الى اسرع الطائرات الحربية الحديثة واشدها تعقيداً . ويضاعف من اهمية العدد بالطبع ان يكون للكم وزن كيفى أيضاً . وما لم يدركه الاسرائيليون حق الادراك ، هو ان ما لايقل عن ١٠٠ الف من بين الـ ٨٠٠ الف مقاتل مصرى تحت السلاح ، كانوا من خريجى الجامعات أو المعاهد العليا. وكان من بين الخطوات التى اتخذها عبد الناصر ايام كان يعيد بناء الجيش

بعد سنة ١٩٦٧ اصدار امر بانه لابد أن يكون المسؤولون عن المعدات الالكترونية فى مواقع الصواريخ والرادار وادارة معارك الدبابات من خريجى الجامعات ومن كليات الهندسة كلما أمكن ذلك . وهكذا بدأت مصر تنافس اسرائيل من حيث نوعية جنودها مع ما لديها بطبيعة الحال من امكانات اكبر بكثير من حيث العدد .

٣ ـ صحيح انه كانت هناك حالة غليان شديدة فى المجتمع المصرى فى ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٣ ، لكن ذلك مرده الى حد كبير الى اننا لم نكن نقاتل . وان عبد الناصر قال لبريجنيف مرة: «أن لدينا مشاكلنا فى الجبهة الداخلية ، لكنها مشاكل ستختفى لمجرد اطلاق الرصاصة الاولى». وقد أساء الاسرائيليون تفسير معنى ما يجرى داخل مصر ، ونسوا ان المجتمع يمكن ان يكون فى حالة غليان ، ومع ذلك يمكن ابعاد قطاعات منه عن الغليان فى ظروف خاصة ، اذا تحملت هذه القطاعات مهام محددة وتوافرت لها كل الطاقات الممكنة . وهذا ما انطبق على الجيش فى مصر الذى عينت له مهمته الخاصة المحددة المكلف انجازها .

وقد وقعت فى الايام الاولى من القتال حادثة توضح هذا التغيير فى طبيعة العلاقة بين الجانبين . كان اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية فى قاعدة المنصورة حين نشبت فوقها معركة جوية وحشية أسقطت فيها طائرة اسرائيلية ، واحس وهو يشاهدها ان الطيار الاسرائيلى لم يظهر مهارة كبيرة، وطلب ان يراه اذ سقطت طائرته فى مكان قريب . وحين جىء به اليه دار الحديث بينهما باللغة الانجليزية . سأله اللواء مبارك: «ما الذى جرى لمستوياتكم فى السلاح الجوى؟ . . . انكم تغيرتم!». ورد الطيار الاسرائيلى : «لسنا نحن . . وانما ـ فى ظنى ـ انتم الذين تغيرتم».

٤ ـ فى خلال هذه السنوات تعرض الجيش الاسرائيلى لتغيير ملحوظ، فقد تحول الى خطوط الدفاع الثابتة بدلا من الاعتماد على الحركة ، وهناك دائما خطر أن يضعف النصر نوعية الجيش ، وقد اصابت العجرفة الجيش الاسرائيلى بعد العام ١٩٦٧ بالعمى التام بالنسبة الى ما يجرى امام عينيه مباشرة : فظن أن من المستحيل تحديه، وأن لديه القدرة على مواجهة أى هجوم . ويتبين هذا بجلاء من تقارير المخابرات الاسرائيلية التى ظلت تصل الى لحظة بدء القتال ، وكلها تستبعد وقوعه . يضاف الى ذلك أن القوات الاسرائيلية لم تكن تعلم انه كانت فى داخل سيناء بالفعل مساء يوم الجمعة ٨ دوريات من رجال القوات الخاصة يؤدون مهماتهم ، بينما كانت هناك دوريات اخرى تعمل فى القناة نفسها ، تقطع الانابيب التى كان الاسرائيليون يعتزمون اغراق القناة بالنابالم الخارج منها.

٥ ـ ان الجنرالات الاسرائيليين غرقوا فى خضم الحياة السياسية ، واصبحوا يقضون وقتا طويلا فى الحياة العامة والخاصة . وكان هناك وقت

عاش فيه الجنرالات الاسرائيليون عيشة التقشف والجلد، لكن العالم أصبح يسمع بعد ذلك عن المجموعة الاثرية التى يقتنيها ديان ، وعن مشاكله الزوجية والعاطفية، كما بدأ يسمع عن الجنرالات بسياراتهم الفارهة وسيجارهم الكبير . وقد تكشف السخط على هذا المسلك فى الشعر الاسرائيلى المعاصر الذى ترن فى صوته نبرة تمرد عالية .

٦ ـ كان بناء خط بارليف نصراً للسياسة على الاستراتيجية . فبعد معارك ١٩٦٧ ، كان الجيش الاسرائيلى يفضل عسكريا ان يتمركز فى المضايق ، ومن هناك يواجه احتمال اى هجوم مصرى ، لكنهم فى اسرائيل فضلوا ان يحضروا عند القناة لأنهم ارادوا ـ كما يقول ديان ـ ان يزنوا فى آذان عبد الناصر والشعب المصرى ، ونسوا ان النصر الذى قدم اليهم على طبق من الفضة عام ١٩٦٧ ، لم يكن بفضل عبقرية اسرائيلية ، انما نتيجة فشل عربى .

وقد اخذ الاسرائيليون على غرة على رغم ان الدليل كان هناك امام اعينهم ، لو انهم كانوا مستعدين لأن يروا ويفهموا . ومما يدعو الى السخرية انهم لم يقدروا ابدا أن مشكلة مصر الرئيسية فى التخطيط، كانت محاولة مضارعة عنصر المفاجأة الذى طبقته اسرائيل بنجاح فى ضربتها الجوية المفاجئة فجر يوم ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

واذكر ان الفريق عبد المنعم رياض رئيس الاركان فى ذلك الوقت، ومن خيرة القادة الذين انجبتهم مصر، قال لعبد الناصر فى احد الاجتماعات العسكرية فى خريف ١٩٦٧، وهو يبحث معه مسألة عنصر المفاجأة ، وكيف يمكن ان تحصل عليه مصر فى أى معركة مقبلة : « أن المفاجأة ستكون لنا حتما . . ذلك أن مجرد بدئنا نحن بأى هجوم على الاطلاق ، سيكون فى حد ذاته اهم عنصر من عناصر المفاجأة . . ان العدو لن يتوقع منا الهجوم اطلاقاً». وقد اثبتت الايام صدق ذلك الى حد بعيد ، بعد ذلك بست سنوات .

المؤلف مع بعض الضباط بقرب مصفحة اسرائيلية معطوبة ، فى أول زيارة له لخط بارليف بعد حرب ١٩٧٣

الدمار فى السويس نتيجة القصف الاسرائيلى أيام حرب الاستنزاف

الرئيس السادات فى غرفة العمليات يوم بدأت حرب ١٩٧٣ ، والى يمينه ، الفريق سعد الدين الشاذلى والفريق ناصر واللواء مجذوب . والى يساره ، المشير الراحل احمد اسماعيل والفريق أول عبد الغنى الجمسى .

العلم المصرى يرفرف فوق خط بارليف .

الفصل الثانى

وقفة ناصر الأخيرة

الجزء الأول

الآثار التى ترتبت على الهزيمة

جاء حديث الفريق عبد المنعم رياض مع عبد الناصر قرب نهاية فصل من تاريخ نصر بدأ في حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . كانت الهزيمة في تلك الحرب مفاجأة تامة للجميع . وربما كان صحيحاً أن مصر لم تكن تتوقع النصر فيها ، لكنه مع ذلك لم يكن هناك من كان مستعداً لهزيمة في مثل هذا الحجم المدمر . كان الكل مشدوها ، ومنهم الروس . في حين عمت الفرحة الأسرائيليين . اما العالم العربي فكان في حالة البلبلة كاملة . ووسط هذا الحطام ترك عبد الناصر وحده يحاول ان يصنع منه شيئاً .

كان من رأيه أولا ، ان عليه ان يركز على ما بقي من وسائل دفاعه ، وكان في ذلك الوقت يتلقى العديد من التحذيرات ان الاسرائيليين يعتبرون ان ما تم لهم تحقيقه لا يعدو ان يكون مهمة لم تكتمل ، خصوصاً بعد احداث يومي ٩ و ١٠ يونيو (حزيران) حين خرجت إلى الشوارع جماهير الشعب في مختلف انحاء العالم العربي في أعقاب الخطاب الذي القاه عبد الناصر واعلن فيه تنحيه ، تطالبه بالبقاء وعدم التنحي . وكان ذلك نصراً سياسياً لعبد الناصر ، لكنه لم يكن بطبيعة الحال نصراً يعوض الهزيمة العسكرية .

وكان عبد الناصر يشعر بان لديه تفويضاً بمحاولة إعادة تنظيم الجبهة الداخلية ، وحشد الصف في البلاد العربية ، والدخول الى معركة ما سماه ازالة آثار العدوان ، ورأى أن إستراتيجية المقبلة يجب أن تتضمن ثلاث مراحل : في البداية كان عليه أن يتخذ موقفاً دفاعياً بحتاً ، ثم ينتقل إلى الردع الفعلي ، وفي النهاية ينتقل الى مرحلة تحرير ما فقد .

وكان لابد ان يبدأ بالجيش باعتباره مفتاح كل شيء ، ولم تكن من المستطاع اعادة بناء الجيش من دون معاونة من الروس . وجاء بودجورني إلى القاهرة بعد الحرب مباشرة ليعرف حقيقة ما حدث ، واحضر معه الماريشال زاخاروف رئيس أركان الجيش السوفييتي . ولم يكن هناك مفر من ان يعتبر الروس هزيمة مصر هزيمة لهم ايضا . وقد شجع عبد الناصر هذا الاتجاه لديهم لانه كان يرى ان من شأن مثل هذا الاعتقاد ان يزيد ارتباطهم بأزمة الشرق الاوسط وتطوراتها ، وتلك كانت الطريقة الوحيدة ، التي يمكن بها مواجهة التفوق الامريكي في تلك المنطقة . وكان لدى عبد الناصراعتقاد جازم ان اسرائيل كانت في ذلك الوقت يستخدمها الامريكيون كأداة لفرض نظام جديد على الشرق الأوسط .

على أن زيارة بودجورني لم تسر سيرا حسنا . كان الروس من ناحية غاضبين بطبيعة الحال لان بعض احداث انواع أسلحتهم وقعت في ايدي الاسرائيليين وسلمت إلى الامريكيين . وكانوا كذلك يرون أن مطالب المصريين من الاسلحة الجديدة مبالغ فيها . وكانت القيادة المصرية من جانبها قد شكت من أن مدى الطائرات « الميج » و« السوخوي » الموجودة لديها محدود جدا ، وطلبت طائرة مقاتلة ـ قاذفة بعيدة المدى . وقد دافع بودجورني عن طائرات « الميج » و« السوخوي » وعندئذ قال عبد الناصر : « حسنا جدا اذن . إني مستعد في هذه المرحلة الدفاعية الاولى أن اترك الدفاع الجوي كله عن مصر للاتحاد السوفييتي » .

كذلك كان هناك بعض سوء الفهم بالنسبة إلى مطالب الروس الخاصة بمنحهم تسهيلات لاسطولهم . ولقد بدأ بودجورني بان طالب بمركز قيادة في الاسكندرية للسفن السوفييتية في البحر الابيض المتوسط ، وجاء مطلبه هذا متفقا مع تفكير عبد الناصر الذي كان قد توصل إلى ان تعزيز الوجود البحري السوفييتي في البحر الابيض المتوسط ، هو في مصلحة عالم عدم الانحياز كله . وكان يأمل في امكان الوصول إلى نوع من التكافؤ بين الاسطول السوفييتي والاسطول السادس ، يضع نهاية البحر الابيض المتوسط كبحيرة امريكية . وإذ تذكر ما زعمه اشكول ذات يوم من أن الاسطول الامريكي في البحر الابيض المتوسط هو احتياط إسرائيل الاستراتيجي ، فأن مصر وغيرها من الحكومات العربية حاولت بعد ذلك أن تدعو إلى خفض للقوات البحرية الامريكية ، وكان الطريق إلى ذلك أن يبرز الوجود البحري السوفييتي في البحر الابيض المتوسط كخطوة أولى ، فإذا جاءت الدعوة بعد ذلك بخفض متوازن لقوات الدولتين العظميين ، فأنها ستلقى إهتماماً لدى الامريكيين ، في حين انه لن يكون هناك ما يحفزهم إلى اجراء مثل هذا الخفض ما دام الاحتكار الفعلي في المنطقة احتكارهم.

وفي اجتماع ثان طالب بودجورني بمركز قيادة وورشة اصلاح للسفن في الاسكندرية ، ثم اقترح ان يتولى رجال البحرية الروسية حراستها.

وبعد ذلك اقترح لضمان الامن أن تسلم هذه المنطقة كلها - مركز القيادة ، وورشة الاصلاح ، ومساكن الحرس - إلى الروس . وبينما ذلك كله مطروح للمناقشة تساءل بودجورني في اجتماع اخر عقد في قصر القبة عما إذا كان يمكن السماح برفع العلم السوفييتي على المناطق التي ستحدد لهم. وعند هذه النقطة توقف عبد الناصر عن المناقشة وقال غاضبا : « هذا استعمار بالفعل . معنى ذلك أننا سنعطيكم قاعدة » . وهنا تراجع بودجورني قائلا أنه لم يكن يقصد ذلك . وان القصد كان حرية العمل لمساعدة مصر . لكن الضرر كان قد وقع .

والحقيقة أن عبد الناصر كان يتبع سياستين متناقضتين . كان يحاول أن يجعل الروس يرون في هزيمة مصر هزيمة لهم . ويعمل على زيادة عونهم لها إلى درجة السماح لهم بأن يتولوا ، موقتا على الأقل ، مهمة الدفاع الجوي عنها . لكنه كان في الوقت نفسه يقول لهم : « لا قاعدة . . ولا علم أحمر » .

وفي تلك الفترة ألتي كانت فيها علاقات مصر مع الاتحاد السوفييتي متوترة على هذه الصورة ، سافر الرئيسان عارف وبومدين إلى موسكو في ١٧ يونيو (حزيران) ١٩٦٨ سعيا وراء الحصول على مزيد من العون للقضية العربية . وقد أبلغهما بريجنيف ان الاتحاد السوفييتي يعمل ما في استطاعته لاعادة بناء وسائل الدفاع العربية . وقال « اني أؤكد اني هنا في موسكو قضيت ليالي طويلة لم يعرف النوم خلالها سبيلا إلى جفني ، بسبب التحذيرات المستمرة التي نتلقاها عن ان إسرائيل تعتزم اجتياز قناة السويس . واذا كان من الواضح انه ليس من السهل عليهم ان يفعلوا ذلك بسبب تأييدنا للعرب وبسبب الرأى العالم العالمي . فإنهم مع ذلك قد يقومون في أية لحظة بهجوم خاطف نحو القاهرة من شأنه أن يضع العالم كله على حافة كارثة » . ثم قدم إلى الرئيسين أرقاما عن المعونة التي قدمت إلى مصر وقال « لقد أرسلنا خلال أسبوعين اثنين حمولة ١٥ سفينة من المواد زنتها نحو ٤٨ ألف طن . اضافة إلى ١٥٠٠ من الفنيين » . ومرة اخرى . . فإن الجو في هذه الاجتماعات لم يكن طيبا .

على ان اعادة بناء الجيش لم تكن بطبيعة الحال مجرد مسألة الحصول على مزيد من المعونة من الروس . كان لابد من اجراء تغيير شامل في جهاز الضباط من اكبرهم إلى اصغرهم . وقد كلف هذه المهمة بصفة رئيسية اثنان من الرجال ، اولهما الفريق محمد فوزي القائد العام الجديد ، وهو رجل لم يكن واسع الخيال . لكنه كان يتمتع عن جدارة بسمعة انه رجل ضبط وربط قاس . . ربما شديد القسوة ، لانه كان يدوس على كل الاعتبارات الانسانية . وكان عبد الناصر يصفه ب « رجل الضبط والربط القاسي » . لكن صفاته كانت هي الصفات المطلوبة لجمع شمل جيش انحطت معنوياته نتيجة عدم الكفاءة والمحسوبية ابان فترة المشير

عامر ، الذي حصد من خلفوه محصول ما زرعه .

وكان عبد الناصر يقول دائما ان الفريق فوزي ليس القائد الذي يمكن أن يختاره لخوض غمار الحرب . وكان يقول ايضا انه يحتاج للحرب إلى رجل كمونتجومري لا كرومل ، وكان الرجل الذي يفكر فيه لهذا الغرض هو ثاني الرجال .. الفريق عبد المنعم رياض الذي عينه عبد الناصر رئيسا للاركان . كان الفريق رياض ، على عكس الفريق فوزي تماما ، مرحا لطيف المعشر ، واستطاع في دقائق أن يفوز بحب مرؤوسيه واحترامهم . لكنه لم يكن موضع ثقة بعض معاوني عبد الناصر المقربين الذين كانوا يخشون ان تثير شعبيته التي لم تكن موضع شك بين رجال الجيش طموحا سياسيا في نفسه . وكانوا ياخذون عليه انه عين لقيادة الجيش الاردني خلال الفترة التي سبقت حرب يونيو (حريزان) ، وهيأ للملك حسين أن يخدعه . لكن عبد الناصر كان يثق فيه وكان يعتقد انه يفهم الحرب الحديثة ، وان تدريبه في الدفاع الجوي أتاح له أن يصبح خبيرا في الصواريخ ، ومدرسا للرادار والمدفعية المضادة للطائرات ، وأن هذا هيأه لمعركة الحرب الالكترونية الجديدة . اما بالنسبة الى طموحه السياسي فقد كان كل ما قاله عبد الناصر تعليقا عليه : « اذا كان كفياً ، يستطيع قيادة المعركة ويقدر على كسبها ، فاني على استعداد لان اعطيه منصبي ، من دون أنتظار لانقلاب يدبره ضدي . فسيكون من حقه تماما ان يحصل عليه ، ويمكنه ان يتولى المسؤولية ، فلا مانع عندي » . وفوق ذلك كله فإن ضرورة القتال كانت مستبدة بتفكير الفريق رياض تماما . واذكر أنه جاء إلى بيتي ذات يوم يقول : « ليست لدي فائدة في كل هذا الكلام عن الحل السلمي . أن الجيش لابد أن يقاتل ، واذا لم تتح له الفرصة للقتال ، فان رجالنا كلهم سيصبحون عبيدا ، وتصبح نساؤنا كلهن بغايا » . ولقد كان من سوء طالع مصر انه قتل في الميدان في جبهة القناة خلال شهر مارس (اذار) ١٩٦٩ .

وهناك رجل ثالث تحمل نصيبا كبيرا في اعادة بناء الجيش المصري بعد نكبة العام ١٩٦٧ ، وهو الرئيس عبد الناصر نفسه الذي كرس جزءا كبيرا من وقته للجيش ومشاكله . وقد تخلص من عدد كبير من الضباط غير الاكفاء وشجع من كانوا يبشرون بالخير منهم ، وأظهر موهبة في انتقاء المواهب . كان يعقد اجتماعا لخمسة أو ستة من الضباط يختار في نهايته من يرى انه يستحق الترقية منهم . وكان له فضل اتخاذ القرار ان تجري ، لاول مرة ، مناورات على مستوى الفرقة يقف فيها جيشان وجها لوجه بقواهما كاملة . وقد شكا بعض كبار الضباط من تكاليف اجراء هذه المناورات ، فكان رده ببساطة : « ان تكاليف الهزيمة ابهظ من ذلك بكثير » .

وفي اجتماع بين عبد الناصر والماريشال زاخاروف الذي جاء مع

بودجورني والقيت عليه مسؤولية كل جوانب المعونة الروسية في اعادة بناء القوات المسلحة المصرية ، قال زاخاروف لعبد الناصر انه اذا كان يريد نتائج سريعة - وكان الجميع لا يزالون يعتقدون باحتمال استئناف القتال من جانب إسرائيل - فان الحاجة تستدعي احضار مزيد من مستشاري التدريب الروس زيادة على بضع المئات من الموجودين حاليا لديه . ورد عبد الناصر بأنه مستعد لقبول عدد من المستشارين يصل إلى مستوى اللواء . وهكذا أصبح لكل قائد لواء مستشار سوفييتي معين له ، وكان عددهم قد بلغ حينذاك ١٥٠٠ مستشار . وكان لابد من ان يصبح هؤلاء المستشارون الاجانب مصدر بعض الاحتكاك ، لكن عبد الناصر اصر على ألا يسمح لأي امر يتعلق بالكرامة او الكبرياء بالتدخل في اعمالهم ، وكان يقول ان على المصريين ان يتعلموا .

وقد طلب عبد الناصر من الفريق فوزي والفريق رياض والماريشال زاخاروف والجنرال لاشينكوف رئيس البعثة العسكرية السوفييتية ان يعلنوه عندما تجهز استعدادات مصر الدفاعية ، وقال للجنرال زاخاروف مازحا يوما : « انت مقبوض عليك هنا إلى ان ينجز عملك » ، لكن قوله في الحقيقة لم يكن على سبيل المزاح ، وتجلى ذلك حين جاء يوم قال فيه زاخاروف انه يريد ان يسافر إلى موسكو لرؤية اسرته ، فقد قال عبد الناصر : « ان الأمر الذي اصدرته قائم ، ولن تغادر مصر » . وهكذا لم يسافر ، وبقي في مصر إلى احد ايام شهر نوفمبر (تشرين الثاني) - وكان ذلك قبل بضعة ايام من الاقتراح بالموافقة على قرار مجلس الأمن الرقم ٢٤٢ - حين قابل عبد الناصر ومعه ثلاثة غيره من الجنرالات وقال له بلهجة الواثق : « سيادة الرئيس . . اظن ان مصر قادرة الان على مواجهة اي شيء يمكن ان ترسله اسرائيل . وليست لدي اية مخاوف بالنسبة إلى الجبهة المصرية . ان وسائل الدفاع طيبة تماما » .

وعلى رغم ان القوات المسلحة كانت موضع الاهتمام الاول بالنسبة الى عبد الناصر ، فانه كان مضطرا إلى ان يوجه اهتماما عاجلا للاقتصاد الذي كان في حالة مشدودة . فاضافة إلى الخسائر التي نجمت عن الحرب وعن اغلاق قناة السويس ، كانت مصر تعاني من اعباء حملة اليمن ، ومن الآثار التي ترتبت على خطة السنوات الخمس الناجحة ، وانفاق المبالغ الطائلة على السد العالي ، وكلها مشروعات لم يكن انتاجها قد بدأ بعد . وقد عقد عبد الناصر عددا من الاجتماعات المشتركة للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ومجلس الوزراء ، طرحت خلاله كل المسائل المتعلقة بما حدث من اخطاء وبما يجب عمله الآن . وكانت المشكلة هي ايجاد وسيلة تحول دون توقف برامج التنمية ، وكان لابد لذلك من جرعة كبيرة من رأس المال ، فمن دون مثل هذه الجرعة يمكن الا يوجد من المال ما يكفي حتى لسد تكاليف احتياطات القمح الأساسية ، لان الروس كانوا يركزون كل جهودهم على الامدادات العسكرية ، ولم يكن في استطاعتنا

ان نطلب منهم القمح ايضا . كانت هناك اذن اعباء تمويل الحرب ، واعباء استمرار التنمية ، واعباء الحفاظ على مستوى التموين والاسعار .

ثم جاء مؤتمر الخرطوم في شهر اغسطس (آب) . وكان المؤتمر نجاحا سياسيا عظيما لعبد الناصر . كان هناك ما لا يقل عن ٥٠٠ الف شخص خرجوا يستقبلون عبد الناصر في طريقه من المطار إلى المدينة ، ويهتفون له بكل الفرحة كما كانوا يفعلون دائما (وقد خصصت له مجلة « نيوزويك » قصة غلاف جعلت عنوانها « يحيا المهزوم ! ») . ولما وصل الملك فيصل بعده مباشرة لم يجد بقية جمهور يحييه . وكانت العبارات الوحيدة التي سمعها وصحبه : « سر مع عبد الناصر ! . اعمل مع عبد الناصر ! » .

وقد حقق المؤتمر نجاحا فاق ما كان يتوقعه عبد الناصر . فقد تم فيه الوصول إلى صيغة تضع نهاية لحرب اليمن . وبدلا من ان توقف امدادات البترول إلى الغرب استجابة لدعة استخدام « سلاح البترول » ، اتفق على ان تقدم الدول المنتجة للبترول دعما للدول التي تعرضت للعدوان الاسرائيلي ، وكان الاتفاق ساعتها يعني مصر والاردن ، لأن سوريا لم تكن ممثلة في المؤتمر . وقد افتتح الملك فيصل الدعم بعرض مبلغ ٥٠ مليون جنيه . وهو عرض سخي استهدف ازالة الضغط عن كل من الدول المنتجة للبترول وعن شركات البترول على السواء .

كان المهندسون المصريون يقومون ببناء حظائر لحماية الطائرات الجديدة التي كان لروس يرسلونها ضد اي هجوم اسرائيلي مباغت ، واجروا نماذج متعددة لتجارب ضرب هذه الحظائر بالقنابل ، حتى توصلوا إلى طريقة بدت فعالة لحمايتها ، واظهر اللواء مدكور ابو العز القائد الجديد للقوات الجوية نشاطا عظيما في بناء المطارات الجديدة والحظائر اللازمة لحمايتها . بل انه وسع طريق القاهرة - الاسكندرية بحيث يمكن استخدامه كممر للهبوط الاضطراري للطائرات . وقد بلغت نفقات هذه الاعمال الهندسية التي تمت قبل نهاية سنة ١٩٦٧ نحو ١٠٠ مليون جنيه ، اي ان المبلغ كله الذي تعهد الملك فيصل وغيره بدفعه في الخرطوم قد انفق خلال فترة اقل من سنة على مشروع واحد فقط .

وقد اقتنع عبد الناصر بعد مؤتمر الخرطوم ، ان مؤتمرات القمة العربية يمكن ان تلعب دورا في تنفيذ سياسة يكون قد تم الاتفاق عليها في مكان آخر ، لكنها من الصعب ان تضع سياسة . وفي الوقت نفسه فان من الصعب تنظيم جبهة ثانية - اذا كان علينا أن ننظم جبهةٍ ثانية للجولة المقبلة التي سبق اتفاق من يخططون لها على حتميتها - في مؤتمر للقمة ، لأن ذلك يجب التجهيز له مع القادرين على المشاركة في هذه الجبهة والمستعدين لذلك .

وفي خط مواز لهذه الاستعدادات العسكرية ، كان عبد الناصر يبحث عن امكانيات التوصل إلى تسوية سلمية على رغم ان آماله في التوصل

إلى مثل هذه التسوية كانت ضعيفة منذ البداية . وقد برزت خلال المفاوضات التي ادت إلى الموافقة على قرار الامم المتحدة الرقم ٢٤٢ (في ٢٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٧) نقاط عدة ملفتة للنظر . أولها ، ان آثر جولدبرج المندوب الامريكي في الامم المتحدة قدم إلى محمود رياض وزير الخارجية المصرية تأكيدات ان الكلمات التي تضمنها القرار تعني ان على اسرائيل ان تنسحب من جميع الاراضي التي احتلتها في اثناء الحرب على شرط ان نكون مستعدين للموافقة على انهاء حالة الحرب . وثانيها ، انه على العكس تماما من هذه التأكيدات ومعها النقاط الخمس التي عرضها الرئيس جونسون ، فان سير الاحداث اوضح ان هناك تفاهما ضمنيا بين الولايات المتحدة واسرائيل على ارغام العرب على المفاوضات المباشرة مع اسرائيل ، ثم ان مطامع اسرائيل بالنسبة إلى بعض الاراضي المحتلة كانت امرا مقبولا من امريكا . وقد اعترف جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الامريكية بذلك ضمنا في احدى برقياته التي بعث بها إلى محمود رياض وقال فيها : « انكم لا يستطيعون ان تصروا على جميع الاراضي وتتوقعوا ان تحصلوا على السلام » . وكان واضحا منذ البداية ان الاراضي التي كانت اسرائيل تنوي اغتصابها تشمل شرم الشيخ وغزة والقدس وبعض مناطق الضفة الغربية ومرتفعات الجولان .

وكان عبد الناصر يتشكك دائما بالنسبة إلى القرار الرقم ٢٤٢ . وقد قال في احد الاجتماعات المنتظمة مع كبار قادة الجيش عقد يوم ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ، بعد ثلاثة ايام فقط من الموافقة على القرار : « دعوني أقل لكم بعض الحقائق . ان كل ما تسمعوننا نقوله عن قرار الامم المتحدة ليس موجها اليكم ، ولا علاقة له بكم . واذا نظرتم إلى ما يفعله الاسرائيليون في المناطق المحتلة ، فسيتضح لكم كل الوضوح انهم لا يعتزمون الجلاء عن هذه المناطق الا اذا ارغموا على ذلك . وارجوكم ان تذكروا ما سبق ان قلته : ان ما اذ بالقوة لا يمكن ان يسترد بغير القوة . وليس هذا بلاغة قول ، لكني اعنيه تماما . ثم اسمعوا هذا : لقد طلبت إلى الاتحاد السوفييتي ان يزودونا بمعدات الجسور ، وقلت اني اريدها كقرض لا كهدية أو صفقة ، لانني سأعيد هذه المعدات بعد ان نعبر القناة ، بحيث لا يجد اولئك الذين سيعبرونها سبيلا إلى العودة . لو كنت انا مكان ليفي اشكول او موشي ديان لفعلت مثل ما يفعلان . انهما يريدان التوسع ، وهما يظنان ان الفرصة مؤاتية لهما للتوسع . بل اني لا ارى انهما يستطيعان الانسحاب حتى لو ارادا ذلك ، لانهما غذيا شعبهما بآمال واسعة ووعود كثيرة . وما يقولونه الآن سيتحول لا محالة إلى سياسة رسمية وسيجدان نفسيهما ملتزمين بها . وهكذا فلستم بحاجة إلى توجيه اي اهتمام لاي شيء يمكن ان اقوله في العلن عن الحل السلمي » .

ولابد من القول ان اعمال اسرائيل وتصرفاتها خلال هذه الفترة كانت قد بدأت تهيىء عنصرا جديدا في الصراع العربي - الاسرائيلي . ذلك ان اشتباك الشعب المصري في السابق مع اسرائيل اما بسبب الفلسطينيين كما حدث في العام ١٩٤٨ ، واما بسبب السوريين الذين بدوا مهددين كما حدث في العام ١٩٦٧ . (في العام ١٩٥٦ كان العدو الرئيسي هو البريطانيون والفرنسيون) . لكن اسرائيل في العام ١٩٦٧ ارتكبت الخطأ الكبير حين ابرزت حقيقة ان هناك صراع أمن بينها وبين مصر ، وان العدو الحقيقي لها في المنطقة هو مصر قبل غيرها ، لان مصر ، من دون غيرها اقدر على ممارسة الصراع في طليعة امة عربية لها دورها وعليها مسؤولياتها القومية والعالمية . وكشفت الطريقة التي عاملت بها الجرحي والاسرى المصريين ، والطريقة التي عرضت بها نصرها على العالم ، والطريقة التي أتسم بها مسلكها بعد ذلك ، وكأن لها الحق في أن تنزل قواتها في اي مكان تريده من مصر ، كل ذلك كشف عن اعداد لأنزال اكبر قدر من الاهانة بعدوهم المهزوم . لقد مرغوا انوفنا في الرمال في هزيمتنا وأظهروا المرة تلو المرة سعادة كبرى بما يفعلون .

ومن أجل تجنب اعطاء الاسرائيليين أية ذريعة لاستئناف المعركة قبل أن تكمل استعداداتنا الدفاعية على الأقل ، فانه كان لابد من اصدار امر بمنع كل أنواع اطلاق النار من جانب المصريين في جبهة القناة . وكان ذلك امراً قاسياً على النفس ، لان القناصة الاسرائيليين كانوا يعملون بنشاط ، وكانت الطائرات الاسرائيلية تضرب المدنيين والاهداف العسكرية . والحقيقة أنه كان أمراً مكروهاً إلى درجة صعب معها على الفريق فوزي ان يصدره باسمه ، وحول مسؤوليته إلى عبد الناصر بوصفه القائد الاعلى للقوات المسلحة الذي صدر باسمه هذا القرار المرير . بل أن عدداً من الجنود قدموا إلى المحاكمة العسكرية لعدم اطاعته .

وبعد فترة اشتدت غارات الطائرات الاسرائيلية إلى حد اتخذ فيه عبد الناصر قراراً باخلاء مدن القناة الثلاث : بورسعيد والاسماعيلية والسويس . وكانت النتيجة أن نزح أكثر من ٤٠٠ ألف لاجىء إلى القاهرة وغيرها من مدن مصر . وكان تكتيك الاسرائيليين يوضح بجلاء أنهم يعتزمون البقاء لى ما لا نهاية على ضفاف القناة . وان ديان قال ان على اسرائيل أن تكون جهاز « طنين في آذان الشعب المصري » لتذكيره بهزيمته ودفعه إلى التخلص من حكومته . ويبدو أن الاسرائيليين يحملون في نفوسهم كراهية خاصة لطريقة الري المصري . فقد قاموا بمحاولات عدة لضرب نجع حمادي ، باعتبارها محطة ري مهمة في صعيد مصر ، كما حاولوا ان يبثوا الالغام في القناطر القريبة من القاهرة ، مما اضطرنا الى وضع خطوط طويلة من البراميل عند الكباري على النيل والقنوات الاخرى كوسيلة للحماية من الالغام العائمة بلغت نفقاتها ٧ ملايين جنيه وهذه

البراميل لا تزال قائمة حتى الان ـ نهاية عام ١٩٧٤) . وقد مس هذا التهديد المباشر لوسائل الري في مصر اعمق العرائز في نفوس المصريين .

الجزء الثاني

الاتصالات العربية

وعليه ، بحلول شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ، كانت المرحلة الاولى التي حددها عبد الناصر في شهر يونيو (حزيران) ـ وهي مرحلة الدفاع البحت ـ قد بلغت نهايتها . فقد أعيد بناء القوات المسلحة ، وكانت المعدات ولوازمها قد تمت تقريبياً ، كما بدأ الاقتصاد في التماسك والثبات استعداداً لمقاومة طويلة ، واصبح الوقت مناسباً للتفكير في المرحلة الثانية : مرحلة اعادة تنشيط الجبهة . ولم يكن هذا ، بطبيعة الحال ، يعني أن تتحول مصر إلى الهجوم . فذلك كان سيأتي في ما بعد شأنه شأن خطط الجبهة الثانية التي كان من المتفق عليه عندئذ أنها يجب ان تكون الاساس لاية ضربة توجهها مصر . لكن الوقت قد حان للبدء بالاعداد للمرحلتين .

وفي تلك الاثناء كان البحث عن حل سلمي هو الذي يحتل صدر كل حديث ، على رغم ان عبد الناصر قال للملك حسين في ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٨ أنه فقد الامل في مهمة يارنج . وكانت وجهة نظره ، بوجه عام ، انه اذا امكن التوصل بطريقة ما إلى الحل السلمي ، فسيكون ذلك أمراً طيباً بطبيعة الحال ، وأن علينا ان نركز على اقناع الرأي العام العالمي بنوايانا الطيبة ، وهو ما بدأت اسرائيل دائما اهتماماً كبيراً به في حين أننا أهملناه ، ودفعنا ثمن هذا الاهمال . وكان يرى أن النقطة الرئيسية من استمرار المفاوضات ، هي اقناع الروس بأنه ليس هناك حل سلمي ، والعمل على اشراكهم في المشكلة أكثر وأكثر .

وفي تلك الاثناء أيضاً ، كان الروس قد بدأوا يجرون اتصالات مباشرة بالامريكيين بشأن الشرق الاوسط . وجاء جروميكو إلى مصر ليعرف رأينا في هذه المحادثات الثنائية . كان محمود رياض غير سعيد باحتمالاتها ، وكان يرى ان الاتصالات كلها يجب ان تتم عن طريق الامم المتحدة . وسأل جروميكو : « وما عيب يارنج الذي تم اختياره في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٧ مبعوثاً شخصياً ليوثانت بشأن ازمة الشرق الاوسط » . وكان رد جروميكو عليه ستالينيا (قاطعاً) : « ليس هناك ما يعيب يارنج الا انه لا يملك أساطيل في البحر الابيض ولا صواريخ في الجو » . ولم يعجب الرد رياض ، وقابل عبد الناصر قبل اجتماعه الثاني بجروميكو في محاولة

للحصول على تأييده في الاصرار على تشجيع يارنج للمضي في مهمته . لكن عبد الناصر قال له : « كلا . . اني أتفق مع الروس . ولننظر إلى الأمر نظرة واقعية . ان يارنج لن يحل شيئاً . واذا بدا بالفعل أنه يقدم حلا ، فليس ذلك الا لان شيئاً ما قد تم ترتيبه من وراء ستار بين القوتين العظميين . اني اريد ان يكون الروس على اتصال يومي بنا ، حتى يروا استحالة الحل الديبلوماسي . فانهم بهذه الطريقة سيزيدون عونهم لنا » .

وكان هناك سبب آخر وراء عدم وقوف عبد الناصر ضد جميع الاتصالات الديبلوماسية ، فقد كان يرى فيها عاملا مساعداً لكسب الوقت ، وهو عامل كان تقديره له يتزايد باستمرار . وفي اجتماعه بقادة الجيش في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ، قال لهم أن عليهم ان يتطلعوا إلى خمس سنوات تالية التدريب المركز . وقال أنه كان في بداية الامر يظن ان المسألة لن تتجاوز بضعة شهور ، لكنه أصبح مقتنعاً بأنهم - بمعجزة فقط - يستطيعون أن يقوموا بهجوم خلال ثلاث سنوات ، الا أن الحقائق كلها تشير إلى خمس سنوات باعتبارها التقدير الاكثر واقعية . وفي اعقاب هذا الاجتماع على وجه التحديد أصدر الفريق رياض اوامره إلى مجموعة تخطيط بأن تعد اولى خطط التدريب لعملية « تحرير ١ » التي كان هدفها الرئيسي شن هجوم عبر القناة وانشاء رأس جسر على الضفة الشرقية .

وفي بداية العام ١٩٦٨ كان عبد الناصر يركز تركيزاً تاماً تقريباً في السياسة على ثلاثة جوانب : القوات المسلحة ، والعلاقات المصرية - السوفييتية ، والعلاقات العربية من حيث اتصالها ببحثه عن شريك او شركاء في الجبهة الثانية . . . او الجبهة الشرقية كما سميت . واحتفظ بهذه الجوانب كلها يعالج أمورها بنفسه ، أما البقية فترك امورها للآخرين .

وكان من بين اول الاجتماعات التي عقدها مع رئيس لدولة عربية بشأن مسألة الجبهة الثانية ، اجتماعه بالملك حسين ملك الاردن في ١٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٨ . وشرح عبد الناصر في هذا الاجتماع رأيه في أن الحل السلمي لن يسفر عن شيء ثم قال ان السؤال الذى لابد أن نطرحه جميعاً على أنفسنا هو السبب في استمرار هذه الفرقة بين المائة مليون عربي الذين لا تربطهم بعضهم ببعض الا أقل الروابط المؤثرة . وقال ان ما يثير قلقه بوجه خاص انه ليس لديه اتصال حقيقي مع سوريا . وأضاف : « اننا ، جميعاً ، لا نزال نعيش في حالة تمزق وردود فعل عصبية نتيجة لهزيمة يونيو (حزيران) . . . وكان الملك حسين جاء لتوه من السعودية ، وقال ان لديه انطباعاً أن السعوديين ليسوا مستعدين للاستمرار إلى الابد في تقديم الدعم المالي النقدي إلى الدول العربية كما اتفق في الخرطوم ، وقال أيضاً أنه قلق لان أشكول . (رئيس وزراء

اسرائيل عندئذ) حاول ان يبعث اليه برسالة مع يارنج . وقد رفض الرسالة ، لكنه يظن أن يارنج يتعرض لضغط شديد من جانب اسرائيل لكي يحمل الدول العربية على ايفاد مبعوثين خاصين الى قبرص للالتقاء بممثل عن اسرائيل بحضور يارنج . وقال انه أبلغ يارنج ان ذلك أمر يخرج عن دائرة بعثته

كذلك فان الملك حسين قال ان يارنج كان قبل زيارته الاخيرة بوقت قصير لعمان قد قابل ايبان ، وزير خارجية اسرائيل ، وطلب منه ان يحدد بالضبط ما تريده اسرائيل ، وان ايبان راح يلقي على يارنج محاضرة عن الاسباب التي أدت الى حرب ١٩٦٧ ، أعقبها بتفسير اسرائيل للقرار الرقم ٢٤٢ . وكان من الواضح انه لا يرى في القرار اكثر من جدول أعمال لعدد من الموضوعات التي يجب أن يتفق عليها في مفاوضات مباشرة . وقد طلب يارنج منه قائمة مكتوبة بهذه الموضوعات فقدمها اليه ، وكانت تشمل : ١ ـ المسائل السياسية والقانونية . ٢ ـ انشاء حدود دائمة آمنة . ٣ ـ المسائل الانسانية . ٤ ـ التعاون الاقتصادي والثقافي والتكنولوجي . ٥ ـ الاماكن المقدسة والمرور اليها .

وحين قرأ الملك حسين هذه القائمة على عبد الناصر ، التفت عبد الناصر الى وزير الخارجية محمود رياض ، وكان يحضر الاجتماع ، وسأله : « أهذا ما قاله لنا يارنج أيضاً ؟ » . ورد رياض : « أجل . . مع اختلاف واحد ، هو انه بدلا من البند الرقم ٣ في القائمة الاردنية ، فان البند الرقم ٣ لدينا هو : فتح قناة السويس للملاحة بالنسبة الى سفن كل الدول من دون تمييز » .

وكان الملك حسين ـ الى حد ما ـ يمثل دور الوسيط ، لانه لم يكن هناك اتصال مباشر بين مصر والسعودية بعد مؤتمر الخرطوم . كان السعوديون يدفعون نصيبهم من الدعم ، وهذا كل شيء . فالى جانب الصعوبات الاخرى ، فان السعوديين كانوا يخشون من أن يكون المصريون يجلون عن اليمن ليستولى عليها الروس . وحدث قبل ذلك بوقت قصير ان أسقطت فوق احدى مناطق القبائل الموالية للمملكة العربية السعودية طائرة أثار السعوديون لسقوطها ضجة كبيرة ، اذ زعموا ان قائدها روسي . . . لمجرد ان وجهه كان أبيض ، في حين انه كان في الحقيقة سوريا . وكان الملك سعود الذي كان يقيم في مصر من الأسباب الاخرى لسوء التفاهم . وحين كان عبد الناصر في الخرطوم ، دعا الملك فيصل الى زيارة القاهرة ، لكن فيصل لم يكن مستعداً لان يقبل تلبية الدعوة مادام أخوة مقيماً في القاهرة . وكان موقف عبد الناصر في هذا الشأن ان سعود لاجىء سياسي ، ولا يمكن اخراجه من البلاد . وزاد الامر سوءاً ان الملك المنفي كان يقيم في منزل كان فيصل يعتبره من املاكه . وحين توجه اليه بعض المسؤولين المصريين ، بناء على طلب من فيصل ، يطلبون منه مغادرة

المنزل انفجر في البكاء ، وقال ان من المستحيل عليه ان يغادره .

وكان من بين الزوار العرب الذين جاؤوا الى القاهرة في ذلك الوقت الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف الذي كان في طريق عودته من باريس حيث اجتمع مع الرئيس ديجول . وكان عبد الناصر شجع العراقيين على أن يجسوا نبض الفرنسيين لمعرفة مدى استعدادهم لان يكونوا موردين للسلاح . فعلى رغم انه كان يعرف ان الاتحاد السوفييتي لابد ان يظل دائماً المصدر الرئيسي الذي ليس أمام مصر بديل فى الاعتماد عليه ، كمورد رئيسي للسلاح ، فانه قد تنشأ فجوات يمكن دولا اخرى أن تسدها . وكان في طائرة الميراج التي ينتجها الفرنسيون كمقاتلة قاذفة ، ما يناسب احتياجات مصر . بينما ظل الاتحاد السوفييتي لسنوات عدة يعتمد على القذائف المتوسطة المدى والطويلة المدى ، ولم يبدأ التفكير في ما تتطلبه الحرب المحدودة من أسلحة تقليدية الا في الفترة الاخيرة . وقد ذكر الرئيس عارف ان زيارته لفرنسا حققت نجاحاً فاق ما كان يتوقعه ، وقال انه اعجب جداً بالرئيس ديجول ، وانه حين طلب منه الطائرات جاءه الرد على الفور : « نحن مستعدون » . . وقال عارف انه احس بأن ديجول لم يكن يحب ان يتكلم بصراحة امام وزرائه ، ولم يتبحبح في الكلام معه ، الا في اثناء توديعه له على سلالم قصر الاليزيه ، حيث قال له بلهجة من يتحدث عن خبرة : « الهزيمة يجب الا تعني انهيار الروح المعنوية » . وأضاف : « أنت تعرف اننا نساندكم . . حتى لو احتجتم الى الجيش الفرنسي » .

والى جانب الزوار العرب الذين جاؤوا الى القاهرة للقاء عبد الناصر ، كان هناك في ذلك الوقت العديد من الوسطاء في القاهرة وخارجها . ومن بين هؤلاء ناحوم جولدمان (رئيس المنظمة الصهيونية العالمية) الذي حاول الاتصال بعبد الناصر عن طريق الرئيس تيتو ، ولكن اتضح بعد خطابين تبادلهما كل من جولدمان وتيتو مع الاخر ان الامر لن ينتهي الى شيء . وكانت هناك محاولة أخرى أكثر جدية في هذا الصدد قام بها الرومانيون الذين كانوا وحدهم من بين أعضاء دول الكتلة الشرقية الذين لم يقطعوا بعلاقاتهم باسرائيل في العام ١٩٦٧ . والحقيقة ان جدعون رفائيل - وهو أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الاسرائيلية - كان في ذلك الوقت يقضي بضعة أسابيع في بوخارست ، ويحمل معه رسائل من حكومته تؤكد اهتمامها باجراء اتصالات مع مصر . وقد جاء نائب وزير الخارجية الرومانية بترو بورناكو في أكثر من زيارة للقاهرة حينذاك . ولم يحاول عبد الناصر ان يصده احساساً منه بأن الرومانيين يعبرون على الارجح وجهة نظر في الكتلة الشرقية اوسع مما كان معترفاً به بوجه عام . وقال عبد الناصر له يوماً : « لا بأس . . ان ما اريدك ان تأتيني به من الاسرائيليين ، خريطة تبين ما يرون أنه الحدود النهائية التي يجب ان

تكون اسرائيل » . وبعد ذلك لم يسمع عبد الناصر من الرومانيين شيئاً .

ولم تخرج محاولة هيلاسلاسي في هذا الصدد عن قصة الوساطة الرومانية . كان الامبراطور متعاطفاً ، يقول انه هو نفسه قد فقد بلاده يوماً ، وان الايطاليين عرضوا عليه في أثناء وجوده في المنفى مبلغ ثلاثه ملايين جنيه وأربعة قصور فى مقابل تنازله عن العرش . وكان كذلك متصلا اتصالا مباشراً بالنزاع العربي - الاسرائيلي ، لان لديه وثائق تثبت ان الرئيس ترومان عرض على الاسرائيليين في وقت ما أجزاء من اثيوبيا لتكون وطناً قومياً لهم . وقد طلب منه عبد الناصر الطلب نفسه . وقال له : « انك ستقابل ايبان فى أديس أبابا خلال أيام قليلة . . فأطلب منه خريطة عما يرون انه الحدود النهائية التي يجب ان تكون لاسرائيل » . ومرة أخرى لم يسمع شيئا بعد ذلك .

وكانت المشكلة الرئيسية العسكرية التي واجهت عبد الناصر ومستشاريه في ذلك الوقت ، حين كانت حرب الاستنزاف فى بدايتها ، هي طريقة الاحتفاظ برأس جسر على الضفة الاخرى من قناة السويس . وقد نجحت دوريات الكوماندوس التي تعمل ضمن الخطط التى تحمل الاسمين الرمزيين « تحرير ۱ » و « تحرير ۲ » في اختياز القناة والبقاء في سيناء لفترات تصل الى ١٤ ساعة قبل أن تعود . وكانت البعثة العسكرية الروسية ترى ان تقضي هذه الدوريات فترات أطول في سيناء ، لكن عبد الناصر كان يرى أن مصير القائمين بأى عمل يتجاوز الغارات التي تقوم على أساس : اضرب واجر ، هو الابادة اذا لم يكن هناك غطاء من القذائف يحميهم . وكان على مصر ، باختصار ، أن تواجه حقيقة ان اسرائيل احرزت تقدماً كبيراً عليها فى الجو ، وأنه ليست هناك وسائل سريعة للحاق بها الا عن طريق بناء نظام للدفاع الجوي .

كان المعروف من تقارير المخابرات ان اسرائيل لديها نحو ٥٠ من صفوة الطيارين وملاحي الطائرات الذين كانوا ينقلون من جبهة الى أخرى ، ومن مهمة الى أخرى ، والذين كانت ساهمت اعمالهم الفذة في بناء اسطورة السلاح الجوي الاسرائيلي الذي لا يقهر . وكانت هذه الاسطورة في حد ذاتها ، عامل ردع فعال ، لكن تجربة حرب اكتوبر (تشرين الاول) أظهرت ان المستوى العام للسلاح الجوي الاسرائيلي لم يكن بأي مقياس على تلك الدرجة من الكفاءة التي كانت لتلك الصفوة القليلة من الطيارين .

واذ بدا واضحا ان من المستحيل على مصر ان تحقق التفوق في الجو - او حتى الوقوف فيه على قدم المساواة - فاننا كنا مضطرين الى البحث عن بدائل أخرى . وهكذا عادت مرة أخرى الى توجيه اهتمام متزايد الى فكرة الجبهة الثانية ، لكنها لم تخرج بالكثير من هذه الاجتماعات ، وكانت المشكلة الرئيسية هي مشكلة الصراع بين سوريا والعراق . كان حرب

البعث هو الحاكم في سوريا ، وكان بين أعضاء الحكومة العراقية عدد من البعثيين ، ولكن عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية لم يكن بعثيا . وحين وقع الانقلاب البعثي الذي أقصاه عن حكم العراق ، ظل الصراع بين جناحي البعث كما كان على أشده .

وكانت الخلافات الشخصية بين الافراد والحكومات سبباً في أضاعة الكثير من الوقت في اجتماعات كان المفروض عقدها لبحث الاستراتيجية . صحيح ان حصيلة هذه الاجتماعات من الورق كانت كبيرة ، ولكن ـ كما شكا عبد الناصر مرة ـ « أظنني قرأت ووقعت عدداً ضخماً من الوثائق . . . ولكن ما هي حصيلة ذلك كله » ؟ وكان ما يقلقه على وجه الخصوص ، هو ما اذا كان هناك أي ضابط عربي يستطيع قيادة الجيوش المشتركة في الجبهة الشرقية . وكان يرى ان لدينا ضابطاً قادرين على قيادة لواء وربما قيادة فرقة ، ولكن قيادة جيش بحاله امر يتطلب قدرات من طراز آخر ، ولم يكن يعرف أين يعثر على أصحاب مثل تلك القدرات . وكان يحذر كبار الضباط باستمرار من أخطار التهاون في الامور ، او اهمال عنصر السرعة في الحرب الحديثة ، ويشعر أن الجيوش العربية منتشر اكثر من اللازم ، وأنها لا تزال محكومة بالعقلية الدفاعية ، كما كان يرى ان الاعتبارات السياسية هي التي تحكم الاستراتيجية العسكرية بدلا من أن يكون العكس هو الصحيح .

وكان عبد الناصر هو الذي شجع الرئيس عارف على السفر الى فرنسا ، وقال له : « حتى لو لم يكن موقف فرنسا مؤيداً لنا كما هو حالة ، فلابد لنا من أن نتظاهر بأنه مؤيد لنا « لاننا محتاجون الى جسر يربطنا بالغرب » . كذلك ، فانه شجع العراقين على محاولة الحصول على طائرات الميراج . وبالطريقة نفسها ، فانه حين ذكر الملك حسين انه يبحث عن طلب اسلحة من الروس (بعد ان احس بخيبة الامل بالنسبة الى ما يحصل عليه من الولايات المتحدة وبريطانيا) نصحه عبد الناصر بالا يفعل ذلك ، وقال ان من الخطأ ان تعتمد اسرائيل اعتماداً كلياً على أسلحة الغرب ، وان يعتمد العرب اعتماداً كلياً على الاسلحة الروسية . وأضاف : « خذ أسلحة امريكية ان كنت تستطيع ان تحصل عليها ، وأضف اليها ما تستطيع ان تأخذه من اي مكان آخر » . تلك كانت نصيحته للملك حسين .

الجزء الثالث

دخول الفلسطينيين

بحلول ١٩٦٨ بدأ أرهاق الأحداث يؤثر على صحة عبد الناصر . كان عبد الناصر يشكو من مرض السكري منذ سنوات عدة ، واصبح الآن يتعرض لنوبات من الالم الشديد . وفي شهر يوليو (تموز) سافر الى الاتحاد

السوفييتي ليبحث - اساسا - في اسباب التأخير في شحنات الاسلحة ، وليؤكد للسوفييت مرة اخرى الحاجة الى مقاتلة - قاذفة تستطيع ان تواجه الطائرات الاسرائيلية « الفانتوم » الاميركية الصنع . وانتهز فرصة وجوده في الاتحاد السوفييتي لإجراء فحص طبي في مستشفى بيرفيكا . وفي تلك الظروف ، فضل الا يعامل كضيف رسمي ، ونزل في احد بيوت الضيافة الكبيرة في تلال لينين المطلة على نهر موسكفا . وكانت للرحلة اهميتها من ناحية اخرى ، لان عبد الناصر صحب معه ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ، وكانت تلك اول مرة يذهب فيها عرفات الى موسكو .

وكانت المرة الاولى التي اتصلت فيها جماعة « فتح » بالسلطات المصرية في العام ١٩٦٦ . وفي ذلك الوقت كانت المخابرات المصرية مسؤولة عن كل أوجه النشاط السري والحركات الوطنية في العالم العربي ، وكانت ، للأسف ، مقتنعة بأن « فتح » فرع من جماعة الاخوان المسلمين ، التي حلتها السلطات المصرية واوقفت نشاطها عقب المحاولة التي قام بها احد اعضائها لاغتيال عبد الناصر سنة ١٩٥٤ وكان لهذا الاعتقاد اثره في ان الاتصالات الاولى لم تسفر عن شيء . وحين وصل خالد الحسن (أبو السعيد) الى القاهرة كممثل عن « فتح » جاء لمقابلتي ، وحاول ان يشرح لي ما تمثله حركة « فتح » ، وحاولت ان امهد له السبيل ، لكن الشكوك بالنسبة الى الحركة كانت من القوة بحيث كان من المستحيل اجراء اي اتصال في شأنها مع عبد الناصر او بالمشير عامر . وفي بداية العام ١٩٦٧ كان عبد الناصر قد بدأ يفكر في الطرق والوسائل لتنشيط جبهة ثانية ، وكان اسم « فتح » قد بدأ يرتبط همسا بعدد من العمليات العسكرية المحدودة ، كان من شأنها ان اصبحت الاحتمالات اكثر اشراقا . ثم جاء الى القاهرة فاروق قدومي (ابو اللطف) ، وانضم اليه بعد ذلك صلاح خلف (ابو اياد) ، وكانا على موعد معي جرى ترتيبه سرا ، وقد صحبتهما لمقابلة عبد الناصر ، وتم الاتفاق على ان ينضم اليهما ياسر عرفات ، وان يضمنا كلنا اجتماع آخر .

وتحدد موعد للاجتماع ، لكن المخابرات المصرية لم تكن قد غيرت رأيها بالنسبة « فتح » . وفي صباح اليوم المحدد للاجتماع تلقيت مكالمة تليفونية من احد اعوان عبد الناصر قال فيها : « اننا لا نريد ان نزعج الرئيس ، لكننا نجد انه لابد ان نبلغك اننا لسنا مرتاحين الى نوايا الرجال الثلاثة الذين سيتوجهون معك لمقابلة الرئيس بعد ظهر اليوم . ونرجو ان تبلغهم انهم سيخضعون للتفتيش قبل مقابلة الرئيس ، وان سلاحهم سينزع منهم اذا كانت هناك ضرورة لذلك » . وقلت : « ارجوكم ... اتركوا هذه المسألة لي .. ولا تفتشوا احداً » .

وجاء الفلسطينيون الثلاثة الى مكتبي من مكان مؤتمن في القاهرة

تستخدمه « فتح » في قلب العاصمة لنذهب معا الى بيت عبد الناصر في منشية البكري . وصحبتهم في سيارتي التي ، توليت قيادتها بنفسي . وفي الطريق حاولت ان اعالج المسألة باكبر مقدار من اللباقة والذوق ، وقلت لياسر عرفات الذي كان يجلس الى جانبي في المعقند الامامي : « ما هذا الذي تحمله . . . مسدس ؟ انك ستخيف الجميع . . وانت يا ابو اياد . . هل تحمل مسدساً ايضا » وقال عرفات انه يشعر بانه عار تماما من دون مسدس ، بينما قال ابو اياد انه لا يستطيع ان يخطوة خطوة بدون مسدس . وقلت « وانت يا ابو اللطف ؟ » فرد « انا مدني ، ولا احمل مسدسا » . وعندما وصلنا الى منزل عبد الناصر ودخلنا الى الصالة جاء سكرتير عبد الناصر يهمس في اذني انه لابد لحرس الرئاسة من ان ياخذوا مسدسات السادة ، فقلت له ان يبتعد . وفي تلك الاثناء تنفست الصعداء اذ رأيت عرفات وابو اياد يخلعان أحزمة مسدسيهما تلقائيا ، ويضعانها على احد المقاعد لمجرد ان صعدنا لمقابلة عبد الناصر .

وبدأ عبد الناصر الاجتماع ضاحكا : « طبقا لرسالة تلقاها رجال مخابراتنا من الكويت ، فانكم انتم الثلاثة انما جئتم الى هنا لتغتالوني » . وقلت ان هذا هو السبب في اني حاولت ان احملهم على خلع سلاحهم . وقد احتج ثلاثتهم بأن هذه الرسالة لا تزيد عن مجرد محاولة يقوم بها البعض للوقيعة بين مصر و « فتح » . وعندئذ شرح عبد الناصر وجهة نظره في حركة المقاومة الفلسطينية ، وقال انه لا يرى سببا لأي تناقص بين مصر وبينها ، واننا قبلنا قرار مجلس الامن المرقم ٢٤٢ على رغم اننا لا نأمل كثيرا في ان يؤدي الى شيء لانه يحقق مطالب مصر وسوريا والاردن اذا طبق تطبيقا تصحيحا . اما بالنسبة الى الفلسطينيين فان مصر تعلم ان القرار لا يحقق مطالبهم ، « ولديهم كل الحق في عدم قبوله » ، واضاف : « وليس هناك من سبب يدعوكم الى عدم معارضة القرار علانية ، لانه لم يوضع من اجلكم » .

ومضى عبد الناصر في حديثه مع الرجال الثلاثة فذكر ان من بين المشاكل التي تواجه مصر مشكلة عدم وجود عنصر فلسطيني في الصراع . ثم قال : اني سأشعر بسعادة لا توصف لو استطعتم ان تمثلوا الشعب الفلسطيني ، وتمثلوا الادارة الفلسطينية على المقاومة : سياسيا باشتراككم ، وعسكريا باعمالكم » . وقال انه يجب على « فتح » ان تكون مستقلة تماما عن جميع الحكومات العربية ، وان يكن عليها ان تنسق اعمالها معها . وتساءل : « ولماذا لا تكون بالنسبة الينا كما كانت جماعة شترون ؟ . . او جماعة بيجين (بالنسبة الى اليهود) ؟ . . ان عليكم ان تكونوا سلاحنا غير المسؤول . . وعلى هذا الاساس فاننا سنقدم اليكم كل ما نستطيع من عون » .

وكـان الاجتـماع طيبـا ، بدأت السلطات المصرية بعـده تنسيق نشـاطهـا مع « فتـح » وتعـاون في تدريب رجـالهـا وتـزويـدهم بالسـلاح . ولم يكن الاردنيـون سعـداء بهذا التـطور ، وفي يوم اكتشفـوا طائـرتـين من بين الطائـرات التي وصلت الى مطار عمان كانتـا محملتـين بالسـلاح المرسـل الى رجـال المقـاومـة الفلسـطينيـة ، وارسـل الملك حسـين رئيس وزرائه بهجت التلهـوني الى القـاهـرة اكثـر من مرة يشكـو من العـون الـذي تقـدمـه مصر الى المقاومة .

وفي اعـقـاب سلسـلة الـغـارات الاسرائـيليـة على قواعـد المقـاومـة في الاردن ، بدات المقـاومـة محاولات لشراء السـلاح من اوروبـا الغـربيـة . وكـان زعـماء المقـاومـة قد قرأوا في مجلة « افييشن ويـك » (اسبـوع الـطيران) عن صاروخ مضـاد للطائرات اسمـه « رد آي » (العـين الحمـراء) يمكن رجلا واحد ان يحمله (وهـو الصنو الامـريكي لصـاروخ « ستريلا » الروسي الذي لعب دورا بالـغ الاهمية في حرب اكتوبـر (تشرين الاول) ١٩٧٣) . ولما كانـوا يريـدون ذلـك الصـاروخ ، فاني اقـترحت على عبـد النـاصر ان يقـدمهم الى الـروس يتفـاوضـون معهم للحصـول على الاسلحـة منهم ما دامت متـطلبـات المقـاومـة تفوق المدى الذي تستطيع مصر ان تزودهم به بسهولة .

وهكـذا سافـر عرفـات مع عبـد النـاصر الى موسكـو في العـام ١٩٦٨ ، قد سافـر بجـواز سفـر مصري صدر اولا باسم محسن امـين ثم تغـير باسم عبـد الـفتـاح ابـراهيم ، ووضـع اسمـه ضمن قائمـة اسـماء الفنيـين من اعضـاء الـوفـد . وكـانت الـطائـرة التي سافـرنـا عليهـا طائـرة سوفييتية ، لأن الـروس كانـوا يرون ان هنـاك خطرا حقيقيـا على سفـرنـا على طائـرة مصرية احتمالا لان يهاجمهـا الاسرائـيليـون فوق البحـر الابيض المتـوسط . وطـوال الـرحلة الـتي اسـتـغـرقـت خمس ساعـات كان عبـد النـاصر يحس بالألم شديـدة ولا سيما في ساقيـة وفخـذيه ، وقـد قضى الـرحلة كلهـا راقـدا على سريـر . وحـين اقـتربنـا من موسكـو ذكـرتـه ان الفـرصـة لم تتح لعـرفـات للتحـدث اليه خلال الـرحلة وأقـترحت أن آتي به اليـه ليبحثـا في الخـطة معـا خلال ربـع السـاعـة البـاقـي على هبـوط الـطائـرة . ووافق عبـد النـاصر على الاقـتـراح ، ثم قام وارتـدى ملابسـه وبعـدهـا جئته بعرفـات . لكن الـطائـرة تعـرضت في اثنـاء الهبـوط لعـاصفـة جويـة ، ازرق خلالهـا لون عرفـات ، وبـذل جهـدا جبـارا للسـيطـرة على نفسـه حتى لا يبـدو ـ وهـو زعيـم « فتـح » ـ في صورة غير مناسبة في اول زيارة له لموسكو .

وانـقـضـى معـظم اليـوم الاول في بحث المشكلة الاصليـة : مشكلة امـدادات الســلاح . وكـان لدى الـسـوفـييت بعض الشكـوى من ان مستشـاريهم في مصر لا يلقـون التعـاون الكـافي ، لكنتنـا اسـتـطعنـا ان نتـوصـل الى اتفـاقيـة جديـدة بشـأن دفـع مرتبـات هؤلاء المستشـارين بالجنيـه الاسـترليني . وبعـد تنـاول الـغـذاء قدم عبـد النـاصر ياسر عرفـات الى كوسيـجـين وبـريجنيف

وبودجوروني . وفي اليوم التالي طلبوا من عرفات ان يحضر الى مبنى اللجنة المركزية حيث قابل مازاروف مسؤول حركات التحرر الوطني واثنين من الجنرالات ، وقدم اليهم فكرة عن اهداف المقاومة وقوتها واحتياجاتها .

وصباح اليوم الثالث توجه عبد الناصر إلى المستشفى ، وصحب معه انور السادات وكان عضوا في الوفد المصري . واذكر اني قضيت ذلك الصباح في السفارة المصرية اكتب مقالي ، والتقيت الفريق عبد المنعم رياض الذي كان يضع قائمة باحتياجاتنا من امدادات السلاح ، وتوجهنا من هناك الى البيت الذي يقيم فيه عبد الناصر على تلال لينين في نحو الساعة الواحدة . وكان عبد الناصر قد عاد من المستشفى وترك ورسالة بأنه يود ان يراني . وكنت اتوقع ان القاه في حديقة المنزل لانه كان وعد بأن يقابل ياسر عرفات وانا معه في الحديقة التى تطل على نهر موسكفا والتي تغطيها اشجار الكريز . وكانت هذه اول زيارة يرى فيها عبد الناصر أشجار الكريز محملة بالثمار ، وقال عندئذ : « عندما اعود من المستشفى سنقطف كلنا مزيدا من ثمار الكريز لنأكلها على الغداء » . ولكن قيل لي انه ليس في الحديقة وانما في غرفته ، فصعدت اليه . وعلى السلالم التقيت انور السادات وسألته عن صحة الرئيس ، وعن نتيجة الكشف عليه في المستشفى . ورد السادات بأن كل شيء على ما يرام، وان الامر لا يعدو مجرد بعض الروماتيزم » . ودخلنا معا الى غرفة الرئيس .

وجدنا عبد الناصر راقدا على السرير وهو يرتدي « البيجاما » وكان الالم الشديد باديا عليه بوضوح . ورأيتني أسأله : « ما هذا ؟ . . لا تقل لي انه روماتيزم » . ونظر عبد الناصر الى السادات وقال : « انور . . أظن ان من الافضل ان تقول الحقيقة لمحمد » . وقلت للسادات : « ما الخبر ؟ » . فقال « ليس بالامر الخطير . . انه تصلب شرايين في الساقين سببه زيادة نسبة السكر الناجم عن مرض السكر . لكنهم يقولون ان من الممكن شفاؤه بالعلاج بالمياه المعدنية في سخالطوبو » . وقال عبد الناصر : « لقد تحدثت مع انور في هذا الشأن في اثناء عودتنا من المستشفى ، لانهم يرون ضرورة هذا العلاج ، والا فان الحالة قد تصبح خطيرة » .

وفي هذه اللحظة نقر الفريق عبد المنعم رياض ـ وكان عبد الناصر قد ارسل طلبه ايضاً ـ يستأذن في الدخول ودخل ، وجلس الى جانبي على طرف سرير الرئيس ـ بينما كان السادات يجلس على كرسي ـ واستمع منه الى حقيقة مرضه . وهكذا اصبح عدد من يعرفون اربعة . وكادت الدموع تطفر من عيني الفريق رياض ، لكنه حاول اخفاءها . وقال عبد الناصر وهو يحاول ما في وسعه ان يطمئننا : « على اي حال ، فانهم يقولون لي ان المسألة ليست خطيرة اذا اجريت العلاج اللازم . وعلى ذلك

فاني سأعود الى القاهرة لاحتفالات ٢٣ يوليو ، (تموز) ، وبعدها مباشرة سأسافر الى سخالطوبو . وهم يقولون ان مدة العلاج قد لا تستغرق اكثر من نحو شهر » . ثم قال انه لا يريد ان يتناول اي طعام للغذاء ، وانه يحس بالتعب ، وطلب الينا ان ننزل الستائر على نوافذ غرفته ونتركه لينام.

وخرجنا ثلاثتنا ، وذهب السادات ليحصل على قسط من الراحة ، ونزلت مع الفريق رياض الى الحديقة . وكان الفريق في اشد حالات القلق ، وسمعته يقول : « ستكون كارثة محققة لو حدث له شيء ، اذ لا يمكن انساناً آخر ان يفعل كل ما يفعله . تصور انه كان يخفي كل هذه الالام طوال هذه الفترة التي بذل فيها من الجهد ما بذل . . . ذلك لم يخطر لي على بال أبداً » .

وهكذا عدنا من موسكو ، وابلغ عبد الناصر مجلس الامة انه سيسافر للعلاج في سخالطوبو . ولاول مرة ادرك الشعب ان هناك ما يشكو منه الرئيس بالنسبة الى صحته .

وكان من رأي البروفسور شازوف الذي اشرف على علاج عبد الناصر انه اذا استمر علاجه سنوات عدة فانه سيبرأ تماما . وكان المفروض ان يسافر الرئيس الى سخالطوبو لفترة شهر آخر من العلاج في يوليو (تموز) ، لكن السفر أجل الى سبتمبر (ايلول) لان حرب الاستنزاف كانت بدأت تسخن ، ولانها الفترة التي بدأت فيها غارات العمق الاسرائيلية على مصر ، وكانت نجع حمادي ونظام الري المصري كله هدفها .

وفي اوائل العام ١٩٦٩ بدأ الروس يزودوننا وبصواريخ « ستريللا » المحمولة والتي تستخدم ضد الطيران المنخفض ، وبسيارات « جزاد » المدرعة المزودة بالعديد من قذائف الصواريخ . وكان ألكسندر شلبين ، عضو المكتب السياسي هو الذي احضر معه اول قائمة بهذه الامدادات . وقال له عبدذ الناصر عندما التقاه اننا وان نكن بحاجة دائمة الى المزيد من الامدادات السوفييتية فان على الروس الا يظنوا اننا لا نقدر ما قدموه ايضا بالفعل ، واضاف : « اني اقول دائماً لاصدقائنا العرب ولشعبنا المصري انه حتى وان يكن البطء طابع الروس الا انهم في النهاية يعطوننا ما نطلب . وهذا اهم شيء ، وهو ما يجعلهم مختلفين عن الامريكيين . ان الملك حسين سافر اكثر من مرة ليقابل الرئيس جونسون ويطلب منه سلاحاً ، لكنه لم يحصل على طائرةواحدة . وانتم في بعض الاحيان تثيرون غضب من يتعاملون معكم . . لكنكم في النهاية تعطون » .

وحين جاء سبتمبر (ايلول) كان الموعد تحدد لعقد مؤتمر مهم ي القاهرة لحكومات الدول التي أطلق عليها اسم « دول المواجهة » حضره ممثلون عن سوريا والاردن والعراق ، والرئيس السوداني جعفر نميري - الذي كان تولى الحكم في السودان عقب انقلاب حدث في شهر مايو (ايار) - ثم انضم اليه بعد انعقاد بوقت قصير الرئيس الجزائري

هواري بومدين . وكان لاجتماعات مؤتمر المواجهة هذه اثر عجيب في بعض الدول العربية الاخرى التي لم تكن مشتركة اشتراكا فعليا في المعركة والتي كانت مع ذلك تشعر بشيء من الغيرة لعدم اشتراكها في هذا المؤتمر . وعلى سبيل المثال فأن الملك الحسين ، ملك المغرب ، اختار وقت انعقاد هذا المؤتمر ليدعو الى فكرته في عقد مؤتمر « قمة » عربي جديد . وقد اشار عبد الناصر اشارة خفيفة الى هذا النوع من المواقف خلال كلمة القاها في احد اجتماعات المؤتمر حين قال : « اننا نريد ان نرى الجميع حاضرين هنا ، لكني لست واثقا مما يمكن ان يحدث حين نجتمع كلنا معا . ان الكثير مما يقال يتسرب ، وتبرز الى السطح اغرب المنازعات الشخصية . واذكر ، على سبيل المثال ، اني قابلت الرئيس بورقيبه منذ فترة غير بعيدة ، وكنا غارقين في الحديث في مسائل سياسية خطيرة حين رأيته ينظر الى فجأة ويقول : قل لي . . لماذا أنت طويل وانا قصير ؟ « وقد ذهلت للسؤال ، وقلت اني لا اعرف ردا عليه وان يسأل الله سبحانه وتعالى . واظن ان لدينا بالفعل ما يكفينا من المشاكل التي لم تجد حلا ، ولسنا بحاجة الى اضافة مزيد لها من نوع : لماذا بعض الناس طوال وبعضهم قصار » .

وفي الجلسة الاولى للمؤتمر التي عقدت يوم اول سبتمبر (ايلول) قرأ الفريق محمد فوزي تقريراً مهماً عن الموقف السياسي والعسكري اعده رؤساء اركان دول المواجهة ، اختتم بأنه في حال التنسيق اللازم بين الجيوش المعنية (والذي يفترض بطبيعة الحال خلق جبهة ثانية عاملة) فانه يصبح في امكاننا ان نكون مستعدين للمعركة خلال ثمانية عشر شهراً .

الجزء الرابع

الثورة الليبية

كان الملك حسين يلقي في الجلسة الاولى للمؤتمر حين تلقى عبد الناصر وهو في الجلسة اول نبأ يقول ان انقلابا وقع في ليبيا ضد الملك ادريس . وكان الحدث مدعاة الى بعض الحرج لما هو معروف عن العلاقات الوثيقة التي تربط الملك حسين بالملك ادريس ، ذلك ان الدول « التقدمية» ستشعر لا محالة ان اقصاء احد ملوك قد يكون مقدمة لاقصاء ملك آخر .

وبمجرد ان اذيع النبأ راحت الوفود تناقش اهميته . وكان عبد الناصر لبقا حين وقف وقال : « اذكر اننا في احدى الفترات في حاجة ماسة الى المال لشراء السلاح . وقد ارسلت حسن صبري الخولي لمقابلة الملك الذي وعد بأن يقدم الينا على الفور مبلغ ٢٠ مليون جنيه ، ولم يكن له الا

طلب واحد هو : ان نعيد اليه « مسبحة » كان احد اجداده قد اعطاها للجامع الازهر ولا تزال ، على ما يظن ، معلقة هناك . وقلت لحسن صبري الخولي ان يذهب الى الازهر ويأتي بالمسبحة ويقدمها الى الملك . ففعل » .

وكان الجميع بطبيعة الحال يحاولون التخمين حول من يمكن ان يكون هؤلاء الذين قاموا بالانقلاب . هل هم بعثيون ؟ هل هم ناصريون ؟ ام ماذا؟ وجاء اول مفتاح لحل لغز « هويتهم من قسم الاستماع في « الاهرام » الذي التقط واحدا من بلاغاتهم الاولى وفيه ان اهدافهم هي : « حرية ، اشتراكية ، ووحدة » . وكان في ذلك ما يبين انهم ليسوا بعثيين ، لان شعار البعث كان دائما : « وحدة اشتراكية ، وحرية » .

وعلى رغم ان ترتيب كلمات الشعار قد لا يبدو مهماً ، الا انه يجسد الخلاف بين عبد الناصر والبعث ، فقد كان عبد الناصر يرى ان الوحدة لا يمكن ان تتحقق من دون الحرية ، وبالتالي فلابد للحرية من ان تتحقق اولا . وعلى أي ، حال فأني حين قرأت تقرير الاستماع اتصلت بعبد الناصر في قصر القبة وقلت له انه يبدو ان من قاموا بالثورة قريبون منا في تفكيرهم . وفي الوقت نفسه تقريبا اوفد مجلس الثورة مبعوثا هو آدم حواس ، للاتصال بالقنصلية المصرية في بنغازى وابلاغها ان رجال الثورة يريدون مقابلة اي شخصية من مصر . وحين سئلوا عمن يريدون مقابلته بدا وكأن بين الأسماء التي تذكروها لحظتها اسمي انا بسبب مقالاتي في « الاهرام » . وهكذا اتصل بي عبد الناصر وقال : « يبدو ان الناس في بنغازي يريدونك . . وعلى هذا فمن الأفضل ان تسافر الليلة » .

واعدت طائرة خاصة انطلقت بي الى بنغازي . وكانت الرحلة سيئة للغاية . كان مطار « العضم » لا يزال تحت سيطرة الانجليز ، وحين اقتربنا منه قال الطيار انه تلقى اشارة تسأله عمن يكون ، وعمن معه من الركاب ، وعن وجهته . وطلب مني تعليمات يرد بها على الاشارة . ولما لم تكن هناك ردود تعطى له ، فانه قطع اتصاله ببرج المراقبة في مطار العضم وحلق بطائرته شاهقاً . ومن حسن الحظ ان هذه الحركة نجحت لاننا لم نسمع شيئاً بعد ذلك . وكان مطار بنغازي غارقاً في الظلام حين اقتربت طائرتنا منه ، ثم اضيئت بعض انوار احد ممراته لتكشف عن سيارات مصفحة تقف على جانبي الممر . وحين نزلت من الطائرة وجدت في استقبالي مصطفى الخروبي الذي علمت في ما بعد انه عضو في مجلس الثورة . وحين تقدمت منه اقدم نفسي احتضنني وهو يبكي ويقول : « اني لا اصدق عيني » .

وتوجهنا معا الى القنصلية المصرية ، حيث راح يروي لي كل شيء عن الثورة . قال : اننا كلنا مؤمنون بعبد الناصر » . وسألته عمن يكون قائد الثورة ، فقال « ستراه الليلة قبل ان تعود . (كنت قد رتبت للعودة في صباح اليوم التالي) . انك لا تستطيع ان تتخيل مدى طهارته » . ثم سألته

عن رتبته فقال : « ان رتبته اقل من رتبتي لانه تعرض لعقاب . كان نقيبا مثلي ، لكنه انزل الى رتبة ملازم اول » .

وفي نحو الساعة الثانية صباحا جاء معمر القذافي الى القنصلية . وكانت الصدمة بالغة لنفسي حين رأيته ، فقد كان في مقتبل الشباب ، وراودني التفكير في انه ربما كانت في الامر خدعة ، وان هذا الشاب لا يمكن ان يكون قائدا لثورة ناجحة . لكني غيرت رأيي لمجرد ان بدأ يتكلم . لقد راح يتحدث بوضوح في عديد من الموضوعات ، ثم قال فجأة انه واخوانه الضباط يريدون وحدة مع مصر ، وانهم مستعدون للوحدة ، واكد انه كان يتتبع كل ما يجري في العالم العربي ، وانه يعرف ان عبد الناصر يبحث عن جبهة ثانية ضد اسرائيل . واضاف : « لكنه ينسى العمق . ان ليبيا هي العمق . ان لدينا مئات الاميال من الساحل على البحر الابيض المتوسط . . لدينا المطارات . . ولدينا المال . . ولدينا كل شيء . قل للرئيس عبد الناصر اننا قمنا بهذه الثورة من أجله ، وانه يستطيع ان يأخذ منا كل ما نملك ويضيفه الى مصادر العالم العربي الاخرى لاستخدمه في المعركة » .

واخذتني الدهشة البالغة لهذا العرض . وحين عدت الى القاهرة وجدت في انتظاري رسالة في المطار تقول ان الرئيس يريد ان يراني على الفور . وكنت قد صحبت معي في الطائرة مصورا صحفيا لأني كنت اعرف عن عبد الناصر عادة دراسة جميع الصور التي يمكن ان تقع في يده لاي شخص سيتعامل معه . وقد اكدت للقذافي - ولم يكن يريد لاي من صورة ان تنشر - ان الصور التي ستلتقط له هي من اجل عبد الناصر فقط . وطلبت الى المصور ان يذهب لتحميض الصور وطبعها ، بينما توجهت انا الى منزل عبد الناصر .

وقال عبد الناصر وانا ادخل عليه : « ماذا وجدت ؟ » .

قلت : « مشكلة » .

قال : « لماذا ؟ هل هم ضد مصر ؟ » .

قلت : « ذلك ابعد ما يكون . المشكلة انهم ابرياء الى حد مذهل . . اطهار الى حد مخيف . انهم رجالك . . يريدون الوحدة معك » .

ولم تكن دهشة عبد الناصر لما قلت اقل من دهشتي لما سمعت . وجعلني استعيد المرة بعد المرة تفصيلات رحلتي واجتماعاتي مع القذافي ورفاقه . ماذا كانوا يريدون ؟ كيف عامل الاخرون القذافي ؟ هل خرجت بانطباع ان القذافي يسيطر على القيادة بالفعل ؟ وحين قلت ان القذافي لم يكن حالقا ذقنه ، قال : « اجل . . أجل . . أنت على حق في ان تقول لي كل هذه التفصيلات » . لكني لما كنت لم اقض في بنغازي سوى ١٨ ساعة ، وقضيت ليلة بحالها وبعضا من ساعات الصباح التالي بلا نوم ، فقد ظلت هناك اسئلة عدة وجهها الي عبد الناصر ولم يكن في استطاعتي ان

اجيب عنها في تلك الساعة .

وفي اليوم التالي وردت برقية من بنغازي . وكان معي في الطائرة الى بنغازي ، ضابط اتصال عسكري ، وضابط اتصال سياسي من ضباط المخابرات . وقد ظل الاثنان في بنغازي وبعثا من هناك يقولون ان تحذيراً وصل من المانيا الغربية ـ وكانت بين ليبيا وحكومة بون علاقات وثيقة لان المانيا كانت تحصل على كميات كبيرة من البترول الليبي ـ بأن الالمان يساعدون الاتراك على اعداد حملة بحرية تستهدف اعادة الملك ادريس الى البلاد . وكان الملك يقضي اجازة في تركيا حين وقع الانقلاب ، وكانت الفكرة ان من الممكن اعادته بالطريقة نفسها التي اعيد بها الامبراطور هيلاسلاسي في العام ١٩٦٠ حين كان خارج بلاده وحدث ضده الانقلاب الذي دبره ابنه بالتعاون مع الرأس امرو . وقد اثار ما تضمنته البرقية بعض القلق في نفس عبد الناصر لانه كان في ذلك الوقت مهتماً اشد الاهتمام بمسألة العمق اللازم للدفاع عن مصر ، ولذا فقد كان من الاهمية القصوى ان يهيأ للثورة الليبية الوقت الكافي لتدعيم نفسها .

وهكذا . . رأيت عبد الناصر يمسك سماعة التلفون بعدما انتهى من قراءة البرقية ويطلب الفريق فوزي ليقول له : « فوزي . . اريدك ان تهدىء الموقف على جبهة القناة (كان ذلك في وقت بلغت حرب الاستنزاف ذروتها) وتستعد للعمل في الغرب » . وتصورت ما ستكون عليه دهشة الفريق فوزي لهذا الامر ، لكن الحقيقة ان لواء مدرعاً نقل في تلك الليلة الى مرسى مطروح كما ابحرت مدمرتان وبعض الغواصات من الاسكندرية الى هناك .

ولم يسفر مؤتمر المواجهة الذي عقد في القاهرة عن نتائج محدودة ، وبدلا من ان يوافق على التقرير الذي قدمه الفريق فوزي ، فانه قرر ان يعود كبار الضباط انفسهم الذين وضعوا التقرير الى الاجتماع في شهر مارس (آذار) التالي للاتفاق على الخطوط النهائية لخططهم . وكما كان من المتصور فان الموضوع الاول الذي شغل افكار الجميع عقب انفضاض المؤتمر كان : الثورة الليبية ، وما ستنتهي اليه .

وقد كانت لدى الرئيس جعفر نميرى آمال بشأن التعاون بين احداث ثورتين في العالم العربي ، ولاسيما ان السودان كان يواجه مشاكل اقتصادية صعبة . وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) قام نميري بأول زيارة له الى موسكو ، ومر في طريق عودته منها بالقاهرة حيث ناقش نتائج رحلته . وكان من الواضح ان اجتماعاته بالزعماء السوفييت ناجحة للغاية ، فهم قد اظهروا اهتماما كبيرا بالثورة السودانية ، واهتماما اكبر بالثورة الليبية . . من حيث ان ليبيا ـ بطبيعة الحال ـ جائزة دولية اهم ، نظراً لثروتها البترولية وموقعها الاستراتيجي . وقد حذر كوسيجين نميري من ان السودان سيتعرض لضغط شديد من جانب الغرب ، لان الغرب سيرفض ان يفقده . وسأله بريجنيف عن مدى ما حققه السودان من فائدة

من القرض السابق الذي حصل عليه من السوفييت (قبل ان يستولي نميري على السلطة) . ورد نميري بأن بعض المصانع التي انشئت بأموال ذلك القرض اقيمت في مواقع خطأ ، ولا تعمل كما يجب . فقال بريجنيف : « ان واحدة من الصعوبات التي نواجهها هي ان بعض البلاد التي قدمنا لها العون انفقت المال في بناء ملاعب الكرة ، بينما كانت هناك اشياء اخرى هي بحاجة اشد اليها » . وقد بدا بريجنيف مهتما بوجه خاص بالتغلغل الصيني في افريقيا . وحين قال نميري ان السودان لم يتعرض لمثل هذا التغلغل هز بريجنيف رأسه وقال : « حسن جداً » .

وعلى رغم ان مؤتمر المواجهة لم يكن ، من وجهة نظر مصر ، مؤتمراً منتجاً ، الا ان الاسرائيليين ردوا على الثورة الليبية - التي اعتبروها بحق عاملا مشجعا لمصر - بطريقتهم المعهودة . ففي يوم ٩ سبتمبر (ايلول) ، اي بعد انقضاء ستة ايام على انتهاء المؤتمر ، قاموا بغارة على الزعفرانة - وهي موقع مصري على ساحل البحر الاحمر - احاطوها بقدر كبير من الدعاية ، وانزلوا فيها دبابات وسيارات برمائية عدة ، والتقطوا الكثير من الصور لما سموه ب « غزو مصر » . وكان عبد الناصر ، حين حدثت الغارة ، يشهد مناورات للجيش اجريت في الصحراء بالقرب من طريق القاهرة / السويس . وعندما تلقى نبأها طلب من الفريق فوزي - وكان معه - تفصيلات عنها ، لكن الفريق فوزي قال ان كل ما علمه عنها كان مصدره وكالات الانباء . وترك عبد الناصر المناورات وعاد الى القاهرة .

واتصل بي عبد الناصر تلفونيا ، وطلب مني ان أرسل له جميع تقارير وكالات الانباء ، ثم اتصل بعدد من القيادات في الجيش والمخابرات ، لكنه لم يكن هناك من استطاع ان يقول له شيئاً عن مكان الاسرائيليين بالضبط او عما يفعلونه ، بل انه لم يكن هناك من قدم اليه اي تأكيد ان الغارة قد حدثت . وقد غضب عبد الناصر أشد الغضب ، وقال لي بلهجة مرة في آخر اتصال تلفوني له بي في ما بين الساعة السادسة والساعة السابعة مساء ان من الواضح ان بعض الناس لا يزالون يتصرفون « بأسلوب العام ١٩٦٧ » .

وفي ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي استدعيت الى منزل الرئيس . ووجدت هناك كلا من انور السادات وشعراوي جمعة والفريق فوزي سامي شرف وامين هويدي . وقال لي السادات ان عبد الناصر سيسافر في اجازة لمدة شهر ، وسوف تتولى تصريف العاجل من الامور في فترة غيابه لجنة يرئسها السادات نفسه ، وتضمنا نحن الخمسة كأعضاء . فقلت : « لست افهم شيئا مما يحدث ؟ . . هل سيسافر الرئيس الى الخارج ؟ . . لقد كان يتحدث الي بالامس ، ولم يذكر شيئاً من ذلك » . ورد السادات قائلا : « كلا . . لن يسافر الى الخارج ، لكنه سيقيم خارج القاهرة » . لكني لم افهم ما يعنيه وقلت : « آسف . . فلا يمكنني الموافقة

على شيء قبل ان ارى الرئيس » . وقال احدهم : « انه يشكو من الانفلونزا » . فقلت : « ما هذا الذي تقول ؟ وأي أنفلونزا هذه التي تحتاج الى شهر ؟ . . اني ، من ناحيتي ، اخشى اني لا استطيع الاشتراك في اي شيء الى ان أعرف على وجه الدقة اين اقف ، واين سيكون الرئيس . الامر بالنسبة اليكم مختلف ، فأنتم جميعا اعضاء في الحكومة : شعراوي وزير الداخلية ، وسامي سكرتير شؤون الرياسة ، والفريق فوزي قائد الجيش، وامين هويدي مدير المخابرات . اما انا فلا اشغل منصباً رسميا . فكيف يمكن ان ادخل في الصورة ؟ » . وقال السادات : « لاتكن عنيداً » .

وكنا مجتمعين في كتب سامي شرف في مبنى يطل على الطريق المؤدي الى منزل الرئيس مباشرة . وكان الوقت ليلا ، والضوء يبدو واضحا في غرفة عبد الناصر . وبعد برهة قال السادات : « طيب . . سأذهب لارى ما يمكن عمله » . وعاد بعد ربع ساعة ليقول لي : « ان الرئيس سيراك ، وسيبلغك بنفسه ما يريد منك ان تفعله » . وهكذا ذهبت مع السادات عبر الشارع الى منزل عبد الناصر ، وصعدنا الى الطابق الثاني ، حيث كان عبد الناصر يجلس على مقعد يأكل طعامه المفضل من الجبن الابيض . وبدا شاحباً ، ذقنه غير محلوقة على غير عادته تماما . وبدأت قائلا : « انني لست افهم شيئاً مما يحدث الآن » . فقال : « انفلونزا . . واعتقد انه لابد لي من الراحة ، فالاطباء كلهم يقولون انه لابد ان استريح وان ابقى في السرير » . قلت : « ولكن لماذا تريدني ان انضم الى هذه اللجنة ؟ » . فقال : « أنت تعرف الخطوط الاساسية لتفكيري . ان الاخرين كلهم يشغلون مناصب رسمية ، أما انت فتعرف الطريقة التي يعمل بها عقلي ، ولذا فاني اريدك في هذه اللجنة » . قلت : لكن هذا أمر مختلف جداً . فمناقشة المسائل معك شيء ، وبحثها مع الاخرين شيء مختلف تماما » . قال : «افعل ذلك من أجلي » . قلت : « من أجلك سأفعله عن طيب خاطر » .

واذ كنا قد بدأنا نستعد للخروج قلت لعبد الناصر : « اهناك شيء آخر لا تريد ان تقوله ؟ » وقال : « انها أزمة قلبية » . قلت « أزمة قلبية » . قال : « يقولون انها ليست خطيرة » . وحين خرجنا من الغرفة سألت السادات عمن عادة من الاطباء ، فذكرهم لي . وسألت : « اليس من الواجب علينا ان نأتيه بأخصائي أجنبي يكشف عليه ؟ » . فقال السادات ان الصعوبة هي اننا اذا احضرنا اي اخصائي من أمريكا او من بريطانيا فان الاسرائيليين سيعرفون على الفور ، وسيكون الخبر في الصحف كلها . قلت : « ولم لا نحضر أخصائيا من الاتحاد السوفييتي » . وقال السادات : « انها فكرة طيبة » . واتصل بالسفير السوفييتي .

وان هي الا فترة قصيرة حتى كان البروفسور شازوف يركب طائرة خاصة حملته من موسكو الى القاهرة . وبعد ان كشف على عبد الناصر كان قراره : لا سخالطوبو (كان عبد الناصر بدأ يستعد للسفر الى سخالطوبو

لاجراء المرحلة الثانية من العلاج) لان قلبه لن يتحمل العلاج بالمياه المعدنية . وبدلا من ذلك فلابد من ان يتبع نظاما جديدا لحياته شديد القسوة. عليه ان يبقى في الفراش ستة اسابيع على الاقل ، لا يقابل خلالها احدا ويتوقف عن العمل تماما ، هذه هي النصيحة الاولى ، والنصيحة الثانية ان عليه بالطبع ان يواصل التوقف عن التدخين تماما ، وكان الدكتور شازوف ايضا نصحه بالاقلاع عنه عند اكتشاف مرضه بالتهاب الشرايين العام ١٩٦٨ في موسكو . ونظر عبد الناصر الى البروفسور وقال : « انت تحرمني من شيئين .. احدهما احبه ، والاخر لا استطيع ان ابعده عني . العمل حياتي .. والتوتر قدر مفروض علي ..» .
وقد اتبع عبد الناصر هذا « الريجيم » بدقة ثلاثة أيام ، لكنه بعدها راح يمسك بسماعة التلفون ويصدر التعليمات لمن يتحدث اليهم . وعاد الى اتصاله بكل شؤون الدولة التي كان يمارسها . وقد اعفاني ذلك من مهمة لم اكن متحمسا لها ، لاني لم اجد داعيا بعد ذلك لحضور اي اجتماع من اجتماعات اللجنة التي كلفها تصريف الامور في غيابه .

وقد استمر الضغط على اشده في بعض الدوائر لعقد مؤتمر قمة للدول العربية كلها ، على رغم ان الجزائر وسوريا كانتا ضد الفكرة . بل ان الكويت والسعودية كانتا ضدها ايضا ، وقد بعث الملك فيصل برسالة الى القاهرة يقول فيها انه مستعد فقط لحضور مثل هذا المؤتمر « بشرط ان تعلن الجمهورية العربية المتحدة بصراحة انها تخلت عن كل الجهود الرامية الى تحقيق حل سلمي ، وتوقف تعاونها مع مهمة الدكتور يارنج ، وتسحب موافقتها على القرار الرقم ٢٤٢ ، وتؤكد استعدادها الفوري لاعلان الجهاد » . وكان اكثر مما يحتمله الموقف !

الجزء الخامس

شراء قنبلة

بعد ذلك بفترة قصيرة قام معمر القذافي بأول زيارة له للقاهرة ، واجتمع مرات عدة بعبد الناصر ، وكان من الواضح ان جزءا كبيرا من معلوماته عن الشؤون الجارية مصدره دراسة الصحف ، ولكنه كان تواقا الى ان يتعلم . وكان هناك امران مميزان له : اولهما - اعتماده على توجيه عبد الناصر في فهم السياسات العربية واعتماده على خبرة الثورة المصرية كنموذج تحتذيه ليبيا . وثانيهما - البساطة المتناهية التي ينظر بها الى مشاكل الحرب والسلام .

وفي احدى المرات التي كان فيها عبد الناصر يشرح له الفرق بين قوة العرب وقوة اسرائيل من حيث الدبابات والطائرات وغيرها ، تحمس

القذافي يقول « لا . . لا . . لابد لنا من أن ندخل مباشرة في حرب شاملة نبيد فيها اسرائيل » . ورد عليه عبد الناصر ـ وهو بادي الصبر ـ أن ذلك مستحيل ، لان الموقف الدولي لن يسمح لنا بأن نفعله ، ولانه لا الروس ولا الامريكيين يمكن ان يسمحوا . بقيام موقف يمكن ان تترتب عليه حرب نووية .

وسأل القذافي : « لدى الاسرائيليين قنابل نووية ؟ » . ورد عبد الناصر بان ذلك احتمال قوي . فعاد يسأل : « وهل لدينا نحن قنابل نووية ؟ » ورد عبد الناصر : « كلا . . ليس لدينا شيء منها » .

وبعد ذلك بنحو شهرين او ثلاثة شهور قام الرائد عبد السلام جلود الرجل الثاني في ليبيا بزيارة مفاجئة لمصر ليقابل عبد الناصر ، وطلب ان تحاط زيارته بالسرية ، وقال ان الغرض الوحيد منها هو استشارة الرئيس . وسأله عبد الناصر عما يريد ان يستشيره فيه فقال جلود : « اننا نعتزم شراء قنبلة نووية » . وسأله عبد الناصر من اين سيشترونها ، فرد جلود بانهم يعلمون ان الامريكيين والروس غير مستعدين لبيعها ، لكن الصينيين قد يكونون مستعدوين للبيع . وقال عبد الناصر ان مدى علمه ان القنابل النووية لم تكن ابدا سلعة للبيع ، ورد جلود قائلا : « لا . . نحن لا نريد قنبلة كبيرة ، انما نريد قنبلة تكتيكية . وقد اجرينا اتصالا بالصينيين ، وقلنا لهم اننا نريد ان يذهب واحد منا في زيارة لبلادهم ، فردوا بأنهم يرحبون بنا . وهكذا فاني سأسافر » .

وسافر جلود متنكرا . . فقد غير جواز سفره بجواز سفر مصري ، وقام برحلته الى بكين عن طريق باكستان والهند . ولم يكن الصينيون يعرفون الغرض من الزيارة ، لكنهم رتبوا له اجتماعا مع شو ان لاي شرح فيه نائب رئيس مجلس الثورة الليبي انه جاء الى بكين لمسألة مهمة جداً . وقال : « ان الصين فخر لجميع بلدان آسيا . لقد فعلتم الكثير لمساعدة الدول النامية ، واثبتم للعالم انكم لا تقلون قوة عن الغرب . لذلك فقد جئنا اليكم من ليبيا نطلب عونكم . ونحن لا نريد ان نكون عبئا عليكم ، ونعرف ان هذه الاشياء تكلف الكثير من المال . اننا نريد شراء قنبلة نووية » . وكان شوان لاي مهذبا جداً ، وراح يشرح لزائره بكل اللباقة والادب اللذين تشتهر بها الصين ان القنابل النووية ليست للبيع ، وانه وان كان مما يسعد الصين بطبيعة الحال ان تساعد في عمليات الابحاث ، الا ان انتاج الاسلحة النووية لابد ان يتم بأيدي الليبيين انفسهم ، ولابد لكل شعب من ان يتدرب على الاعتماد على نفسه . . . الخ . وهكذا عاد جلود خالي الوفاض .

الفصل الثاني

الجزء السادس

مؤتمر القمـــة في الربـــاط

في نهايـة الامـر ، تقـرر ان تمضي الاستعـدادات قدمـا لعقـد مؤتمـر قمـة عربي ، وتمت المـوافقـة على دعـوة الملك الحسـين ، ملك المغـرب ، الى عقـد المؤتمـر في الـربـاط في شهـر ديسمـبر (كانـون الاول) ودعـا عبـد الناصر الملك فيصـل الى ان يتـوقف في القـاهـرة وهـو في طريقة الى الربـاط ، لانـه كان يشعـر بأن نجـاح المؤتمـر او فشله يتـوقـفـان الى حد كبـير على اتفـاق مصر والمملكة العربية السعودية على ارض مشتركة تقفان عليها .

كانت المملكـة العـربيـة السعـوديـة حسـاسـة بالنسبة الى العـلاقـات الـوثيقـة الـتي تربط مصر بالاتحـاد الـسـوفييـتي ، وكـانـت مصر بحـاجـة الى الـدعم المـالي الـسعـودي ولاسيـما من حيث دوره في سرعـة شراء الـسـلاح . وحـين تم اللقـاء بين الـرئيس عبـد النـاصر والملك فيصـل ظهـرت امـامهـا مشكلة جديـدة . ذلـك انـه كانت حدثت في السعـوديـة محاولـة انقـلاب اجهضت واعـقـبـهـا رواج انـبـاء من مصـادر مختلفـة عن اعـدام عدد من الضبـاط . وتـرددت يومهـا قصـة تقـول ان الضبـاط الثـائـرين على علاقـة بمصر ، وذكـر المـلك فيـصـل ان سامي شرف بالـتحـديـد ، متصـل بالمؤامـرة . ورد عبـد النـاصر بانـه اذا ثبت ان هنـاك مصريـا حرض احـدا في السعـوديـة على قلب نظام الحكم ، فانـه على استعـداد لارسـالـه الى هنـاك لمحـاكمتـه ، وقـال : « ليس مهـما من يكـون ذلـك الشخص . . سواء كان من اعـواني المقـربـين او حتى سكـرتـيري الخـاص . تستـطيـع ان تحاكمـه . المهم اني اريـد ان تكـون العـلاقـات بين بلدينـا طيبـة » . وقال الملك فيصل : « اطال الله عمرك . . انا لا اعـرف النتيجـة النهـائيـة التي توصـل اليهـا التحقيق عنـدنـا ، ولكن يقيننا ان بعض المتـآمـرين ذكـروا اسم سامي شرف . ويبـدو انهم شيـوعيـون . والحمـد لله انـه ليس هنـاك شيـوعيـون في السعـوديـة العـربيـة . ان بلدنـا اسلامي ، وشعبنـا يحيـا ويمـوت طبقـا لمعتقـداته الاسلامية ، وليس لدينـا اي اتصـال مع الـعـالم الـشـيـوعـي سواء كان ديبـلومـاسيـا او غيره . ولكن مما يؤسف له ان بعض الشبـان من ابنـاء بلادنـا الـذين يسـافـرون الى الخارج لتلقي العلم يعـودون بافكـار شيـوعيـة . وأسـوأ مركـز الآن لنشر الشيـوعيـة هو جامعـة بيروت الامـيركيـة » . وقـال عبـد النـاصر ان المصريـين الـذين يلتحقـون بجـامعة بيروت الامـيركيـة او بجـامعـة القـاهـرة لا يتحـولـون الى شيـوعيـين . فقـال المـلك : « لا . . لا . الق مجرد نظرة على كل ما حدث في العـالم العـربي وعـلى نوعيـة النـاس الـذين تخرجـوا من جامعـة بيروت الامـيركيـة . لقـد كانت باريس بعـد الحـرب العـالميـة الاولى هي الارض الخصبـة الـرئيسيـة للشيـوعيـين ، ومنهـا جاء رجـال كصـلاح البيـطار واكـرم الحـوراني وميشيـل عفلق . اما بعد

الحرب العالمية الثانية فقد انتقل مركز السم الى جامعة بيروت الاميركية » . (وقد حاول عبد الناصر ان يعود الى موضوع الاتهام الموجه الى سامي شرف ، وسأل الملك : «الديكم دليل على اشتراكه ؟ . . اني اعترف بأننا ربما كنا نعمل ضدكم قبل العام ١٩٦٧ ، لكني بعد مؤتمر الخرطوم اصدرت اوامر بوقف جميع هذه العمليات » . وذكر عبد الناصر للملك ان من بين مشاكله ان بعض الناس خارج مصر يزعمون في احيان كثيرة انهم يعملون باسمه ، من دون ان تكون لديهم اي سلطة لان يفعلوا ذلك . وقال الملك : « ان من مشاكلك ايضا ، رعاك الله واطال عمرك ، ان هناك اعتقاد ان كل ما ينشر في « الاهرام » يأتي منك مباشرة » . وقال عبد الناصر : « لقد تكلمت مع هيكل امس ، وقلت له انه يخلق لنا مشاكل كثيرة في المملكة العربية السعودية ، فكان رده : وما الذي يمكن ان افعله ؟ . . . انه يريد جريدة حرة تعبر عن الآراء والاتجاهات بصراحة » . واضاف عبد الناصر : « اني انا نفسي لا اتدخل في ما ينشره « الاهرام » . . . أن هيكل صديقي وهو يعرف تفكيري ، لكني لا افرض عليه ما يكتب . وهو شديد العناد في هذه الناحية » .

وبعد ذلك حول عبد الناصر دفة الحديث الى المسائل المالية . قال ان مصر بحاجة الى مزيد من العون . وقال الملك فيصل ان المملكة العربية السعودية تمر بفترة عصيبة جدا ، وان احتياطها من العملات الاجنبية يوشك على النفاد ، وقد يضطر في القريب العاجل الى مواجهة أحد اختيارين : اما ان تقترض من صندوق النقد الدولي ، واما ان توقف معوناتها للبلاد الصديقة . وقال ان اللوم في هذه المصاعب يقع على اعمال التخريب في خط « التابلاين » التي قام بها « اصدقاؤكم من جماعات المقاومة من امثال جورج حبش والباقون الذين يعملون بطريقة لا افهمها ، حتى لاكاد اشك احيانا في تعاونهم مع الصهاينة ، وانهم يحاولون افلاسنا » .

وهكذا سافر عبد الناصر والملك فيصل الى الرباط من دون ان يتوصلا الى اساس حقيقي للتفاهم بعضهما مع بعض . وقد اخذ هذا المؤتمر شكل اغرب مؤتمرات القمة التي عقدت من قبل . كان مركز الاهتمام فيه - بطبيعة الحال - هو معمر القذافي ، لانها كانت المرة الاولى التي يظهر فيها على المسرح الدولي . وكانت رئاسة المؤتمر للملك الحسين . وفي جلسة الافتتاح تقدم رئيس الديوان من الملك وقبل يده ، ثم ابلغه ان اجراءات الافتتاح جاهزة . وكان الملوك والرؤساء كلهم ينتظرون في الغرفة المجاورة . وعندما شاهد القذافي ما فعله رئيس الديوان كسا الذعر وجهه . وقال « هل ترون ؟ . . ذلك الرجل - مشيرا الى رئيس الديوان - يقبل يد الحسين ؟ امازال تقبيل اليد معمولا به في العالم العربي ؟ وهل مازلنا متمسكين بهذه المخلفات من الاقطاع والعبودية ؟ . . كيف يمكننا ابدا ان

نحـــرر فلسطين اذا كنا لا نزال نقبل الايدي » . ونجم عن هذه الغضبة حرج شديد ، حاول عبد الناصر بعده ان يهدىء القذافي .

وفي الجلسة الاولى للمؤتمر استمع الملوك ورؤساء الدول مرة اخرى الى تقرير من الفريق فوزي عن الاستعدادات للمعركة . ومرة اخرى تدخل القذافي مقاطعا وتساءل : « امن الحكمة في شيء ان تقال كل هذه الاسرار امام كل الحاضرين هنا ؟ ان من المؤكد ان من بينهم من سينقلها الى الاسرائيليين » . ومع مضي المؤتمر في اجراءاته ازداد عدد من ارتفعت حواجبهم دهشة بعدما رأوا القذافي يوجه الخطاب الى رئيس المؤتمر باسم : « الاخ الحسين » ، والى الملك فيصل باسم : «الاخ فيصل » . وكان عبد الناصر يدعو الملك باسم : « الاخ الملك فيصل » ، لكن القذافي تمسك باسم « الاخ فيصل » ، وقد وجه الملك فيصل الى الرئيس عبد الناصر نظرة ذات مغزى ، كأنه يقول له : « ما الذي ستفعله بشأن صديقك ؟ » .

وفي احد اجتماعات المؤتمر ـ وكانت هناك شبه أزمة ـ خرج القذافي الى احد الممرات التي تؤدي الى قاعة الاجتماعات وجلس بجانبي حيث كنت اجلس . وفي تلك الاثناء مر امامنا شخص حياني فرددت تحيته . وسألني القذافي : « من هذا ؟ » فقلت انه الجنرال اوفقير . . الا تعرفه ؟ » . وانفجر القذافي : « اوفقير ؟ ! . . انه الرجل الذي قتل بن بركة * » . ووافقت على ان اوفقير كان متهما بالاشتراك في عملية اغتياله . وقال : « كلا . . لقد قتله . . انه قاتل . . فكيف يسمح له بان يكون هنا بيننا ؟ لابد ان يصدر الامر الى البوليس بالقبض عليه » . وقلت ان ذلك امر صعب ، لان اوفقير نفسه هو مدير البوليس . وعندها مر امامنا شخص آخر اعرفه القذافي : « هل تعرفه ؟ انه الرجل المسؤول عن تلك الصفقة الكبيرة الخاصة مع احدى شركات السلاح واحدى شركات البترول ، والتي تقاضى فيها عمولة ضخمة . لعلك تذكر ولاشك تلك الفضيحة ؟ » . ولم يكد القذافي يفيق من هذه الصدمة الجديدة حتى مر شخص ثالث من امامنا ، وقلت للقذافي انه مساعد اوفقير . ولم اكد اتم كلامي حتى رأيته يتركني ويتجه مباشرة لمقابلة عبد الناصر حيث قال له : « اننا ، في هذا المؤتمر ، محاطون بلصوص ومتآمرين وجواسيس . ولا يمكن اجتماعا كهذا ان يسفر عن اي خير ومن الافضل لنا الا نكون هنا . وسأعود انا الى بلادي غدا » .

---

*بن بركة هو الزعيم المغربي الذي اختفى في باريس العام ١٩٦٥ ، وأدين الجنرال أوفقير من قبل احدى المحاكم الفرنسية بالتآمر في عملية اختفائه .

وسمع الملك الحسين بتهديد القذافي بالانسحاب من المؤتمر ، فكتب ورقة صغيرة مررها الى عبد الناصر قال فيها « فخامة الاخ . . لقد اصدر رئيس ليبيا اوامره بان تكون طائرته مستعدة للسفر فورا ، وهو ينوي السفر بالفعل . ان سفره المفاجيء هكذا قبل ان ينتهي المؤتمر من اعماله سيفسر بما يعني ان المؤتمر يواجه ازمة . أرجوك ان تبذل كل ما تستطيع لاقناع الرئيس الليبي بالبقاء حتى نهاية المؤتمر » . وقبل عبد الناصر الرجاء . . وبقي القذافي حتى انتهى المؤتمر .

وطلب القذافي من عبد الناصر ان يتوقف في ليبيا في طريق عودته الى القاهرة ، ووافق عبد الناصر ، واستقبلته الجماهير في كل مكان اروع استقبال ، وتلقى على اثر ذلك رسالة من بريجنيف يقول فيها : « لقد سمع البروفسور شازوف النبأ انك قضيت خمس ساعات في سيارة جيب اعقبتها بالقاء خطاب استغرق ساعة كاملة . وذلك مناقض تماما لتعليماته ، وخطر بالغ على صحتك » .

وكان الرئيس نميري مع عبد الناصر حين جاء الى ليبيا ، ووقع الرؤساء الثلاثة ما سمي « ميثاق طرابلس » كتصور لوحدة بين دولهم الثلاث . وكان الميثاق يمثل ، الى حد ما ، نصف المعادلة العسكرية التي كان عبد الناصر يحاول حلها خلال السنتين الماضيتين ، وهي : كيف يزن بين ميزات خلق جبهة ثانية نشطة وميزات العمق اللازم . ان ليبيا والسودان تقدمان الى مصر ميزة العمق ، والاتحاد بين الدول الثلاث يدعمه ، فضلا عن ميزات اخرى من بينها مثلا ما اعرب عنه القذافي من استعداده لشراء الأسلحة السوفييتية نيابة عن مصر .

وحدث بالفعل بعد قيام الثورة الليبية بشهر ـ وكانت العلاقات بينها وبين مصر عندئذ لا تزال موضع حدس بالنسبة الى العالم ـ ان عرض الامريكيون على القذافي ان يبيعوه طائرات « الفانتوم » ، كما عرض عليه الفرنسيون ان يبيعوه طائرات « الميراج » . لكن عبد الناصر اوفدني الى القذافي برسالة تقول انه اذا استطاع ان يحصل على « الفانتوم » فانه يكون قد حقق عملا رائعا ، وان كان الشك يراود عبد الناصر بالنسبة الى حقيقة استعداد الامريكيين لتزويده بها . كذلك ، فان الرسالة تضمنت ان يسعى القذافي للحصول على « الميراج » من فرنسا ، خصوصا بعد ان تبين ان الصفقة مع العراق فشلت . اما السودانيون فقد كانوا في مركز يمكنهم من ان يقدموا الى مصر التسهيلات الازمة في مطاراتهم الشمالية البعيدة عن مدى القاذفات الاسرائيلية .

وكان هناك اعتبار آخر جعل عبد الناصر يوجه مزيدا من الاهتمام الى فكرة العمق ، هو عدم التجانس بين حلفائنا المهمين في الجبهة الثانية . فالصراع بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية كان يزداد حدة ، وكانت مصر تحتفظ بعلاقات طيبة مع المقاومة ، وحين اغارت

الطائرات الاسرائيلية على قواعد المقاومة طلب زعماؤها من مصر ان تمدهم بمدافع مضادة للطائرات . وصحبت انا اثنين من هؤلاء الزعماء ، هما « ابو اللطف » و« ابو اياد » لمقابلة السفير السوفييتي . وبعد المقابلة بيومين تلقينا رسالة بان السوفييت على استعداد لاعطاء المقاومة عشرة مدافع مضادة للطائرات . لكن السؤال كان : كيف ستسلم ؟ واقترحت المقاومة ـ كوسيلة للاسراع في الحصول عليها ـ ان تأخذ المدافع العشرة من مخازن الجيش المصري ، على ان تعوض بالمدافع الجديدة بعد ذلك . ووافق عبد الناصر على الاقتراح ، واصدر تعليماته بتنفيذه .

وكانت هناك معونات اخرى للمقاومة متوقعة بسرعة . فحين كان ياسر عرفات مع عبد الناصر في موسكو اجتمع بمازاروف وبحث معه في مسألة امدادات السلاح . ولم يتعهد مازاروف يومها بشيء عاجل ، ولكن بعد نحو اسبوعين او ثلاث من عودتنا من موسكو تسلم عبد الناصر من السفير السوفييتي سيرجي فينوجرادوف رسالة تضمنت ان اللجنة المركزية للاتحاد السوفييتي قد وافقت ـ بناء على توصية من عبد الناصر ـ على اعطاء حركة المقاومة الفلسطينية سلاحا بما قيمته ٥٠٠ الف دولار .

وبعد عودة عبد الناصر الى القاهرة من طرابلس ، بدأ في موقف بعض وزراء الرئيس نميري ما يدل على برود تجاه ما تحمله ميثاق طرابلس من معان ، وكانت النتيجة ان تضاءلت الفكرة الاصلية لوحدة بين الدول الثلاث الى اتحاد ضعيف . ومع ذلك ، فلو ان الحياة كانت قدرت له لكان خطوة في الاتجاه الصحيح .

وطوال ذلك الوقت ، كان الاسرائيليون يعجلون في برنامجهم لتعريض عبد الناصر وحكومته والشعب المصري لاقصى قدر من الاذلال . وكانت الغاية من ذلك اظهار مصر في مظهر العجز ، وبالتالي تحقيق انهيار النظام وفك الوحدة المقترحة مع ليبيا والسودان . ففي اثناء انعقاد مؤتمر القمة في الرباط نزلوا على شاطىء البحر الاحمر وحملوا في عودتهم محطة رادار كاملة . وبعد ذلك قامت طائراتهم بغارات متعددة في عمق مصر شملت ابو زعبل ومدرسة بحر البقر ، ونجم عنها خسارة كبيرة في الارواح . وكانت مصر في ذلك الوقت تحاول ان تقيم شبكة للصواريخ على شريط عرضه ٣٠ كيلو مترا غربي قناة السويس ، حيث تتمركز القوات المصرية ، وحيث كان قادة الجيش مقتنعين بأن مصير الشرق الاوسط كله سيتحدد هناك . وكان المصريون يعملون في تلك المواقع تحت وابل من القنابل الاسرائيلية . ولا شك اننا مهما اثنينا على اولئك المهندسين والعمال المصريين المدنيين الذين كانوا يعملون هناك فاننا لن نعطيهم حقهم . لقد كانوا يعملون بتعاون وثيق مع الجيش وتحت اشرافه . وكانوا يتعرضون يوميا لغارات العدو الوحشية ، وقتل منهم ما لا يقل عن ٤ آلاف شخص . وقد بذلوا في الفترة ، منذ نهاية العام ١٩٦٩ حتى منتصف ١٩٧٠

حين تم تركيب الصواريخ السوفييتية الجديدة ، جهدا يفوق طاقة البشر ضد عوامل غير متكافئة . وفي رأيي أن هذه كانت انبل ساعة من ساعات عمل الرجل المصري العادي .

تلك كانت الظروف التي قرر فيها عبد الناصر ان يقوم بزيارته السرية الى موسكو لكي يبحث مع الزعماء السوفييت مسألة الدفاع الجوي كله عن مصر .

الجزء السابع

أزمة في موسكو

كان عبد الناصر مريضا . . وكانما لا يكفيه ما يشكو منه من امراض اخرى فهاجمته حمى الانفلونزا . . وحذروه من جو موسكو الشديد البرد في هذا الوقت من السنة . لكنه مع ذلك احس بانه لابد ان يذهب . وهكذا ركبنا في الصباح المبكر من يوم الخميس ٢٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٠ طائرة سوفييتية خاصة كانت تنتظر في المنطقة العسكرية من مطار القاهرة . (كانت الرحلة سرية) .

وكان هناك جو من الوجوم يحيط بهذه الطائرة الضخمة التي لم يكن عليها سوى بضعة اشخاص قلائل . . ملاحوها في المقدمة واربعة او خمسة من الحرس ، واثنان من الاطباء . واضافة الى عبد الناصر ، فلم يكن فيها مع هؤلاء سوى الفريق فوزي وانا واثنين من الروس هما سيرجي فينوجرادوف ، السفير السوفييتي في القاهرة ، والجنرال كايتشكين الذي خلف الجنرال لاشينكوف كرئيس لفريق الخبراء العسكريين السوفييت .

ووصلنا الى مطار موسكو بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة صباحا ، وتوقفت بنا الطائرة في نهاية مدرج الطائرات ، وحين نزلنا منها وجدنا بودجورني وكوسيجين في انتظارنا ومعهما حارس شرف واحد لتحيتنا . وحملتنا ، كالعادة ، اسطول من السيارات السوداء المسدلة الستائر الى الفيلا الرقم ١ على تلال لينين ، وهي احدى الفيلات المخصصة للزوار الرسميين . ويقع قرب الفيلا « استاد » رياضي يضم مركزا صحيا كثيرا ما يستخدمه المسؤولون من رجال الحكومة ، وفيه غرف للتدليك والتمرينات الرياضية وحمام السباحة الخ . . . اضافة الى قاعة استقبال كبيرة . ولما كانت المسافة بين الفيلا و« الاستاد » قصيرة فقد تقرر ان تجري المباحثات هناك .

وسأل بودجورني وكوسيجين عما اذا كنا متعبين ونفضل ان نستريح اليوم ونبدأ المحادثات غدا ، فرد عبد الناصر بأنه يفضل ان نبدأ العمل

على الفور . وعليه ، تقرر ان تعقد الجلسة الاولى بعد ظهر اليوم نفسه .
وافتتح عبد الناصر الجلسة بشرح للاسباب التي دفعته الى المجيء الى موسكو ، وقال ان مستقبل الشرق الاوسط كله سيتقرر في شريط من الارض يبلغ عرضه نحو ٣٠ كيلو مترا على جانبي قناة السويس . واوضح ان غارات العمق الاسرائيلية وغارات الطيران المنخفض داخل مصر تستهدفان في تصوره تحقيق غرضين : « اولهما - ان توقفا المحاولات التي تبذلها مصر لبناء جدار للصواريخ يصد اي هجوم عبر القناة . والثاني - ان تحطما الروح المعنوية في الجبهة الداخلية . وقد فشلت اسرائيل في اجبار مصر على الاستسلام في العام ١٩٦٧ ، لكنها تبدو مصممة على محاولة ذلك مرة اخرى .
وقال عبد الناصر ان مصر كلها تشعر بأنها من دون حماية . . . كأنها عارية . وان مئات العمال من المدنيين ومثلهم من العسكريين قد قتلوا . وذكر انه كان دائما عند اعتقاده انه لابد من وسيلة تكفل لمصر القدرة الكفية امام التفوق الاسرائيلي في الجو ، ومثل هذه الوسيلة لايمكن ان تتحقق في المستقبل القريب الا بواسطة الدفاع الجوي . وكان عبد الناصر يتكلم بحزم ، لكن التوتر كان باديا عليه .
وبدأ بريجنيف يدافع عن صواريخ « سام ٢ » التي كانت القوات المصرية قد زودت بها من قبل . ورد عبد الناصر بأنه ليس لديه ما يعترض به على الصواريخ الا من حيث انها غير فعالة ضد الطائرات التي تغير على ارتفاع يقل عن ٥٠٠ متر ، وتقل فاعليتها اكثر ضد الطائرات التي تغير على ارتفاع يراوح بين ٥٠٠ متر و١٠٠٠ متر . وقال ان الفنيين السوفست الموجودين في مصر شهود على ذلك ، وان ما يريده هو ان يكون قادرا على حماية القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المناطق الحيوية ، اضافة الى جبهة القناة . وركز على اهمية الاسكندرية بوجه خاص باعتبارها اصبحت - بعد توقف العمل في بورسعيد وبعدها اغلق البحر الاحمر تماما - ميناء مصر الوحيد الذي يستقبل كل عمليات النقل البحري . وقال انها اذا تعرضت للضرب من جانب الاسرائيليين ، فان مصر كلها تصبح تحت الحصار .
واستمرت المناقشات . . حامية في بعض الفترات ، وكان باديا انها قد تنتهي الى ازمة مستحكمة . لكن هذا الخطر تبدد عندما اعترف بريجنيف بأن صواريخ « سام ٣ » هي التي يمكن ان تسد حاجة مصر بالفعل ، وان السوفييت مستعدون لتزويد مصر بها . وقال بريجنيف : « ان صديقنا عبد الناصر يحصل دائما على ما يريد » .
وبعد هذا تحولت المناقشة الى العدد المطلوب من « سام ٣ » واتفق على تأجيل المناقشة الى اليوم التالي حتى تتاح الفرصة للفريق فوزي والماريشال جريتشكو للاجتماع معا وتحديد المناطق التي تتطلب الدفاع

عنها . وهكذا القائدين ومعها الجنرال كايتشكين وعدد آخر من الخبراء يواصلون مناقشاتهم .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي حضر الفريق فوزي الى غرفة نوم عبد الناصر ليطلعه على نتائج المناقشات . وكان احضر معه الى موسكو قائمة بالمناطق المطلوب الدفاع عنها ، وكانت تشمل - اضافة الى جبهة القناة - مدن القاهرة والاسكندرية واسوان ، والمناطق الصناعية مثل المحلة الكبرى وكفر الدوار وشبين الكوم وشبرا الخيمة وحلوان . وكان من الواضح ان الرجال المطلوبين لتشغيل كل هذه المناطق غير موجودين في مصر . وقد سأل عبد الناصر الفريق فوزي عما اذا كان في الامكان تحويل عدد من الرجال الذين يعملون على صواريخ « سام ٢ » للاستفادة بهم في المناطق الجديدة ، لكن الظاهر انه كانت هناك فكرة جديدة بدأت تختمر في ذهنه .

وفي الساعة العاشرة صباحا اجتمع الوفدان بكامل اعضائهما مرة اخرى . وبدأ بريجنيف الاجتماع بقوله ان القرار الذي تم الوصول اليه في اليوم السابق يشكل صعوبات كثيرة . فالمناطق التي تريد مصر الدفاع عنها واسعة جدا - وكان من الواضح ان جريتشكو اطلع بريجنيف على نتائج المناقشات كما اطلع الفريق فوزي عبد الناصر عليها ، وبدا لاول مرة ان بريجنيف اصبح يدرك المدى الحقيقي لاحتياجات مصر . ورد عبد الناصر بان لدى مصر رجالا مدربين على استخدام صواريخ « سام ٢ » وانه يقترح تحويلهم الى العمل على صواريخ « سام ٣ » ، ولكن قيل له ان ذلك يتطلب فترة لا تقل عن ستة اشهر لكي يتمكن من يشغلون صواريخ « سام ٢ » من تشغيل صواريخ « سام ٣ » وان من الافضل ان يتم تدريبهم في الاتحاد السوفييتي . وبدا عندئذ كأنما ستكون هناك فجوة مدتها ستة اشهر تظل مصر خلالها معرضة للغارات على ارتفاع منخفض من جانب الطائرات الاسرائيلية . بل ان الموقف سيكون خلالها اسوأ مما كان عليه في اي وقت مضى ، لان بعض الرجال الذين يعملون على صواريخ « سام ٢ » سيكونون عندئذ في الاتحاد السوفييتي يتلقون التدريب ، وستكون مصر عندئذ معرضة للغارات الاسرائيلية على ارتفاعات منخفضة وعالية على السواء .

وهنا القى عبد الناصر بقنبلته . قال ان الطريقة الوحيدة لسد هذه الثغرة هي ان يزودنا السوفييت بالرجال اللازمين . لكن بريجنيف والباقين لم يكونوا مستعدين للموافقة على هذا الطلب . وقال عبد الناصر انه يدرك ان ما يطلبه امر من الصعب عليهم ان يستجيبوا له ، لكنه ، في رأيه ، هو الحل الوحيد الذي يراه أمامه . وقال انه لا يمكن ان يسمح للجيش بأن يدمر ، أو للروح المعنوية بين المدنيين ان تنهار . لقد استطاعت مصر ان تتحمل هذا الموقف طوال ثلاث سنوات ، وليست مستعدة لان تستسلم

الآن . واوضح عبد الناصر انه لايطلب وضع الخبراء لسوفييت في الصفوف الامامية ، بل سيترك أمر تشغيل الصواريخ على القناة للمصريين ، وانما ما يطلبه من مضيفيه هو القيام بمهمة تشغيل الصواريخ في العمق .

وتبادل جريتشكو وبريجنيف كلمة ، قال بريجنيف بعدها ان المشكلة ليست مشكلة خبراء صواريخ فقط ، لان الصواريخ ليست الا جزءا فقط من نظام دفاعي معقد يشمل استخدام الطائرات ايضا . وهنا قال عبد الناصر : « لا بأس .. أرسلوا الطائرات ايضا » . ورد بريجنيف بأن هذه الخطوة يمكن ان تترتب عليها آثار دولية خطيرة ، لان فيها كل المقومات التي يمكن ان تخلق أزمة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . وهنا قال عبد الناصر : « لماذا يستطيع الامريكيون ان يصعدوا دعمهم لاسرائيل دائماً ، في حين اننا نتصرف في بعض الاحيان كأننا خائفون ؟ . وقاطعه بريجنيف قائلا : « أننا لا نخاف احداً .. اننا اقوى قوة عسكرية على ظهر الارض ، لكن علينا ان ندرك ان في مثل هذه الخطوة مجازفة كبيرة ، ولست اعرف ما اذا كان لدينا ما يبرر الاقدام عليها ، ولابد لنا من ان نعيد تقييم موقفنا » . فقال عبد الناصر : « بالنسبة الى موقفي انا ، فاني انتهيت من اعداد الحسابات اللازمة . ودعني أكن في غاية الصراحة معكم . اننا اذا لم نحصل على ما اطلبه ، فان الجميع سيتصورون ان الحل الوحيد هو في ايدي الامريكيين . ونحن لم نر الامريكيين يوما يتراجعون في مساعدتهم للاسرائيليين . ان مصر اكبر موقع معاد للاستعمار في الشرق الاوسط ، واذا سقطت في ايدي القوة الامريكية والاسرائيلية ، فان العالم العربي كله سيسقط . اننا لانطلب منكم ان تقاتلوا نيابة عنا ، فنحن نريد المحافظة على استقلالنا ، لكنكم ، بمقدار ما أرى ، لستم مستعدين لمساعدتنا بالطريقة نفسها التي تساعد بها امريكا اسرائيل ، وهذا يعني انه ليس امامي سوى طريق واحد مفتوح : اني سأعود الى مصر ، وسأقول للشعب كل الحقيقة عن الموقف . سأقول له ان الوقت قد ازف لكي اسلم المسؤولية الى رئيس موال للامريكيين . ومادمت غير قادر على أنقاذ شعبي ، فلابد ان يتقدم غيري لانقاذه . تلك هي كلمتي الاخيرة » .

وكهربت كلمة عبد الناصر جو القاعة . وعلى الفور نهض بريجنيف على قدميه وقال : أيها الرفيق عبد الناصر .. لاتتكلم بهذا الاسلوب .. فأنت الزعيم .. و .. » ، وقاطعه عبد الناصر : « أنا زعيم تضرب بلاده بالقنابل كل يوم .. جيشه مكشوف .. وشعبه معرض . ولدي من الشجاعة ان اعلن لشعبي الحقيقة المحزنة : وهي انهم شاؤوا ام ابوا ، فان الامريكيين هم سادة العالم ... ولن اكون الرجل الذي يستسلم للامريكيين ... وليأت شخص آخر يحل محلي ويكون مستعداً لان يفعل ذلك » .

وراحت الصيحات تنطلق من اعضاء الجانب السوفييتي : « نرجوك . دعنا نبحث في الامر . . ما الذي تريده حقيقة ؟ اعطنا يوما آخر سنرى ما يمكن عمله » . ورد عبد الناصر بأنه يريد اجابة محددة ، فطلب السوفييت تأجيل الجلسة عشر دقائق يبحثون في الامر خلالها في ما بينهم . وخرج اعضاء الوفد المصري الى الحديقة ، وقلت للرئيس : « هكذا . . . فاننا الآن على الحافة ؟ » . وقال الرئيس : « كلا . . اني لا ازج باحد في سياسة حافة الهاوية . ان ما قلته تعبير صادق عن حقيقة موقفي . اني اخدع الشعب اذا تصرفت بطريقة اخرى . اننا كنا حتى الآن ندرب جيشا ، لكن الاسرائيليين يستخدمون اسلحة ليست متوافرة لدينا لكي نواجههم بها : غارات في العمق . . . وغارات ضد المدنيين . وحين يقتل الاطفال . . . وحين يموت الجنود لانهم لا يملكون وسائل الدفاع ضد الهجوم ، فان الموقف كله يصبح فوق طاقة الاحتمال » .

وكان قرار السوفييت ان ارسال رجالهم للعمل في قواعد صواريخ « سام ٣ » في مصر مسألة حساسة الى درجة تحتم عرضها على المكتب السياسي مجتمعا . وهكذا استدعي اعضاء المكتب من حيثما كانوا وبدأوا يصلون واحدا واحدا في سياراتهم السوداء الكبيرة بستائرها المسدلة على نوافذها . ولاول مرة في تاريخ السلم يؤتى ب ١٢ ماريشالا سوفييتيا للاشتراك في مناقشات تدور في المكتب السياسي .

وعدنا الى الفيلا الرقم (١) لتناول طعام الغداء . وتحددت الساعة السادسة موعدا للجلسة التالية . وكان من الواضح لمجرد دخولنا قاعة الاجتماعات ان ثمة قرارا قد اتخذ . وكان بريجنيف هو الذي القى كلمة الافتتاح . قال : « ايها الرفيق عبد الناصر . . لقد اتخذ الاتحاد السوفييتي اليوم قرارا مشحونا بنتائج جسيمة . انه قرار يختلف عن اي قرار سبق لنا اتخاذه . . . قرار يحتاج الى عونكم في تنفيذه ، ويتطلب كبح جماح للنفس من جانبكم » . وبعد هذه الكلمة ابلغونا عدد بطاريات صواريخ « سام ٣ » التي سيقدمونها الينا ، والمواقع التي ستركب فيها ، وعدد رجال الذين سيأتون معها . كما أبلغونا انهم سيرسلون ايضا ٨٠ طائرة سوفييتية ، تسبقها ٤ من طائرات الاستطلاع « ٥٠٠ × » ، وهي طائرة استطلاع تعتبر صورة من الطائرة « الميج ٢٣ » ، على ان نرسل نحن ١٨٠٠ من المصريين للتدريب في الاتحاد السوفييتي لمدة ٦ اشهر .

وقد احسسنا جميعا بتغير الجو في هذا الاجتماع . . . كان الماريشالات والساسة بوجه عام متحمسين للقرار ، لأن الحماسة كان مصحوبة بقلق لدى البعض الآخر منهم ، ولاسيما كوسيجين المتحفظ دائما .

ثم تكلم عبد الناصر . قال انه يدرك الطبيعة التاريخية للقرار ، وانه ممتن له . وقال ان مصر لن تقامر بما سيعطى لها بل على العكس ، فان في نيته ان يهدىء الامور بقدر الامكان ، لان هدفه الرئيسي هو التركيز

على اعداد القوات المسلحة للمهمة المقبلة . ويستطيع ان يعد بأننا ـ بمثل هذه المعونة التي ستقدم الينا ـ سنستطيع ان نتم استعداداتنا للمعركة . وقال السوفييت ايضا : « اني اريد رجالكم عندنا لفترة محدودة ، ولا اريدهم ان يكونوا في مصر عندما تبدأ المعركة ، لكن الفترة الفاصلة ستكون فترة صعبة للغاية ، وسيساعدوننا خلالها على سدها . ولو كان سمح للاسرائيليين بأن يستمروا في تحطيم معنويات الشعب والجيش لاستطاعوا ان يأتوا ويأخذوا ما يشاؤون . ولما أمكننا ابدا ان نرفع رؤوسنا مرة اخرى » .

وفي احدى اللحظات غادر بريجنيف معقده وسط الجانب الاخر من مائدة الاجتماع ودار حولها حيث جلس الى جانبي ، وقال بالروسية ، في مودة بالغة : « ايها الرفيق هيكل .. من الطبيعي ان الامريكيين والاسرائيليين سوف يعرفون في يوم ما ما تم عليه الاتفاق هنا ، وما اريده منك ـ قبل ان يحدث ذلك ـ هو ان تضع خطة نستطيع بمقتضاها ان نواجه الحملة التي سيشنونها ضدنا على وجه اليقين ... ضدنا كلينا : مصر والاتحاد السوفييتي » . وقلت : « سيدي السكرتير العام ... ان صنع القرارات الكبيرة هو من عمل الساسة . وفي استطاعتنا نحن دائما ان نجد الطرق والوسائل التي نقدم بها قراراتهم الى العالم » .

وحين عدنا الى القاهرة ، كان من الاولويات الواضحة التي لابد من اتخاذ قرار بشأنها ، هو الاعداد لمواقع الصواريخ الجديدة . وهناك ـ في تلك المواقع ـ واصل المدنيون اسهامهم البطولي . لكن البرنامج كان غاليا في المال وفي الارواح على السواء . فقد كانت مصر تشكو في ذلك الوقت نقصا شديدا في الاسمنت حتى اصبح سلعة نادرة ، لان تلك كانت السنة التي كان من المقرر ان ينتهي العمل خلالها في بناء السد العالي ، ووجدت الحكومة نفسها ملتزمة بالفراغ من بناء سدين عاليين في وقت واحد ، احدهما في اسوان والاخر للصواريخ . وحين اصبح الامر متعلقا باعتمادات الاسمنت فان الاولوية تقررت للصواريخ

وفي اوائل شهر ابريل (نيسان) وصلت اولى طائرات الاستطلاع السوفييتية واستقرت في القاعدة الجوية في جاناكليس في قلب الصحراء على بعد ٥٠ كيلومترا من الاسكندرية ، كذلك في بني سويف . وفي يوم ١٨ ابريل (نيسان) حدث اول احتكاك لها مع الاسرائيليين . فقد اقتربت بعض الطائرات الاسرائيلية في ذلك اليوم من السخنة ، واندفعت الطائرة السوفييتية في الجو تتصدى لها ، واستدارت الطائرات الاسرائيلية عائدة في اتجاه سيناء . وتعقبتها الطائرة السوفييتية ، وكان الحديث بين طياريها طوال تلك الفترة باللغة الروسية . وابلغ عبد الناصر بما حدث فتساءل بلهجة الاستغراب : كيف يتفق هذا مع كل ما دار من حديث حول الضرورة الملحة للاحتفاظ بالسرية المطلقة ؟ وكانت

نظريتي الخاصة في هذا الشأن ان تلك هي الطريقة التي تدار بها اللعبة بين القوتين العظميين : انها كانت اشارة الى الامريكيين بأن السوفييت وصلوا الى مصر . وايا كان التفسير ، فان الاسرائيليين كانوا قد تلقوا الرسالة . ولم تحدث اية غارات اخرى في العمق بعد ١٨ ابريل (نيسان) .

وهذا التفسير نفسه قد يكون وراء القصة العجيبة لوصول اول شحنة من الصواريخ الى الاسكندرية بعد ذلك بأيام . فمرة اخرى ، وتلبية للتوصية الصارمة بشأن السرية المطلقة ، اتخذ المسؤولون المصريون اجراءات لوصول السفينة بعد حلول الظلام ، ورسوها في ركن قصي من الميناء . وضوعفت احتياطات الامن وبدأت عملية التفريغ ، وحين تمت ، اختار السوفييت ـ وسط دهشة المسؤولين المصريين ـ ان يقودوا حمولة الصواريخ الى مواقعها المختارة في سيارات نقل سارت وسط شوارع المدينة ، وفي عز الظهر ، والسوفييت يجلسون فوقها يلوحون للجماهير ويصيحون بالروسية « أصدقاء » . ويمكن الاستنتاج من هذا ان السوفييت ارادوا ان يبلغوا الامريكيين مقدماً بوصول الصواريخ ، تماماً كما فعل الامريكيون عندما ابلغوا عن بيعهم الاسلحة لايران .

الجزء الثامن

« مشروع روجرز »

في التاسع من شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٩ ، اعلن وزير الخارجية الامريكية مشروعه الذي عرف باسم « مشروع روجرز » . وقال في خطاب ألقاه في مؤتمر عن تعليم البالغين ان السياسة الامريكية تستهدف « تشجيع العرب على قبول سلام دائم قائم على اتفاقية ملزمة ، وتشجيع اسرائيل على الانسحاب من الاراضي المحتلة بعد ان تضمن لها السلامة الاقليمية » . وقال ان النصوص التفصيلية للسلام والمتصلة بضمانات الامن على الارض يجب ان يتم التوصل اليها بين الجانبين « تحت اشراف الدكتور يارنج وعلى غرار ما تم في رودس العام ١٩٤٨ وفي نطاق السلام والاتفاق على ضمانات محددة للامن ، فان الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المصرية يكون مطلوبا » . و« ضمانات الامن » هذه يجب ان تشمل شرم الشيخ ، ومناطق منزعة السلاح في سيناء ، و« ترتيبات نهائية » بالنسبة الى قطاع غزة .

وفي ٢٢ ديسمبر (كانون الاول) رفضت الوزارة الاسرائيلية المشروع باعتباره « تهدئة للعرب » . وفي اليوم التالي قال روجرز في مؤتمر صحافي انه يرى ان كلمة « تهدئة » كلمة من المؤسف استخدامها ، لانها تحمل معنى ان العرب اعداء الولايات المتحدة ، في حين ان الجانبين ظلا

لسنوات طويلة تجمع بينهما علاقات صداقة .

وفي اوائل ١٩٧٠ أعلن الامريكيون انهم يودون ايفاد وكيل الخارجية الامريكية جوزيف سيسكو الى القاهرة ، اذا كان عبد الناصر مستعدا لاستقباله . وكان عبد الناصر بالتأكيد مستعدا لذلك ، لانه كانت لديه اسباب عدة ، اولها ، بطبيعة الحال ، محاولة استكشاف الطريقة التي يفكرون فيها ، ومعرفة مدى ما يعرفونه عن حقيقة ما يجري في مصر ، لان العمل في بناء جدار الصواريخ كان يمضي في اقصى سرعته . وهكذا لقي سيسكو ترحيبا حارا فاق ما استقبل به في بعض العواصم الاخرى التي كان تقرر زيارتها . (ففي بيروت مثلا احرق المركز الثقافي الامريكي عن آخره ، وفي عمان قامت تظاهرات بلغت من العنف حداً كان لابد معه من الغاء الزيارة) . وقد وصل الى القاهرة يوم ١٠ ابريل (نيسان) ، واستغرقت زيارته اربعة ايام .

وقابل سيسكو الرئيس عبد الناصر يوم ١٢ ابريل ، (نيسان) ، وابلغه ان حكومة نيكسون « اكثر مرونة » من اية حكومة اخرى بالنسبة الى مشكلة الشرق الاوسط ، وقال انه ليس احمق ليحاول ان ينكر ان الولايات المتحدة ملتزمة بتأييد اسرائيل ، لكن ما يريدونه هو « سياسة متوازنة » . وقال ايضا انهم لا يتفقون مع جولدا مائير في ان كل ما يحتاج اليه الموقف هو مفاوضات مباشرة بين اسرائيل والعرب . كما ذكر ان امريكا هي الدولة الوحيدة التي تستطيع ان تساعد على تحقيق انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة ، لكنها تحتاج من اجل تحقيق ذلك الى « نقطة ارتكاز » ، وان مشروع روجرز ، في نظرها ، يمكن أن يكون بمثابة هذه النقطة . ثم اعرب عن رأيه في ان المشروع « في صالح مصر ٩٥ في المئة » .

وذكر عبد الناصر ان الولايات المتحدة مستمرة في مد اسرائيل بالتأييد الكامل في مجلس الامن مهما فعلت ، وانها لم تستنكر اجراءاتها غير المشروعة وعدواناتها العديدة . وقال ان الطائرات التي ضربت منذ ٣ أيام مدرسة مصرية وقتلت خمسين طفلا ، طائرات امريكية . ثم قال : « ان هذه هي المرة الاولى التي اشعر فيها بالمرارة . اني لم اشعر بها ايام دالاس ولا ايام ميثاق بغداد . اما الان . . . وبعد قتل الاطفال والعمال والمدنيين ، فاني اشعر بها » .

وكان الاجتماع غير مثمر .

ومع ذلك ففي يوم اول مايو (ايار) القى عبد الناصر خطابا في عيد العمال تضمن نداء وجهه الى الرئيس نيكسون . وقال انه استقبل سيسكو تلبية لطلب من الرئيس ، وأن سيسكو حمل اليه رسالة من الحكومة الامريكية . وهو الآن يريد ان يخاطب الرئيس نيكسون مباشرة . قال :

« اريد ان اقول للرئيس نيكسون انه اذا كانت الولايات المتحدة تريد السلام ، فعليها ان تأمر اسرائيل بالانسحاب من الاراضي العربية المحتلة . ان ذلك في طاقة الولايات المتحدة التي تأتمر اسرائيل بامرها لانها تعيش على حسابها .

« هذا حل . .

« والحل الثاني ان تمتنع عن تسليح اسرائيل ما دامت تحتل الاراضي العربية . فاذا لم تفعل ايا من الامرين فلا مفر من ان يخرج العرب بحقيقة ان امريكا تريد ان تواصل اسرائيل احتلال اراضينا حتى تتمكن من فرض شروطها علينا بالاستسلام » .

وفي اليوم التالي ارسل الى الرئيس نيكسون خطاب خاص يحوي الفقرات المذكورة التي تضمنها خطاب عبد الناصر في عيد العمال . وبعد ذلك بشهر ، اقترح روجرز وقف اطلاق النار على جبهة القناة لمدة ثلاثة اشهر ، على ان يعقب ذلك بيان تصدره كل الاطراف المعنية عن طريق جونار يارنج ، ينص على اعادة تأكيد القرار الرقم ٢٤٢ ، مع تركيز خاص على انسحاب الاسرائيليين من الاراضي المحتلة . لكن ايا من هذه الاتصالات لم يحقق شيئاً ذا بال .

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٩٧٠ اعلن روجرز في مؤتمر صحافي ان حكومته وضعت مبادرة سياسية جديدة تستهدف تشجيع الدول العربية واسرائيل على « وقف اطلاق النار والبدء في اجراء محادثات » . وتدعو المبادرة جميع الاطراف الى اشتراك في اعادة وقف اطلاق النار لفترة محدودة ، والاشتراك في مبادىء اساسية معينة خاصة بالسلام والامن ، توضع على شكل تقرير من الدكتور يارنج الى يوثانت .

وكان عبد الناصر وصحبه ـ وانا منهم ـ في طرابلس في ذلك الوقت ، ووصل نص المبادرة الينا هناك . وقد درسه محمود رياض وزير الخارجية وانتهى من دراسته الى انه لا يحوي جديدا . وارسلت نسخة منه الى القاهرة اطلع عليها انور السادات ، الذي لم ير فيه ـ شأنه في ذلك شأن رياض ـ ما يستأهل ، والقى خطابا بشأنه في اللجنة المركزية ضمنه وجهة نظره . لكن عبد الناصر اخذه بعد ذلك ليلقي عليه نظرة فاحصة ، وقرر انه يتفق مع استراتيجيته الشاملة . فقد كان الجيش حينئذ اصبح مستعدا ، وكان الاتحاد السوفييتي مشتركا بطريقة فعلية في الدفاع عن المدنيين في مصر ضد الغارات الجوية الاسرائيلية . وكان اكبر ما يشغل اهتمام عبد الناصر في ذلك الوقت هو الانتهاء من بناء جدار الصواريخ . ذلك ان اتمام بنائه لم يكن سيحمي قواتنا المسلحة في الضفة الغربية للقناة وحسب ، لكنه سيكفل الحماية فوق شريط يراوح عرضه بين ١٥ و ٢٠ كيلو مترا في الضفة الشرقية ، ويهيء بذلك غطاء للقوات التي ستعبر القناة عندما يحين الوقت . وفي ظني ان عبد الناصر كان اتخذه قراره

قبول مبادرة روجرز في اثناء وجوده في طرابلس ، وان لم يكن هناك من عرف به الا في ما بعد .

الجزء التاسع

الزيارة الثانية لموسكو

في التاسع والعشرين من شهر يونيو (حزيران) قام عبد الناصر بزيارته الثانية للاتحاد السوفييتي في ذلك العام . وكنت وقتها وزيرا للارشاد القومي وعضوا رسميا في الوفد المصري . واذكر اننا في ليلة وصولنا لحقتنا برقية من القاهرة بنبأ عن اسقاط طائرتين اسرائيليتين من طراز « فانتوم » . وصباح اليوم التالي سمعنا ان طائرة من طراز « سكاي هوك » قد اسقطت بصاروخ ايضا . وهكذا ، فاننا عندما دخلنا قاعة الاجتماع لاجراء المباحثات مع الوفد السوفييتي فان عبد الناصر حيا بريجنيف قائلا : وأخيراً . . لدينا الان انباء طيبة . لقد اسقط جنودنا ثلاث طائرات اسرائيلية » . ونظر بريجنيف الى الماريشال جريتشكو الذي اخرج من جيبه ورقة القى عليها نظرة ثم قال كلاما لبريجنيف باللغة الروسية نظر بريجنيف على اثره الى عبد الناصر وقال : « الرفيق عبد الناصر . . اظنك مخطئا في الحساب ، فان ما لدينا من معلومات يقول ان حصيلتكم من الطائرات امس كان ست » . وكان جريتشكو تحدث قبل ذلك مباشرة مع كبير مستشاري الدفاع الجوي السوفنييتي بواسطة الخط التليفوني المباشر الذي تم تركيبه للاتصال بين وزارة الدفاع في موسكو ومكتب كبير الخبراء السوفييت في القاهرة .

وفي هذا الاجتماع اظهر كوسيجين اهتماما بالغا بليبيا ، وتحدث في موضوعها ما يزيد عن الساعة ، وكان مما قاله ان تقديراته ان لدى الليبيين اعلى نسبة للفرد من انتاج البترول فى العالم ، وان متوسط نصيب كل فرد في ليبيا يبلغ ٧٠ طنا من البترول في السنة . وكانت الدهشة واضحة عليه وهو يذكر الارقام ، كما بدا عليه الاهتمام الشديد حين ابلغه عبد الناصر احتمال اقامة وحدة بين ليبيا ومصر وسوريا .

وقد شهد هذا الاجتماع الذي عقد في الكرملين حادثا غريباً ، اذ رأينا الباب يفتح على غير انتظار يدخل منه احد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية ويعطي فلاديمير فينوجرادوف نائب وزير الخارجية ورقة صغيرة قرأها ، ثم اعطاها لجروميكو وزير الخارجية فقرأها ، ثم قام من معقده واعطاها لكوسيجين فقرأها ، ثم اعطاها لبريجنيف فقرأها ، ثم اعادها لكوسيجين ، فأعطاها بدوره لبودجورني فقرأها ، ثم اعادها الى

كوسيجين ، ومنه ثانية الى بريجنيف الذي وقعها واعطاها لكوسيجين فوقعها ايضا ، ومنه لبودجورني فوقعها ، ثم اعطاها لجروميكو ، ومنه لفينوجرادوف الذي اعادها الى المسؤول الكبير في وزارة الخارجية فأخذها وغادر القاعة .

واعتقد ان العملية كلها لم تستغرق اكثر من ثلاث دقائق . وقد بدأت وعبد الناصر يتكلم ، لكنه عندما لاحظ ان الكل مشغول بشيء آخر ، فانه توقف عن الكلام . وحين انتهت العملية رأى بريجنيف اعضاء الوفد المصري كلهم يحملقون فيه ، واحس بانه لابد من ان يقدم اليهم تفسيرا ما لما حدث . قال « ان هذا امر يهمكم ايضا . فقد تلقينا معلومات ان محاولة انقلاب ستجري في الصومال الليلة ضد الجنرال زياد ، وعليه قررنا ان نبعث اليه ببرقية تحذير . وهي البرقية التي قرأناها الان ووافقنا عليها » .

وبعد ذلك ، وفي اثناء خروجنا من الاجتماع قال لي عبد الناصر : « أرأيت ما حدث ؟ » . قلت : « تعني تلك الورقة الصغيرة ؟ » . قال : أجل . . اليست هذه بيروقراطية زائدة عن حدها . . فاذا كان مجرد ارسال برقية الى الجنرال زياد في الصومال يتطلب توقيع الثلاثة كلهم ، اذن فاننا في مأزق . ولقد فهمت الان السبب في ان طلباتنا تستغرق مثل هذا الوقت الطويل قبل ان تظهر نتائجها » .

الجزء العاشر

قبول مبادرة روجرز

بعد اربعة ايام من المحادثات في موسكو دخل عبد الناصر مستشفى بيرفيكا للعلاج فترة اسبوعين ، وعدت انا الى القاهرة . وقد عقد عبد الناصر اجتماعا آخر مع بريجنيف قبل ان يعود وتلقى خلاله ردا على الطلب الذي قدمه بشأن السلاح . وكان عبد الناصر ذكر لبريجنيف في احد الاجتماعات السابقة انه يعتزم قبول مبادرة روجرز . وانزل بريجنيف نظارته من فوق عينيه الى انفه وحملق في عبد الناصر وقال متسائلا : « اتعني انك تريد ان تقول انك ستقبل اقتراحا يحمل العلم الامريكي ؟ » . فقال عبد الناصر : « بالضبط . اني سأقبله لمجرد ان عليه العلم الامريكي . اننا بحاجة ماسة الى فسحة من الوقت نتنفس فيها حتى نستطيع ان نتم بناء قواعد الصواريخ . ونحن بحاجة الى ان نهيء لجيشنا فترة راحة حتى يستعد لقفزته الكبيرة ، ونخفض عدد ضحايانا من المدنيين . واننا محتاجون الى وقف لاطلاق النار . ووقف اطلاق النار الوحيد الذي يمكن ان يقبله الاسرائيليون لابد ان يكون مصدره اقتراحا امريكيا . لكني لا اظن

ان هناك اية فرصة لنجاح المحاولة ، ولا اعتقد ان احتمالات نجاحها تتجاوز ٢ / ١ في المائة » . وكان بريجنيف مندهشا ، لكنه كان فاهما .

وكان عبد الناصر قرر ان يتم اعلان قبوله مبادرة روجرز في خطابه الذي سيلقيه يوم ٢٣ يوليو (تموز) في احتفالات عيد ثورة ٢٣ يوليو (تموز) . وكان القاء هذا الخطاب عذابا حقيقيا له ، وترددت موجات الصدمة الناجمة عنه على الفور في انحاء العالم العربي كله . وقد تصور البعض ان الخطاب هو نتيجة لضغط من جانب السوفييت لان عبد الناصر كان عاد لتوه من رحلته الى موسكو ، في حين ان دهشة القيادة السوفييتية لمحتوياته لم تكن اقل من دهشة اي جانب آخر .

وكنت في ذلك الوقت اتولى منصب وزير الخارجية بالنيابة ، في اثناء فترة غياب محمود رياض وزير الخارجية في زيارة لدول البلقان ، ووقع علي عبء التفاوض بشأن تفصيلات وقف اطلاق النار الذي قفز امامنا كنتيجة فورية لقبول محاولة روجرز .

وقد ابلغني دونالد بيرجس المشرف على رعاية المصالح الامريكية في القاهرة انه لمجرد سريان مفعول وقف اطلاق النار ستقوم الولايات المتحدة باعداد ترتيبات يستدعى اسحق رابين السفير الاسرائيلي في واشنطن بموجبها الى اسرائيل ليصبح رئيسا للوزراء ، وبعدها يمكن توقع بعض التقدم الحقيقي . وقد تولى رابين هذا المنصب الان ، وهو منصب كان الامريكيون يحتفظون به لديان خلال فترة مبادرة روجرز على اساس انه « الديجول » الذي يمكن ان يقنع الاسرائيليين بالحاجة الى تقديم تنازلات .

وقد اخذنا على غرة بالطلب المفاجىء الذي قدم الينا بوقف « فوري وعلى المواقع » لاطلاق النار ، وهو شيء جديد بالنسبة الينا . فقد كنا نفكر في وقف لاطلاق النار على غرار ما حدث في العام ١٩٤٨ ، ولكن قيل لنا ان كل شيء يجب ان يتم خلال ساعات . وطلب عبد الناصر مني ان اعمل على كسب بعض الوقت له . وقال انه محتاج الى ست ساعات يتمكن خلالها من وضع صواريخ هيكلية ثابتة في بعض المواقع التي كانت تحتلها صواريخ متحركة ، لان الاقمار الصناعية ستصور بطبيعة الحال المراكز الدقيقة لكل الاسلحة لحظة بدء تنفيذ وقف اطلاق النار . وكان عبد الناصر يريد ان يكون قادرا على احلال الصواريخ الحقيقية محل الصواريخ الهيكلية التي ستحل بدورها في المواقع المتحركة . وهكذا ، فانه على رغم ان دونالد بيرجس ظل على اتصال تلفوني مستمر بي يقول ان واشنطن وتل ابيب بدأتا تفقدان الصبر ، فاني استطعت ان اهدىء من عصبيته ، اذ قلت له اننا لابد ان نتأكد من ان الاشارة وصلت الى مواقعنا البعيدة على البحر الاحمر ، واننا لا نريد حوادث ، وانما نريد وقفا لاطلاق النار يكون نافذ المفعول ... الخ . وقد حصل عبد الناصر على الساعات

الست التي طلبها وأمكن بها يشبه المعجزة وضع الصواريخ الهيكلية خلال الليل ، بحيث كانت جاهزة للتصوير من جانب الامريكيين قبل الفجر في اليوم التالي . وقد تظاهر الامريكيون بالقلق لنقل الصواريخ . وحاولنا ان نشرح لهم انه كانت هناك صواريخ متحركة في هذه المواقع . لكنهم لم يقبلوا ، ثم اندفعوا الى تزويد الاسرائيليين بمزيد من السلاح . وكان واضحا ان حكاية الصواريخ مجرد ذريعة لما يريدون .

واثار قبول مصر لمبادرة روجرز غضب الكثيرين من العرب . ولاسيما بعض الفلسطينيين . وأصدر نايف حواتمه وجورج حبش بيانا قالا فيه ان على اولئك العرب الذين اتعبهم الكفاح ان يتنحوا للجيل الاصغر المستعد لبذل التضحيات اللازمة . وكان عبد الناصر يقدر المرارة التي يشعر بها الفلسطينيون . وكان أكثر ما يخشاه أن يظن الملك حسين أن فرصته حانت لمواجهة مع المقاومة على أساس ان راعيها : عبد الناصر . . قد تخلى عن تأييده لها . ولذا ، فانه طلب الى كل من الملك حسين وياسر عرفات ان يحضرا الى القاهرة للاجتماع معه . وجاء الملك حسين يحمل شكاوى عدة من أن المقاومة اصبحت دولة داخل الدولة . . . الخ . وتكلم عبد الناصر معه بصراحة ، قال : « أنا لا أريدك ان تصفي المقاومة ، ولا للمقاومة ان تصفيك . ولا جدال في أنك تملك القوة لسحق المقاومة ، لكنك لابد لك لتحقيق ذلك ان تذبح ٢٠ ألف شخص ، وتتحول بلادك بعد ذلك الى مملكة للاشباح . وسأقول للمقاومة ان عليها الا تستفزك لانها لا تستطيع ان تحصل لنفسها على ما تهيئه لها حكومتك من أشياء ضرورية كالتعليم والمواصلات والمواد التموينية وغيرها . ولابد لكما كلاكما من أن تتعايشا معاً فذلك هو السبيل الوحيد » . وعاد الملك حسين غير سعيد بما سمع . ولم يكن جو اللقاء مع ياسر عرفات مريحاً ، لان مصر كانت اضطرت الى وقف اذاعة المقاومة من القاهرة بعدها بدأت حملة من الهجوم الشديد على مصر ، وعبد الناصر ، ومبادرة روجرز ، وعلى كل شيء ، بأقسى الالفاظ . وكنت وزيراً للارشاد القومي (الاعلام) في ذلك الوقت ، وطلب الي أن أحاول اقناع المسؤولين الفلسطينيين بتخفيف حدة هذا الهجوم . وقلت لابو اللطف - أحد هؤلاء المسؤولين - انهم يستطيعون مهاجمة مبادرة روجرز كما يشاؤون ، ولكن ليس من ان يصفوا من قبلوا المشروع من العرب بالخيانة . وقد بعث بالرسالة الى عمان . وبعد يومين تلقت اذاعة فلسطين رسالة بالشفرة التقطتها المخابرات المصرية ، وكان نصها : « لا تخضعوا للضغط من أي جهة . وهاجموا من تشاؤون » . وعندئذ طلب عبد الناصر الى وزير الداخلية ان يوقف الاذاعة . وقد كان .

وقدم عبد الناصر الى عرفات تفسيرا صريحاً لما كان يحاول ان يفعله ، وقال أنه لا يرى ان فرصة النجاح بالنسبة الى مبادرة روجرز تزيد على ٢ / ١ في المائة ، ومع ذلك ، فحتى هذا النصف في المائة جدير بأن يمنح

فرصة التجربة كذلك . شرح له الحاجة الى اتمام بناء جدار الصواريخ واستحضار معدات الجسور ، وقال ان المضي في حرب الاستنزاف بينما اسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل ، معناه أننا - ببساطة - تستنزف انفسنا .

وعلى رغم أن عبد الناصر كان في ذلك الوقت تقريبا أصدر الامر للفريق فوزي بأن يستعد للعملية « جرانيت ١ » التي ستمهد لعبور القناة والتقدم الى الممرات - بعدها أصبح جدار الصواريخ مؤثراً بالفعل - فانه لم يكن بطبيعة الحال يستطيع ان يقول هذا للفلسطينيين في تلك المرحلة .

الجزء الحادي عشر

مؤتمر القاهرة

في اوائل شهر سبتمبر (ايلول) بدأت العلاقات تزداد تدهوراً بين الملك حسين والمقاومة ، وبدا الصدام بينهما وشيكاً . وكان عبد الناصر في ذلك الوقت يقضي فترة اجازة في مرسى مطروح بعدها تلقى رسائل عدة من البروفسور شازوف من موسكو يؤكد فيها أن هناك ضرورة قصوى لان يقضي شهراً كاملاً على الاقل في راحة تامة ، لا يسمع فيها راديو ، ولا يدلي بأحاديث ، ولا أي شيء آخر . ووافق عبد الناصر على أن تستريح لمدة ١٠ أيام ، ولكن في يوم وصوله الى مرسى مطروح بدأ الملك حسين عملياته ضد المقاومة . وجاء عدد من زعماء المقاومة الذين كانوا في القاهرة في ذلك الوقت لمقابلتي ، وقالوا انه اذا لم تصدر أية كلمة في هذا الشأن ، فان الملك حسين وحاشيته سيعتبرون سكوته بمثابة الضوء الاخضر لهم للمضي في هذه العمليات . وكان من الواضح في المساء ان الموقف في عمان يتدهور بشدة ، مما اضطرنا - بعد كثير من التردد - الى الاتصال بعبد الناصر وابلاغه الانباء وكان قراره ، كخطوة اولى ، ان يوفد الفريق محمد احمد صادق ، رئيس الاركان المصري الى عمان برسالة يذكر فيها الملك بالتحذير الذي كان عبد الناصر قد وجهه اليه بشأن عدم الاقدام على أية محاولة لتصفية المقاومة ، ولاقناعه بأن نشوب حرب أهلية في الاردن معناه ، ببساطة ، أننا وقعنا في فخ لعبة الاسرائيليين والامريكيين . وقد سافر الفريق صادق وعاد يحمل انطباعاً أن الملك حسين يحاول ان يكسب الوقت ، وأن الكثيرين من افراد اسرته وحاشيته يدفعونه الى مواجهة حاسمة مع المقاومة .

وبعد ذلك مباشرة تدهور الموقف بسرعة ، فقد ارسل السوريون بعض دباباتهم عبر الحدود الاردنية الى الرمثا ، وجاء نور الدين الاتاسي رئيس

الدولة السورية الى القاهرة ، يحمل رغبة واضحة من جانب السوريين والعراقيين في التدخل بالقوة في القتال الدائر في عمان . وفي الوقت نفسه ، فان الامريكيين ابلغوا الروس انهم لن يقبلوا مثل هذا التطور ، ونقل الروس هذا التحذير - الذي صيغ بلهجة شديدة - الى عبد الناصر . وكان الجو عندئذ جو أزمة دولية خطيرة لم يجد عبد الناصر معها بداً من ان يدعو الى مؤتمر قمة لملوك الدول العربية ورؤسائها .

وعقد المؤتمر في القاهرة يوم الاربعاء ٢٣ سبتمبر (ايلول) ، وبدا واضحاً منذ بدايته ان هناك اتجاهين في الرأي بين المشتركين فيه . كان هناك رؤساء كالقذافي ونميري وغيرهما يرون انه لابد من ان يوضع الملك حسين في قفص الاتهام . وكان اخرون - من بينهم عبد الناصر - يرون ان الواجب الاساسي هو الا نفقد رؤيتنا للهدف الرئيسي من عقد المؤتمر وهو : وقف المذبحة . وكان من رأي عبد الناصر انه اذا أحس الملك حسين بأنه منبوذ ، فانه سيجد المبرر لقطع اتصالاته بالحكومات العربية الاخرى والمضي في حملته ضد المقاومة . كذلك فان عبد الناصر كان يرى دائماً ان في شخصية الملك حسين جانباً طيباً مع الجانب الغامض في شخصيته ، وأن الحكمة تقتضي التركيز على هذا الجانب الطيب .

وفي ٢٤ سبتمبر (ايلول) سافر الى عمان وفد يرئسه الرئيس نميري ويضم الباهي الادغم رئيس وزراء تونس والفريق صادق . وكانت مهمة الوفد أن يقابل الملك حسين ويحاول الاتصال ببعض زعماء المقاومة ، ومنهم ياسر عرفات نفسه الذي تردد انه يقود المقاومة من مخبأ في مكان ما في جبل عمان . وعاد الوفد مذهولا ما رأى ، وقال الباهي الادغم ان شاهدوه لا يمكن ان تصفه ايه دولة متحضرة بأنه « عملية بوليسية » وانما هو عملية عسكرية ضخمة . وقال الفريق صادق ان الترتيب لهذه العملية لابد ان يكون تم منذ وقت طويل . وفي تلك الاثناء كان عبد الناصر تلقى معلومات أن العملية تمت بالتعاون بين المخابرات الامريكية وعدد من الاردنيين في الاردن نفسه من بينهم وصفي التل . وقال الملك فيصل في كلمة تحذير : ان علينا أن نتأكد ممن هو المسؤول عن القتال . . . فان المقاومة لديها سلاح ، شأنها شأن الجيش الاردني . وأضاف ان هناك شائعة أن ابو عمار (ياسر عرفات) موجود في السفارة المصرية . ورد عبد الناصر أن عرفات زار السفارة المصرية مرة بغرض مقابلة الفريق صادق ، لكنه ليس مختبئاً في السفارة كما يزعمون .

وأعتقد ان جانباً من المناقشات التي دارت بين الرؤساء - والتي انشرها على هذه الصفحات - يمكن ان يوضح الجو الذي ساد المؤتمر :

الملك فيصل : « اني متفق مع فخامتكم (لعبد الناصر) ان ذلك كله يبدو كأنه خطة لتصفية المقاومة .

القذافي : « اني غير متفق معكم في الجهود التي تبذلونها . واعتقد انه

لابـد من ارسـال قوات مسـلحـة الى عمان . . . قوات مسـلحـة من العـراق وسوريا » .
الملك فيصـل : « تريـد ان ترسـل قواتنـا المسلحـة للقتال في الاردن ؟ . . هذا ليس عملياً » .
الرئيس عبد الناصر : « اظن ان علينا ان نتحلى بالصبر » .
الملك فيصـل (ينـظر الى القـذافي) : « أظن انـه اذا كان علينـا ان نرسـل جيوشنا الى اي مكان ، فلابد ان نرسلها لتقاتل اليهود » .
القـذافي : « ان ما يفـعله حسـين ابشـع مما يفعله اليهـود . . . والمسـألـة كلها اختلاف في الاسماء » .
الـرئيس عبـد النـاصر : « الصعـوبـة هي أننـا اذا ارسلنـا جنـوداً الى الاردن ، فان ذلـك لن يؤدي الا الى تصفيـة بقيـة الفلسـطينيـين . . . واريـد منكم ان تستـمـعـوا الى رسـالـة تلقيتهـا هذا الصبـاح من الاتحـاد السـوفييتي . انهم يطلبـون منـا الـتـمسـك بأقصى قدر من ضبط النفس ، لان المـوقف الـدولي اصبـح دقيقـاً للغـايـة ، وأي خطأ في التقـديـر يمكن ان يؤدي الى أن يفقـد العرب كل السمعة التي اكتسبوها خلال السنوات الثلاث الماضية » .
القـذافي : « مازلت معـترضـاً . فاننـا اذا كنا نواجه مجنونـاً كحسـين يريـد أن يقتـل شعبـه ، فلابـد من أن نرسـل من يقبض عليـه ويضـع الاغـلال في يديه ، ويمنعه من أن يفعل ما يفعل ، ويحمله الى مستشفى مجانين » .
الملك فيصـل : « لا أظن أن من الـلائق ان تصف ملكـاً عربيـاً بأنـه مجنـون ، يجب ان يوضع في مستشفى مجانين » .
القذافي : لكن اسرته كلها مجانين . . والمسألة مسألة سجل » .
الملك فيصل : « حسناً . . ربما كنا كلنا مجانين » .
الرئيس عبد الناصر : « في بعض الاحيان حينما ترون جلالتكم ما يجري في العـالم العـربي ، ان ذلـك ربـما يصبـح صحيحـاً . واقـترح ان نعـين طبيبـاً يكشف علينا بصورة منتظمة ليتبين من هم المجانين من بيننا » .
الملك فيصـل : اريـد ان يبـدأ طبيبـك بي ، لاني اشـك ، بالنظر الى ما اراه ، في اني استطيع الاحتفاظ بتعقلي » .
الـرئيس عبـد النـاصر : « على أيـة حال . . دعـونـا نعـد الى موضـوعنـا الاصـلي . اني اقـترح ان يصـدر على الفـور بيـان باسم الـرئيس نمـيري يقـول ان الملك حسين قطع للوفد عهداً بانهاء القتال » .
القذافي : « الملك حسين لن يتراجع ما لم يحس بخنجر فوق عنقه » .
وعـاد الـرئيس نميري الى عمان بعـد ذلـك بيـومـين ، وتمكن واعضـاء الـوفـد من تهـريـب ياسر عرفـات معهـم أثنـاء عودتهـم الى القـاهـرة . وكـان الملك حسـين قد اذن لنمـيري وحسـين الشـافعي وسعـد العبـد الله ، ووزيـر الـدفـاع الكـويتي ، بأن يذهبـوا الى جبـل عمان للاتصـال بيـاسر عرفـات ، وفي اثنـاء وجـودهم هنـاك طلب سعـد العبـد الله الى سكـرتـيره ان يخلع « دشـداشـه »

في مؤتمر مصري - سوفياتي ، ويبدو من اليمين : عبد الناصر والسادات . ومن اليسار : بريجنيف وكوسيغين وبودغورني .

عبد الناصر والقذافي .

جثمان عبد الناصر في قصر القبة .

جنازة عبد الناصر .

(العباءة الطويلة التي يرتدونها في شبة الجزيرة العربية) وبعطلة لعرفات الذي ارتداه ودخل المطار .

وكان فندق النيل هيلتون قد حجز كله للمؤتمر . وخصص لكل رئيس وفد ومستشاريه ورجال حرسه وغيرهم ، طابق بحاله . وكان عبد الناصر ينزل في الطابق الحادي عشر . وكنت ظهر أحد الايام ـ وكانت فترة نسبيا من فترات المؤتمر حيث كان غيري في عمان وليس أمامنا الكثير نفعله الى حين عودته ـ أجلس معه نتبادل الحديث وقلت له انه لجميل ان يقيم الانسان في الفندق بين الحين والحين كنوع في التغيير . فقال : « أنا لا أجد ذلك جميلا . أنه كالقشلاق » ، ثم قال انه جائع وسأل : « هيكل . . . . أتظن ان الطعام هنا في الهيلتون تختلف عن الطعام الذي آكله في البيت ؟ » قلت : « المسألة تتوقف . . . ما الذي ستطلبه » ، قال انه يريد بعض « السندويتشات » . وارسل في استدعاء سفرجى عاد بنوع « سندويتشات » الجبن الابيض نفسه الموجود دائماً في بيت عبد الناصر . وكان التفسير لذلك ان دواعي الامن استدعت احلال طهاة الرؤساء الخصوصيين محل طهاة فندق هيلتون وعمال مطبخه . وقلت لعبد الناصر ان هذا ليس نوع الطلب الذي يجب ان يطلب في فندق كالهيلتون . فقال « وماذا يطلب الناس في الهيلتون عادة ؟ » فقلت : « عادة . . في منتصف النهار لا يطلبون « سندويتشات » جبن . . ربما طلبوا « كانابيه » (قطع صغيرة من الخبز المستطيل) بالسالمون المدخن » ، وأضفت ضاحكاً ومداعباً : « وربما بعض المارتيني » . فقال « المارتيني . . الا يخشون ان يكون ذلك سبباً في دخولهم النار في الآخرة ؟ » . وقلت انهم يعتقدون ان الله غفور رحيم ، وان « المهم هو تصرفات الانسان وسلوكه » . وسكت عبد الناصر لحظة ثم سأل فجأة سؤالا غريباً عدت الى تذكره كثيراً في ما بعد : « هل أنت مؤمن ؟ » فقلت : « أجل . . وبالقطع انا مؤمن » . فسأل : « اذن قل لى . . . ماذا بعد الموت ؟ » فقلت : « ذلك سؤال بالغ الصعوبة . وأعتقد ان الجنة والنار هما هنا فوق هذه الارض ، وربما كان القصد من ذكرهما هو الرمز للخير والشر . . . . وفي امكاننا نحن انفسنا ان نجعل من حياتنا جنة او ناراً . بعد الموت فربما كانت النهاية » . فقال عبد الناصر : « أتعني ان من يفعل خيراً على هذه الارض لا يدخل الجنة ؟ » . قلت : « لا ادري . . . وانما أظن ان الجنة والنار رموز » . قال : « ذلك يعني اننا بالموت ننتهي . . . وهذا كل شيء » . قلت : « هذا كل شيء » . فقال : « هذا ليس مطمئناً » . وبعد ثلاثة أيام كان عبد الناصر قد انتقل الى رحاب الله .

وفي كل مؤتمر من المؤتمرات جانبه الساخر . . . ولم يكن هذا المؤتمر ليختلف عن المؤتمرات الاخرى . هناك مثلا حادث « هروب » الجنرال محمد داود الذي كان الملك حسين عينه رئيساً للوزراء حين قرر التخلص من عبد المنعم الرفاعي واسناد الحكم الى وزارة عسكرية بدلا من الوزارة المدنية

تكـون أقـدر على التعـامـل مع المقـاومـة . وكـان للجنـرال داود ابنـة تتلقى العلم في بيروت ، وحـين سمعت أن والـدهـا كان مشـتركـا في مؤتمـر القمـة ، جاءت الى الـقـاهـرة ، ونـاشـدتـه الا ينضـم الى جانـب الملك في اجـراءاتـه ضد المقـاومـة . كذلـك ، فان القـذافي شدد عليـه في هذا الـطلب ، وقـال لرئيس الـوزراء التعيس انـه يخون القضيـة العـربيـة ، وانهمـرت الـدموع من عيني الجنـرال وقـال متسـائلا : « وماذا في مقـدوري ان افعـل ؟ » فقـال له القـذافي مشجعـاً « اترك الخـدمة . . ابق هنـا وابعث باستقـالتـك » . واقتنـع الجنـرال ، وسـارع القـذافي يبلغ عبـد النـاصر ما حدث ، ورأى عبـد النـاصر ان ذلـك تطور مفـيـد يسـاعـد على الضـغط على الملك حسـين . لكن القـذافي لم يكن يدري ـ وقـد حصـل على ما يريـد ـ ما يفـعـل بمـن هداه ، فاتـصـل بي ، واقـترحت عليـه ـ كوزيـر للارشـاد ـ أن يعقـد الجنـرال مؤتمـراً صحـافيـاً يشرح فيـه للعـالم أسبـاب استقـالتـه . وقلت : « أين هو الآن ؟ » فقـال بلهجة بدا فيـهـا الـغـمـوض : « لا أستـطيـع ان اخـبرك . . انـه مختبىء . . لكني أستـطيـع ان آخـذك اليـه » . وذهبنـا في سرعـة شديـدة الى حيث أقـابله ، وكـان المـكـان ـ لدهـشـتي الـكـبـيرة ـ هو قصر الـقـبـة . . في الجنـاح المخـصص لاقـامـة القـذافي . وقـد سافـر الجنـرال بعـد ذلـك الى ليبيـا ومنـح الجنسيـة الليبية .

وانـتـهت اجتـمـاعـات المؤتمـر في الســابـع والعشرين من سبتمـبر (ايلول) باتفـاق وقـع بين الملك حسـين ويـاسر عرفـات على وقف فوري لاطـلاق النـار وانسـحـاب كل قوات الجيش وقـوات المقـاومـة من كل مدينـة . في الاردن مسـاء ذلـك اليـوم . وكنت انـا مشغـولا مع الفـريق صادق في المسـاعـدة على اعـداد الـترتيبـات الـلازمة من مواصـلات وغيرهـا للجنـة المـراقبـة التي يرئسهـا البـاهي الادغم والتي كان مقـرراً ان تسـافـر الى عمان صبـاح اليـوم التـالي . ورأيت عبـد النـاصر قادمـاً ، وسرت معـه ناحيـة المصعـد لاتلقى منـه ما قد يريـد اصـداره من تعـليـمات . قال « اريـد ان اذهـب الى الـبـيـت وأتـنـاول طعـامي هنـاك » . وبـرغم « سنـدويتشـات » الجبن المفضلة لديـه والتي كان يأكلهـا في الفنـدق ، فقـد كان في المؤتمـر الكثـير من الحفـلات الـرسميـة التي لم يكن يحبهـا . وقـال انـه سينـام مبكـراً لان عليـه ان يقـوم في اليـوم التـالي بتـوديـع المسـافـرين من الملوك والـروسـاء . ودخـل الى المصعـد ونـزل . وكـانت آخر مرة رأيته فيها . . . باستثناء لحظات الوفاة الحزينة .

الجزء الثاني عشر

وفاة عبد الناصر

في اثناء عودة الناصر الى منزلة في السيارة علم ان القذافي في طريقه الى المطار . . . سافر من دون ان يبلغ احدا حتى لا يقلق راحة مضيفيه . وطلب عبد الناصر الى السائق ان يتجه الى المطار ، لكن القذافي كان سافر ، فعاد هو الى منزله . وتحدثت اليه في المساء بالتليفون لاقول له ان السفير البريطاني ، سير ريتشارد بومونت ، جاء يحمل رسالة من سير اليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانية يشكر فيها الحكومة المصرية على العون الذي قدمته بالنسبة الى الرهائن البريطانيين الذين كانوا محتجزين على الطائرة المخطوفة في الاردن .

وصباح اليوم التالي كان مشغولا جدا بوداع الوفود . وقد اتصل بي مرتين ، الاولى في التاسعة والنصف قبل ان يتوجه مباشرة الى المطار ، حيث قال انه يشعر بتعب شديد ويود لو عثر على ما يجعله ينام مدة ٢٤ ساعة . وقال « ان ما احتاج اليه هو النوم الطويل .. العميق » ، وان ساقيه تؤلمانه . وسألته : « وما الذي ستفعله في هذا الشأن ؟ » . قال انه سيضع رجليه في ماء ساخن وملح (وهو علاج يعتقد ابناء الريف في القرى المصرية انه مفيد) . فقلت بلهجة المحتج : « هذا لن ينفع » .

وفي الساعة الواحدة اتصل بي مرة ثانية ليسأل عما اذا كانت هناك احداث مهمة في العالم . وكان يريد ايضا ان يعرف ردود الفعل الدولية للاتفاقية التي وقعت في القاهرة ، ثم قال انه سيتوجه الى المطار ليقوم بالوداع الاخير لامير الكويت ، وبعده يعود الى منزله لينام نوما طويلا وعميقا . ولست ادري . . . لكني على ايه حال احسست برعشه تسري في بدني عندما سمعته يقول : الوداع الاخير .

وفي اثناء وقوفه في المطار مودعا امير الكويت شعر بأنه غير قادر على الوقوف ، وطلب الى سكرتيره ان تحضر السيارة الى حيث يقف ، لانه لا يستطيع ان يمشي اليها كما كان يفعل عادة . وركب السيارة بصعوبة . وطلب ان يتبعه طبيبه . وفي الثالثة والنصف كان قد وصلَ الى منزله ، وكانت قرينته وابناؤه ينتظرونه لتناول الغداء معه ، لكنه قال انه متعب جدا ، ولن يأكل شيئاً ، ودخل الى غرفته ورقد على فراشه ، ثم أحس بالنقص في السكر الذي يعاوده في بعض الاحيان ، فطلب من قرينته ان تحضر له كوبا من عصير البرتقال ، فذهبت لتعصره بنفسها ، وبعدما اخذ منه رشفه واحدة طلب طبيبه المقيم الدكتور صاوي حبيب ، فدخل واستدعى عددا آخر من الاطباء . وفي الساعة الرابعة كان الاطباء اجروا له رسم قلب ، وكشف التشخيص الاولي عن انه يتعرض لازمة قلبية حادة .

وطلبت في التليفون ، وقيل لي ان الرئيس يريد ان يراني . ولاحظت شيئاً غريباً في نبرة صوت السكرتير الذي تحدث الي ، واتجهت الى منزل الرئيس باقصى سرعة يساورني شعور بالانقباض . وصعدت السلالم قفزا الى غرفته من دون انتظار للمصعد (الذي كان ركب في البيت بعد اصابته بالازمة القلبية الاولى ، والذي كان نجح في ان تبقى هذه الاصابة سرا لا تعرفه قرينته) . ووجدت في الغرفة سامي شرف وشعراوي جمعة ومحمد احمد . ثم ما لبث ان انضم الينا حسين الشافعي وعلي صبري ، ثم وصل انور السادات نائب رئيس الجمهورية . وسألت : « ما الخبر ؟ » . فقال احد الاطباء : « انه في اشد حالات التعب » .

وكان الاطباء يتدافعون حوله بالاسعافات السريعة . راح احدهم يدلك قلبه ، بينما استخدم طبيب آخر الصدمة الكهربائية ، ورأيته للحظة خاطفة يرتعش من اثرها ، وقفز طبيب ثالث فوق السرير وبدأ يدلك صدره ، ولكن لم تظهر لذلك كله ايه استجابة ، ولم يكن هناك من يدرك ان النهاية حانت بالفعل .

وكنا جميعا في تلك الغرفة في حالة من الذهول لمدة ساعتين : الى الساعة السابعة . . نرفض ان نصدق حقيقة اننا في حضور جثمان رجل فارقته الروح . وكان يرقد في سريره وهو يرتدي بيجامته ، والسكينة تكسو وجهه . واذكر ان الفريق فوزي صاح في من كانوا في الغرفة : « افعلوا شيئاً » ، فاتجه حسين الشافعي الى احد الاركان وراح يصلي . ولربما كنت من اوائل من ادركوا ـ ولو بالعقل الباطن فقط ـ حقيقة ما حدث لاني اذكر اني رحت أقول وأعيد : « لا يمكن أن يكون هذا صحيحا . . لا يمكن ان يكون هذا صحيحا . لايمكن ان يحدث . . لايمكن ان يحدث » .

وفجأة انفجر احد الاطباء بالبكاء . وعندها ، في ظني ، برزت الحقيقة التي كنا جميعا نحاول ان نخفيها عن انفسنا ، فقد انفجرنا نجأة في البكاء . واندفعت قرينة الرئيس بعدما سمعت صوت بكائنا ، وجاءت الى الباب تسأل : « ما الذي حدث » . ورأينا ان من الافضل ان نترك الغرفة للاسرة ، واتجه السادات نحو السرير وقبل وجه جثمان الرجل . . ويده ، ثم غطاه بالملاءة . واتجه العديدون منا نحو السرير . واذكر اني شاهدت قرينة الرئيس وانا اغادر الغرفة ترفع الملاءة وتقبل وجه قرينها ويديه والحزن الغلاب يكسوها .

الجزء الثالث عشر

الجنـــــازة

ونـزلنـا من الغـرفـة ـ والأنـين الحزين من قرينة الرئيس يرن في أذاننا ـ الى الصـالـون في الطابق الاول من المنـزل . كان هنـاك انور السادات والى جانبه حسـين الشـافعي وعـلي صبري ومحمد احمد سكرتير الرئيس وسامي شرف وزيـر شؤون رئـاسـة الجمهـورية . وشعراوي جمعة وزيـر الداخلية والـفـريـق فوزي وزيـر الحـربيـة . والـفـريق الليثي ناصف قائـد الحـرس الجمهوري . وانا . وكان السؤال : ماذا بعد ؟ وما الذي نفعله ؟ .

كان من عادة عبد النـاصر ان يفتتح المنـاقشـات التي اشـترك فيهـا بأن يسـألني رأيي . فقـد كان يحب ان يحتفظ بوجهـة نظره الى الآخـر . واظن انـه كان يفـعـل ذلـك لانـه كان يخشـى ان يخفـي الآخـرون وجهـات نظرهـم الحـقيقيـة الى ان يتبينـوا وجهـة نظره . بينـما الامـر بالـنسبـة الي كان مختلفـا . فانـا قبـل كل شيء صحـافي . تعـودت ان اقـول رأيي وان اكتبه . وفي هذه الاثنـاء حذا السـادات حذو عبـد النـاصر . وحـين تجمعنـا كلنـا . وكنت الى جواره مبـاشرة . نظر الي وقـال : « حسنـا يا محمـد . ما الـذي ترى ان نفعله ؟ » .

ولم اشـعـر في حيـاتي بمثـل هذا القـدر من المسؤوليـه ـ بل لربـما يجب ان اقـول اني لم اشعـر ابـدا باني على مثـل هذا القـدر من الفـائـدة ـ كما شعـرت في تلك الفـترة . فقـد كان كل من في الغـرفـة ـ باستثنـائي ـ يشغـل منصبـا رسميـاً يفكـر فيـه . وعـلى رغم الحـزن العميق الـذي يحسون به فانهم لابـد يتسـاءلـون عما سيكـون لهذه الكـارثـة من اثـر على مناصبهم . اما انـا فقـد كانت الصـدفـة هي التي اوجـدتني هنـاك وانـا اشغـل منصبـا رسميا . واظن اني كنـت اتخـذت قراري بالـفـعـل لحظة نزولي على السـلالم بضرورة وضـع نهاية لمنصبي كوزير للارشاد .

وكـان ردي على السـادات ان علينـا ان ندعـو الى عقـد اجتـماع مشـترك لمجلس الـوزراء واللجنـة التنفيـذيـة العليـا للاتحاد الاشـتراكي . باعتبارهمـا أعلى هيئتـين سيـاسيتـين في الـدولـة . وان الاعـلان الـرسمي لوفـاة الـرئيس يجب ان يكـون في بيـان يصـدر عن الاجتـماع . وقلت اني اعتقـد ان علينـا ان نتبـع نص الـدستـور . ويعني ذلـك ان يصبح السـادات رئيسـا موقتـا الى حين اجـراء اسـتفتـاء لانتخـاب رئيس جديـد يختـاره مجلس الامـة بتـوصيـة من اللجنـة التنفيـذيـة العليـا للاتحـاد الاشـتراكي . ولم يعـترض احـد على هذه الاقـتراحـات او يتقـدم ببـديـل لها . وفي تلك الاثنـاء كانت وصلت الى المنـزل عربـة اسعـاف حملت جثـمان عبد النـاصر الى قصر القبـة . حيث وضـع هنـاك في الـعيـادة الخـاصـة بالقصر . وتبعنـا كلنـا الجثـمان بسيـاراتنـا . وفي قصر

القبة كتبت صيغة بيان باعلان وفاة الرئيس ، ثم اصدرت بعد ذلك ـ بصفتي وزيرا للارشاد ـ تعليمات بوقف البرامج العادية الاذاعة والتلفزيون ، وتلاوة القرآن بدلا منها . وقد ادركت البلاد على الفور ان ثمة شيئا جللا قد حدث . . لكن احدا لم يعرف ما هو .

وعقد اجتماع تمهيدي لمجلس الوزراء واللجنة التنفيذية العليا للاتحاد للاشتراكي ، اقترحت في أثنائه ان يعد الاطباء الذين تولوا علاج عبد الناصر تقريرا رسميا عن الوفاة ، ففعلوا . وقد كتب الدكتور منصور فايز كبير الاطباء المعالجين للرئيس عبد الناصر بضعة اسطر على « روشته » اخرجها من حقيبته قال فيها ان الرئيس توفي نتيجة انسداد في الشريان التاجي للقلب وقع التقرير معه ثلاثة آخرون من الاطباء .

وكان الكل مذهولا . . . بفعل الحزن والخوف من المجهول . لكن الوقت كان يقترب بسرعة من موعد نشره الاخبار في الاذاعة ، وكان لابد من ان تتضمن النشرة تفسيرا لهذا التغيير المفاجيء في البرامج . وكان السادات يريدني ان اقرأ بنفسي البيان الذي اعددته ، لكني امتنعت وقلت له : « لا اظن اني الشخص المناسب لاذاعة البيان . واعتقد ان من الضروري جدا في هذه اللحظة ان تشعر البلاد بعامل الاستمرار . واذكر بهذه المناسبة مدى الاهمية التي شعروا بها في امبركا يوم اغتيال الرئيس كينيدي بضرورة احساس الشعب في الولايات المتحدة بان انتقال السلطة تم ببساطة ومن دون تعقيد . ولذلك ، فاني اقترح ان تتولى بنفسك كنائب للرئيس اذاعة نبأ وفاة الرئيس على الشعب في الاذاعة وفي التليفزيون » .

ووافق السادات على الاقتراح ، وتوجهنا معا الى مكتبي في وزارة الارشاد في الطابق العاشر من المبنى نفسه الذي يضم استوديوهات الاذاعة والتليفزيون . وهناك قرأ السادات بيانا مكتوبا . وكان وسط حالة الارتباك قد نسي نظارته ، فاستعار نظارتي وقرأ بها البيان . ثم غادر المبنى ، وعدت انا الى مكتبي في « الاهرام » لاكتب قصة الوفاة .

وكان اليوم التالي يوم حزن جارف في البلاد كلها . وقد تقرر ان تشييع الجنازة يوم اول اكتوبر (تشرين الاول) حتى تاح فرصة الاشتراك فيها للكثيرين من ممثلي البلاد العربية والبلاد الأخرى الذين لا شك يريدون حضورها . وكانت بعض اقرب العناصر الى عبد الناصر بدأت بالفعل تجمعها ومناوراتها لاحتلال معقد السلطة الخالي الجديد . وقد فكرت في منصبي مليا وازداد يقيني الاصرار على ترك الحكومة والتفرغ « للاهرام » .

وطلب الينا السادات ان نشكل لجنة تبحث في ما يجب اتخاذه تجاه تجديد وقف اطلاق النار الذي كان موعد انتهائه في ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) . وسمحنا ان كوسيجين ، وشابان دبلماس ، وسير اليك دوجلاس

هيوم ، واليوت ريتشاردسون ، وكثيرين غيرهم من رؤساء الدول الاسيويه والافريقية سيحضرون الى القاهرة للاشتراك في الجنازة وكنا نعرف انهم سيوجهون الينا الاسئلة بشأن وقف اطلاق النار لمجرد الانهاء من تقديم التعازي . وهكذا عقد في مكتب الفريق فوزي في الساعة السادسة من يوم ٣٠ سبتمبر (ايلول) اجتماع حضره محمود رياض وزير الخارجية ، وامين هويدى وزير الدولة ، وحافظ اسماعيل مدير المخابرات ، وسامي شرف ، وشعراوي جمعة ، وأنا . ولم يكن التوصل الى قرار في هذا الشأن بالامر السهل . وكان شعوري انا ان علينا ان نمد وقف اطلاق النار لاسباب سياسية بحتة . صحيح ان الاستعدادات لعملية « جرانيت ١ » كانت تمضي في طريقها ، ولكن من الذي كان يستطيع في ذلك الوقت ان يتحمل مسؤولية اصدار الامر بتنفيذها ؟ كان اليوم آنذاك هو آخر سبتمبر (ايلول) ، وكان لابد لمن سيختار رئيسا جديدا ان يثبت في منصبه باستفتاء عام يستغرق الاعداد له معظم شهر اكتوبر . (تشرين الاول) وليس من الانصاف ان نتوقع منه اصدار الامر ببدء الحرب ولما تمضي عليه في منصبه الا بضعة أيام . ثم . . هل من الانصاف ان نزج بالبلاد على الفور في معركة ، وهي لا تزال ممزقة بالحزن ؟ وهكذا اعلنت اني في جانب مد وقف اطلاق النار .

وتحدث البعض مؤيدين الاجراء العاجل . وخطر لي ان خير وسيلة لحسم الموضوع هي سماع رأي الرجل المحترف . وتحدث الفريق فوزي ، وقال ما يفهم منه ان مصر العليا (الصعيد) لم تستكمل شبكة الصواريخ فيها بعد . وسألته : « قل لي . . هل أنت مستعد ـ من الناحية العسكرية المحض ـ لاستئناف القتال ؟ » فقال : « انا جندي . واذا صدر الي امر مكتوب ، فاني سأنفذ ما تطلبه مني القيادة السياسية » . وكان ذلك غريبا . اذ لم يحدث طوال حياة عبد الناصر ان طلب الفريق فوزي اية اوامر مكتوبة . وقلت : « ذلك ليس بالضبط هو الجواب على سؤالي . السؤال هو : هل يناسبك ، من الناحية العسكرية ان تبدأ القتال على الفور ، ام انك تفضل ان يتاح لك مزيد من الوقت للاستعداد ؟ » . وجاء رده على الفور : « اذ منحت فرصة شهرين آخرين فأني اظن ان موقفي سيكون احسن . ستكون بطاريات الصواريخ في مصر العليا قد استقرت في مواقعها ، وسأشعر عندئذ بمزيد من الامن » . وقلت : « اظن ان في هذا ما يجيب على تساؤلنا . واذا كان الجيش يرى ان من الافضل ان تتاح له فرصة شهرين اخرين فخير وبركة . والفرق ليس كبيرا بين شهرين او ثلاثة . واظن ان علينا ان نوصي بمد وقف اطلاق النار فترة ثلاثة اشهر اخرى » . وقد احتج بعض الحاضرين بان هذه طريقة مفاجئة بلا داع لانهاء المناقشة ، لكن الحقيقة انه لم يكن بينهم من كان مستعدا للمضي في المناقشة في الاتجاه المعارض .

وفي اثناء خروجنا من الاجتماع اقترب مني شعراوي جمعة وقال : اظن اننا يجب ان نذهب الى مكان نجلس فيه ونتحدث . . . انت وانا وسامي وامين هويدي » . فقلت : « لابأس » .

وركبنا نحن الاربعة السيارة الرسمية لوزارة الداخلية المخصصة له . وجلس هو في المقعد الامامي ، بينما جلسنا نحن الثلاثة في المقعد الخلفي . وتبعتني سيارتي . وكانت معظم الطرق قد سدت بحشود الجماهير التي كانت تتدفق على العاصمة من جميع انحاء البلاد للاشتراك في الجنازة . وقلت لشعراوي : « على اي حال ، فاننا سنستطيع - في سيارتك - ان نصل الى وسط البلد » . (وكان شعراوي ادرك انه لن تكون هناك اية فرصة في اليوم التالي لوصوله الى مكتبه من منزله في مصر الجديدة) واتفق مع سامي وأمين هويدي على ان يقضوا ثلاثتهم الليل في مبنى قناة السويس في جاردن سيتي ، ومن هناك يستطيعون بسهولة ان يصلوا الى مبنى مجلس قيادة الثورة في الجريرة حيث يبدأ تشييع الجنازة . اما فكنت سأقضي الليل في منزلي على النيل مباشرة . وهكذا ، فاننا كلنا كنا متجهين الوجهة نفسها .

لكننا عندما وصلنا الى العباسية على بعد اربعة اميال من وسط المدينة ، كان الميدان اصبح مغلقا تماما ، وطلب شعراوي الى السائق ان يتجه شمالا ، وان يحاول السير في الطريق الخلفي الذي يمر بالقلعة . وعندما اقتربنا من امام كلية البوليس اوقف السيارة ، والتفت ناحيتنا وقال : « اولئك الثلاثة . . انور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري ينزلون في قصر القبة ، ويتصرفون كأنهم حكومة ثلاثية . . مثلهم في ذلك مثل كوسيجين وبودجورني وبريجنيف ، بينما نحن الناصريين الحقيقيين ، واقرب الناس الى عبد الناصر لم نفعل شيئا للتنسيق ي ما بيننا ، أو الاتفاق على اسلوب مشترك للعمل . وهذا ما يجعلني ارى ضرورة البحث في الموقف بعضنا مع بعض » .

وكنت دائما احتفظ بتقدير لشعراوي الذي يتحلى بالعديد من الصفات الطيبة ، لكني احسست في تلك اللحظة ان صراحته تتطلب مني قدرا مساويا من الصراحة . فقلت له : « لنكن واضحين بشأن موقف كل منا . هناك نقطة نظام اضعها . . ونصحية صغيرة اقدمها . اما نقطة النظام فهي : انكم اذا كنتم تريدون التنسيق في ما بينكم بصفتكم وزراء فلا تفعلوا ذلك بحضوري ، لاني قد استقر رأيي على الخروج ، وترك الوزارة » . وقد اثار قولي غضبا لدى سامي شرف وقال : « لا . . اما ان نخرج كلنا ، او نبقى كلنا » .

وطلبت اليه ان يتعقل وقلت : اني لم اكن ابدا جزءا من السلطة كما هو الحال بالنسبة اليكم . . كنت دائما صحافيا ، ولم اقبل منصب وزير الارشاد الا تحت ضغط شديد من جانب عبد الناصر ، وتعهدت بقبوله لمدة

سنة فقط . وقد انقضت الان ستة اشهر ، وانتقل عبد الناصر الى رحاب الله . وهكذا ، فقد قررت ان اتحلل من وعدي » .

واعترض سامي باني اذا فعلت ذلك فسأبدو كأني غير مستعد للعمل تحت رئاسة اي شخص آخر غير عبد الناصر ، في حين انهم سيظهرون في مظهر المستعد لخدمة اي شخص . وقلت لسامي انه يبالغ ، واني اتخذت قراري بالخروج من الوزارة وسأتمسك به ، ولهذا ، فاني لا اوافق على ان يتم اي « تنسيق » بين الوزراء في حضوري . تلك كانت نقطة النظام .

اما نصحيتي الصغيرة فهي ان من الخطأ بالنسبة اليهم ان يحاولوا العمل معا كناصريين . وقلت : « انكم ان فعلتم ذلك فانكم ولا شك ستثيرون رود فعل تؤدي في النهاية الى صراع على السلطة ، واذا حدث تصادم في الاراء ، فأني سأودي دوري فيه كصحافي ، اما اذا نشب صراع على السلطة قائم على الاشخاص ، فلن يكون لي شأن به ، وستعاني البلاد كلها منه .

وازداد سامي انفعالا ، وراح يصيح : « عبد الناصر لم يمت » . فقلت له : « اسمع .. لابد لك ان تواجه حقائق الطبيعية . ان الرجل مات . وسيحكم على كل منكم فقط ، من الان فصاعدا ، بما يمكن ان يقدمه من اجل مصلحة البلد . انها صفحة جديدة فتحت امامكم جميعا » .

وبدأ سامي يبكي ويصرخ بأننا اما ان نبقى كلنا او نخرج كلنا . وعندئذ فقدت اعصابي ونزلت من السيارة واتجهت الى سيارتي ، وكانت تقف وراء سيارة شعراوي مباشرة ، وعدت الى القاهرة .

وكان اليوم التالي ـ الخميس اول اكتوبر (تشرين الاول) ـ يوم الجنازة . وعلى رغم ان الفريق فوزي كان حشد ثلاث فرق من فرق الجيش في العاصمة ، الا انه بدأ يشك في قدرته على حفظ النظام . وتلقيت مكالمة تلفونية من انور السادات قال فيها انه يود ان يبحث اقتراحا قدم اليه بالغاء موكب الجنازة ، خشية ان يفلت زمام السيطرة على الجماهير فتشغل النار في المدنية . وقلت ان الغاء الجنازة سيكون كارثة ، لان الناس سيتخيلون ان شيئا رهيبا قد حدث . وقلت اني ارى ـ كسبا للوقت ان ينقل الجثمان من قصر القبة الى مقر مجلس قيادة الثورة في طائرة هليكوبتر . وقد عرض السادات الاقتراح على العسكريين فوافقوا عليه ، لكنه تبين انهم لا يستطيعون انزال الطائرة هناك ، فانزلوها بالجثمان في ارض نادي الجزيرة .

واثيرت مشكلة اخرى .

كان الاطباء يخشون ان يبدأ الجثمان في التحلل اذا طالت مدة الجنازة تحت حرارة الشمس بعد ان يخرج من الثلاجة . وكان هناك آخرون يخشون ان تخطف الجماهير الجثمان من النعش ، واقترحوا ان يكون النعش بلا

جثمان . لكني قلت ان في ذلك مجازفة كبرى ، لان من المؤكد ان الجماهير ستسعى الى تتناول حمل النعش ، فاذا ما تبين لها ان النعش فاض فلن يقتصر الامر على حرق القاهرة وحدها ، وانما مصر كلها ستحرق . ان النعش يجب ان يأتي . . ويجب ان يكون الجثمان في داخله . وهكذا نقل الجثمان في الطائرة ، وبدأت الجنازة كما كان مقرراً لها .

وكنت كلفت بمرافقة كوسيجين خلال الجنازة . وكان كوسيجين ينزل في دار السفارة السوفييتية لا تبعد عن منزلي مسافة طويلة على الضفة الغربية للنيل . ولكن كان من الواضح ، عندما وصلت الى دار السفارة في الصباح الباكر ، اننا لن نتمكن من الوصول الى مقر مجلس قيادة الثورة حيث ستبدأ الجنازة ، حتى ولو سرنا على الاقدام ، لان الكباري كانت فتحت لمنع كل انواع المرور . وهكذا ، فانني ركبت مع كوسيجين قاربا صغيرا وعبرنا النيل من امام دار السفارة الى الحافة الجنوبية للجزيرة .

وساورني الانطباع وقتها ان كوسيجين كان منقبضا بصورة غير طبيعة . فالطريقة التي يتبعها الروس في مواجهة الموت تختلف عن طريقتنا . وكان من الواضح ان المشهد الذي رآه غريب عليه بل باعث على الصدمة . فقد كانت الجماهير في كل مكان : على ضفاف النيل . . وفوق الكباري ، تسد باعدادها الهائلة كل الشوارع . وسمعته يقول لي : « عليكم ان تحاولوا السيطرة على الاشياء ، لانكم اذا سمحتم لانفسكم بان يجرفكم الحزن بهذه الطريقة فلا احد يدري ما قد يحدث . ان البلاد كلها يمكن ان تنهار » .

وانتهت الجنازة . . وكانت حدثا وصفه الكثيرون ممن حضروها .

وكان فلاديمير فينوجرادوف وقتها مساعدا لوزير الخارجية السوفييتية جروميكو واحد الزوار الاجانب الذين زاروني . وكان سميه سيرجي فينوجرادوف قد توفي اخيرا في اعقاب ازمة قلبية ، وظل الاتحاد السوفييتي من دون سفير في القاهرة . ومن الغريب ان عبد الناصر كان يتحدث الي في هذا الموضوع قبل ثلاثة ايام من وفاته . واعربتُ له حينذاك ان املي في ان يعين الاتحاد السوفييتي « فينوجرادوف الصغير » سفيرا جديدا له في القاهرة ، ووافقني عبد الناصر على ذلك وقال : « كان هذا في فكري ايضا ، لكننا لا نستطيع ان نطلب اليهم تعيين شخص بعينه » . وهكذا فحين زارني فلاديمير في مكتبي في « الاهرام » قلت له : « لماذا لا تأتي وتصبح سفيرا سوفييتيا هنا ؟ » . فقال : « محمد . . انا مندهش . هل سمعت شيئا » ؟ . فسألته عما يعنيه فقال : « قبل ان احضر الى هنا كان هناك اجتماع للمكتب السياسي ، تقرر فيه اختياري للسفارة السوفييتية في القاهرة » . فقلت له ان ذلك يعني ان واحدة من رغبات عبد الناصر ستتحقق بعد وفاته .

وسأل كوسيجين انور السادات عما اذا كان في امكانه ان يرتب له لقاء مع بعض ممن سيتولون المناصب القيادية في مصر خلفا لعبد الناصر ، واعدت الترتيبات لعقد ثلاثة اجتماعات . اولها - وقد عقد في قصر القبة مساء يوم الجمعة ٢ اكتوبر (تشرين الاول) - تركز في بحث المسائل العسكرية وحضره من الجانب المصري - اضافة الى السادات - كل من حسين الشافعي وعلي صبري والفريق فوزي وسامي شرف ، بينما حضره من الجانب السوفييتي كوسيجين وزاخاروف وفينوجرادوف ولاشينكوف (الرئيس السابق للبعثة السوفييتية في مصر ، وقد حضر الى القاهرة ضمن الوفد السوفييتي في تشييع الجنازة) والجنرال كايتشكين الذي حل محل لاشينكوف كرئيس للبعثة . وقد تحدث الفريق فوزي في الاجتماع عن الموقف الجديد الذي نشأ نتيجة لبرنامج التسليح الامريكي الجديد والضخم لاسرائيل الذي يتضمن تزويدها بصواريخ « شرايك » وكذلك بطائرات « الفانتوم » و« سكاي هوك » وأشار الى مدى الاهمية القصوى لضرورة احساس القوات المسلحة المصرية ، بعد وفاة عبد الناصر ، بالثقة في السلاح السوفييتي وبتدفقه المستمر على مصر . ووعد زاخاروف بان يبذل ما في مقدروه ، وان يكن إعرب عن رأيه في ان قائمة مشتريات السلاح التي قدمت اليه كبيرة جداً . كذلك قال - ولفت قوله نظر الحاضرين باعتباره كلاما له اهمية خاصة - انه يرى ان علينا بذل كل جهد لكي يحل المصريون محل كل الروس الموجودين في مصر قبل بدء المعركة . وقال : « ليس ذلك لاننا ، في اي حال ، نخشى على رجالنا هنا ، ولكن لاننا نظن ان من الافضل جدا ان تتولوا كل شيء بانفسكم » . وأكد الحاجة الى ضرورة اليقظة في كل وقت ، وقال انه شاهد في اثناء مروره في الشوارع ملامح استرخاء بين حرس الكباري وغيرها .

وكان هناك اجتماع آخر في صباح اليوم التالي ، وثالث بعد الظهر لبعض اعضاء الوزارة واعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي . وقال كوسيجين انه شعر باننا دخلنا حالة فقدان توازن نتيجة لوفاة عبد الناصر ، وانه وزملاءه يحملون احتراما عظيما لمشاعرنا ، كما كانوا يحملون احتراما عظيما للرئيس الراحل ، لكنهم يريدون ان يرونا نستعيد توازننا ، ويريدون منا ، فوق كل شيء ، ان نحافظ على وحدتنا . وقال ان الاستعماريين سيهاجموننا اذ توفي عبد الناصر ، وانهم سيحاولون استغلال الفراغ الذي تركه . وأضاف ان مسؤوليتنا جسيمة لاننا يمكن ان نواجه الحرب في ايه لحظة ، ولاننا لا نواجه اسرائيل وحدها وانما الولايات المتحدة ايضا . ويجب الا نسمح لاي تأثيرات ، سواء كانت من اليمين او من اليسار المتطرف ، ان تشتت شملنا ، ثم قال انه يريد ان يذكرنا ان الروس تعرضوا في الاونة الاخيرة لمواجهة مع الامريكيين بسبب الاردن ، وحذروا الامريكيين من التدخل في الاردن ، بينما طلب الامريكيون من

الـروس ضبط الـنفس . يومـهـا قيـم عبـد الـنـاصر المـوقف تقييـما سلبـيا ، وكـان رده متسـما بالـشـعـور بالمسـؤوليـة . وذكـر كوسيجـين ان علاقـات الســوفييت مع الـرئيس عبـد الـنـاصر كانت وثيقـة للغـايـة وانـه على رغم ما تعـرضت له من صعـوبـات في بعض الاحيـان ، فانـه لم تكن هنـاك ايـه اسرار بين الـطرفـين ، ولم تكن هنـاك ابـداً ايـة حاجـة الى ان يخفي احـدهمـا شيئاً عن الاخـر او يكـذب عليـه ، لان اخفـاء الاشيـاء لا يفيـد احـدا بشيء ، كما ان الكذب ينكشف دائما .

وقـد سأل كوسيـجـين عما اذا كان من المـمـكـن ان يزور عبـد الـنـاصر في ضريحه . فصحبوه اليه . . ثم غادر القاهرة عائدا الى بلاده .

الفصل الثالث

السادات يركب العاصفة

الجزء الاول

الاتصالات الديبلوماسية الاولى

ما أن توفى الرئيس عبد الناصر حتى قلت للرئيس المؤقت انور السادات إنني أود ترك منصبي الوزاري والعودة الى « الأهرام » . وكنت اعرف لو بقيت في منصبي كوزير ، فأنني سأدخل في صراعات مع بعض الاعضاء البارزين في الاتحاد الاشتراكي وفي مجلس الامة ، ولن اكون في هذه الحالة الا عائقا في طريق الرئيس الجديد ، في حين انى استطيع من مكاني في تحرير « الاهرام » ان اكون سندا مفيدا له . وقد استجاب لطلبي ، على ان ابقى في الوزارة الى حين الانتهاء من الاستفتاء الذي يثبته في منصب الرئيس ،(في ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) واعلنت نتيجته في اليوم التالي) ووافقت ، ونشرت في ما بعد رسالتين وديتين متبادلتين بيننا في هذا الشأن . ولم يؤثر تركي لمنصبي على علاقتي بالرئيس ، فقد واصلت مقابلاتي الكثيرة له ، وكنت سعيدا بأن احتفظ معه بالعلاقة غير الرسمية الخاصة التي كنت اتمتع بها مع سلفه .

وكانت هذه الفترة حافلة بالنشاط الديبلوماسي المكثف . كان الجميع داخل مصر وخارجها ـ ولا سيما امريكا والاتحاد السوفياتي ، من بين الحكومات الاجنبية الاخرى ـ يتلهفون لاستكشاف ما ستكون عليه مصر ما بعد عبد الناصر . ذلك ان الرئيس الجديد لم يكن معروفا على نطاق واسع خارج مصر والعالم العربي . وكانوا يتساءلون : هل يكون الرئيس الجديد مجرد رمز وتكون السلطة الحقيقية لمن يعملون تحت رئاسته ممن هم اقوى منه ؟ او يكون مجرد سد ثغرة سرعان ما يملؤها شخص آخر . واذا كان الحال كذلك فمن هو الذي سيبرز على القمة من بين الآخرين الذين يقفون على الاجنحة في الانتظار ؟ وكانت الإجابات عن هذه التساؤلات كثيرة ومختلفة .

ولعل خير وصف لما كانت عليه العلاقات بين مصر والولايات المتحدة فى اعقاب وفاة عبد الناصر مباشرة انها نوع من الهدنة القلقة . كان كل جانب يشك فى الجانب الاخر . وكان الامريكيون يتهمون مصر ، وبغضب ، بأنها نقلت مواقع الصواريخ فى منطقة القناة بعدما اصبح وقف اطلاق النار نافذ المفعول . واظهارا منهم لاستيائهم ، فانهم وافقوا على صفقة جديدة ضخمة من الاسلحة لاسرائيل اثارت بطبيعة الحال غضبا شديدا فى مصر . وعلى رغم ان الامريكيين كانوا سعداء بقبول عبد الناصر لمبادرة روجرز ، فانهم كانوا يخشون ان لايكون فى مقدور خليفته على الارجح ان يقف فى وجه الروس ، كما انهم كانوا يميلون الى اعتبار جماعة على صبرى ، ببساطة ، جماعة مؤيدة للروس تماما . وكانوا يضغطون بصورة مستمرة لكى يمد وقف اطلاق النار الى اجل غير مسمى بعد ان تنتهى مدته فى ٧ فبراير (شباط) ، ولكى يتم توقيع شكل من اشكال « الاتفاق الموقت » .

وكنت فى ذلك الوقت ادعو بشدة فى مقالاتى فى « الاهرام »، وفى لقاءاتى مع الساسة ، الى حاجة مصر الى العمل على تحييد الولايات المتحدة ، باعتبار ذلك ضرورة اساسية للمعركة التى بدت امرا محتوماً . وقلت انه لايمكن لأية مشكلة فى الشرق الاوسط ان تحل من دون اشتراك فعلى من جانب القوتين العظميين ، وبالتالى فليس هناك ما يبرر ان يصبح النزاع العربى ـ الاسرائيلى مستقطبا بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. وفى حين كان علينا ان نقبل ان مصالح امريكا متصلة اتصالا وثيقا باسرائيل ، فان علينا ان نعمل دائما حتى لا تصبح هذه المصالح متطابقة مع بعضها تماما . وعلينا كذلك ان نسعى لكى تبقى هناك فجوة بين المصالح والسياسات الامريكية الاسرائيلية ، وان نحاول العثور على مكان فى تلك الفجوة للمناورة والضغط على اسرائيل . وقلت اننا نستطيع ان نعتمد فى تحقيق هذه الاهداف على امكانات عدة من بينها قدرتنا على شن حرب محدودة ، وعلاقتنا الوثيقة مع الاتحاد السوفيتى (بشرط ان يظلوا دائما على علم بنوايانا) ، وسلاح البترول ، وتضامن الدول العربية الاخرى .

وفى ذلك الوقت ، اذيع ان الرئيس السادات سيلقى خطابا فى مجلس الامة يوم ٤ فبراير (شباط)١٩٧١ . ولم يعرف زملاؤه الكبار بمحتويات الخطاب الا قبيل موعد القائه بقليل . وحين عرفوا بها كان رد فعلهم شديدا . ذلك ان الرئيس كان مصمما على ضرورة القيام بمبادرة ما ، لانه لم يكن باقيا على انتهاء وقف اطلاق النار سوى ايام قليلة . وكان إقتراحه ان توافق مصر على مد فترة وقف اطلاق النار لمدة شهر ، وان يبدأ العمل فى تطهير قناة السويس ، بشرط ان تكون اسرائيل مستعدة لانسحاب جزئى فى سيناء مصحوب بجدول زمنى للانسحاب الكامل الى حدود مصر الدولية بموجب القرار رقم ٢٤٢ .

وطلب منى الرئيس ان اوضح للامريكيين ان هذه المبادرة منه شخصيا ولا علاقة للروس بها على الاطلاق . وقد استقبل الرئيس بيرجس بنفسه وشرح له ان الانسحاب الاسرائيلى يجب ان يكون كبيرا : مائة كيلو متر ، ويجب ان تتمكن القوات المصرية من عبور القناة الى سيناء لتتولى حماية من يعملون فى تطهير القناة .

ووقفت جماعة على صبرى موقف المعارضة الشديدة لاقتراح الرئيس ، وشهد مكتب الرئيس فى مجلس الامة مناقشة صاخبة ، حيث اصرت الجماعة على حذف اجزاء من خطاب الرئيس ، لكن الرئيس تمسك بموقفه ونجح فى الاحتفاظ بكل النقاط الرئيسية فى الاقتراح .

وبعد اربعة ايام من القاء الخطاب ، طلب الدكتور يارنج من الحكومة المصرية ان تقدم اليه التزاما مكتوبا بالنسبة الى الجزء الخاص بالسلام من القرار رقم ٢٤٢ ، كما طلب من الحكومة الاسرائيلية التزاما مكتوبا مماثلا بالنسبة الى الجزء الخاص بالانسحاب فى القرار رقم ٢٤٢ . وقد وافقت الحكومة المصرية على هذا الطلب ، ولكن الاسرائيليين رفضوه .

ولم اكن انا نفسى متحمسا لمبادرة الرئيس فى بادىء الامر ، لانها بدت لى فى بعض جوانبها مشابهة لفكرة كان الجنرال ديان اقترحها فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) الماضى ، وعرض فيها ان يبدأ العمل فى تطهير القناة فى مقابل انسحاب اسرائيلى رمزى لبضعة كيلو مترات. لكنها فى الحقيقة اثبتت فائدتها فيما بعد من حيث اظهار حسن نية مصر والمساعدة على عزل اسرائيل .

وكان الرئيس يأمل فى ان تؤدى مقترحاته الى ردود فعل ايجابية من جانب الامريكيين ، لكن الامل لم يتحقق . فقد تلقى يوم ٤ مارس (اذار) رسالة من الرئيس نيكسون (كان فيها ما يشير الى ان روجرز هو الذى وضع صيغتها) قال فيها انه اذا كان المظنون ان تحديد موعد اخير لانهاء وقف اطلاق النار يمكن ان يكون عامل ضغط على الولايات المتحدة فهو مخطىء . فالحاجة تدعو الى مزيد من الوقت ، وخاصة ان الحكومة الاسرائيلية بحاجة اليه لاقناع الشعب الاسرائيلى بضرورة تقديم تنازلات . وقال نيكسون ايضا انه لايريد ان يزج بنفسه فى اعلانات طنانة «سواء أكانت دوستويفسكية او تولستويانية» . . فذلك امر سهل ، لكنه يريد ان يحقق نتائج سريعة . وهو يعتقد انه سيكون هناك تخفيف فى حدة ازمة الشرق الاوسط «ولكن عليك ان تمنحنا الوقت الكافى» . وكان من بين الاشياء الايجابية القليلة التى برزت فى رسالة نيكسون ، انه يرى ان الانسحاب الاسرائيلى يجب ان يصل الى الحدود الدولية .

كذلك ، فان العلاقات مع الاتحاد السوفييتى كانت لها مصاعبها ايضا . ففى شهر يناير (كانون الثانى) جاء بودجورنى الى القاهرة بحجة حضور الاحتفالات بانتهاء بناء السد العالى ، وان كانت زيارته فى الحقيقة

تستهدف تقييم النظام الجديد . فقد كان الروس يخشون ان يندفع خلفاء عبد الناصر الى مغامرة عسكرية ليثبتوا جدارتهم . وفى اجتماع مع اعضاء وفد المفاوضات المصرى حذر بودجورنى بشدة من اهوال الحرب وقال : « اننا نعرف ماهى الحرب » .

لكنه حاول فيما بعد ـ بتحذير من السفير السوفييتى فلاديمير فينوجرادوف بشأن الاثر السيىء الذى تركه كلامه ـ ان يخفف من وطأة الاثر ، وتحدث بلهجة مشجعة. كما قال للفريق صادق عرضا ان الاسلحة التى طلبتها مصر سوف تصل .

وبعد ان سافر بودجورنى طلب منى فينوجرادوف ان يعرف تقييمى للرئيس السادات ، وكان جوابى: «انه رجل يحب ان يتوفر له وقت كاف للاصغاء لاية حجة، ولكن القرار الذى يتوصل اليه فى النهاية يكون قراره وحده. ولابد لكل شخص من ان يمنحه الكثير من الوقت ليرى ويسمع كل شيء بنفسه». (وللمناسبة، فان فينوجرادوف قضى بضعة ايام فى اسوان بعد انتهاء الاحتفالات، وروى لى حادثة طريفة. قال انه وزوجته كانا بدأ يلتقطان صورا للسد العالى، حين تقدم منهما ضابط بوليس ومنعهما من التقاط الصور قائلا: «ممنوع ان تفعلا ذلك. انه سر».

وخلال فترة قصيرة بعد ذلك، قام الرئيس السادات بزيارة سرية لموسكو يوم اول مارس (اذار) وكانت هناك ثلاثة امور يريدها من الروس. اولها ان يضع معهم استراتيجية عسكرية وسياسية مشتركة. وثانيها، ان توضع مصر على قدم المساواة مع اسرائيل بالنسبة الى التسلح، وفى هذا قال لهم انه لايطالب بتفوق فى الاسلحة على رغم ان ذلك حق لمصر باعتبارها البلد المهزوم المحتلة أرضه، وكان يمكنه ان يفعل ذلك. وثالثها، خاص بالمعدل الحالى لارسال الاسلحة. وقد تبين للرئيس ان السوفييت عازفون عن التحدث فى موضوع الاستراتيجية المشتركة، وان كانوا مستعدين للبحث فى مسألة السلاح. وقد حدث بين الجانبين خلاف بشأن طائرة قاذفة للصواريخ من طراز«اليوشن» كانوا عرضوها على مصر. وكان على صبرى ـ مستشار الرئيس فى ذلك الوقت للشؤون المتعلقة بالقوات الجوية ـ قد وافق على قبول شرط وضعه السوفييت قبل ان ترسل الطائرة، وهو الا يتم استخدامها الا باوامر من موسكو. وقال السادات لمضيفيه انه لا يمكنه ان يقبل هذا الشرط. واضاف :«لنفرض ان الاسرائيليين ضربوا عمق مصر مرة اخرى ، فهل المفروض ان انتظر الاذن من موسكو قبل ان ارد الضربة؟ ان ذلك يضعنى فى مركز غريب. فأنا رئيس لدولة مستقلة، ولايمكننى ان اتنازل عن اى جزء من استقلالى فى الحركة». وفى نهاية الاجتماع حاول بريجنيف ان يطمئنه فقال: «رويدك.. اننا سنقابلك فى منتصف الطريق». وكان من بين ما قاله لى حين عاد من موسكو وروى لى ما حدث: « كان لابد لى من



الرئيس السادات والملك حسين

السادات وبودغورنى عند السد العالى فى أسوان ، فى كانون الثانى ١٩٧١ .

السادات وعرفات :

السادات مع القذافى يداً بيد والأسد فى المؤتمر الثلاثى .

ان اتخذ موقف الغضب، لكنى فى النهاية حصلت على ما اريد».

وحدث مزيد من الاحتكاك مع السوفييت فى مناسبة اخرى فى الشهر نفسه . كان السادات، فى يوم ٢٥ مارس (آذار)، يتحدث فى اجتماع عقد فى وزارة الحربية حضره كبار قادة القوات المسلحة وكبار الخبراء السوفييت وبينهم الجنرال اوكينييف رئيس البعثة السوفييتية. وقال فى حديثه انه يود ان يذكر الحاضرين ان من هذا المبنى بدأت ثورة ٢٣ يوليو (تموز)، وانه المبنى الذى اتخذه عبد الناصر مقرا لقيادته خلال حرب السويس العظيمة فى العام ١٩٥٦، وان مصير مصر عاد مرة اخرى ليكون بين ايديها، وعلى الجميع ان يكونوا مستعدين للتحرك فى اية لحظة على رغم ان هناك مشاكل كثيرة لابد من التغلب عليها قبل البدء فى التحرك. وشكا بعض الضباط فى أثناء الاجتماع من فعالية الاسلحة السوفييتية ومن التأخير فى ارسال هذه الاسلحة، وانبرى الجنرال اوكينييف يرد على مابدا له نقدا للاتحاد السوفييتى، لكن الرئيس قال له انه ليس هناك ما يدعو الى الحساسية، وان الضباط لا يهاجمون الاتحاد السوفييتى وانه «فى اجتماع كهذا لابد لكل شخص ان يتكلم بصراحة». لكن المشاكل كانت قد بدأت تتخمر لدى السوفييت، فقد كانوا - كما تبين من قبل - يشكون فى النظام الجديد، فى حين ان عدم الثقة لدى المصريين ازداد نتيجة الطلب الذى تقدم به السوفييت للحصول على قاعدة بحرية، وبسبب الصعوبات الخاصة بامدادات السلاح.

كذلك فقد نشأ موقف آخر فى نحو الوقت ذاته تقريبا اثار مزيدا من سوء الفهم مع السوفييت. كانت علاقات مصر بالسعودية لاتزال فاترة، لكن محاولة بذلت فى الجزء الاول من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) لتحسينها. فقد جاء الى القاهرة حينذاك كمال ادهم نسيب الملك فيصل ومستشاره الذى يتولى سلطة الاشراف على المخابرات ويعتبر من اقوى الشخصيات نفوذا فى المملكة. وقد تحدث خلال هذه الزيارة عن الوجود السوفييتى فى مصر وعن الانزعاج الشديد الذى يسببه للامريكيين، واشار الى اهمية هذه المسألة فى وقت يحاول السعوديون زيادة اهتمام الامريكيين بمشاكل الشرق الاوسط. ورد الرئيس السادات ان مصر تعتمد على الاتحاد السوفييتى فى اشياء كثيرة، بينما الامريكيون يقدمون الى اسرائيل كل ماتطلبه، الى حد انها استطاعت خلال حرب الاستنزاف ان تضرب مصر بالقنابل لمدة ١٧ ساعة متصلة. وقال الرئيس السادات لكمال ادهم: « انى لن آتى بالروس وحدهم، لكنى سآتى بالشيطان نفسه اذا كان فى مقدوره الدفاع عنى». لكنه اضاف انه اذا تمت المرحلة الاولى من مراحل الانسحاب الاسرائيلى، فان فى استطاعته ان يعد باخراج الروس من البلاد .

وسأل كمال ادهم الرئيس، عما إذا كان يستطيع ان يبلغ ذلك الى

الامـريكيـين، فاجـابـه الـرئيس بالايجـاب. لكن ملاحظات الـرئيس تسربت عن طريق السنـاتـور جاكسـون . . . وربـما كوسيلة لمسـاعـدة اسرائيـل باثـارة الضغينة بين مصر والاتحاد السوفييتي .

وهنـاك ملك عربي آخـر كانت علاقـاتـه بمصر لا تزال تجتاز مرحلة صعبـة، وهـو الملك حسـين. كانت هنـاك تقـاريـر كثـيرة نشرتهـا الصحف العـالمية تقـول ان المـلك حسـين عقـد سلسـلة من الاجـتـماعـات مع الـزعـماء الاسرائـيـليـين، مع تركيـز خاص على اسـم ايجـال آلـون نائب رئيسـة الـوزراء. وفي يوم ١٩ نوفمـبر (تشرين الثـاني) اتصـل الـرئيس بي تليفـونيا ليقـول ان الملك حسـين يقـترح ان يقـوم بزيـارة لمصر. وأحسست بالشكـوك تراودني بالـنـسـبـة الى الاقـتراح، لانـه اذا تمت الـزيـارة، فان مصر ستبـدو كأنها تقـر ضمنـا اى اتصـالات سريـة يكـون الملك اجـراهـا. وعلى ذلـك، فاني اقـترحت إيفـاد الفـريق صادق الى عمان ليسـأل الملك حسـين من دون مواربـة عما اذا كان قد قابـل أي زعيم اسرائيلي ام لا. وقلت انه اذا نفى الملك هذه الاشـاعـات، فاننـا نقبـل كلمتـه ونـوافـق على حضـوره الى القـاهـرة. امـا اذا ايـدهـا فاننـا لن نستطيع استقبـالـه. ولقي الاقتراح قبـولا، وسافـر الـفـريـق صادق الى عمان، وقـال لي بعـد عودتـه انـه وضـع السـؤال امـام الملك، لكن الملك راح يتحـدث في موضـوعـات اخـرى عامـة، وحين توقف عن الكـلام قال له الـفـريق صادق: «يـاصـاحب الجـلالـة. . انـك لم تجب عن سؤالي»، فرد المـلك من دون اكـتراث: «ذلـك لانـي لم اذهـب لمقـابلتهـم». وقـال الفـريق صادق انه خرج بانطبـاع اكيـد ان الملك قابـل آلـون. وعلى ذلك تقرر تأجيل الزيارة .

وكـان من بين الـزعـماء العـرب الـذين جاءوا الى القـاهـرة بعـد ذلـك بقليـل: ياسر عرفـات. ففـي ٨ مارس (اذار) ١٩٧١ جاء لزيـارتـي في بيتـي ومعـه صلاح خلف (ابـوايـاد) وفـاروق قدومي (ابـو الـلطف). وكـانت السـاعـة السـادسـة والنصف مسـاء. وبعـدمـا قضينا معـا نحـو نصف ساعـة توجهنـا جميعـا الى منـزل الـرئيس السـادات في سيـارة يابـانيـة كانت قدمت هديـة الى منـظمـة فتـح. وكـان عرفـات هو الـذي يقـود السيارة. وكقـاعـدة، فان الجـمـيـع ـ باستثنـاء ابـوايـاد ـ كانـوا يرفضـون ركـوبهـا لانها، في نظرهم، ليست ثوريـة. وكـان الـرئيس السـادات تواقـا الى ان يعـرف ما تستـطيـع المقـاومـة ان تفعله في حالـة نشـوب حرب جديـدة. واتـفـق على ان يبحث ياسر عرفـات في تنسـيق الـعـمـل مع الـفـريـق صادق. وأكـد الـرئيس على وجـهـة نظره ـ وكـانـت وجـهـة نظر الـرئيس عبـد النـاصر ايضـا ـ ان على المقـاومـة ان تتـجـنب كل انـواع الاستفـزاز السيـاسي او العسكـري للملك حسـين، واوصـاهم بالا يكـونـوا طرفـاً في اية تسـويـة دوليـة يمكن التـوصـل اليهـا، وقـال ان الملك يمكن ان يوقـع. . امـا انتم فلا. وقـال لهم ايضـا انهم مسؤولـون عن العمـل كي لا يسمح للقضيـة الفلسـطينية بان تموت. وكـان من

رأى ابو اياد ان يسمح للملك حسين بالحضور الى القاهرة، لان فى ذلك ما سيهدىء نفسه، لكن السادات رفض وقال انه يعرف ان الملك - اذا جاء الى القاهرة - لن يهتم الا بالحديث عن امرين: اولا، الدعم الذى اتفق فى الخرطوم على تقديمه الى الاردن، والذى توقفت الكويت وليبيا عن دفع نصيبهما فيه عقب الصدام الذى حدث مع المقاومة فى سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠، وثانيا، الشكوى من نشاطات ياسر عرفات. وقال السادات ايضا ان مصر لاتزال تعتبر قطاع غزة جزءا من مسؤوليتها الخاصة، ولا توافق على اعطائه للاردن كما يلمح بذلك بعض الاسرائيليين.

وخلال شهر ابريل (نيسان) ١٩٧١ كانت هناك قضايا مختلفة تبرز على السطح. ففى الجبهة العربية كان هناك مشروع وحدة مصر وليبيا وسوريا، وكان السودان اختير فى البداية ليكون الشريك الرابع فى هذه الوحدة، لكن الحكومة السودانية رأت ان البلاد ليست مستعدة بعد لمثل هذه الخطوة الكبيرة وكانت قضية الوحدة هذه هى التى ترتبت عليها فى ما بعد آثار واسعة بالنسبة الى الموقف السياسى الداخلى فى مصر. كان السادات نفسه مهتما بالفكرة، فقد كانت - فوق كل شىء - تمثل استمرار السياسة حبيبة الى قلب عبد الناصر. وفضلا عن ذلك، فان الوحدة بين هذه الدول الثلاث ستتضمن قيام مؤسسات سياسية جديدة وهذا يعنى اجراء انتخابات جديدة يسفر عنها مجلس امة جديد، ولجنة مركزية جديدة للاتحاد الاشتراكى، وهما هيئتان لم تكن فيهما للرئيس السادات عندئذ اغلبية يمكنه الاعتماد على ولائها.

الجزء الثانى

سقوط جماعة على صبرى

وتركت وفاة عبد الناصر المسرح السياسى فى مصر مائعا تحيط به الشكوك. كان الكل يحاولون وزن شخصية الرئيس الجديد. ولمجرد ان اتفق على التمسك بما جاء فى الدستور من ان ترشيح الرئيس الجديد يتم عن طريق مجلس الامة، بناء على توصية من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى وتكون موافقة الشعب عليه بواسطة استفتاء عام، اصبح منصب رئيس الوزراء هو المنصب الرئيسى الذى يركز عليه مختلف الاشخاص والجماعات انظارهم واهتمامهم.

وظل انور السادات موضع تأييد عدد من المستقلين داخل الحكومة، وفى مقدمتهم الدكتور محمود فوزى والمهندس سيد مرعى. وكانت هناك الجماعة الملتفة حول على صبرى التى كانت تسيطر على الاغلبية فى مجلس الامة وفى الاتحاد الاشتراكى وجهاز المخابرات، وحركة الطليعة المختارة فى الاتحاد الاشتراكى التى كان شعراوى جمعه وسامى شرف اعضاء فيها، والتى كان شعراوى جمعه نفسه هو المشرف عليها وعلى

رغم اختلافهما مع على صبرى بالنسبة الى الكثير من الامور، فقد كانت تجمع بينهما المصلحة المشتركة فى الحيلولة دون أى شخص من خارج جماعتهم تكون له سلطة حقيقية فى اتخاذ القرارات. كانوا يريدون ان تبقى كل السلطة داخل الحكومة والحزب والجيش فى ايديهم. كانوا سكارى بحب السلطة وان لم يكونوا مرتشين، لكن السلطة التى ارادوها بعد وفاة عبد الناصر كانت ابعد ما تكون عن اى مضمون اجتماعى. كانوا يرددون مبادىء واقوال عبد الناصر بطريقة عمياء. وكانوا يريدون ان يجعلوا من الزعيم الراحل هرما رابعا، وان يكونوا هم انفسهم الكهنة الاوائل الدائمين والوحيدين لضريحه.

وكان على صبرى يتطلع الى تولى منصب رئيس الوزراء، فى حين كان شعراوى جمعة وغيره قد دفعوا باسم الدكتور لبيب شقير رئيس مجلس الامة لشغله كاجراء موقت، لان شعراوى جمعة كان يتطلع الى ان يحتفظ به لنفسه. اما حسين الشافعى فكان خارج جماعة على صبرى، وكان يقف وحده.

وكان الجيش احد العوامل المجهولة فى الموقف، ولم تكن عواطفه السياسية واضحة. وكان الظن ان الفريق فوزى اساسا جندى محترف ولا علاقة له بالسياسة. ثم تبين فيما بعد أنه متأثر، الى حد ما، بنفوذ جماعة على صبرى بحكم قرابته لسامى شرف وما خلقته من صلات وثيقة بينهما

ومنذ البداية كانت تصرفات جماعة على صبرى قائمة على افتراض ان انور السادات سيكون رئيسا ضعيفا، وانهم لن يجدوا صعوبة كبيرة فى التخلص منه اذا ما تمرد. وقد قال الرئيس فى هذا الصدد: « انهم يريدون ان يفرضوا وصاياهم على، لكنى لن اقبل ذلك ابداً» وسارع يظهر انه يعنى ما يقول، وذلك حين فاجأ جماعة على صبرى واثارها بنبأ تكليف الدكتور محمود فوزى تشكيل الوزارة الجديده يوم ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول).

وكان الرئيس السادات سألنى بعدما ثبته الاستفتاء فى منصبه عمن اراه خير من يشغل منصب رئيس الوزراء، واقترحت اسم الدكتور فوزى لسببين: الاول - انى كنت ارى من الضرورى - من وجهة النظر الدولية - ان يكون رئيس الوزراء الجديد شخصية معروفة فى الخارج، وان نظهر للعالم الثالث، وكذلك للقوتين العظميين ولاوروبا ان وفاة عبد الناصر لا تعنى ان مصر ستغرق فى المجهول. ولم يكن الرئيس السادات نفسه معروفا تماما فى العالم الخارجى بعد، بينما الامر مختلف بالنسبة الى الدكتور فوزى. وكلاهما معا يشكلان فريقا قويا. وكان السبب الثانى لاقتراح اسم الدكتور فوزى، هو أن الحاجة تدعو الى وجود شخصية يعرفها الشعب ويثق فى صاحبها .. شخصية الاب. فقد كان الشعب يخشى ويشعر بان الصراع على السلطة بين خلفاء عبد الناصر يوشك ان

يبدأ، وأن فى تعيين الدكتور فوزى ما يدخل الطمأنينة الى نفسه.

وقال لى الرئيس السادات ان تفكيره يسير على هذا الخط نفسه، لكن هناك عقبة واحدة. فقد استقال الدكتور فوزى من عضوية اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى يوم ٣ اكتوبر، (تشرين الاول) وهو اليوم نفسه الذى استقلت انا فيه من دون اى اتفاق سابق بيننا. وسألنى الرئيس عما اذا كنت استطيع اقناع الدكتور فوزى بقبول المنصب فوعدته بان افعل، وتوجهت الى منزله فى البدرشين، وامتد الحديث بيننا حول هذا الموضوع سبع ساعات. وكان الدكتور فوزى متردداً فى البداية، لانه لم يكن جاهزا لاعباء المنصب، كما كان يخشى ان الصراع على السلطة قادم لا محالة، فضلا عن انه لم يكن متأكدا من مدى السلطة الحقيقية التى ستكون لرئيس الوزراء. لكنه فى النهاية اقتنع، واتصلنا بالرئيس تليفونيا نبلغه النبأ السار. وكان من المقرر ان يتوجه الرئيس فى ذلك اليوم الى مجلس الامه ليحلف اليمين بوصفه رئيسا للجمهورية، واقترح ان يأتى الدكتور فوزى الى قصر الطاهرة بعد الانتهاء من مراسم حلف اليمين. وتوجهنا فى سيارة الدكتور فوزى الى القصر، ووجدنا الدكتور لبيب شقير هناك. وكان قدم الى القصر - بحسب ما يقضى البروتوكول - ليقدم الشكر الى الرئيس بالنيابة عن المجلس لحضوره الجلسة. وهكذا فانه حين عرفت جماعة على صبرى باختيار الدكتور فوزى ليكون رئيسا للوزراء فى اليوم التالى، فان النبأ اثار غضبا شديدا فى نفوسهم، وانصب جانب من هذا الغضب على شخصى، لمعرفتهم بالصداقة التى تربط بين الدكتور فوزى وبينى، ثم لانى شوهدت معه عند الرئيس الجديد، قبل تكليفه بتشكيل الوزارة، مما يقطع بأن لى دورا فى الموضوع، وبدأ الشعور يراودهم بان الرئيس متجه الى الاستعانة بالمستقلين.

وفى يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) عقد اجتماع آخر للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ومجلس الحرب لمناقشة الخطوات التالية بشأن وقف اطلاق النار. وكان الرئيس اعلن فى حديثه يوم ٤ فبراير (شباط) موافقته على مد وقف اطلاق النار شهرا آخر. وكان الشهر قد انقضى، ولابد من اتخاذ قرار بشأن الخطوة التالية.. سلبا او ايجابا. واستطاعت جماعة على صبرى فى هذا الاجتماع ان تضغط على الرئيس للموافقة على اصدار امر باستئناف العمليات العسكرية. وبذل افرادها ما فى طاقتهم حتى اضطروه الى تحديد موعد قريب لاستئنافها تحدد له يوم ٢٦ ابريل (نيسان) وقد عارضت هذا الاتجاه عندما عرفت به، وقلت رأيى بصراحة ضده. فقد بدا لى ان من الخطأ جدا ان يتخذ قرار بشأن مسألة خطيرة كمسألة الحرب والسلام من دوافع تقوم على اعتبارات السياسة الداخلية البحتة.. وهو ما تحاول جماعة على صبرى ان تفعله.

وشهد اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى يوم ٢١ ابريل (نيسان) جلسة عاصفة، وقد اتصل الرئيس بى تليفونيا بعد انتهائها وقال: «ان الموقف تفجر». وكانت اللجنة تناقش مشروع الوحدة مع ليبيا وسوريا، وهو مشروع كانت جماعة على صبرى تعارضه دائما بحجة «التجربة التى لم يقدر لها النجاح للوحدة بين مصر وسوريا فى العام ١٩٥٨». وكانوا يقولون ان حزب البعث السورى لايوثق فيه. اما الليبيون فلم يكونوا شيئا يذكر بالنسبة اليهم، وقد وصفهم على صبرى مرة فى اجتماع للجنة المركزية بانهم «مجموعة من شباب الكشافة»، وقال عن القذافى انه «مجنون» ومن الخطأ ربط مصير مصر بمثل هؤلاء الناس. والحقيقة ان السبب الحقيقى لمعارضتهم كان خوفهم الذى له ما يبرره من ان تضع نهاية لاحتكارهم السلطة. فاتمام الوحدة سيترتب عليه قيام مؤسسات واجراء انتخابات جديدة. وكان هذا هو نفسه، بطبيعة الحال، بين اسباب رغبة الرئيس فى اتمام الوحدة.

وفى هذا الاجتماع تحدث على صبرى وعبد المحسن ابو النور وضياء داود وشعراوى جمعة ولبيب شقير، وعارضوا الوحدة بشدة، ولم يؤيدها سوى الرئيس والدكتور فوزى. وقال لى الرئيس ان الجلسة شهدت تبادل عبارات قاسية، وان الاتفاق تم فى النهاية على عقد اجتماع اللجنة المركزية لمناقشة الانشقاق الواضح فى القيادة السياسية للتنظيم السياسى. ولم يمض وقت طويل - وكان ذلك امرا مفهوما - حتى تسربت انباء هذا الانشقاق، وبدأت بعض العناصر فى اللجنة المركزية تحشد قواها ضد الرئيس. واصبح شعراوى جمعة - وهو المسؤول عن التنظيم السياسى. داخل الاتحاد الاشتراكى - نقطة التركيز فى الصراع. وقد حاول جاهدا ان يتجنب اتخاذ موقف ينحاز فيه الى جانب من الجانبين. ولما طلب اليه الرئيس السادات ان يعلن رأيه فى مشروع الوحدة احتج بانه ليس عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا، لكن الرئيس اصر، فاضطر شعراوى الى ان يعلن انه ضد الوحدة.

ويوم ٢٢ ابريل (نيسان) طلب الرئيس السادات الى السفير السوفييتى ان يحضر لمقابلته، وبعد ان دار الحديث بينهما حول مسائل مختلفة قال السفير: نسمع الكثير هذه الايام عن خلافات داخل اللجنة التنفيذية العليا. فهل هذا صحيح؟». ورد الرئيس ان ذلك صحيح، واضاف قائلا: «لدى نبأ اقوله لك .. لقد قررت تصفية على صبرى». وفغر السفير فمه دهشة وسأل: «لماذا تقول لى هذا ياسيادة الرئيس؟». فقال الرئيس: «لان الناس سيهولون من شأنه، وسيستغلونه فى شن حرب للاعصاب. سيقولون لكم ان رجل السوفييت الاول فى مصر قد صفى .. وسترقص صحف الغرب امامكم بالجلاجل فى محاولة لاثارتكم. لكنى اؤكد لك انه ليس فى هذا شيء موجه ضد الاتحاد السوفييتى. انها مسألة

داخلية محضة واذا بدا لاحد ان يصور لكم الموقف بان ما سأفعله موجه ضد الوجود السوفييتي في مصر، ففي استطاعتكم ان تردوا اني اكون سعيدا لو انكم عززتم هذا الوجود » .

وكان يسود مصر طوال تلك الفترة جو شديد جدا من التوتر والعصبية. واذكر ان سامي شرف اتصل بي تليفونيا يوم ٢٣ ليقول لي انه يضع امامه صورة للرئيس عبد الناصر يتحدث اليها ويئن بالالم. وقال انه يشعر بعدما قابل الرئيس السادات في بيته في القناطر بتعاسة شديدة، حتى لقد فكر في ان يلقي بنفسه في النيل. وكان الاخطر من ذلك ـ كما كشفت عنه التطورات في ما بعد ـ هي جلسات استحضار الارواح التي كان شعراوي جمعه وسامي شرف وغيرهم يعقدونها ويتحدثون خلالها، عن طريق وسيط، بصوت الرئيس عبد الناصر، وقد قدمه اليهم استاذ في جامعة عين شمس له اهتمامات بعالم الارواح. وكانوا خلال تلك الجلسات يوجهون الى الروح المفترض انها لعبد الناصر مختلف الاسئلة التي تتعلق بقضايا اسياسية . كانوا يسألون مثلا : هل يهاجمون اسرائيل او لا يهاجمونها؟ وهل سيعين شعراوي جمعة رئيسا للوزراء ام لا؟ وغيرها، وغيرها . . . وكان اهتمامهم بعدم سقوط كلمة واحدة من الصوت الذي يأتيهم من وراء القبر، من الشدة، بحيث سجلوا كل الجلسات على أشرطة. وكانت لحظة حزينة في تاريخ مصر، اذ يرى ساستها الكبار يتصرفون بهذه الطريقة. لكن الحقيقة انهم كانوا تعودوا على تلقي الاوامر من عبد الناصر الى درجة افقدتهم القدرة على التفكير .

وفي تلك الاثناء كان الرئيس السادات يبذل الجهد للحصول على التأييد في مجلس الامة ولا سيما بين اعضاء الصعيد، في حين حاولت الجماعة ان تنظم قواها في اللجنة المركزية، لانها لم تكن واثقة تمام الثقة منها. وكانت تحاول تأجيل الموعد الذي تحدد لاجتماع اللجنة مفضلة الاحتفاظ بالاغلبية المفروض انها تتمتع بها في اللجنة، اداة غير مباشرة للضغط، بدلا من ان تكون سلاحا يمكن ـ ان استخدامه بالفعل ـ فينقلب ضدها .

ويوم ٢٦ ابريل (نيسان) غضب شعراوي جمعة اشد الغضب حين استدعاه الرئيس وابلغه انه لايرى حلا آخر سوى عقد اجتماع للجنة المركزية يتم الاقتراع فيه بالتأييد على مشروع الوحدة. وقال شعراوي انه لايرى كيف يمكن للجنة ان توافق على ذلك. وعندئذ سأله الرئيس عما اذا كان قد قرأ الكتاب الذي الفه آمسترونج عن حياة اتاتورك باسم «الذئب الرمادي»، ثم قال له: « كان اتاتورك ضاق ذرعا بجمعيته الوطنية، وتوجه الى دارها في احد الايام وقال لاعضائها النواب: انكم لستم على مستوى كاف لتكونوا متآمرين، ولذا فاني اقترح ان تعودوا الى منازلكم، فانتم جميعا مفصولون». ولم يغب المعنى الذي اراده الرئيس من هذه

القصة عن فطنة شعراوى .

وشهدت اللجنة المركزية عندما اجتمعت يوم ٢٥ ابريل (نيسان) صداماً حادا بين الاطراف المتنازعة. فقد تعرض الرئيس السادات لاستفزازات شتى، بينما شكا على صبرى من ان الرئيس يقاطعه، وقال وهو يصيح : «لايمكن لأحد ان يمنعنى من الكلام». وبلغ الاجتماع ذروة فى التوتر، وتوقفت الجلسة لاستراحة عقد خلالها اجتماع للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى. ولم اكن انا عضوا فى اللجنة التنفيذية، لكنى وجدت نفسى اتجه مع شعراوى جمعة الى الطابق الثانى. وحين وصلنا الى باب الغرفة التى سيعقد فيها الاجتماع استدرت الناحية الاخرى لاعود من حيث اتيت، لكن الرئيس السادات لمحنى ودعانى الى الدخول .

وكنت حضرت اجتماع اللجنة المركزية وفى نيتى ان اتكلم، وحملت معى محضر اجتماع بنغازى الذى اتفق فيه لاول مرة على فكرة اقامة وحدة بين مصر وليبيا وسوريا. وكنت فى اجتماع بنغازى عضوا فى وفد مصر، اجلس فى جوار الرئيس عبد الناصر واسجل محضر الاجتماع. وحين عدنا الى القاهرة كتب المحضر على الآلة الكاتبة، واعيدت الى نسخة عليها تعليقات بخط عبد الناصر نفسه. وكان فى نيتى ان اسأل فى اجتماع اللجنة المركزية عما نحن نتصارع عليه، ما دام لدينا البرهان بالوثائق على ان الوحدة امر وافق عليه الرئيس عبد الناصر، وان ما يفعله الرئيس السادات لايتجاوز مجرد اتمام عمل لعبد الناصر. لكن جو الاجتماع فى اللجنة المركزية عقب الصدام بين الرئيس وعلى صبرى، كان تكهرب الى درجة اصبح من المستحيل معها على اى شخص ان يتكلم، خصوصا بعدما طلب الرئيس الاقتراع على مشروع الوحدة، فلم ترتفع فى اللجنة المركزية غير اربع ايد بالموافقة، من بينها يدى !

وعلى اى حال، فانى عندما دخلت غرفة اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى طلبت الاذن بالكلام. وقلت ما كنت اريد ان اقوله، واضفت ان الفريق فوزى ومحمود رياض حضرا اجتماع موسكو الذى ابلغ فيه عبد الناصر الزعماء السوفييت مشروع الوحدة المقترحة، وانه اذا كان هناك من لديه اى شك فى ما اقول فليسأل هذين المسؤولين . لكن الفرصة لم تتح لى لاكمل كلامى، فقد قاطعنى عبد المحسن ابو النور ليقول بلهجة من يشكو، انى اوسع شقة الخلاف بين الطرفين بدلا من ان اضيقها. ولما كان الرئيس لايزال عند رغبته فى الموافقة على المشروع، وكوسيلة لكسب الوقت، قال انه يرى ان الموضوع اهم من ان يتخذ قرار بشأنه فى جلسة واحدة، واقترح تشكيل لجنة فرعية تبحثه وتحاول الحصول على تعديلات تدخل عليه وتقرها سوريا وليبيا. ولقى الاقتراح قبولا .

وبعدما انفض الاجتماع توجهت الى منزل الرئيس، وكان بادي

الاكتئاب، وكرر حكاية «الذئب الرمادى» اكثر من مرة . وبعد ذلك ببضعة ايام تجلى اصرار المعارضة على الدخول فى المجابهة فى اثناء زيارة الرئيس لمدينة حلوان الصناعية فى احتفال العمال بيوم أول مايو(ايار) حيث نظم الاتحاد الاشتراكى تظاهره معادية له بغية ارهابه، لكن التظاهرة فشلت فى تحقيق الغرض منها، والقى الرئيس خلالها خطابا تحدث فيه بصراحة عن تصميمه على تصفية كل «مراكز القوى». وفى اليوم التالى تحول الى سياسة الهجوم واصدار قرار قال بكل بساطة: «قرر الرئيس انور السادات اعفاء السيد على صبرى من منصب نائب الرئيس اعتبارا من اليوم». ولمجرد توقيع القرار حاول سامى شرف وشعراوى جمعة الاتصال بالرئيس لاقناعه بتغيير كلمة «اعفاء»، بحيث يبدو كأن على صبرى استقال . لكن الرئيس رفض تغييرها واوضح انه يريد للجميع ان يعرفوا مصدر السلطة الحقيقية فى الدولة .

ومما زاد الصراع الداخلى على السلطة تعقيدا انه كان قد حدد يوم ٣ مايو (ايار) موعدا لزيارة روجرز للقاهرة . وكان روجرز بذل قبل ذلك محاولات كثيرة لكى يسافر الدكتور فوزى أو أى وزير كبير الى واشنطن ، فلما تعذر ذلك ، فانه قرر ان يحضر الى القاهرة بنفسه وان يأتى معه بجوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية. وتكشف بعد وصوله انه لم يأت معه بمقترحات جديدة، وانه لايزال يلعب على نغمة «الحل المؤقت» نفسها، ومد وقف اطلاق النار الى اجل غير مسمى، واعادة فتح قناة السويس فى مقابل انسحاب اسرائيلى محدد. وقد ابلغته مصر انها ترفض هذا، واوضحت وجهة النظر المصرية فى ورقة تحديد موقف كانت اعدت من قبل . وكانت تتضمن ان على اسرائيل ان تجيب على أسئلة الدكتور يارنج، وتوافق على انسحاب يتم على مرحلتين: الاولى ـ الانسحاب الى خط بين العريش ورأس محمد يبدأ العمل بعدها فى تطهير القناة، وتعبر القوات المصرية الى الضفة الشرقية. والثانية ـ انسحاب القوات الاسرائيلية من بقية اراضى سيناء وقطاع غزة وتشرف قوات من الامم المتحدة على عملية الانسحاب وتبقى فى قطاع غزة وشرم الشيخ . وحين تتم المرحلتان تماما، فانه يمكن عندئذ ان يتم اتفاق على المناطق المنزوعة السلاح، وعلى مد اطلاق النار لمدة ستة اشهر اخرى. فاذا رفضت اسرائيل الانسحاب التام، فان مصر تحتفظ لنفسها بالحق فى تحرير اراضيها المحتلة بالقوة .

وقد اعرب روجرز عن رأية فى ان مدى الانسحاب الاسرائيلى يمكن ان يوازى بالضبط بقوة ضمانات السلام والامن التى تكون مصر مستعدة لتقديمها، لكن محمود رياض عاد الى مسألة مقترحات الدكتور يارنج الاخيرة بشأن تقديم تعهد مكتوب من جانب مصر بالسلام، وتعهد مماثل من جانب اسرائيل بالانسحاب، على اساس قرار مجلس الامن رقم

٢٤٢ ، وقال ان مصر قبلت تقديم هذا التعهد بينما رفضت اسرائيل أن تقدمه، ومع ذلك، فان الولايات المتحدة ماضية في تزويد اسرائيل بالسلاح. وقال روجرز ان حكومته تريد السلام، لكنها غير قادرة على الضغط على اسرائيل. وعندها انفجر محمود رياض وقال لروجرز متسائلا: «ليس هناك فرق بين الولايات المتحدة وفولتا العليا او جابون؟ ها هي اسرائيل تضعكم امام تحد صارخ. انتم تقولون انكم تحاولون الضغط عليها، لكنها ترفض هذا الضغط، فكيف تفسر ذلك ؟». واقترح رياض - ولم تكن تلك اول مرة يقترح هذا الاقتراح - ان تفرض الولايات المتحدة حظرا على ارسال السلاح الى اسرائيل، باعتباره الوسيلة المؤثرة الوحيدة للضغط عليها.

وبعدما عاد روجرز الى واشنطن سافر سيسكو الى اسرائيل وعاد الى القاهرة بمعلومات غاية في الغرابة. فقد ذكر ان الاسرائيليين لايتحدثون عن انسحاب (على اساس شروطهم) لايتجاوز ٥ الى ١٠ كيلو مترات على الضفة الشرقية للقناة، ويشمل خط بارليف وحسب، وانما يشترطون ان يترك هذا الحصن سليما. ليس هذا فقط، بل انهم يشترطون ان يتولى شؤونه مدنيون اسرائيليون تحت اشراف الامم المتحدة، بحيث تعود القوات الاسرائيلية الى احتلاله اذا ساءت الامور. وحاول الاسرائيليون في ذلك التشبيه بما حدث في قاعدة القناة، حيث سمح لبريطانيا بالاحتفاظ بعدد من المدنيين فيها وفقا لشروط الاتفاقية التي وقعتها مع مصر سنة ١٩٥٤ .

وفي ساعة مبكرة من صباح يوم ١٠ مايو (ايار) جاءت ابنة الرئيس السادات الى منزلي برسالة تقول ان والدها يريد ان يراني بصورة عاجلة. ودهشت لان الرئيس لم يتصل بي تليفونيا، او يبعث بالرسالة مع احد سكرتيريه. وتوجهت الى منزل الرئيس على الفور. وكان يجلس على «فوتيل» ويرتدي «البيجاما» و «الروب»، وقد وضع امامه جهاز تسجيل، وكانت لديه قصة غاية في الغرابة راح يرويها لي.

قال في الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليله جاء الى المنزل ضابط بوليس ورن الجرس، وقال لرجال الحرس انه يريد ان يقابل الرئيس شخصيا لامر غاية في الخطورة، وانه يحمل دليلا على مؤامرة تحاك ضده. واتصل الحرس بسكرتير الرئيس فجاء وحاول اقناع الضابط باستحالة ايقاظ الرئيس في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل. لكن الضابط الح باصرار، وفي النهاية قال « حسنا. سأذهب بشرط ان تسلمني اقرار خطيا باني بذلت كل ما استطيع لكي أقابل الرئيس، لكنكم لم تمكنوني من ذلك. اني لا اريد ان اتعرض للوم فيما بعد بالنسبة الى اي شيء قد يحدث للرئيس». وتأثر السكرتير بما سمع، وتبين من مناقشته انه واحد من الضباط في ادارة الامن المسؤولة عن حفظ الاشرطة وتسجيلات

المكالمات التليفونية. وقد احضر معه شريطين يريد ان يسمعهما الرئيس بنفسه. وهكذا ايقظوا الرئيس، واسمعه الضابط الشريطين، فذهل لما سمع. وظل جالسا امام الشريطين يديرهما مرة ومرة حتى الفجر، حين بعث بابنته الى لانه لم يعد يطمئن الى سلامة الحديث بالتليفون.

وبعدما استمعت الى الرئيس قلت له انى ارى ان الشخصين الرئيسيين فى الموقف فى ما يتعلق به هما الفريق الليثى ناصيف قائد الحرس الجمهورى، والفريق محمد احمد صادق رئيس اركان القوات المسلحة. ذلك ان الرئيس كان قد تحدث الى الفريق الليثى ناصيف فى شهر مارس (آذار) عندما بدأ يشعر بالمعارضة النشطة تتزايد ضده، وقال الليثى عندئذ انه كجندى محترف سيطيع اى امر يصدر اليه من السلطة الدستورية الشرعية. وفى ذلك الوقت كان سامى شرف ـ وهو احد الاعضاء البارزين فى جماعة على صبرى ـ وزيرا لشؤون الرئاسة. وكان بحكم منصبه على اتصال شبه دائم بقائد الحرس الجمهورى. وفى الوقت نفسه، فان الفريق الليثى كان صديقا لسامى شرف وموضع ثقته، لكن الاحداث اثبتت فيما بعد ان ولاءه للسلطة الشرعية فى البلاد احتل المكان الاول. اما الفريق صادق، فكان الرئيس قابله والفريق محمد فوزى فى اثناء زيارته لاحدى القواعد العسكرية يوم ١٢ مايو (ايار). وفى تلك الزيارة بدا بوضوح ان الفريق صادق على علم بما تحمله الرياح. فقد انتهز الفرصة ليقول للرئيس على انفراد: «نحن نفهم موقفك». وكان فى قوله هذا الكفاية.

وقرر الرئيس ان يتحرك. واصدر قراراً باقالة شعراوى جمعة وتعيين ممدوح سالم، محافظ الاسكندرية، وزيرا للداخلية. وكان ممدوح سالم بمحض الصدفة عضوا بارزا فى حركة الطليعة شبه السرية التى كان المفروض انها تشكل الدائرة الضيقة فى الاتحاد الاشتراكى، وكان مكلفا بصفة خاصة بتوجيه النشاط السياسى داخل تنظيم البوليس، وكان رئيسه فى الطليعة شعراوى جمعة نفسه. وهكذا عهد باليد اليمنى الى شعراوى جمعة ان توجه اليه الضربة القاضية، مما يوضح ان الطليعة لم تكن اكثر من صرح من القش.

وقد حاول سامى شرف ان يقنع الرئيس بعدم المضى فى تنفيذ قرار اقالة شعراوى، ثم اتصل به بعد نحو ثلاثة ساعات ليقول أنه سيقدم استقالته اذا اقيل شعراوى.

وكان هوس الجماعة بتسجيل المكالمات التليفونية غريبا حقا، كما كان واحدا من اسباب دمارهم. ففى مصر ثلاثة انظمة للاتصال التليفونى، احدها النظام العادى، والثانى نظام لاتصال المسؤولين فى الحكومة من وزراء وغيرهم، والثالث دائرة صغيرة قاصرة على نحو ٢٥ شخصا تضم رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، وبعض اعضاء اللجنة التنفيذية العليا

للاتحاد الاشتراكى، وقادة القوات المسلحة، ومدير المخابرات، وعددا قليلا آخر من بينهم ـ فى ذلك الوقت ـ انا نفسى. وقد ضم اسمى الى القائمة حين اصدر الرئيس عبد الناصر قرار تعييني وزيرا للارشاد القومى. وكانت مكالمات هذه المجموعة وضعت منذ آخر شهر ابريل (نيسان) تحت الرقابة بأمر من أحمد كامل مدير المخابرات اوحى اليه به سامى شرف. وسجلت كل مكالمة دارت عن طريقها بما فيها المكالمات بين اعضاء الجماعة انفسهم. وفى حوالى الوقت نفسه تقريبا اصدر شعراوى جمعة، بوصفه وزيرا للداخلية، امرا بتسجيل مكالمات جميع اصدقاء الرئيس . . . وكان ذلك يعنى مراقبة مكالمات الرئيس نفسه.

ومساء يوم ١٣ مايو (ايار) طلب الرئيس من وزير الداخلية الجديد مصادرة جميع الاشرطة الموجودة فى ادارة الامن بالوزارة، وان يستعين بمجموعة من الحرس الجمهورى اذا دعت الضرورة الى ذلك. وقد نفذ الوزير الامر، وصحب معه اثنين من ضباط الحرس.

وعند ذلك لعب اعضاء الجماعة بما ظنوا انه ورقتهم الرابحة، فاعلنوا استقالاتهم الجماعية، حسبانا منهم ان البلاد ستتعرض لشلل من دون وزراء للقوات المسلحة والمخابرات والاعلام، ومن دون معظم الاعضاء البارزين فى الاتحاد الاشتراكى. وكانوا يتوقعون رد فعل واسع النطاق من بين صفوف وتنظيمات الاتحاد الاشتراكى يطالب باعادتهم الى مناصبهم، ولكن لم يحدث شىء من هذا على الاطلاق ..

وقد بقيت مع الرئيس فى تلك الليلة الى نحو الساعة العاشرة والنصف مساء، ثم تركته لاعود الى منزلى، وقابلت فى الطريق قائد الحرس الجمهورى. وكنت بدأت اتناول عشاء سريعا عندما ادرت الراديو وسمعت نبأ الاستقالات. وكان من الواضح بالنسبة إلى ان هذه الاستقالات ترقى الى مستوى الانقلاب الفعلى، وكنت على وشك ان اتصل تليفونيا بالرئيس عندما رن جرس التليفون وكان الرئيس هو الذى يطلبنى. لقد استمع الى النبأ من الراديو، ويريدنى ان اعود الى منزله على الفور.

وحين عدت كان هادىء الاعصاب، وقد قبل الاستقالات كلها. وفى اثناء الليل استقبل الفريق الليثى ناصيف مرات عدة حيث كانت قوات الحرس الجمهورى تقف فى حالة تأهب لمواجهة اى تحرك طائش يمكن ان تقوم به الجماعة. كذلك، فانه تلقى مكالمات تليفونية عدة من الفريق صادق عن الموقف فى القوات المسلحة، كشفت عن أن كبار الضباط دعوا لاجتماع حضره كل من الفريق صادق والفريق فوزى، وتحدث فيه الفريق فوزى قائلا ان البلد سيباع للامريكيين وانه مستقيل من منصبه، وعند هذا تدخل الفريق صادق ليقول له: «سيادة الوزير .. ما دمت قد استقلت فانى اقترح ان تذهب الى بيتك وتستريح . . . ان واجبنا ان نحاول ابقاء الجيش بعيدا عن السياسة». وقد طلب الرئيس الى الفريق صادق

بالتليفون ان يأتي لمقابلته في منزله. وبمجرد ان وصل اقسم اليمين امام الرئيس كوزير للحربية بدلاً من الفريق فوزى. وفي الوقت نفسه استدعى اللواء احمد اسماعيل من المعاش ليتولى منصب مدير المخابرات. وهكذا لم يعد هناك ما يدعو الى القلق بعدما ساد الاطمئنان بالنسبة الى موقف الحرس الجمهوري والجيش. وكان من الغريب حقا ان يرى المرء مدى الخطأ الشديد في التقدير الذى وقعت فيه الجماعة. فلم يدرك افرادها ابدا مدى عدم شعبيتهم في البلاد. وكانوا كلهم تقريبا - ولا سيما على صبري وشعراوي جمعة وسامى شرف - على اتصال ما بشبكة المخابرات أيام حكم عبد الناصر. والان اصبح لنظام حكم عبد الناصر وجهان: وجه الانجازات العظيمة، ووجه الاكراه. ولست اعتقد شخصيا ان هذه الانجازات - ومنها تحقيق الاستقلال، وتأميم قناة السويس، والدور الذى قامت به مصر في عالم عدم الانحياز وضد النفوذ الامبريالى في الشرق الاوسط كحلف بغداد، والاصلاحات التى تحققت لظروف العمال، ومجانية التعليم، والاصلاح الزراعى، وعملية التحول الاشتراكي الذى شمل بناء دولة الرفاهية على رغم الهجمات المستمرة من جانب قوى الاستعمار واسرائيل - كان يمكن ان تتحقق بدون قدر معين من الاكراه. لكن الانجازات الايجابية توقفت بعد هزيمة عام ١٩٦٧ لان موارد البلاد كلها وجهت للمعركة المقبلة، بينما بدأت اعمال الاكراه تظهر اكثر وضوحا. وعندما توفى الرئيس عبد الناصر اخذ دعاة الاكراه ومنفذوه على عاتقهم ان يجعلوا منه ايديولوجية للنظام الجديد. وكانوا يشغلون كل المناصب الرئيسية في الدولة تقريبا. وقد احس الشعب بهذا واصبح يكره من رأى فيهم طغاة جداً. كذلك فاني واثق من ان جماعة على صبرى لم تقدر حق التقدير قوة الشرعية في بلد كمصر اعتمد طوال تاريخه على النظام في الرى وما يستتبعه من حاجة الى سلطة مركزية لتوزيع المياه لاتقل عن الحاجة الى المياه نفسها. لقد كان المصريون دائما حساسون جدا بالنسبة الى موقع السلطة الشرعية. وهم يعرفون ان انور السادات هو رئيسهم الشرعي المنتخب. وكان ذلك مصدر قوة عظيمة له.

وفي السادس عشر من مايو (ايار)، وهو اليوم التالى للذروة عندما صدر قرار تحديد اقامة اعضاء الجماعة طلب السفير السوفييتى مقابلة الرئيس. وبدا في اثناء المقابلة محرجا. وقال له الرئيس انه سبق ان حذره ان ذلك سيحدث، وأكد له مرة اخرى ان ما حدث ليس موجها ضد الاتحاد السوفييتى في اى شكل من الاشكال. وقال السفير انه لامر يدعو الى الاسف ان الكثيرين ممن حددت اقامتهم اشتركوا في مفاوضات سرية في موسكو. (وقد سمعت قصة عن سامى شرف حدثت عندما كان يرأس وفدا مصريا لمؤتمر الحزب الشيوعى في موسكو في اواخر ابريل (نيسان). لقد طلب سامى شرف لقاء خاصا مع بريجنيف قال للزعيم

السوفييتي في اثنائه ان عبد الناصر عهد اليه - وهو على فراش الموت - بمسؤولية المحافظة على روابط الصداقة بين مصر والاتحاد السوفييتي ونظر اليه بريجنيف وقال: «اذن تعال حتى اضربك علقة». وبدت الدهشة على سامي شرف وقال: «ولماذا تريد ان تضربني علقه ياسيادة السكرتير العام؟». فقال بريجنيف: «الا تعرف قصة الفلاح الروسي الذي طلب - وهو على فراش الموت - الى ابنه ان يعده بالمحافظة على سلامة «فازة» اثرية تحتفظ بها الاسرة كمجلبة للحظ ؟ لقد سأل ابنه عما اذا كان يقبل تحمل المسؤولية في ما لو كسرت «الفازة»، وحين رد بالايجاب قال له الاب: «تعال اذن اضربك علقة ... وضربه بالفعل وسأله الابن: « ولكن لماذا تضربني وانا لم أكسرها؟ « فقال الاب: انى اضربك حتى تظل تذكر ذلك، اذا ما فائدة ان اضربك بعد ان تكون «الفازة» قد كسرت؟». لكنى اشك في ما اذا كان سامي شرف قد فهم مدلولات هذه القصة ومغزاها .

وكان سامي شرف قد خول في اثناء وجوده في موسكو ان يناقش مع السلطات السوفييتية موضوعين: اعداد معاهدة تضع العلاقات المصرية/ السوفييتية على اسس رسمية، وانشاء اكاديمية بحرية في مرسى مطروح، كان السوفييت لايزالون مهتمين جدا بها. واتفق خلال مناقشة هذين الموضوعين على ان يسافر مسؤول سوفييتي كبير الى القاهرة لمواصلة مناقشة الموضوعين، ووصل هذا المسؤول الكبير - وكان الرئيس بودجورني - بالفعل الى القاهرة يوم ٢٥ مايو (ايار). (وقد حاول سامي شرف بعد الاجتماع العاصف الذي شهدته اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ان يقنع فلاديمير فينوجرادف بعدم الدخول في اي تعامل مباشر آخر مع الرئيس السادات، وان ينتظر الى ان يصل المبعوث السوفييتي)، وكان رد فينوجرادوف على الطلب مائعا لم يلتزم فيه بشيء. وقد سجل سامي شرف هذا الحديث ايضا .

وفي يوم ٢٦ مايو (ايار) اطلعني الرئيس على نتائج زيارة بودجورني، وقال انه خرج بانطباع ان السوفييت يشعرون بان كل شيء في مصر الآن مضطرب ومعكوس بالنسبة اليهم، وانهم - على رغم تحذيراته - قد تأثروا الى حد كبير بما كتب في صحف الغرب عن سقوط جماعة علي صبري. وقال ان بودجورني حمل معه مشروع معاهدة جاهز للتوقيع، وانه (الرئيس) سيوقعه. وقال ايضا انه كان يفضل ان يتريث، ولكن السوفييت يبدون في عجلة من امرهم. وذكر ان اهم بندين في المعاهدة هما البند الذي ينص على ان الدولتين الموقعتين ستتعاونان بعضهما مع بعض في حالة اي تهديد للسلام، والبند الذي يتعهد فيه السوفييت بان يزودوا مصر بالمعدات اللازمة لازالة آثار العدوان الذي وقع عليها. وعلى رغم اني لم اكن اعارض مطلقا اي عمل لتوثيق علاقات مصر بالاتحاد السوفييتي، الا انه كان لدي بعض التحفظات التي اعربت عنها في

حديث تلفزيوني بشأن المعاهدات التي توقع بين الدول الكبرى والدول الصغرى بوجه عام، وخاصة ان مثل هذه المعاهدات تركت في نفوس المصريين شعورا سيئاً كنتيجة للمعاهدة الانكليزية/ المصرية في العام ١٩٣٦ . وكان من المؤسف - من وجهة نظري - ان المدة المحددة للمعاهدة السوفييتية / المصرية كانت عشرين عاما، تماما كمدة المعاهدة الانجليزية / المصرية لكنها عدلت قبل التوقيع الى خمسة عشر عاما. وذكر الرئيس السادات انه صحب بودجورني في سيارة مكشوفة طافت شوارع مصر الجديدة، وانه وضيفه استقبلا استقبالا حماسيا اثار دهشة بودجورني الذي كان يظن ان مشاعر الجماهير مع جماعة علي صبري .

وكان الامريكيون بطبيعة الحال سعداء بسقوط الجماعة، لكنهم حاروا في تفسير توقيع معاهدة مع السوفييت بمثل هذه السرعة. وكان بيرجس قد سافر الى الولايات المتحدة يوم ٨ يونيو (حزيران)، وقابل الرئيس قبل سفره ليسلمه رسالة من الرئيس نيكسون، تضمنت ان الرئيس الامريكي يتطلع الى مزيد من الاتصالات مع الرئيس السادات «بالوسائل الديبلوماسية الهادئة». وأكد للرئيس ان كل رسالة يبعث بها الى واشنطن ستلقى اكبر قدر من الاهتمام .

الجزء الثالث

الفلسطينيون والسودانيون

اوضح سقوط جماعة علي صبري للعالم ان انور السادات ليس بالرئيس الضعيف الذي يسد خانة فقط وانما هو رجل يجب ان يحسب حسابه . وبدأ اتصال الدول العظمى به يزداد، كما بدأ زعماء العرب ينظرون اليه باهتمام اكبر .

وفي منتصف شهر يونيو (حزيران) توقف الملك فيصل في القاهرة في اثناء عودته الى بلاده من زيارة رسمية لواشنطن بدعوة من الرئيس نيكسون، وذكر ان الامريكيين سألوه باهتمام شديد عن تفسيره للاحداث الاخيرة في مصر، بما فيها حدث توقيع المعاهدة المصرية / السوفييتية وقال انه اعرب لنيكسون عن ثقته التامة في ان مصر لايمكن ان تصبح بلدا شيوعيا. وكنت قابلت الملك في اثناء زيارته للاسكندرية وقال لي انه شرح للرئيس نيكسون في اثناء مأدبة عشاء اقامها نيكسون تكريما له نظريته التي يؤمن على اساسها ان البلشفية هي نتاج للصهيونية، وقال ان الرئيس الامريكي ابدى اهتماما كبيرا بما سمع، وطلب اليه ان يكرر قوله هذا لسبيرو اجنيو نائب الرئيس، ولريتشارد هيلمز مدير المخابرات، ففعل. وكان من الواضح ان الملك سعيد باحساسه انه

استطاع اقناع تلك الشخصيات القوية بحقيقة سياسية اصيلة ومهملة.

وكان فى مصر فى ذلك الوقت ثلاثة من زعماء المقاومة الفلسطينية هم ياسر عرفات وخالد الحسن وفاروق قدومى يريدون مقابلة الرئيس السادات والملك فيصل كليهما، وتمكنت، من ان ارتب لهم اللقاء مع الرئيس والملك فى الفترة الوحيدة المتاحة، وكانت فى القطار الذى ركبوه من الاسكندرية الى القاهرة. وقال لهم الرئيس فى اثناء هذا اللقاء ان مفتاح الوصول الى الملك حسين فى يد الملك فيصل، وانه حتى ولو لم يستطع ان يساعدهم بطريقة ايجابية، فانه يستطيع ان يحول دون اجراءات اخرى يتخذها الملك حسين ضدهم. وانتهى اللقاء الى اتفاق على ان تقوم حكومات مصر والسعودية والكويت وسوريا بجهد آخر للتوسط بين الملك حسين والفدائيين. بيد ان الملك فيصل عدل بعد ذلك عن اشراك الكويت فى هذا الجهد، كما ان الرئيس السورى حافظ الاسد ابى المساهمة فيه، ولم تبق سوى مصر والسعودية تؤديان هذه المهمة غير المشكورة.

وفى اعقاب الرسالة التى بعث بها الرئيس نيكسون بشأن «وسائل الدبلوماسية الهادئة» تلقت مصر يوم ٤ يوليو (تموز) رسالة من روجرز ذكر فيها انهم اتموا دراسة الموقف ولديهم افكار يودون ان يقدموها الى الأطراف المعنية. وسأل عما اذا كان من الممكن ان يقوم دونالد بيرجس ومايكل سترنر رئيس القسم المصرى فى وزارة الخارجية بحمل هذه الافكار الى القاهرة لمناقشتها. وكان سترنر عين مرافقا للرئيس السادات فى اثناء الزيارة الرسمية التى قام بها الى واشنطن عام ١٩٦٦ بوصفه رئيسا لمجلس الامة. وجاء الاثنان الى القاهرة، وحضرت اجتماع الرئيس بهما يوم ٧ يوليو (تموز)، تحت ظلال شجرة «الفيكس» الضخمة التى يعود تاريخ زراعتها الى ايام محمد على والتى تتوسط حديقة استراحة الرئيس فى القناطر الخيرية. وكان الغرض الاساسى الذى جاء الامريكيان من اجله هو الاعراب عن اعتقاد واشنطن ان الموقف فى طريقه الى التحرك، وانه حين يتحرك، فان حركته ستكون سريعة. كذلك فانهما جاءا يسألان عما اذا كان توقيع معاهدة الصداقة بين مصر والاتحاد السوفييتى الذى تم بعد زيارة روجرز يعنى ان اتجاهات مصر نحو الاتفاق السلمى قد تغيرت. وكان رد السادات على السؤال، النفى المطلق. وقال اعطونى ورقة صغيرة تتضمن شروطا معقولة وانا مستعد لتوقيعها هنا.. الان.. تحت هذه الشجرة». وقد انتقل الاحساس بالتفاؤل لدى الزائرين الامريكيين الى الرئيس، وظن ان الموقف بدأ يتجه اخيرا نحو اتفاق سلمى. لكن الحقيقة ان شيئا من ذلك لم يحدث. فقد اوفدت واشنطن سيسكو الى اسرائيل لاجراء محادثات مع ديان الذى كان الامريكيون يعلقون عليه فى ذلك الوقت آمالا كبارا، لكنه



من اليمين : الملك فيصل والرؤساء السادات والأسد وبومدين



الفريق أول عبد الغنى الجمسي .



المشير الراحل أحمد اسماعيل .

الفريق أول محمد على فهمي .



الفريق سعد الدين الشاذلى .



لم يستطع ان يحصل منه على شيء. وسافر سترنر الى واشنطن، وبعده بيرجس، واطبق الصمت بعد سفرهما، ولم تسمع مصر شيئا من امريكا لشهور عدة، واثار ذلك شعورا بخيبة الامل الشديدة لدى الرئيس، وكان ذلك هو التاريخ الذى شعر فيه بأن من غير الممكن تحقيق اى شيء عن طريق وزارة الخارجية الامريكية، و انه اذا كانت هناك اية نتائج يمكن التوصل اليها فلا بد من ان تتم عن طريق المستشار القومى لشؤون الامن القومى : هنرى كيسينجر .

وفى ١٩ يوليو (تموز) جرت فى السودان محاولة انقلاب تسببت فى مزيد من سوء التفاهم بين الاتحاد السوفييتي ومصر. وقام بالمحاولة ثلاثة من الجناح اليسارى فى مجلس قيادة الثورة الاصلى الذى قام بالانقلاب العام ١٩٦٩، وهم الرائد هاشم العطا، وبابكر النور، وفاروق عثمان حمد الله. وكانت المحاولة تستهدف قلب حكومة الرئيس نميرى. وبذلت كل من مصر وليبيا جهودا نشطة تأييدا للرئيس نميرى، واجبرت حكومة ليبيا طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية كانت فى طريقها الى الخرطوم تحمل بابكر النور وعثمان حمدالله ـ وكانا فى لندن حين قامت محاولة الانقلاب ـ الى الهبوط فى ليبيا، وسلمتهما بعد ذلك الى الرئيس نميرى ـ الذى كان اعتقل فى قصر الرئاسة ثم استطاع الفرار يوم ٢٢ يوليو (تموز) وقاد انقلابا مضادا ناجحا ـ فأعدمهما مع عدد آخر من المتآمرين بعد ذلك بيومين .

وكان من بين من اعتقلوا لاشتراكهم فى مؤامرة قلب الرئيس نميرى، شفيع احمد الشيخ رئيس اتحاد نقابات العمال فى السودان، وهو رجل كنت شخصيا اقدره كل التقدير، وكنت اعتقد انه لم يقم بدور فى المؤامرة. وكنت فى يوم ٢٦ يوليو (تموز) أجلس مع الرئيس السادات فى الذهبية النيلية «استار» التى ترسو امام استراحة الرئيس فى القناطر الخيرية، حين نقلت الى الرئيس رسالة تليفونية تقول ان بوريس بانماريوف عضو المكتب السياسى السوفييتي والموجود آنذاك فى مصر لحضور احتفالات ثورة ٢٣ يوليو (تموز) يطلب مقابلة الرئيس لامر ذى اهمية قصوى. وتبادر الى دهننا لاول وهلة انه يريد من الرئيس ان يتوسط لانقاذ حياة الزعيم الشيوعى السودانى عبد الخالق محجوب الذى قيل انه حوكم وصدر ضده حكم بالاعدام. وبعد نصف ساعة من المكالمة التليفونية وصل بانماريوف ومعه السفير السوفييتى فينوجرادوف، وتركتهما وحدهما مع الرئيس، واستغرق اجتماعه بهما نحو اربعين دقيقة. وسألنى الرئيس بعد الاجتماع : «من هو الذى تظن انهما جاءا من أجله؟ . . انه شفيع وليس محجوب. ويبدو انه حصل على جائزة لينين هذا العام مناصفة مع خالد محيى الدين. . . وهما يعتقدان ان اى شيء يحدث له سيكون بمثابة اهانة شديدة للمعسكر الاشتراكى كله» وقال الرئيس

انه لفت نظر باناماريوف وفينوجرادوف الى انه كثيرا ما قال للزعماء السوفييت انه ليس فى العالم العربى بلد واحد يمكن ان يقبل النظام الماركسى، وحذرهم من ان عليهم ان يتوقعوا من الرئيس نميرى ان ينتقم لمصرع الكثيرين من انصاره المقربين، وللاهانة التى تعرض لها هو نفسه .

وقد حاول الرئيس السادات على الفور الاتصال تليفونيا بالرئيس نميرى. وكان الخط التليفونى سيئا للغاية، لكنه مع ذلك تمكن من ان ينقل الى الرئيس السودانى رجاء باناماريوف بالعفو عن شفيع. وكان رد نميرى : « لقد فات الاوان. فقد تم اعدامه توا». وعندما سأله الرئيس عما تم بشأن محجوب الذى كان يرى ان خطره اكبر، فرد نميرى بأنه اعدم ايضا. وهكذا لم يجد الرئيس ما يقوله لباناماريوف سوى ان ينقل اليه ما سمع، فتأثر بطبيعة الحال غاية التأثر، كما تضايقت موسكو الى ابعد الحدود. وعلمت فيما بعد ان السوفييت التقطوا المكالمة التلفونية بين الرئيس السادات والرئيس نميرى ، وكان ظنهم ان الرئيس السادات لم يبذل ضغطاً كافيا على الرئيس نميرى .

الجزء الرابع

عشاء فى السفارة السوفيتية

فى اليوم التالى ٢٤ يوليو (تموز) دعانى فينوجردوف الى تناول طعام العشاء معه فى السفارة السوفييتية. وردا على سؤالى، قال انه لن يكون معنا سوى باناماريوف والمترجم. فقبلت الدعوة. وكنت مهتما بان أجرى حوارا مع هذا المسؤول السوفييتى الكبير ، لانى كنت اعرف ان القيادة السوفييتية تسيء فهم الكثير مما اقول واكتب ، وانها لمحت للرئيس عبد الناصر انه يفعل خيرا لو فصلنى . وحين جاء بودجورنى الى مصر فى يناير (كانون الثانى) عام ١٩٧١ قال للرئيس السادات: «هذا وقت التخلص من هيكل». وقد اتيحت لى فرصة التحدث فى هذا الموضوع مع الرئيس السادات قبل ان اذهب الى العشاء، وسألته عن الطريقة التى يرى ان اعالج بها الموضوع، فكان رأيه ان الدخول فيه مباشرة هو الطريقة المثلى، وقال: « قل لهما حكاية بودجورنى » .

وفى اثناء العشاء اظهر باناماريوف انه ليس على دراية كافية بشؤون العالم العربى على رغم انه عضو المكتب السياسى المسؤول عن حركات التحرير. وقد ابدى استغرابه لعدم قيام ثورة ضد الملك حسين فى الاردن . وحين حاولت ان اشرح له تاريخ الهاشميين، وطبيعة الجيش الاردنى، والعقبات التى تعترض حدوث تغيير فى الاردن قال: «اذن كيف

تفسر حادث اغتيال الملك عبدالله، والضغط الذى تعرض له طلال ليتنازل عن العرش؟». وقلت له ان الاغتيال شىء يختلف عن الثورة، وان طلال ابعد من قبل الاسرة الهاشمية نفسها. وبعد ذلك بدأ باناماريوف يتحدث عن الصين التى كان اهتمامه بها اكبر من اى شىء آخر فى العالم العربى.

لكن الحديث بعد ذلك جره الى الاحداث الاخيرة فى السودان. ورأيت فى ذلك مدخلا الى الحديث فى موضوعى، وقلت له انى اعرف انه طلب الى الرئيس السادات ان يتدخل فى موضوع السودان، فقال: «وكيف عرفت؟ انى لم اتحدث الى الرئيس الا هذا الصباح، ولم يكن معنا سوى المترجم». فقلت ان الرئيس نفسه هو الذى ابلغنى بذلك. وبدت عليه الدهشة. وقلت لبناماريوف انى لست بحاجة الى شهادة من احد تثبت وطنيتى او معتقداتى الاشتراكية، ولا اريد ازعم ان الرئيس عبد الناصر حملنى المسؤولية الخاصة بدعم العلاقات السوفييتية / المصرية، لكن ما لا افهمه هو السبب فى الاستعداد الدائم لدى بعض الزعماء السوفييت لمهاجمتى. وتدخل فينوجرادوف ليقول انه لم يحدث ابدا انى تعرضت للهجوم من جانب اى زعيم سوفييتى، وان الزعماء السوفييت، على العكس، يعرفون مدى التقدير الكبير الذى يحمله الرئيس عبد الناصر لما ساهمت به فى الثورة المصرية. فقلت: «لكن بريجنيف طلب ذات يوم الى سامى شرف ان تتخذ اجراءات لابعادى... او هكذا ما ابلغه سامى شرف». ورد فينوجرادوف ان ذلك امر لايمكن ان يكون قد حدث. فقلت: «حسنا.. ان بودجورنى، على اية حال، تقدم بالطلب نفسه الى الرئيس السادات». وقاطعنى باناماريوف ليقول: «لاتصغ الى الاشاعات. فقلت ان هذه ليست اشاعة، وان الرئيس نفسه هو الذى ابلغنى القصة، واذن لى بأن اذكرها لكما الليلة على العشاء. وقلت «اريد ان اطرح الموضوع كله بصراحة».

وهرب الدم من وجه باناماريوف. وقال فينوجردوف: «اذا كانت هذه المحادثة تمت فلا بد انها تمت خارج نطاق الاجتماعات الرسمية بين الرئيسين لانى حضرت الاجتماعات كلها». وقال باناماريوف وهو يستعيد السيطرة على نفسه: «لقد كانت المرة الوحيدة التى انتقدتك فيها هى امام شعراوى جمعه. وكنت اطلعت على قصاصة من صحيفة انكليزية هى صحيفة «ذى بيبول» فقلت عنك انك ابديت فى اثناء اجتماعك مع ادوارد هيث بعض ملاحظات تضمنت هجوما على الاتحاد السوفييتى، وقلت لشعراوى جمعة انه اذا كان ما جاء فى النبأ صحيحا، فان واجب الحكومة المصرية ان تصدر بيانا رسميا تتبرأ فيه من قولك». فسألته: «ولم تصدق ما تقرأ فى صحيفة «ذى بيبول»؟ ولماذا تصدر الحكومة المصرية بيانا تستنكر فيه شيئا مفروضا انى قلته؟ وللسبب نفسه

ايضـا. . . لماذا انفى انـا نفسى الاكـاذيب الـتى تنسب الى؟. . لقـد كان رأيى دائما ان اتجاهل مثل هذه الاكاذيب ».

وقـال بانـامـاريـوف انى اذا كنت اعـرف، كما اقـول، ان لدى بعض الـزعـماء الســوفيـيت تحفـظات بالـنسبـة الى مواقفى، فقـد كان الـواجب يقتضى ان افـعـل شيئـا فى هذا الـصـدد. وقلت انـه كان من المستحيـل على ان اهـاجم الاتحـاد الـسـوفيـيتى امـام هيث،«وتلك أسبـابى: اولا ـ انـه ليس من شأن مثـل هذا الهجـوم الا ان يضـعـف مركـز مصر. ثانيـا ـ ان آرائى بالنسبـة الى الاتحـاد الـسـوفيـيتى اوضحـتهـا تمام الـوضـوح فى ما اكتبـه فى«الاهـرام» وانــى لو كنـت اريـد ان اقـول شيئـا مختـلفـا لما قلتـه سرا، ولـدى، دائـما الشجـاعـة لان ادافـع عن معتقـداتى. ثالثـا ـ ان اجتماعى مع هيث حضره احمـد حسـن الـفقى الـسفـير المصرى فى لنـدن و سجـل فيـه محضر ما دار فيـه. وحـين ابلغنى شعـراوى جمعـة ان الـسـوفييت راودتهم الشكـوك بشـأن ما دار فى ذلـك الاجتـماع، اقـترحـت عليـه ان يطلب من الـسفـير صورة من المحضر ».

وبعـد ذلـك عاد الحـديث الـذى استغـرق اربـع ساعـات ونصف الى موضـوع الصراع الاسرائيـلى الـعـربى. وسـألـنى بانـامـاريـوف عن رأيى فى محاولـة من جانـب الاتحـاد الـسـوفيـيتى للقيـام ببعض الضغط على اسرائيـل. وقلت انى اعـتقـد ان مثـل هذه المحـاولـة ستلقى ترحيبـا شديـدا بشرط الا تتم بواسـطة فيـكتـور لويس (الـصحـافى السـوفيـيتى الـذى كان يقـوم ببعثـات « شبـه رسميـة» تلقى جانبـا كبـيرا من الـدعـايـة، وقيـل انـه كان فى الايـام القليلة الاخـيرة فى زيـارة لاسرائيـل). وعنـد هذه النقـطة بدأ بانـامـاريـوف وفينـوجـرادوف يكلمان بعضهـما بعضـا باللغـة الـروسيـة، وكـان واضحـا ان الحـديث يدور عن فيـكتـور لويس ، فقـاطعتهـما قائـلا:«ان فى مقـدور اى شخص ان يرى ان اسرائيـل تحاول ان تزرع بذور عدم الـثـقـة بين بلدينـا، لا عن طريـق تقـديـم مسرحـيـة كبـيرة لزيـارة فيـكتـور لويس، وانـما بنشر الاشـاعـات عن جوالـدا مائـير اجتمعت فى اثنـاء زيـارتهـا الاخـيرة لفنلنـدا ببعض اعضـاء المكتب السيـاسى الـسـوفيـيتى». وسـأل بانـامـاريـوف : «ومن هم هؤلاء الـذيـن قيـل انها قابـلتـهـم؟ » فقـلت :« ان اسمـك كان من بين الأسـماء الـتى ذكـرتهـا بعض الصحف. وطبقـا لما كنت تقـولـه منـذ برهـة فانى ارى ان عليك ان تصـدر تكـذيبـا رسميـا». وضحـك فينـوجـرادوف وقال: «هذه ضربة تحت الحزام » .

وقـد ابـدى بانـامـاريـوف اهتـمامـا ملحـوظا ببعثـة بيرجس وسترنـر الى القـاهـرة ولاسيـما بالنسبـة الى الحـادثـة الـغـريـبـة التى عرفت فيـما بعـد باسم «المـذكـرة الشبـح». وقـد نشـأت هذه الحـادثـة، التى لاتـزال بغـير تفسـير حتـى الآن، عقـب زيـارة قام بها بيرجس لوزارة الخـارجيـة المصريـة فى احـد الايـام بعـد عودة سترنـر الى واشنطن، وقـابـل خلالهـا محمـد ريـاض مسـاعـد

محمود رياض وزير الخارجية، وقال له انه يبدو ان مصر فشلت دائما فى عرض قضيتها بطريقة يفهمها العالم، وانه لو كان هو الذى يتولى عرض القضية لتصرف على النحو التالى. ثم اخذ ورقة كتب عليها بعض رؤوس الموضوعات واخذها معه الى منزله، حيث سجل فيها بالتفصيل ما يرتقي الى مرتبة مشروع قرار من الحكومة المصرية لتسوية سلمية. وارسلها فى اليوم التالى من دون عنوان او توقيع، الى محمود رياض. ولم يخطر فى بال احد ان يكون ما فعله بيرجس مجرد مبادرة شخصية او تصرف تلقائى، وفسر بصورة عامة على انه محاولة تريد الحكومة الاميركية ان تقوم بها على ان تبدو كأن مصدرها الجانب المصرى .

وكان من رأى باناماريوف ايضا ان «المذكرة الشبح» لابد ان تكون تعبيرا عن الموقف الرسمي الامريكي. وسألني بالنسبة الى ما اتصور انه الأهداف الحقيقية التى تسعي امريكا الى تحقيقها. قلت انى اعتقد، بصراحة، ان امريكا تريد ـ أساسا ـ حلا سلميا لمشكلة الشرق الاوسط، بشرط ان يكون هذا الحل امريكيا. ويعنى هذا ان الحل لابد ان يتضمن ثلاثة شروط ان يؤدى الى طرد النفوذ السوفييتي من المنطقة كلها، وان يترك مصر ضعيفة غير قادرة على التأثير بأى نفوذ على الاطلاق فى العالم العربى، وان تظهر التجربة الثورية المصرية فى مظهر التجربة الفاشلة. ووافقنى باناماريوف على هذا التحليل، وسألنى رأيى فى ما يمكن عمله. فقلت ان المهمة الاولى التى تواجه الشعب المصرى هى المعركة المقبلة لاستعادة الارض المصرية والعربية المفقودة. ذلك يعنى الحاجة القصوى الى بناء القدرة العسكرية المصرية الى حد المساواة على الاقل بالقدرة العسكرية الاسرائيلية .

وقادنا هذا النقاش الى الحديث عن جماعة على صبرى. وكان من الواضح ان الموضوعين متصلان بعضهما ببعض فى ذهنه. قال انه لم يكن بين السوفييت وبين هذه الجماعة اية علاقات، وان السوفييت لم يعرفوهم الا من البعثات التى كانوا يقومون بها الى الاتحاد السوفييتى بين وقت وآخر بتكليف من الرئيس عبد الناصر او من الرئيس السادات. وقال: « ان كل ما اطلبه بالنسبة اليهم هو محاكمة عادلة». ثم راح يقتبس بعض ما نشر عنهم ولاسيما ما تكشف من ان بعضهم لجأوا الى الارواح يستعينون بوسطائها فى توجيههم. وقلت له ان ما نشر فى هذا الصدد لم يكن يستهدف فى اى حال التأثير على محاكمتهم، وانما قصد به اظهار الحالة التى كانت تسيطر على عقول جماعة كان افرادها يريدون السيطرة على مصير البلد، ومن حق الشعب المصرى ان يعرف ذلك.

وقلت: « فى اعتقادى ان الشعب المصرى نجا مرتين بردود فعل تلقائية من مواقف كان يمكن ان تهوى به . . . المرة الاولى كانت يومى ٩ و١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ حين اجبر جمال عبد الناصر على سحب استقالته

والعدول عن تنحية، والثانية منذ شهرين حين رفض محاولة قامت بها جماعة صغيرة لفرض الديكتاتورية عليه» وكرر باناماريوف انه لايطلب اكثر من ان تمنح جماعة على صبرى كل الضمانات التى كلفها لها القانون. واظن انه رآنى ابتسم، لانه قال: «حسنا .. انى اعترف باننا نحن انفسنا ارتكبنا اخطاء ضد القانون، لكن ذلك كان فى الثلاثينات، قبل المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى. ونريدكم ان تتجنبوا ذلك النوع من الاخطاء التى ارتكبناها». وبعد ذلك انتقلنا بالحديث الى كوبا .

الجزء الخامس

حكاية راندوبولو

ازدادت علاقات مصر بالولايات المتحدة سوءاًنتيجة للصمت المطبق الذى ساد الجانب الامريكى عقب بعثة سترنر، ونتيجة لـ «المذكرة الشبح»، ثم نتيجة لصدام حاد حول ما يمكن تسميته « حكاية راندوبولو».

على بعد بضعة أميال جنوب غربى الاسكندرية فى منطقة اسمها «جاناكليس» تقوم مزرعة كبيرة مخصصة كلها لزراعة العنب وانتاج النبيذ، تملكها شركة من أسر رجال الاعمال هى اسرة بيراكوس. وكان من بين موظفى المزرعة الكبار رجل ينحدر من ابوين كانا هاجرا الى مصر وأقاما فيها وحصلا على الجنسية المصرية، اسمه طناش راندوبولو. وحين صدرت القرارات الاشتراكية فى يوليو (تموز) سنة ١٩٦١ انطبقت قوانين التأميم على المزرعة، وتقرر ان يبقى راندوبولو فيها كمدير لها. وكان راندوبولو فى نحو الستين من عمره، على قسط كبير من الجاذبية والمقدرة، وانتخب مرتين عضواً فى مجلس الامة عن الدائرة التى تقع فيها المزرعة، والتى كانت بالفعل أقطاعية لتلك الشركة. وكان يقيم معظم الوقت فى استراحة جميلة فى المزرعة، مثالا لرجل العلاقات العامة الناجح بما يوزعه على الجهات المختلفة من النبيذ والبراندى والفواكه. الى ان كان العام ١٩٧٠، حين اكتسب جاراً جديداً على حدود المزرعة مباشرة، حيث خصص المطار القائم هناك للطائرات السوفييتية تعمل منه للدفاع عن الاسطول السوفييتى فى البحر الابيض المتوسط، وعن المواقع المصرية فى العمق .

وبدأ اول اتصال لى بهذه الحكاية فى احد ايام شهر سبتمبر (ايلول) عام ١٩٧١ حين تلقيت وأنا فى الاسكندرية مكالمة تلفونية ثائرة من دونالد بيرجس، قال فيها ان منزل احدى الرعايا الامريكيين فى القاهرة تعرض لهجوم بالمدافع الرشاشة والمسدسات من جانب رجال البوليس،

وأن «هذه مسألة غاية فى الخطورة». وحين قلت له ان لاشأن لى بذلك وان عليه ان يتصل بوزارة الخارجية، تغيرت لهجته فجأة وقال بصوت مهذب: « حاضر ياسيدى». وأقفل السكة .

واتصل بعد ذلك بالتليفون بمحمود رياض وزير الخارجية، وأيقظه من النوم عند منتصف الليل ليقول له ان منزلاً أمريكياً قد هوجم، وان احدى رعايا امريكا اعتقلت. وأضاف بلهجة حادة: « اذا كان شىء كهذا سيحدث فانى سأنصح جميع الامريكيين فى مصر، بما فيهم اولئك الذين يعملون فى آبار البترول، بأن يغادرو البلاد. . . لان سلامتهم لم تعد مضمونة فيها». ورد عليه محمود رياض بشىء من الحزم أنه لايعرف شيئاً عن الموضوع، وطلب اليه ان يتصل فى الصباح بأحمد عثمان المستشار القانونى للوزارة .

وحقيقة ما حدث كان كالاتى: استطاعت المخابرات الامريكية ان تصل الى طناش راندوبولو وتقنعه بأن يبلغها كل اوجه النشاط السوفييتى فى القاعدة الجوية . وكان مرد نجاح المخابرات الامريكية فى اقناعه ان له ابنا هاجر الى الولايات المتحدة وكان شديد الاهتمام الى حد اليأس بمساعدته. وقد تم اتصال المخابرات الامريكية به عن طريق فتاه اسمها «مس سوين» كانت تعمل ـ صوريا ـ سكرتيرة فى قسم التأشيرات فى القنصلية الامريكية , وكان رجال المخابرات المصرية بدأوا منذ عدة شهور يشكون فى طناش راندوبولو وبدأوا يراقبونه، والتقطوا ثلاث رسائل مكتوبة بالحبر السرى تتضمن معلومات عن القاعدة والقوا القبض عليه فى منطقة العجمى. وكان معه يومها امريكى قدم الدليل على حصانته الديبلوماسية فأخلى سبيله .

أما « مس سوين » فكانت اقل حظاً .

كان رؤساؤها قرروا ان الوقت قد حان لاختفائها بعدما قبض على راندوبولو. وكانت توجهت الى منزل صديق لها لتودعه، وبعد عودتها وبينما هى تتجه نحو منزلها بعدما تركت سيارتها، تقدم منها اثنان من رجال المخابرات يرتديان الملابس المدنية فحاولت الهروب، لكنهما تمكنا من القبض عليها واصطحباها الى ادارة المخابرات العامة. وفتشت «شقتها»، ولكن ـ وعلى العكس مما زعم بيرجس ـ لم تستخدم فى عملية التفتيش او فى عملية القبض عليها اى اسلحة من اى نوع. و كان اللواء احمد اسماعيل مدير المخابرات العامة فى ذلك الوقت، حريصاً على ان يتم تصوير العملية كلها بآلة سينمائية حتى لايكون هناك مجال للمناقشة بشأن حقيقة ما حدث .

ومع ذلك فان بيرجس اصر فى اثناء مقابلته لاحمد عثمان صباح اليوم التالى على ان القوة استخدمت ضد «مس سوين». ونفى احمد عثمان ان يكون ذلك حدث . وقال له ان تقريراً كاملا عن الموضوع كله ارسل الى

الرئيس وتضمن ان كل شيء تم ببساطة وهدوء ، وأن «مس سوين» رهن الاعتقال، بينما اعترف طناش راندوبولو اعترافاً كاملا . وارتكب بيرجس في تلك اللحظة غلطة كبيرة حين قال ان اللواء احمد اسماعيل لابد ان يكون قدم الى الرئيس معلومات كاذبة .

وحين سمع اللواء احمد اسماعيل بما حدث، سارع الى استدعاء مندوب المخابرات الامريكية في مصر ـ وكان معروفاً لديه بطبيعة الحال ـ وهو يوجين ثرون الذى استخدم صفة العضو في بعثة رعاية المصالح الامريكية غطاء لصفته الحقيقية. والح ثرون على اللواء احمد اسماعيل في أثناء المقابلة ان ينتهى الموضوع بأقل قدر من الضجة، وناشده اطلاق سراح الفتاة. وحين عاد الى مكتبه كتب الى اللواء احمد اسماعيل خطاباً غاية في الصراحة قال فيه :«أريد أن اؤكد لك ان اى معلومات حصلنا عليها من الفتاه لم تذهب الى اسرائيل، وكانت لفائدة الولايات المتحدة فقط. والحقيقة انها لفائدة مصر ايضاً، لانها تمكن الحكومة الامريكية من ان تقول لاسرائيل حين تطلب مزيداً من السلاح بحجة الاسلحة التى يرسلها الاتحاد السوفييتى الى مصر انها تبالغ». ثم مضى الى القول :«واريدك ان تعرف ان مصر ليست الهدف من عملية التجسس هذه. وانت تعرف ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى مشتركان في مجابهة عالمية .وهنا قاعدة يعمل السوفييت منها ، وطبيعى ان نكون مهتمين بما يفعلون. لقد كنا نتجسس عليهم . . لاعليكم».

ومن ناحيته، فان اللواء احمد اسماعيل كان مهتماً بألا يفلت الموقف من الزمام، وصحب ثرون بيرجس لمقابلته، ووقف امامه ليقدم اعتذاراً كاملا. وكان بيرجس في وضع محزن . . . ان كل ما حاول ان ينجزه في مصر بدا في تلك اللحظة كأنه تحول الى انقاض، كما أنه هو نفسه كاد ينهار في أثناء المقابلة . أما «مس سوين» فقد برهنت على انها من معدن اصلب. لقد رفضت ان تعترف بأى شيء، وبذل الامريكيون كل أساليب الملاينة والنفاق لاطلاق سراحها، لكن الرئيس رفض، ولم يوافق على خروجها الا بعد ذلك بشهور عدة. وأما طناش راندوبولو فقد كان في حالة انهيار تام منذ اللحظة الاولى لاعتقاله ، ومات بأزمة قلبية .

وكان لهذه القضية آثارها على الجانب السوفييتى أيضاً . ويبدو ان المسؤولين السوفييت عن القاعدة كانوا طلبوا في وقت من الاوقات ان تزرع المناطق المحيطة بالقاعدة بأشجار الفاكهة كاجراء اضافى لاخفائها، ويومها رد طناش راندوبولو أنه لابد من أن يلقى نظرة على ما يراد اخفاؤه حتى يستطيع ان يحقق الغرض المطلوب . وأخذه المسؤولون السوفييت في طائرة هليكوبتر حلقت به فوق القاعدة، وعثر يوم القبض عليه على تقرير شامل لما رأى بين مجموعة الرسائل الاخرى التى كان يكتبها . كذلك، فان طناش راندبولو كان نجح في توثيق علاقات صداقته

بثلاثة من كبار الضباط السوفييت المسؤولين عن موقع قريب لبطاريات الصواريخ، فكانوا يزورونه فى منزله، ويتلقون منه هدايا النبيذ والفاكهة. وصدرت التعليمات الى اللواء سعد الشاذلى بأن يطلب الى نظيره السوفيتى الجنرال شوارتزكوف مستشار رئيس الاركان أن يسحب ضباط الصواريخ الثلاثة، وأن يصدر امراً بمنع جميع الخبراء السوفييت فى مصر من الكلام مع أى مصرى فى أى موضوع خارج نطاق شؤون التدريب.

وكنت يوم ١٥ سبتمبر (ايلول) أتناول الغداء مع فينوجرادوف حين قال ان هناك مسألة يريد ان يناقشها معى بصفة شخصية وسرية. وقال انه اذا طلبت مصر من ثلاثة من كبار خبراء الطيران السوفييت ان يتركوا البلاد، فان مثل هذا الطلب سيخلف اثراً سيئاً فى نفوس بقية الخبراء كما سيؤثر على عملهم. فليس بينهم من يمكن ان يصدق ولو للحظة ان أيا من زملائهم يمكن ان يخون المهمة التى كلف القيام بها. لقد جاءوا الى مصر متطوعين، ومستعدين لان يموتوا فى سبيل مصر. ولاشك ان الماريشال جريتشكو والجيش السوفييتى كله سيشعرون باستياء شديد اذا ابعد الخبراء الثلاثة، ولاسيما فى غياب صدور امر باجراء تحقيق رسمى فى المسألة. اما فى ما يختص بالامر المقترح اصداره بشأن قصر الكلام بين الخبراء السوفييت والمصريين على شؤون التدريب، فانه لابد ان نتذكر ان هؤلاء الخبراء بشر، ومن المشروع ان يصدر حظر بشأن الكلام فى المسائل الداخلية المصرية، اما أن يمنعوا من الكلام الا فى ما يختص بشؤون التدريب، فهذا كثير جداً.

ومع ذلك، ففى ذلك الوقت تقريباً أبلغنى الرئيس السادات انه سمع ان بعض الخبراء السوفييت يوجهون الى الضباط المصريين الذين يعملون معهم اسئلة فى السياسة العليا، منها مثلا: مارأيهم فى محاكمة جماعة على صبرى؟ ومارأيهم فى السادات كرئيس للجمهورية؟ ومارأيهم فى الفريق صادق؟ وقال الرئيس ان هذا امر غير محتمل، لكنى عندما ذكرت له ما دار من حديث بين فينوجرادوف وبينى، فانه اتصل بالفريق صادق واصدر اليه تعليمات بوقف الامر بابعاد الخبراء السوفييت الثلاثة فوراً، وبأن يرسل التقرير الخاص بالتحقيق فى الموضوع عند اتمامه الى رئيس الخبراء السوفييت، ويترك له امر التصرف بالنسبة الى الاجراء الذى يرى اتخاذه. وكان فينوجرادوف سعيداً جداً عندما ابلغته التغير الذى طرأ على الموقف.

الفصل الثالث

الجزء السادس

آخر اجتماع مع روجرز

كان لحكاية راندوبولو فائدة خاصة ... من ناحية انها كشفت عن طريق للاتصال بين مصر والولايات المتحدة اصبح فى ما بعد على درجة كبيرة من الاهمية. هذا الطريق كان يبدأ من رئاسة الجمهورية فى مصر الى ادارة المخابرات المصرية، ومنها الى ادارة المخابرات الاميريكية، فالى مجلس الامن القومى الاميركى وكيسنجر فى البيت الابيض. وكان هذا الطريق والابقاء عليه مفتوحا، هو السبب الذى من اجله وافق الرئيس السادات فى النهاية على اطلاق سراح «مس سوين».

وبطبيعة الحال، فقد كان لهذه الوسيلة السرية للاتصال اثرها الفعال فى عزل وزارة الخارجية الاميركية. وشهد الاسبوع الاخير من شهر سبتمبر (ايلول) محاولة اخيرة قام بها ويليام روجرز، وزير الخارجية، لاتمام الاتفاق على الاقتراح الاميركى بعقد اتفاقية موقتة، وكانت هناك فى الوقت نفسه محاولة لدق اسفين بين الرئاسة ووزارة الخارجية، لكن المحاولة لم تنجح فى تحقيق اى من الغرضين. وكان مسرح المحاولة مأدبة «غداء عمل» حضرها من الجانب الاميركى اضافة الى روجرز، كل من سيسكو، وباترسون، وماكلوسكى المتحدث باسم وزارة الخارجية. واثرتون ضابط الاتصال بين وزارة الخارجية ومجلس الامن القومى، وسترنر. وحضرها من الجانب المصرى محمود رياض والدكتور الزيات، والدكتور اشرف غربال، والسفير محمد رياض. وكان روجرز هو الذى بدأ الحديث بقوله انه حائر حقيقة فى فهم موقف وزارة الخارجية المصرية من الاتفاقية الموقتة، لانه اقتنع بعد كل الرسائل التى تبادلها مع الرئيس السادات خلال الاشهر الستة الماضية بأن الحكومة المصرية راغبة فى الاتفاقية الموقتة «كطريقة عملية للبدء فى السير على طريق السلام». على رغم ذلك، فأنه دهش لما عرف ان محمود رياض قال فى حديث تلفزيونى فى اليوم السابق: «انى لاافهم ما هو المقصود بالاتفاقية الموقته».

ورد محمود رياض موضحا انه لايفهم بالفعل ما تعنيه الولايات المتحدة بالاتفاقية المؤقتة. وفى ظنه ان الولايات المتحدة انما تحرف الاقتراح الذى تقدم به الرئيس السادات فى شهر فبراير شباط الماضى (بشأن اعادة فتح قناة السويس). ذلك ان ما كان الرئيس السادات يقترحه آنذاك هو مرحلة اولى فى طريق يؤدى الى تسوية سلمية نهائية طبقا للقرار رقم ٢٤٢ ومن ناحية اخرى، فان ما يريده الاسرائيليون هو هدنة ممتدة تتيح لهم ان يحتفظوا بصورة دائمة، بما لايقل عن ٩٠ فى

المائة من الاراضى التى احتلوها فى العام ١٩٦٧. فاذا كان الاميركيون يرون ان فتح قناة السويس معناه اعطاء الاشارة ليارنج لاعداد جدول زمنى لانسحاب كامل للقوات الاسرائيلية، خلال فترة ٦ أشهر من جميع الاراضى العربية، فان مصر موافقة مائة فى المائة. ورد روجرز ان الولايات المتحدة، ببساطة، لاتعتقد ان فى الامكان اعداد خطة نهائية فى هذه المرحلة، وان هذا هو السبب فى انها تتحدث عن اتفاقية مؤقتة. واذا كانت مصر تصر على ان توافق اسرائيل على التزام بالانسحاب التام من جميع الاراضى التى احتلتها، فانه مضطر الى ان يقول بكل صراحة ان الولايات المتحدة لاتملك وسائل اقناع الاسرائيليين بضرورة الموافقة على ذلك، او فرض مثل هذا الالتزام عليهم.

وظلت المناقشة تدور فى اطار هذا الخط لفترة. وقد حاول محمود رياض خلالها ان يحصل على معلومات اكثر تحديدا بالنسبة الى ما هو مفروض ان تشمله الاتفاقية المؤقته. مثلا: ما هو دور الامم المتحدة فى الاتفاقية؟ ومن الذى يوقعها؟ وماهى مدتها؟ وردا على السؤال الاخير قال روجرز ان الاتفاقية يجب ان تتضمن بندا ينص على اعادة النظر فيها بعد ثمانية عشر شهرا. فسأل محمود رياض: وهل يعنى ذلك انه اذا لم يتحقق شىء بعد ثمانية عشر شهرا. فانه يكون من حق مصر ان تعبر القناة وتحرر الاراضى المحتلة بالقوة؟ ورد روجرز انه اذا لم يحدث ثمة تقدم، فان من الواضح انه سيكون لمصر عندئذ الحق نفسه الذى لها الان: ان تفعل ما ترى انه ضرورى لتحقيق امنها.

واستمر الاميركيون فى تكرار الفوائد التى يرون انها ستتحقق بالاتفاقية المؤقتة. قالوا انها ستضع سابقة لانسحاب اسرائيلى، وستكون تحركا عمليا نحو النهاية التى يسعى اليها الجميع. وقال محمود رياض ان الاسرائيليين سبق ان اجبروا على الانسحاب من سيناء كلها عام ١٩٥٧، وبالتالى، فان الاتفاقية الموقتة لاتضع سابقة لانسحابهم، واكد على خطر السماح لاسرائيل مرة اخرى بأن تحول ما هو مفروض انه اجراء مؤقت الى اجراء دائم. وفى النهاية قال روجرز انه يشعر باكتئاب شديد من اثر المناقشة، وانه يرى ان ما يقوله محمود رياض معناه انه لا يمكن ان يقبل بتسعين فى المائة مما يريد، ويصر على المائة فى المائة وليس فى الدنيا مشكلة يمكن ان تحل على هذا الاساس. وردد سيسكو صدى ما يقوله روجرز، فقال انه اذا تمسكت مصر بالحصول على كل شىء او لاشىء، فان النتيجة ستنتهى الى حصولها على لاشىء.

وقد ظهرت من هذه المناقشة غير المنتجة بضع نقاط تثير الاهتمام، منها: ان الاميركيين كانوا عند اقتناعهم بان مصر عاجزة عن اتخاذ اى اجراء جدى من جانبها. وقال روجرز فى احدى لحظات المناقشة: «انى استطيع ان اتخيلك، ياصديقى العزيز، السيد رياض، قادما الى

الجمعية العامة وانت فى الخامسة والسبعين من عمرك تعد الخطاب نفسه الذى اعددته هذا العام، ويكون الموقف المصرى هو موقفها نفسه هذا العام». ومنها: ان وزارة الخارجية الاميركية تصورت ان هناك اختلافا فى وجهات النظر بين الرئاسة ووزارة الخارجية فى مصر. واغلب الظن ان هذا التصور يعود الى سوء فهم لبعض ما قاله الرئيس السادات لروجرز حين اجتمع به فى القاهرة. وكان ذلك فى اثناء اشارة الرئيس الى حديثه يوم ٤ فبراير (شباط) واقتراحه الخاص بفتح قناة السويس. فقد قال لروجرز يومها: « الجميع فى ذلك الوقت كانوا ضدى ... حتى محمود رياض ». وكان الرئيس يقصد بذلك محاولة اقناع وزير الخارجية الاميركية باهمية التنازل الذى يعرضه، ولكن محتويات الخطاب اصبحت سياسة رسمية يؤيدها كل من فى الحكومة باخلاص، لمجرد ان اعلنها الرئيس فى خطابه.

وربما كان تصور روجرز ان هذا الاختلاف فى وجهات النظر حقيقى، وان من الممكن استغلاله، هو السبب فى انه بعث بعد ذلك بوقت قصير برسالة مباشرة الى الرئيس السادات استهدف بها تشويه موقف محمود رياض. فقد قال فى رسالته ان محمود رياض يقفز الى النتائج بالنسبة الى الاتفاقية المؤقته، ويتهم الولايات المتحدة بانها تريد ان تجعل من الاتفاقية المؤقته، غاية فى حد ذاتها، ويبدو انه غير قادر على ان يفهم انها مجرد بداية حقيقية لجهد عملى نحو تسوية نهائية. وقال فى الرسالة ايضا ان محمود رياض ضيع الكثير من الوقت فى مناقشة الالفاظ، لكن الاميركيين ماضون فى استخدام عبارة «الاتفاقية المؤقتة» لانها عبارة استخدمتها كل الشعوب الاخرى، ولانها عبارة واضحة ومحددة تماما. وهو يرى انها تعنى بالضبط ما يدور فى ذهن المصريين ايضا وهو: اجراءات عملية ذات طبيعة موقته يمكن ان تؤدى الى مراحل اخرى للتقدم نحو تسوية نهائية. لكن روجرز اظهر استمرارا فى سوء فهم الموقف المصرى عندما اشار فى رسالته الى ان خطاب الرئيس فى ٤ فبراير (شباط) تضمن «اقتراحا بشأن اتفاقية مؤقته تعتبر من وجهة نظرنا خطوة بناءة»، فى حين ان الرئيس كان، بطبيعة الحال، يتحدث عن الخطوة الاولى فى برنامج مسبق اعداده لتسوية نهائية يتفق على كل مرحلة من مراحلها خلال فترة محددة. وعلى أية حال، فقد توقف كل من روجرز ومحمود رياض عن القيام بأى دور نشط فى المفاوضات الخاصة بتسوية ازمة الشرق الاوسط، واصبحت هذه المفاوضات تدور بعد ذلك بين كيسنجر وحافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الامن القومى، او بين كيسنجر والرئيس السادات نفسه.

. . . الى العام ١٩٧٢

كان من المفروض ان تكون ١٩٧١ «سنة الحسم»، وكانت وقتها تقترب من نهايتها من دون اى حسم. ولم اكن مقتنعا تماما بهذا التعبير. . . او اننى كنت ارى ان تكون ١٩٧١ سنة اتخاذ القرار لا سنة تنفيذه. فمن الافضل دائما تجنب تحديد تاريخ معين يكون الاقدام على العمل فيه متوقعا. وكان السوفييت ايضا ضد الفكرة تماما، وسألوا فى مرات عدة عن حقيقة ما تعنيه.

وكانت علاقات مصر بالسوفييت بالنسبة الى الجانب العسكرى متوترة بسبب التردد الذى كان لايزال قائما بشأنه كما يجب اقراره من خطط العمليات العديدة المقترح تنفيذها وقد ادخلت تعديلات كثيرة على الخطة المعدة لاقامة نقطة ارتكاز عبر القناة ـ تحرير١ وتحرير٢ وتحرير٣ ـ وبعدما تم بناء جدار الصواريخ عام ١٩٧٠ كانت هناك الخطة التى امر بها الرئيس عبد الناصر للتقدم حتى الممرات فى سيناء، والتى سميت «جرانيت ١» على اسم الصخر الصلب الموجود فى اسوان والذى صنعت منه معظم الآثار المصرية. وتصور الفريق محمد احمد صادق حين تولى منصب وزير الحربية ان «جرانيت ١» لاتحقق التقدم الكافى، ووضع خطة «جرانيت ٢» التى تتضمن عبور القناة واحتلال الممرات ثم الاندفاع نحو حدود مصر الدولية. ثم وسع نطاق «جرانيت ٢»بخطة «جرانيت ٣» التى تتضمن دخول القوات المصرية قطاع غزة الذى تعتبر مصر ان تحريره مسؤولية لايمكنها التخلى عنها، وكان ذلك من الناحية الموضوعية فوق اى قدرة متاحة، لكن هيئة التخطيط العسكرية المصرية راحت تعمل بصورة متصلة . . . تعدل الخطط طبقا للتغييرات فى الموقف الداخلى والتطورات فى الموقف الدولى. وكانت المشكلة هى ان تنفيذ كل هذه الخطط يتطلب اسلحة ومعدات مختلفة. ولم يحدث ابداً ان ناقش السوفييت خطط العمليات مع السلطات المصرية. فقد كانوا على استعداد للمعاونة فى تقديم المعدات، اما الطريقة التى يمكن فيها تحرير الاراضى المحتلة فمن شأن مصر وحدها. وسواء اكانوا يدركون او لايدركون ان التغييرات الخاصة بطلبات الاسلحة انما املتها التغييرات التى ادخلت على الخطة ١ فذلك ما لا اعرفه، لكنهم كانوا، فى بعض الاحيان ، يقولون ان مصر تبدو مهتمة بصفة رئيسية بتكديس الاسلحة فى المخازن. وفى كل مرة ذهب الرئيس عبد الناصر او الرئيس السادات الى موسكو كانت الاجتماعات تبدأ بقراءة من الماريشال جريتشكو لقائمة من قوائم السلاح، وكان يقول: «لقد حصلتم على هذا . . وحصلتم على ذاك». وكل ذلك فى محاولة لاظهار ان مصر حصلت على مقدار ما حصل عليه

الاسرائيليون. لكن تركيز السوفييت كان دائما على الكم لا على النوع .

وكان للعلاقات المصرية ـ السوفيتية جانبها الانسانى فى ذلك الوقت ايضا . ففى يوم ٩ نوفمبر (تشرين الثانى) استدعى الرئيس السادات الى مكتبه الجنرال اوكينييف كبير الخبراء السوفييت. وكان الرئيس يرتدى بدلة القائد الاعلى للقوات المسلحة المصرية . وبعدما حيا اوكينييف قال له: « الى من تتحدث الآن ياجنرال؟». وبدت الدهشة على اوكنييف وقال :«سيادة الرئيس . . . انا اتحدث اليك». فسأله الرئيس: «وانا . . من اكون؟». فرد اوكنييف :«انت انور السادات». فقال الرئيس : كلا . . انا ستالين . . ولمعلوماتك فانا ستالين لاكالينين . لقد استخدمتم كالينين كرئيس للدولة فى عرض القوات فى الحرب العالمية الثانية، لكنه لم يكن يعرف شيئا عما يجرى فى الحرب العالمية الثانية. وكان ستالين هو القائد المسؤول عن ادارة المعركة وادارة الحرب كلها. والآن . . ايها الجنرال . . فانى بوصفى ستالين، لا كالينين، اطلب منك ان تجلس وتشرح لى الموقف بالضبط. قل لى تقييمك الحقيقى لموقفنا. تماما كما لو كان ستالين هو الذى استدعاك وامرك وسألك هذا السؤال. . فهل كنت تعطيه جوابا صريحا؟». وقال اوكينييف :« سأعطيه بالتأكيد. فقال الرئيس: «حسنا . . اذا لم تنفذ هذا الامر الذى اصدرته اليك فسأعاملك تماما كما كان ستالين سيعاملك». وضحك اوكينييف وانتقل الحديث بعدها الى مسألة التدريب، وامدادات السلاح، وامكانات مصر العسكرية وغيرها .

وفى نهاية العام ١٩٧١ عرضت مصر مشكلة الشرق الاوسط كلها على الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وبدأت جهدا مكثفاً لتثبيت انظار الرأى العام العالمى عليها . لكن الانظار تحولت كلها فجأة الى الحرب فى شبه القارة الهندية، وكانت تلك الحرب مبررا لمصر فى عدم القيام بأى عمل ايجابى بالنسبة الى سنة الحسم .

وكانت ١٩٧٢ سنة صعبة . . بدأت بداية سيئة باضطراب بين الطلاب الذين مزقهم شعور اليأس بسبب عدم التحرك، وبسبب التغيير الوزارى. فقد طلب يومها الى الدكتور محمود فوزى ان يستقيل، وتولى الدكتور عزيز صدقى رئاسة الوزارة خلفا له. وعلى رغم ان الدكتور عزيز صدقى كان معروفا بكفاءته كرجل ادارى وكمهندس برنامج التصنيع الضخم فى مصر ، الا ان اسباب التغيير لم تكن مفهومة فى البلاد .

وكان الرئيس السادات يحس ايضا بشعور من التمزق بعد الذروة العكسية لسنة الحسم . كان يعرف ان شعبيته الشخصية تأثرت، وكان يشعر بان السبب فى ذلك يعود ـ فى جانب منه على الاقل ـ الى انه يتحمل اللوم الذى كان يجب ان يلقى على عاتق السوفييت . وهكذا، فانه قرر ان يسافر الى موسكو ليحاول تنقية الجو. لكنه سافر الى اسوان قبل

ان يبدأ رحاته الى موسكو للتفتيش على وسائل الدفاع عن السد العالى واستمع فى اثناء حديثة مع الضباط الشبان الى شكاوى حقيقية من القاذفة «تى يو ١٦» البعيدة المدى التى يعملون عليها والمزودة بقذائف بعيدة المدى . وكان تقديرهم انها اذا استخدمت فى العمليات، فلن يقدر لاكثر من عشرين فى المئة منها ان تعود من مهمتها الاولى .

وسافر الرئيس السادات الى موسكو يوم ٢ فبراير وقضى هناك يومين وعاد الى القاهرة عن طريق يوجوسلافيا وسوريا وليبيا . وقابلته فى القناطر الخيرية بعد عودته مباشرة، وبدأ كلامه عن محادثاته فى موسكو بقوله: « من كان يظن ان الملك فيصل سيكون نقطة التحول؟». والقصة كما رواها انه تلقى قبل بضع ساعات من رحلته الى موسكو رسالة من الملك فيصل يعرض فيها ان يهديه عشرين قاذفة مقاتلة من طراز «لايتننج» كانت السعودية قد اشترتها من بريطانيا قبل سنوات عدة . وقال الملك فى رسالته : «وآمل ان يكون فى هذا ما يقنع بعض الاخرين بالاسراع فى معونتهم ». واراد الرئيس السادات ان يظهر عرفانه بالجميل للملك فيصل فطلب الى الفريق صادق ان يبعث برسالة الى الامير سلطان وزير الدفاع السعودى يبلغه فيها ان الرئيس امره فى حال حدوث اى طارىء فى اثناء غيابه فى موسكو ان تتلقى قيادة القوات المسلحة المصرية اوامرها من الملك فيصل . وقد ابلغ الامير سلطان محتويات تلك الرسالة، كبار الضباط السعوديين فكان لها صدى عميق فى نفوسهم . على انه لابد من الاعتراف بأن نهاية القصة لم تكن على ذلك المقدار من السعادة. فالطائرات «اللايتننج» العشرون لم تصل ابدا. وبدلا من ذلك فان عددا من الطيارين المصريين ارسلوا الى السعودية للتدريب عليها . وفى الوقت نفسه، كان هناك عدد آخر من الطيارين المصريين يتدربون على طائرات حديثة فى كل من الكويت وليبيا . وهكذا ، اصبح جزء كبير من الطيارين المصريين موزعين فى انحاء العالم العربى .

ولكن ربما كان لهذه البادرة من الملك فيصل ما ساعد على التأثير على السوفييت، لانهم وافقوا على تزويد القوات الجوية المصرية بالقاذفة «تى يو ٢٢»، وكانوا فى الماضى يرفضون تزويدها بها. بل ان بريجنيف، فى الحقيقة، قال للرئيس السادات اكثر من مرة قبل ذلك انه اصيب بالملل وتعب من كثرة المطالبة بالقاذفات المقاتلة، وانه يرفض مناقشتها بعد الآن. وحاول هذه المرة ان يحارب معركة تراجع فقال متسائلا: «لماذا تخافون الى هذا الحد من قنابل الطائرات؟.. لقد ضربنا بقنابل الطائرات فى صورة مستمرة فى الحرب العالمية الثانية وكسبنا». ورد الرئيس السادات : « انى لا اخشى قنابل الطائرات ، لكنى اريد ان اكون قادرا على ضرب من يضربوننى بها . ودعنى اذكرك بان هناك الفى هدف حيوى فى مصر .. واذا ضربت اسرائيل احد جسورنا الاستراتيجية، فان ذلك قد

يعنى اغـراق ٢٥٠ الف فدان ». كذلـك فقـد وافق السـوفييت على ان يزودوا مصر بالدبابة « ت ٦٢» ، وكان ذلك تقدما كبيرا .

وقـال لى الـرئيس السـادات ان بريجنيف كرر عليـه القصص التى سمعهـا عن ان النـاس فى القـاهـرة يوجهـون اللوم الى الـروس، لانهم يحولـون بين مصر والـدخول فى حرب لتحـريـر الاراضى المحتلة. وقـال الـرئيس: «لقـد قلت لبريجنيـف ان هنـاك، فى الحـقيقـة، كثـيرين يرون ذلـك، لانى تلقيت منكم وعـدا باشيـاء كثـيرة لم تأت أبـداً. لقـد وعـدتمـونى فى اكتـوبـر (تشرين الاول) بمعـدات لم تصـل. ووعـدنى بودجـورنى فى ينـايـر (كانـون الثـانى) بالمـزيـد منهـا ولم يصـل. ثم وعـدنى باناماريـوف بالمـزيـد ايضـا ولم يصـل. فلم التـأخـير؟ ونـظر بريجنيـف الى قال: الحـقيقـة انى انـا ـ وليس غيرى ـ الـذى اتخـذ القـرار». واضـاف الـرئيس السـادات انـه قال لبريجنيف، عنـد ذلـك، فى محاولـة لتيـسـير الامـور، انـه اذا كان لقـرار منـه، فانـه يقبـله بطبيعة الحال. ثم ضحك وقال لى : «اتعرف . . انهم شرقيون مثلنا».

وفى خلال تلك الفـترة، لم تكن العـلاقـات مع ليبيـا سهلة، وكـان ذلـك هو الـسبب الـذى من اجلـه كان قرار الـرئيس ان يتـوقـف فى طرابلس فى اثنـاء عودتـه من رحلتـه. لقـد كان القـذافى يعـارض الكثـير من خطوط السيـاسـة المصريـة. فلم يكـن راضيـاً عن قبـول مصر للقـرار رقـم ٢٤٢، ولا عن ارتبـاطهـا الـوثيق بالاتحـاد السـوفييتى. وكـان يبـدى الشكـوك بالنسبـة الى قيمـة المعـدات الجـديـدة التـى وافـق السـوفييت على تزويـد مصر بها على رغـم ان الـرئيس السـادات شرح له تفـوق القـاذفـة المقـاتلة «تى يو ٢٢» والـدبـابـة «ت ٦٢» وحـاول ان يقنعـه بالنـوايـا الـطيبـة للاتحـاد السـوفييتى كذلـك، فان القـذافى كان دائـم النـقـد للمـلك فيـصـل، والقى فى الآونـة الاخـيرة خطابـا وصف فيـه الملك فيصـل بـ «ملك القـوى الـرجعيـة فى العـالم العـربى ». ورجـاه الـرئيس السـادات ان يوقف هجـومـه على الملك فيصـل وقـال له: «ملك الـرجعيـة هذا اعـطانـا طائـرات الـلايتننج»، واضـاف الـرئيس السـادات انـه يجب ان لا يظهـر تعـارض حاد بين القـاهـرة وطـرابلس . وكـان رد القـذافى اقـتراحـا بالمضى قدمـا والبـدء فى تنفيـذ فكـرة الـوحـدة، وقـال: «حـسنـا . . لماذا لانـلغـى نحـن الـليبيـين وزارة خارجيتنـا؟ اننـا فى الـوقت الحـاضر لدينـا مقعـدنـا الخـاص فى الامم المتحـدة، ونحن مضـطرون بسبب وجهـات نظرنـا الـثـوريـة الى ان نهاجم الـقـرار رقـم ٢٤٢، والـرجعيـة، والاتحـاد الـسـوفييتى لانـه يتـآمـر مع الـدولـة الـعظمى الأخـرى فى سياسـة الـوفـاق، فى حين اننـا اذا الغينـا وزارة خارجيتنـا وتنـازلنـا عن مقعـدنـا فى الامم المتحـدة، فاننـا نجنبكم ونجنب انفسنـا الحـرج الـذى تتعـرض له مصر وليبيـا حين تتحـدثـان لغـة متعـارضـة. ونستـطيـع عنـدئـذ ان نناقش خلافـاتنـا فى السر بدلا من ان نعـرضهـا فى العلن. وانـا لاتهمنى السيـادة الـوطنيـة . . ومـا يهمنى هو الـوحـدة». لكن الـرئيس السـادات لم يكن متحمسـاً، وكـان



السادات يصافح كيسنجر .

الرئيس السادات والمشير الراحل أحمد إسماعيل يعرضان قواعد الصواريخ التي نصبت على الضفة الشرقية من القناة .

المشير الراحل إسماعيل يجتاز جسر عبور على القناة

يرى ان الاقتراع سابق لاوانه .

ومع ذلك، فقد كان من نتيجة هذا النقاش ان تقرر ايفاد الرائد عبد السلام جلود الى موسكو فى بعثة لشراء السلاح نيابة عن ليبيا ومصر، مع تخويله سلطة عرض دفع الثمن كله نقداً وبالعملة الصعبة، عسى ان يكون فى ذلك ما يؤدى الى الاسراع فى ارسال الاسلحة. وصحب جلود معه الرائد مصطفى الخروبى عضو مجلس الثورة واحد المعروفين بتمسكهم بالدين. وحدث فى أثناء احدى جلسات المفاوضات ان نظر الخروبى الى ساعته وقال موعد صلاة الظهر قد حان، واستفسر، وهو يقف، عن اتجاه مكة، فلما اشاروا اليه به - بعد بحث - راح يؤدى الصلاة . وتوقفت كل المناقشات، وبدت الدهشة على كل من كوسيجين وبودجورنى، لكن الخروبى كان فعل ما اراد، وتردد صوت واحد من المؤمنين المسلمين يؤدى الصلاة فى قلعة الحادية .

وكان من بين الموضوعات الاخرى التى لم تتفق فيها وجهتا نظر الرئيس السادات والرئيس القذافى اقتراح الملك حسين الخاص بالمملكة العربية المتحدة - اتحاد يضم الاردن والضفة الغربية - والذى اعلنه فى شهر مارس (آذار). كان القذافى يغلى بالغضب من الاقتراح، وحاول الرئيس السادات والرئيس الاسد كلاهما ان يهدئا من ثورته، وكان رأى الرئيس السادات ان الملك حسين معزول تماما، وانه يعرف ذلك، ويحاول الخروج من عزلته. وكان يرى ان المشروع لابد ان يكون اعد سلفا مع الامريكيين، وان امريكا تحاول - بمساعدة من اسرائيل وبتستر من الملك حسين - ان تعيد رسم حدود دائمة فى الشرق الاوسط. وكان جزء من المؤامرة - فى تصوره - يشمل مدينة غزة التى ستصبح، بمقتضى المشروع الاردنى ممرا للاردن الى البحر، وهكذا تعزل مصر عن فلسطين (وبطبيعة الحال، فان ديان كان فى رفح مشغولا فى وضع الاستعدادات لميناء اسرائيل الجديد فىياميت). واقترح الرئيس السادات عقد اجتماع خاص لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتأييد كل من مصر وليبيا لاى قرار يتخذونه خاصا بمشروع الملك حسين .

الجزء الثامن

مزيد من المشاكل مع السوفييت

كان الرئيس السادات فى زيارة اخرى من زياراته لليبيا حين ثارت ازمة جديدة بين مصر والاتحاد السوفييتى. فقد اكتشف الفريق صادق أن الخبراء السوفييت الموجودين فى مصر اعتادوا أن يحملوا معهم فى أثناء عودتهم الى بلادهم، سواء فى مغادرة نهائية او لقضاء اجازة، كميات

من الذهب، وذكرت بعض التقديرات ان الكمية التى أخرجت من مصر، فى المدة ما بين وصولهم لاول مرة فى عام ١٩٧٠ حتى بداية سنة ١٩٧٢ بلغت مئات من الكيلو جرامات. كان ما يأخذونه معهم فى البداية قاصراً على المصوغات الصغيرة، لكنهم فى الفترة الاخيرة ازدادوا جرأة وبدأوا يحملون معهم كميات ضخمة من المجوهرات : أساور و« بروشات » لزوجاتهم، وخواتم وغيرها لانفسهم، بل ان بعضهم حملوا سبائك من الذهب. واصدر الفريق صادق تعليمات بأن يبدأ رجال الجمارك سؤالهم عما فى حوزتهم من ذهب. وحين بدأ تنفيذ التعليمات لأول مرة أعلن بعضهم عما يحملونه معهم. بينما اعترض الباقون ورفضوا أن يخضعوا للتفتيش. واستدعى كبير الخبراء والسفير السوفييتى الى المطار، وتأخر اقلاع طائرتهم احدى عشرة ساعة، بذلت خلالها محاولات عدة للاتصال تليفونياً بالفريق صادق، بل حتى للاتصال بالرئيس السادات نفسه فى ليبيا. وساد الموقف جو شديد من العصبية والتوتر حتى أمكن الاتصال بالرئيس السادات ، وكان رأيه انه ليس هناك مايدعو الى التهويل من الحادث وطلب اعداد تقرير عما حدث، كما طلب أن يسمح للخبراء السوفييت بالسفر بما يحملون .

وحدث صدام آخر مع السوفييت فى الشهر التالى بشأن موضوع آخر. كان جانب من معاهدة العام ١٩٧٠ الذى ينص على أن يتولى السوفييت مسؤولية الدفاع الجوى عن العمق المصرى يتضمن سفر عدد من المصريين الى الاتحاد السوفييتى للتدرب على صواريخ «سام ٣»، حتى اذا ما اتموا تدريبهم عادوا الى مصر ليحلوا محل الفنيين السوفييت وكان عدد المصريين الذين اتموا التدريب فى ذلك الوقت بلغ ١٨ فوجاً، ورأى الفريق صادق أن الوقت حان لاجراء التغيير، لكن الدكتور عزيز صدقى كان يرى أن من الخطأ اصدار الامر للاطقم الثمانية عشر من الخبراء السوفييت بالسفر على الفور لان فى سفرهم بهذه الطريقة ما قد يوحى بمظهر عملية اجلاء جماعى، ووافقه الرئيس على رأيه، لكن الفريق صادق عاود الاتصال بالرئيس، وتم الاتفاق، كحل وسط، أن يحل المصريون محل اثنى عشر طاقماً فقط، والاحتفاظ بالاطقم الستة الباقية كاحتياط، وطلب الرئيس الى الفريق صادق ان يكتب خطاباً الى كبير الخبراء السوفييت يبلغه فيه أن عملية التغيير ستتم فى موعد محدد. وقال الرئيس انه قد مضى على عودة الضباط المصريين الى مصر ستة أشهر، بعدما تم تدريبهم العملى على القتال، فضلا عن أن مرتبات الخبراء السوفييت تدفع بالعملة الصعبة .

لكن السوفييت استاؤوا من الاقتراح، وقال الماريشال جريتشكو ـ وكان فى مصر فى ذلك الوقت ـ ان الاقتراح سيثير شعوراً سيئاً لدى خبراء الصواريخ السوفييت، وسيعتبرونه دليلا على أن وجودهم فى مصر

غير مرغوب فيه . يضاف الى ذلك أن صدوره قبل الموعد المحدد لزيارة نيكسون لموسكو مباشرة، سيبدو وكأن مصر تقدم الى امريكا نصراً دعائياً على طبق من الفضة .

وكانت هناك مشكلة أخرى متصلة بهذه المشكلة، وهى خاصة بدفع ثمن الطائرات السوفييتية. فعندما كان الرئيس السادات فى زيارته الاخيرة لموسكو، وعده السوفييت بأن يزودوا مصر بطائرات «ميج ٢٣» بعد أن يبدأ أنتاجها ، وتعهد الرئيس بأن يدفع ثمن ما يحصل عليه منها بالعملة الصعبة التى كان القذافى يقدمها الى مصر. وعندما سافر وفد مصرى برئاسة الفريق عبد القادر حسن نائب وزير الحربية الى موسكو، تبين له أن السوفييت ليسوا مستعدين لتزويد مصر بالـ «ميج ٢٣»، وعرضوا بدلا منها طرازاً معدلاً لـ «ميج ٢١»، وطلبوا أن يدفع ثمن الطائرات من هذا الطراز بالعملة الصعبة، لكن الرئيس السادات رفض، على أساس أن العقد الخاص بها عقد قديم لايتضمن الدفع بالعملة الصعبة .

وهناك قصة عجيبة متصلة بهذا الطراز المعدل من طائرات «ميج ٢١». ففى يوم ٣٠ يوليو (تموز) ١٩٧٠ ، وبعد وصول الطيارين السوفييت الى مصر بفترة وجيزة مع طائرات «ميج ٢١» الاصلية، عبرت بعض الطائرات «الفانتوم» الاسرائيلية المجال الجوى الى مطار عين السخنة. وحلق الطيارون السوفييت من مطار المنيا للتصدى لها، لكنهم وقعوا فى فخ اسرائيلى، ودمرت لهم اربع طائرات فى خلال بضع ثوان، كما أصيبت طائرة خامسة اصابة بليغة وقفز طيارها منها بالمظلة. واذكر انى كنت فى ذلك اليوم اتحدث الى الرئيس عبد الناصر، واذكر قوله لى: حدث شىء عجيب اليوم . . لقد اسقط الاسرائيليون خمس طائرات سوفيتية. وأنا أشعر ، من ناحية، بالاسف لسقوطها .·. لقد حاربوا معنا واعطوا حياتهم لهدفنا، لكننى من ناحية أخرى، اجد فى ذلك دليلا مهما ، فقد كان الروس دائما يتهمون طيارينا بأنهم عاجزون عن ان يتعلموا من التجربة، وأنهم يرتكبون الخطأ نفسه باستمرار ، وانهم ليسوا على مستوى الطيارين الاسرائيليين. وسيشعر طيارونا، بطبيعة الحال، بالقلق لهذا الحادث لأنهم كانوا دائماً يرجعون سبب الكثير من الاخطاء التى يقعون فيها الى الطائرات التى يطيرون فيها. اما الان فان السلاح الجوى المصرى سيجد مبرراته، لأنه يعرف ان الروس أنفسهم حصلوا فى نهاية الامر على البرهان «على أن الميج» ليست على مستوى «الفانتوم». ولم ينشر فى مصر شىء عن الخسائر السوفييتية فى ذلك الوقت، كما أن الاسرائيليين كانوا ماكرين بصددها. صحيح انهم ابلغوا الامريكيين الحادث ، لكنهم لم ينشروا نبأ حتى يتجنبوا احراج السوفييت بطريقة قد تدفعهم الى تصعيد الموقف. أما السوفييت فقد تعلموا الدرس أيضاً، وقدموا الى مصر الطراز المعدل من «الميج ٢١» .

وعلى أية حال فان كل هذه المسائل الخاصة بخبراء بطاريات الصواريخ وبدفع ثمن الطائرات كانت موضع كثير من المفاوضات التى اشترك فيها كل من الرئيس السادات وبريجنيف. وقد طلب الرئيس فى احدى المرات الى مراد غالب - وكان وقتها وزيراً للخارجية - وحافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الامن القومى أن يعدا مذكرة بالموقف كله بين مصر والاتحاد السوفييتى، وأبلغ السفير السوفييتى أن يتوقع تسلم هذه المذكرة، لكن السفير توجه فى المساء لمقابلة الرئيس وسلمه رسالة تقول: «ان الرفيق بريجنيف ممتن للشرح الذى قدمته اليه، ويرى انه ليس ثمة داع لتحليل مكتوب للخلافات بيننا، ويشعر أن مثل هذا التحليل لن يفيد احداً».. وهدأت الازمة مؤقتاً.

ولكن كانت هناك ملحوظة عجيبة متصلة بالموقف. فقد وصل المارشال جريتشكو الى القاهرة بعد ذلك بفترة قصيرة، ووصلت الى مصر أيضاً ٤ طائرات للاستطلاع من طراز «ميج ٢٣» (× ٥٠٠ س)، ودعى الرئيس السادات ليشهد مناوراتها فى مطار غرب القاهرة. واقترح الماريشال جريتشكو أن يصدر بيان الى الصحف يقول ان الطيارين المصريين اتموا تجاربهم على التحليق فى طائرات تبلغ سرعتها ثلاثة امثال سرعة الصوت، وأن الرئيس السادات شاهدهم يقومون بتجاربهم. وقال أن مثل هذا البيان سيعطى الانطباع أن مصر تسلمت «الميج ٢٥». وعلى رغم أن ذلك لم يكن صحيحاً فان الرئيس السادات كان مستعداً للموافقة عليه لأنه تصور أن فيه ما يلزم السوفييت بتزويد مصر بها. وهكذا.. فما أن أعرب الرئيس عن موافقته حتى أخرج فينوجرادوف مشروع بيان من جيبه صادر باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى. ولم أكن أنا سعيداً بهذا البيان لأنى أحسست بأنه يضع السلاح الجوى المصرى فى موقف محرج، اذ أن العالم العربى سيستنتج منه أن مصر حصلت بالفعل على هذا الطراز الحديث جداً من الطائرات، وسيساوره العجب لأنها لم تظهر أشارة الاستفادة به.

وكان الاميرال جورشيكوف قد حضر الى مصر أيضاً مع الماريشال جريتشكو، وأثار من جديد فكرة منح الاسطول السوفييتى «تسهيلات» فى مرسى مطروح وبرنيس على البحر الاحمر. وكان الجيش والبحرية المصرية يعارضان الفكرة، لكن الاميرال جورشيكوف بدا مصراً عليها زاعماً أنها لا تساعد على تمكين الاسطول السوفييتى من أن يعمل بصورة أفضل وحسب، أنما ستتيح لمصر الحصول على معلومات استطلاع أحسن بكثير. وكنت شخصياً امقت الاقتراح، وقلت للرئيس السادات أن من رأيى أنه يربط مصر أرتباطاً عميقاً بالاستراتيجية البحرية للاتحاد السوفييتى. وكانت تلك هى الفترة التى بدأت فيها سلسلة مقالاتى فى «الاهرام» بعنوان: حالة «اللاسلم.. واللاحرب»، والتى قلت فيها أن

الاتحاد السوفييتى قد تكون له مصلحة فى أستمرار موقف اللاسلم . . واللاحرب .

ولقد كان رأيى دائما أن السياسة السوفييتية وجهين: فالاتحاد السوفييتى باعتباره دولة عظمى لابد أن يفكر ضمن اطار عالمى. وهذا الاطار يتعارض فى بعض الاحيان مع دوره كمعين وحام لدول كمصر تجتاز مرحلة الثورة الوطنية. وأنا أجمل أعظم التقدير لما قدمه الاتحاد السوفييتى الى مصر وبرهن فيه على أنه أهم صديق تعتمد عليه. وليست هناك دولة أخرى العالم كان فى مقدورها أن تقدم الى مصر ما يمكن أن يقترب مما قدمه اليها الاتحاد السوفييتى خلال السنوات التى كان فيها نظامها الاجتماعى والاقتصادى يجتاز مرحلة التحول. وقد أفادت مصر من هذه العلاقة فائدة كبرى فى ميادين عدة: النظام السوفييتى السياسى، والتجارة، والتصنيع، وامدادات السلاح وغيرها. وكان النظام السياسى المصرى اقرب بكثير الى النظام السوفييتى منه الى النظام الامريكى . لكن الحقيقة تبقى . . وهى أن الاتحاد السوفييتى مهتم أشد الاهتمام بالوفاق وبتطوير استراتيجيته البحرية. وهو لاشك يريد حلاً لمشكلة الشرق الاوسط يرضى الامانى العربية، لكنه شديد الحرص على أن لايحدث ما يجر الى مواجهة بين القوتين العظميين .

ونحو ذلك الوقت تقريباً أجرى أختبار فى عقل اليكترونى لتقدير درجة افادة مختلف الدول من حالة اللاسلم واللاحرب القائمة. واعطيت للعقل الاليكترونى كل المعلومات ذات الأهمية، وكانت النتيجة : ٤٢٠ نقطة لأسرائيل، و٣٨٠ نقطة للولايات المتحدة، و١١٠ نقط للاتحاد السوفييتى.

الجزء التاسع

الانفصال

يمكن أن يتضح لنا الآن كيف تصاعد الموقف حتى بلغ الذروة فى يوم ٦ يوليو (تموز) حين اصدر الرئيس السادات أمر سحب الفنيين السوفييت من مصر. وقد أرى من الضرورى أن نعود الى الوراء قليلاً قبل أن نصف هذا الحادث بالتفصيل .

كانت سياسة عبد الناصر تجاه الاتحاد السوفييتى بعد هزيمة ١٩٦٧، سياسة مركبة. فقد كان يرى إن الدولتين العظميين تتجهان نحو الوفاق، وكان يشعر بأن حكومة الرئيس الامريكى جونسون غير متعاطفة مع العرب بوجه عام ومعه هو نفسه بوجه خاص، ومن هنا كان مصمماً على أن يشترك الاتحاد السوفييتى الى أعمق حد يقدر عليه فى أزمة الشرق الأوسط. كان يريدهم أن يشعروا بأن هزيمته كانت هزيمة لهم، وكان

يعمل فى دفعهم لأن يكونوا السباقين فى بذل الجهود الديبلوماسية للتغلب على الآثار المدمرة التى خلفتها الهزيمة. وكان يفضل عندما يكون لدى مصر أى اقتراح تتقدم به، الا يتم تقديمه عن طريق محمود رياض أو أى ممثل آخر لها، بل كان يفضل أن يمرره للسوفييت ليقدموه الى بارنج أو الى واشنطن. وكان يرى أنه اذا كان فى الامكان الوصول الى تسوية سلمية مرضية بمساعدة من السوفييت فخير وبركة، أما اذ لم يكن الوصول الى مثل هذه التسوية ـ وهو الارجح ـ فان الاتحاد السوفييتى سيكون عندئذ مضطراً الى أن يقدم اليه العون المادى الذى يحتاج اليه. وكانت غايته كلها أن يرتفع بنزاع الشرق الأوسط من المستوى المحلى الى المستوى الدولى، لأن اسرائيل اثبتت تفوقها ـ الموقت ـ فى المستوى المحلى ، أما فى المستوى الدولى فقد تتاح الفرصة لأن تتساوى الكفتان فى الميزان .

وكنت فى ذلك الوقت أكتب مقالات أقول فيها أن فى الشرق الأوسط قوتين محليتين لاتستطيعان صنع السلام، وقوتين عظميين لاتستطيعان خوض الحرب. وكانت لهذه السياسة بطبيعة الحال أخطار واضحة: فمن الجائز فى المناورات بين الدولتين العظميين الا يلتفت أحد الى الخطأ والصواب فى صراع الشرق الأوسط . وقد يترتب على خطورة أزمة الشرق الأوسط أن تسارع الى تحقيق الوفاق بينهما. وكان عبد الناصر دائماً مصمماً على أن يستغل الوفاق لصالح مصر، ولايسمح للوفاق بأن يستغله . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية كان لابد له من الحركة والمرونه.

وهكذا ابقى باب الاختيار مفتوحاً ، ولاسيما مع امريكا. وجاءت البادرة الاولى فى البرقية التى بعث بها الى نيكسون فى العام ١٩٦٨ يهنئه فيها بانتخابه رئيساً . ثم وافق على استقبال ويليام سكرانتون مبعوث نيكسون الشخصى الى الشرق الأوسط، حتى قبل ان يدخل نيكسون البيت الأبيض!. وبعدها أوفد الدكتور محمود فوزى مساعد الرئيس للشؤون الخارجية الى واشنطن للاشتراك فى تشييع جنازة الرئيس ايزنهاور، مما أتاح له فرصة الحديث مع نيكسون وروجرز وغيرهما. ثم جاءت بعد ذلك موافقة عبد الناصر على مبادرة روجرز، ومحادثاته مع سيسكو، الخ . وكان كذلك مستعداً لأن يقيم علاقات أفضل مع أوروبا الغربية، وخاصة مع فرنسا وبريطانيا والمانيا الغربية، ومع دول عدم الانحياز .

وفى كل مرحلة فى هذه المراحل كان عبد الناصر حريصاً على أن يرسم فى معاملاته مع السوفييت خطاً يبقى على اشتراكهم فى الازمة ، لكنه لا يتيح لهم فرصة السيطرة. وهكذا ، فانه عندما شرح له بودجورنى الاهمية الكبرى لحصول الاسطول السوفييتى الخامس فى البحر الابيض المتوسط على مكان يأخذ فيه حاجته من الماء (بدلاً من أن يأخذها من اوديسا)

ويستطيع فيه البحارة أن يستمتعوا بأجازاتهم على الشاطىء، اظهر عبد الناصر استعداده التام لمنحهم هذه التسهيلات فى الاسكندرية وبور سعيد ومرسى مطروح، لكنهم عندما طلبوا اعداد اماكن لأسر البحارة فى مرسى مطروح وبرنيس يتولى حراستها بحارة سوفييت ، مع منح أى وحدة من وحدات الاسطول السوفييتى الحق فى دخول أى ميناء مصرى من دون سابق أشعار، فان عبد الناصر رفض بكل شدة. كذلك كان موقفه بالنسبة الى السلاح الجوى السوفييتى . لقد كان السوفييت يريدون أن يكون لطائراتهم حق الهبوط والتحليق الدائمين ، وحق استخدام المطارات المصرية بأشعار لاتزيد مدته عن بضع ساعات قليلة . ورفض ذلك أيضاً وأصر على أن تتم كل حالة من هذه الحالات بأشعار تام يقدم قبلها فى وقت كاف. وكان حبلا رفيعاً وصعبا ، ذاك الذى سار عليه عبد الناصر، لكنه مع ذلك استطاع أن يمشى عليه .

وواصل الرئيس السادات السير على سياسة الرئيس عبد الناصر. فقد وقف موقفاً حازماً ضد اولئك الذين كانوا ـ حتى فى ذلك الوقت ـ يقولون أن السوفييت حققوا لأنفسهم مركز سيطرة متقدما جداً فى حياة البلاد. بل لعل الرئيس فى الحقيقة غالى فى بعض نواحى ذلك الاتجاه . وعلى سبيل المثال فان السوفييت كانوا تولوا الاشراف الكامل على مطار غرب القاهرة بعدما تولى السادات رئاسة الجمهورية، حتى أنه لم يكن فى المطار مسؤول واحد من الجمارك المصرية. وكانت الطائرات السوفييتية تهبط فى المطار وتحلق منه كما يحلو لها. ولم يكن فى هذا ما يرضى احدا. بل أن البعض ذهبوا بالوهم الى حد تصور أن يكرر السوفييت ، فى حالة نشوب أى أحتكاك ، الاسلوب الذى اتبعوه فى تشيكوسلوفاكيا. فقد كان لديهم خبراؤهم. ومطارهم، وفى استطاعتهم أن ينقلوا الى مصر أى عدد يريدونه من قواتهم. وكانت هناك قصص كثيرة تروى عن صناديق ضخمة تنزلها الطائرات السوفييتية فى مطار غرب القاهرة، ورددت الشائعات أنها مملوءة بالأسلحة لجهات غير معلومة، وأن كانت مشبوهة. وكان الجزء الاكبر من ذلك حملة نفسية ضد العلاقات المصرية ـ السوفييتية .

وفى الجانب السوفييتى كانت الشكوك فى الرئيس السادات تتزايد. فقد كانت هناك الملاحظات التى سبقت الاشارة اليها حول ما قاله الرئيس لكمال أدهم والتى سربها الامريكيون الى السوفييت . وكان هناك ما ابلغهم به البعض عن مناقشة دارت فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى فى العام ١٩٧١ وقال فيها الرئيس ردا على أسئلة بشأن الخبراء السوفييت : « اتظنون انى اريد أن ابقيهم؟.. أننا محتاجون اليهم للدفاع عنا فى العمق، لكنهم عبء علينا، لأننا مضطرون الى أن ندفع مرتباتهم بالعملة الصعبة». وقد تضايق بريجنيف الى أبعد الحدود

حين سمع بذلك، وبعث الى الرئيس السادات برسالة فيها عما اذا كان يعتبر الخبراء السوفييت مرتزقة .

وفوق ذلك كله، فقد كان هناك الجدل حول امدادات السلاح التى كانت الغرض الاول من الزيارات الاربع التى قام بها الرئيس السادات لموسكو فى المدة منذ أن تولى الرئاسة حتى شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٢ . وفى تصورى أن الجانبين كانا على خطأ. فقد كانت طلبات المصريين تتغير بصورة مستمرة، كما كانت فى بعض الأحيان مبالغاً فيها. ذلك أنه كانت لدى مصر ـ شأنها فى ذلك شأن الكثير من الدول النامية ـ فكرة مبالغ فيها عن القدرة الانتاجية للدول العظمى، وتفترض أنه حتى أكثر الاسلحة تعقيداً متوافر لدى تلك الدول بصورة دائمة وجاهز للتسليم تحت الطلب لكننا ، حتى اذا افترضنا أن الانتاج السنوى للاتحاد السوفييتى من الدبابات ضعف انتاج الولايات المتحدة منها (ولنقل ٧٢٠ دبابة مثلا) فقد كان هناك دائما اتجاه لنسيان أن الاتحاد السوفييتى لم يكن يزود بها حلفاؤه فى حلف وارسو وحسب ، وانما كان يزود بها ثمانى أو تسع دول أخرى فى العالم العربى أضافة الى مصر . . ناهيك عما كان يزود، به الهند أو فيتنام الشمالية. وبالنسبة الى الطائرات ، فان الضربة الوقائية الناجحة التى وجهتها اسرائيل فى ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ كانت مسيطرة على مصر على درجة جعلت التفكير كله منصبا على الطريقة التى يمكن بها تحقيق قدر من التفوق يمكنها بدورها من تحييد كل القواعد الجوية الاسرائيلية. وكان مما عقد التخطيط المصرى ذلك المزيج من الشعور باليأس والشعور بالامل نتيجة القرار بالغاء مشروع الهجوم، والتخطيط له قائم . لقد كانت مصر نافذة الصبر، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أصبحت مستعدة لقبول فكرة الهجوم المحدود الذى يستهدف أساسا فتح الطريق للاحتمالات السياسية .

ومن ناحية أخرى ، كان السوفييت فى بعض الاحيان أبعد ما يكونون عن فهم أسلوب التعامل الذى يستطيع تحقيق نتائج مرضية ومريحة. كانوا يردون بـ «نعم» أوبـ «لا» قاطعة وصريحة على طلبات الاسلحة من دون أبداء أيه أسباب. وكان التأخير بالنسبة الى بعض طلبات شحنات الاسلحة فى العام ١٩٧١ صعب التفسير ولا سيما للعسكريين. وفى أواخر تلك السنة كانت الهند قد وضعت على رأس قائمة الاولويات بالنسبة الى الامدادات السوفيتية بسبب حربها مع باكستان ، وقد سمح بأرسال بعض هذه الامدادات المطلوبة على عجل قبل بدء المعارك عبر مصر.

وكان من عادة أحد القادة العسكريين المصريين أن يردد فى ذلك الوقت المثل العربى: «الماء لايمر على العطشان». وكان هناك كذلك الخوف لدى الجانب السوفييتى من أن تندفع مصر الى مغامرة عسكرية متهورة فى محاولة لتنفيذ شعار «سنة الحسم». وكانت هناك غمزة أخرى من الجانب

السوفييتي لمصر عندما كان الرئيس السادات في زيارة لموسكو في شهر أبريل (نيسان) من العام ١٩٧٢ حين القى عليه الماريشال جريتشكو محاضرة عن المتطلبات الثلاثة الاساسية لخوض حرب ناجحة وهي : أسلحة الحرب ، والتدريب ، وارادة القتال . وقال: «أن المطلبين الاول والثاني متوافران لديكم . . أما المطلب الثالث فلكم أن تستشيروا ضميركم بشأنه». وكان من الطبيعي أن يعتبر الرئيس السادات هذا الكلام غير مقبول .

وكان هناك نقد مغلف آخر من الجانب السوفييتي خاص بالحالة السائدة في مصر . وكان مبعثه مرة ثانية الماريشال جريتشكو، وذلك عندما نقل (وكان في زيارة لمصر في مايو (ايار) ١٩٧٢) عن أحد الخبراء السوفييت الذين يعملون على أحدى قواعد الصواريخ قرب الاسكندرية مقارنته لحالة التقشف المطبقة تماما في قاعدته بالانوار الساطعة وبما كان يراه بين الحين والحين، عندما كان يزور الاسكندرية في أجازة ، من مظاهر الحياة الطبيعية الواضحة التي تعيشها الاسكندرية . وكان جريتشكو يرى ضرورة أن يعيش الشعب المصري بصورة دائمة في جو حالة الحرب، في حين كانت وجهة نظر المسؤولين في مصر أن محاولة فرض جو الحرب على البلاد بصورة دائمة، من دون أن يكون هناك قتال دائر بالفعل ، لابد أن يؤدي الى انفجار . وفي أكثر من مناسبة قال الرئيس السادات للسوفييت :«انتم لاتفهمون طبيعة شعبنا، وتشعرون بالقلق بالنسبة الى تعبئته، لكنني استطيع أن اؤكد لكم أن الطلقة الأولى ستعبيء كل فرد من افراد الشعب لمجرد أن تطلق ، كما لايمكن أن يعبئه شيء اخر ».

وكان اقتراب موعد الذكرى الخامسة لحرب العام ١٩٦٧ عاملاً آخر من عوامل التوتر المتزايد. ذلك أن الشعور بأنه بعد ٥ يونيو (حزيران) ستبدأ سنة جديدة ، من دون البدء في عمل لأزالة آثار الهزيمة، بينما العدو يمضي يوميا في تعزيز قبضته على الأراضي التي سرقها من العرب، كان له تأثير عميق على الشعب . وعززت هذا الشعور معرفته بأن نيكسون سيزور موسكو في مايو (ايار) ، ثم ما يستتبع ذلك ـ والاستعدادات للانتخابات الامريكية تجرى على قدم وساق ـ من حصول اسرائيل كالعادة على ما تشاء من وعود من المرشحين، في حين توضع مشكلة الشرق الأوسط كلها ـ ديبلوماسيا ـ في الثلاجة الى حين تولي الحكومة الجديدة مقاليد الحكم .

وفي ١٢ أبريل (نيسان) بعث الرئيس السادات برسالة الى بريجنيف، كان الغرض منها أن يسجل تقييمه للموقف كتابة قبل أن يبدأ زيارته المقررة لموسكو يوم ٢٧ . وضمن الرئيس رسالته تحذيرات بشأن ما هو متوقع من الزيارة المقبلة التي سيقوم بها نيكسون لموسكو، وقال :«أن

أى سياسة أمريكية جديدة ستكون موجهة بالقطع ضد مصالحنا ». اتهم السوفييت بانهم لم يكونوا على قدر من النشاط فى تأييد اصدقائهم، كما كانت أمريكا فى تأييدها لأسرائيل. كما اثار لأول مرة مسألة تدفق المهاجرين من اليهود السوفييت الى اسرائيل. وقال: «أن بعض هؤلاء هم من الشباب ، ومن المثقفين والعلماء الذين سيكونون اداة عون مادى كبير لأسرائيل ». وذكر بريجنيف فى ختام رسالته، بأن مصر ستحتفل بعد سبعة اسابيع بالذكرى العشرين للثورة المصرية وأن «الفترة الخطرة المقبلة لن تضعف من تصميمنا على استعادة حقوقنا ورفضنا التفاوض مع اسرائيل ».

وعندما كان جريتشكو فى زيارة للقاهرة فى اوائل مايو (ايار) اتفق على أن يقوم الفريق محمد أحمد صادق وزير الحربية بزيارة لموسكو وكان السوفييت مهتمين باستقباله بوجه خاص ، لأنهم كانوا يشعرون بأنه مسؤول الى حد كبير عن الخط المعادى للسوفييت (هكذا كانوا يرونه) الذى اتخذته القوات المسلحة بالنسبة الى موضوع تهريب الذهب، ورفض منح السوفييت قواعد فى مرسى مطروح وبرنيس. وكانوا يعتقدون أنه يكتسب شعبيته فى القوات المسلحة بالسمعة التى عرفت عنه بالنسبة الى وقوفه فى وجههم . وهكذا، فانه عندما وصل الى موسكو أعد له نوع الاستقبال الذى يستقبل به رؤساء الدول لا وزراء الحربية وكان الرئيس السادات حمله رسالة تعريف به لبريجنيف (موقعة بتاريخ ٧) ضمنها شكر بريجنيف لدفاعه عن موقف مصر فى محادثاته الاخيرة مع الرئيس نيكسون . وقال فى الرسالة أيضاً: «لكننا لاحظنا أن هناك بيانات علنية صدرت عن بعض كبار الامريكيين بعد تلك المحادثات تضمنت وجهات نظر تتعارض مع المبادىء التى ذكرها البلاغ المشترك الذى صدر عقب محادثات موسكو». وكرر الرئيس ايمانه بأنه «لايمكن الوصول الى حل سياسى الا اذا استمر الضغط على الولايات المتحدة واسرائيل ، والا اذا أجبرت اسرائيل على أن تفهم أن ميزان القوى العسكرية ليس فى صالحها ». كذلك فقد أكد الرئيس فى رسالته مرة أخرى الحاجة الى التنفيذ العاجل للبرامج المتفق عليها بشأن امدادات السلاح والتدريب .

وعندما عاد الفريق صادق من موسكو قدم الى الرئيس يوم ١٥ يونيو (حزيران) تقريراً عن محادثاته هناك. ولن يعرف أحد على وجه الاطلاق حقيقة ما دار فى ذهن الرئيس فى الفترة منذ ذلك اليوم الى يوم ٦ يوليو (تموز) عندما اصدر قرار سحب الخبراء السوفييت ، الا اذا قرر هو نفسه أن يزيح عنه الستار. وكان يتحدث الى بعد بضعة أيام من اصدار القرار، عندما قال أنه لم يكن سعيداً طوال الشهر الماضى، وأن ثمة شيئاً كان يختمر فى ذهنه، لكنه لم يكن يعرف كنهه على وجه اليقين. ولقد درست

كل الوثائق المتصلة بالموضوع وتحدثت مع معظم الاشخاص المتصلين به اتصالا وثيقاً ، لكنى مع ذلك وجدت نفسى لا أزال عاجزاً عن معرفة السبب بالضبط الذى ضغط على الزناد فاطلق قرار الرئيس .

وكان الدكتور محمود فوزى أول من عرف بالقرار ، وذلك يوم الخميس ٦ يوليو (تموز). فقد زاره الرئيس فى مزرعته فى البدرشين فى ذلك اليوم ليقدم اليه العزاء (وكان نائبا للرئيس) فى وفاة أحد أقربائه، وقال له بطريقة عابرة تقريبا أنه يفكر فى أن يطلب الى الاتحاد السوفييتى سحب خبرائه العسكريين من مصر لأنهم اصبحوا عبئاً عليها، وقال: «وبعد ذلك نستطيع أن نبدأ معهم مفاوضات طازجة بموجب شروط معاهدتنا معهم » .

وكان الرجل الثانى الذى ابلغ بالقرار هو الفريق صادق. وذلك فى يوم الجمعة ٧ يوليو (تموز). كان الفريق صادق فى منزله يستعد للخروج لتأدية صلاة الجمعة، وبعدها لموعد لتناول طعام الغداء مع الامير سلطان وزير الدفاع السعودى الذى توقف فى القاهرة فى اثناء عودته من رحلة الى واشنطن حاملاً معه أحدث تقييم للموقف هناك. ورن جرس التلفون وسمع الفريق صوت الرئيس على الخط يقول :«تعال صل معى . . أنا فى القناطر ». وأتصل الفريق صادق بالأمير سلطان معتذراً عن موعده معه، وتوجه الى القناطر . وفى أثناء عودتهما من المسجد قال له الرئيس: «سأقول لك شيئاً يجعل وجهك كله يبتسم . . لقد قررت أن اطلب الى الروس أن يخرجوا ». وتولت الفريق صادق دهشة لها ما يبررها ، وحاول أن يناقش الموضوع لكنه تبين أن الرئيس كان متصلبا .

وكان الشخص الثالث الذى ابلغ القرار هو السفير السوفييتى فلاديمير فينوجرادوف . وكان الرئيس طلب منه قبل بضعة أيام أن يقدم اليه تقريراً أوفى عن حقيقة ما دار فى محادثات القمة فى موسكو مع الرئيس نيكسون . ومساء يوم السبت ٨ يوليو (تموز) توجه فينوجرادوف الى مقر الرئاسة ليسلم رسالة من بريجنيف . ولم يحضر مقابلته مع الرئيس سوى حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الامن القومى. وطبقاً لما رواه الرئيس ، فان حافظ اسماعيل فتح فمه دهشة عندما سمع القرار، وظل فمه مفتوحاً طوال المقابلة. وكان من بين ما تضمنته رسالة بريجنيف أن السوفييت بذلوا ما فى وسعهم لعرض وجهة النظر المصرية على الرئيس نيكسون ، لكن القلق يساورهم بسبب ما يتلقونه من تقارير عن الاكاذيب التى تنشر ضد الاتحاد السوفييتى من جانب «عناصر معينة فى مصر» . وقالت الرسالة أنه فى حين أن الاتحاد السوفييتى سيواصل تأييده العسكرى لمصر، فأن من المهم أن ترتفع الروح المعنوية السياسية للقوات المسلحة «لشحنها بالشجاعة والتصميم واليقظة، وتوجيهها فى الصراع ضد الامبريالية والصهيونية ». وكانت النقطة الاخيرة فى رسالة

بريجنيف اعـرابه عن سروره بالاجراءات التى اتخذت «لعزل القوى الرجعية واليمينية فى مصر». وربما كانت هذه اشارة غير مباشرة «للاهرام» ففى الوقت الذى كنت انشر فيه مقالاتى عن «اللاسلم واللاحرب» واهاجم فيها رضوخنا التام لهذه الحالة، وأكشف النقاب عن المستفيدين منها (وكان الاتحاد السوفييتى فى تحليلى، من بين هؤلاء المستفيدين، ولو عن غير قصد). فاننا عقدنا ندوة فى «الاهرام» لمناقشة هذا الموضوع، وكان من بين من اشتركوا فيها اسماعيل فهمى وكيل وزارة الخارجية فى ذلك الوقت، وقد فصل من منصبه بسبب بعض الافكار التى عرضها فى تلك المناقشة.

وما أن انتهت تلاوة الرسالة حتى بدأ الرئيس يرد عليها. قال لفينوجرادوف أنه يجد نفسه مرة أخرى مضطراً الى الشكوى من عدم ارسال الاسلحة. فقد سبق الاتفاق على جدول زمنى للامدادات مع الماريشال جريتشكو، لكنه لم ينفذ. « ويبدو أن الاتحاد السوفييتى لايثق فى القيادة المصرية، ولايستطيع أن يقدر أخطار الموقف. فى حين أن مصر حريصة على الاحتفاظ بصداقة الاتحاد السوفييتى فانها لاتستطيع أن تخضع لوصاية أحد عليها، بما فى ذلك الاتحاد السوفييتى.

ثم قال لفينوجرادوف: «لذلك، فاننى اتخذت القرارات التالية: ١- أننى اشكر الاتحاد السوفييتى على كل ما قدم من عون الى مصر عن طريق خبرائه، لكننى اريد الآن وقف خدمات هؤلاء الخبراء اعتباراً من يوم ١٧ يوليو (تموز). ٢ - ان الاسلحة السوفييتية الموجودة فى مصر يجب أما أن تباع لمصر وأما أن يتدرب المصريون على استخدامها وأما أن تسحب. ٣ - أن أى قوات سوفييتية تبقى فى مصر يجب أن توضع تحت القيادة المصرية أو تسحب. ٤ - أنه بموجب نصوص معاهدة الصداقة السوفييتية - المصرية، يجب أن تبدأ بيننا على الفور مشاورات على مستوى عال. ٥ - أن الفنيين الموجودين فى مصر لأغراض التدريب والذين جاؤوا قبل وصول المجموعة الرئيسية من الخبراء، يمكن أن يبقوا».

وطبقا لمحضر المقابلة الذى سجله حافظ اسماعيل، فان رد فينوجرادوف على هذه الرسالة شمل أربع نقاط. قال: ١ - أن رسالة بريجنيف الى الرئيس يجب أن تعتبر رسالة موقتة فقط. ٢ - أن الاتحاد السوفييتى يثق ثقة كاملة فى القيادة المصرية. ٣ - أنه يعترف بأنه كانت هناك مشاكل متصلة بإرسال الاسلحة، لكنها نشأت عن مصاعب فى النقل. ٤ - أن القرارات التى أبلغه أياها الرئيس الآن يفهم منها أن مصر صدقت المزاعم التى نشرها الامريكيون عن أن الاتحاد السوفييتى غير سياسته تجاه مصر.

وبعد ستة أيام سافر الدكتور عزيز صدقى الى موسكو موفدا فى

محاولة للتخفيف من أثر الصدمة على السوفييت، ولمحاولة أقناع المسؤولين هناك بأن تتم عملية سحب الخبراء باتفاق مشترك. وقال لى أنه شعر بالحرج للاشاعات التى تتردد بأن الغرض من رحلته هو اعداد الترتيبات لعودة الخبراء العسكريين، بينما الحقيقة أن الرحلة تستهدف غرضين: أحدهما تخفيف الجراح لدى السوفييت، والثانى محاولة اتخاذ الترتيبات اللازمة لشراء بعض المعدات التى تركها السوفييت فى مصر، ولاسيما طائرات الاستطلاع الاربع من طراز(× ٥٠٠ س) ووحدات صواريخ الدفاع عن السد العالى . وقال أنه اقتراح على بريجنيف ـ كوسيلة لتخفيف الجراح ـ أن يصدر بلاغ مشترك يتضمن أن المهمة التى عهد بها الى الخبراء السوفييت فى مصر قد تمت . وقال أن فى مثل هذه الاشارة رداً على مانشرته صحف الغرب من أن الخبراء قد طردوا. لكن بريجنيف رفض . وكتب مذكرة قال فيها:« انكم انتم الذين طلبتم الخبراء ، فاذا كنتم تريدونهم أن يرحلوا فذلك قراركم، ونحن نستجيب له، لكننا لن نكون ابدا طرفا فى قصة يقصد بها التغطية ، ولن نتحمل المسؤولية أمام التاريخ، بأن نقول أنهم يسحبون بناء على طلبنا». كذلك فإن بريجنيف رفض أن يبيعنا أيا من المعدات التى طلبنا شراءها . وقد سلم كوسيجين الى عزيز صدقى المذكرة التى كتبها بريجنيف ، كما كتب هو نفسه رسالة يؤكد فيها رفض بيع تلك المعدات. وكان رأى الرئيس أن «السوفييت مجانين اذ يرفضون أقتراحنا باصدار البلاغ» .

ولم أقابل الرئيس أنا نفسى الا يوم الثلاثاء ١١ يوليو (تموز)، وكانت الاوامر بسحب الخبراء لاتزال سرا مكتوما. وكنت فى الاسكندرية فى ذلك الوقت، وقد اتصل الرئيس بى ليطلب أن أتناول معه طعام العشاء فى القناطر يوم الاحد. لكن الرئيس السورى حافظ الاسد مر يومها بالقاهرة فى طريق عودته ألى بلاده من موسكو واخذ موعدى. ولم يتيسر ترتيب موعد آخر ليوم الاثنين . وعندما التقينا بدأت كلامى بالاعراب عن خشيتى من أن أسبب له الكثير من الحرج بسبب مقالاتى عن «اللا سلم واللا حرب» وكان رده : «يبدو أنك لاتعرف مايحدث . لقد قطعنا مع السوفييت». وشعرت بالذهول . صحيح أنى ربما كنت أشعر بأن مثل هذا القرار ممكن، لكن توقيته هو المثير للدهشة .

ويمكن ، الى حد ما، تقديم شرح أوفى لما أدى الى هذا القرار فى ما قاله الرئيس نفسه فى اجتماع خاص لمجموعة صغيرة من الصحافيين المصريين كنت من بين من حضروه. قال الرئيس فى ذلك الاجتماع أنه كان فى شهر ديسمبر (كانون الاول)، ١٩٧١ قد اتخذ قرارا أنه لابد ـ مما سماه ـ من «وقفة» فى علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتى، وأن ننتظر الى ما بعد الزيارة التى كان من المقرر أن يقوم بها الرئيس نيكسون الى موسكو فى مايو (ايار). وقال:«لكننا بعد ذلك لابد من أن نتخذ موقفا

حازماً . والا فأن الموقف سيستمر على ما هو عليه الآن لمدة عشرين سنة ». وعرض الرئيس بعد ذلك كل خطوات تعامله مع السوفييت منذ أن تولى الرئاسة ، وشرح كيف أن بدور الشك قد ظهرت فى شهر يناير (كانون الثانى) ١٩٧١ حين ذهب «المتآمرون» - جماعة على صبرى - الى السفير السوفييتى وقالوا له أن أنور السادات أمريكى، وسيطردكم فى أيه لحظة. وتحدث عن أول لقاء له مع الزعماء السوفييت فى شهر فبراير (شباط) من العام ١٩٧١ ، «وقد أحسست يومئذ بأنهم مراوغون . . يريدون كسب الوقت»، وعن محادثاته مع روجرز، قال: «أن الاتحاد السوفييتى يحيرنى: أنهم يطلبون منى أن أجد حلا سلميا . . ويأتى روجرز وتدور بيننا محادثات حول حل سلمى . . فيقولون أن السادات باع بلده»الخ . . . لكن الخط الرئيسى فى تحليل الرئيس تركز على المراوغة والتأخير فى أرسال الأسلحة اللذين تعرض لهما بصورة مستمرة، كما تضمن شرحا للكثير من التفصيلات عن التواريخ والارقام، ووصفا بيانيا للاحداث التى ادت الى المواجهة . قال أنه شرح للسوفييت قبل زيارة نيكسون لموسكو الاهمية التى يعلقها على الفترة ما بين تلك الزيارة وانتخابات الرئاسة فى نوفمبر (تشرين الثانى) . . «أنها خمسة أشهر . . . يجب الا نضيع أيا منها».
وذكر أنه قال للماريشال جريتشكو: «انتم تريدون أن يعاد انتخاب نيكسون، وأنا مثلكم أريد ذلك، لأن فوز ديمقراطى بالرئاسة سيكون أسوأ بالنسبة الي كما هو اسوأ بالنسبة اليكم. أنه أهون الشرين. لكن الأمر المهم هو أن تكون لدى قوة تساندنى بعد إنتهاء الانتخابات لأنى ما لم أظهر أنى أملك قوة تساندنى فإن الموقف لن يتغير ابداً». قال جريتشكو أنه سيبلغ الرسالة . ثم تم اجتماع نيكسون وبريجنيف، ولم تأت كلمة عما حدث فيه. كنت أجلس هنا فى مصر أعد الساعات ، وأعد الايام لما لها من أهمية لدينا وبعد خمسة عشر يوما وصل التقرير السوفييتي عن الاجتماع وكان في صفحتين أثنين الاولى مليئة بالكلمات والعبارات الغامضة . . «ربما. . . اذا. . . »، والثانية تقول أنه لم يكن هناك تغير فى موقف الامبرياليين والصهيونيين، لكن المسؤولين السوفييت تمكنوا من اقناع الامريكيين بأن يتضمن البلاغ أشارة الى القرار الرقم ٢٤٢ ».
وقال الرئيس السادات أنه بعث برد على هذه الرسالة وراح ينتظر رسالة أخرى من موسكو . ومر أسبوعان وثلاثة أسابيع . «وكنت أعرف منذ أيام عملى مع الرئيس عبد الناصر أن كل المراسلات مع الزعماء السوفييت تتوقف ابتداء من أخر يوليو (تموز) لأنهم كلهم يقومون بالاجازة طوال شهر أغسطس (آب). ولكنى مع ذلك . . تلقيت فى يوم الخميس ٦ يوليو (تموز) طلبا من السفير السوفييتى بمقابلتى».
وعندئذ قدم الينا تصوره عن اللقاء المصيرى ، وكنت متوتراً الى درجة

لم أشأ فيها مقابلة السفير. وقلت: « فليأت لمقابلتي يوم السبت». وذهبت الى القناطر . وكان فى مقدورى أن أخمن ما ستتضمنه محتويات الرسالة، ووضعت خطة الموقف الذى سأتخذه لاضعهم فى مكانهم. لقد أحسست أنهم بحاجة الى صدمة كهربائية. لقد قضينا ـ عبد الناصر اولا ثم أنا ـ أربع سنوات تحملنا منهم خلالها ما تحملنا. وكان من الواضح بالنسبة الى أن الدولتين العظميين أتفقتا فى موسكو على الا تكون هناك حرب فى منطقة الشرق الاوسط، وعلى الا يكون أمامنا شيء اخر غير الاستسلام. لكنى قلت لنفسى : ومع ذلك . . لربما كان هناك شيء فى رسالة السفير. لعل فيها ما يعرضه ، وأن كنت فى الحقيقة أشك فى ذلك . وعلى أيه حال . . فليأت السفير لمقابلتى فى الثامنة مساء. وكانت الرسالة فى صفحتين ونصف صفحة، ومرفقة بترجمة عربية . وكنت أجلس على اريكة اصغى الى قراءتها، وأسند رأسى على عصاى. وكانت الصفحة الاولى تشرح كيف استطاع الاتحاد السوفييتى أن يقنع نيكسون بأن يتضمن البلاغ المشترك جملة عن القرار ٢٤٢ وعن مهمة يارنج. وقلت لنفسى : لعلى مجنون، ولكن نيكسون بالقطع لم يكن بحاجة الى أى اقتناع فى هذا الشأن. فالامريكيون، قبل كل شيء، قد اشتركوا فى وضع صيغة القرار، واذكر أن جولدبرج قال أن الامريكيين كانوا بعثوا الى قبل يوم من مقابلتى للسفير برسالة تقول: «تستطيع الآن أن تهدأ ، وأن تفعل ما تشاء، ولكن عليك أن تذكر دائماً أن مفتاح الحل هنا». وكانت الصفحة الثانية فى الرسالة عبارة عن شكوى مما كان يكتبه هيكل عن حالة «اللاسلم واللاحرب»، بينما كانت الصفحة الثالثة تسير على نمط الشكوى نفسه من «المخربين أمثال هيكل». وكنت جالساً اصغى الى الرسالة من دون أن أنظر ناحية السفير. وفى السطور العشرة الأخيرة كانوا وصلوا الى موضوع المعركة، وقالوا: «اننا تعودنا المعارك . . والحروب تحتاج الى اعداد كثير يتضمن الناحية السيكولوجية وبناء الروح المعنوية». وهم قد قتلوا عبد الناصر بهذا النوع من الكلام . فلمجرد أن نصل الى موضوع يحسون بالحرج نحوه، فأنهم سرعان ما يبدأون الكلام عن الروح المعنوية . وشرحت للسفير كل ما حدث منذ أجتماعاتى الاولى مع القيادة السوفييتية فى فبراير (شباط) ١٩٧١. وقلت: «أن بريجنيف كذب على فى مارس (آذار) ١٩٧١، وبودجورنى كذب على فى مايو (آيار) ١٩٧١، وعاد بريجنيف فكذب على فى اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧١. اتظن أنى لا أعرف اللعبة التى تلعبونها؟ لقد اتفقتم مع الامريكيين على الا تكون هناك حرب. ودعنى أقل لك أنكم لستم أوصياء علينا». وقلت للسفير أيضاً: «أن هذا الكلام كله ليس موجها اليك، أنما هو موجه الى القيادة السوفييتية، ثم نظرت الى ساعتى وسألت حافظ إسماعيل: « وما هو

التاريخ اليوم؟ أنى لا أستطيع أن أرى من دون نظارتى». فرد : «الثامن من الشهر». فقلت: «حسنا أذن . . سأمنحكم فرصة عشرة أيام . . الى اليوم السابع عشر . وبعد ذلك تنتهى اللعبة القديمة فى التعامل بين مصر والاتحاد السوفييتى ».

واعتقد أن السوفييت صدموا بقرار الرئيس، لكنهم لم يندهشوا له. ولقد أحسوا بانزعاج شديد والم عميق، لكنهم كانوا عدوا أنفسهم لشىء من هذا النوع. وكان رد فعلهم متحفظاً. وبطبيعة الحال، فان فينوجرادوف سارع الى الاتصال بموسكو بعد المقابلة مباشرة، واجتمع بالجنرال اوكينييف الذى اتصل بالماريشال جريتشكو. وفى فجر يوم الاثنين كان تلقى تعليمات أن ينفذ المطالب المصرية. وفى ذلك اليوم نفسه قابل اوكينييف الفريق صادق، واستطاع خلال بضع ساعات أن يقدم اليه خطة لأجلاء الخبراء الذين كان عددهم ارتفع فى ذلك الوقت الى ٢١ الف رجل. وكانت الخطة تتضمن نقلهم الى بلادهم فى الطائرات، وكان اوكينييف فى كل يوم يقدم الى وزير الحربية المصرية برنامج الجلاء المقرر لذلك اليوم. وأقترح فى فترة من الفترات أن يخصص مكتب فى وزارة الحربية المصرية لكبير الخبراء السوفييت ومعه هيئة من نحو ثمانين شخصا للأشراف على شؤون التعاون والتدريب، لكن الفريق صادق أقترح على الرئيس عدم الموافقة على الاقتراح لأنه أحس بأنه يحمل معنى الاحتفاظ ببعثة عسكرية فى ثوب مختلف . وعليه فقد رفض الرئيس الطلب واذعن السوفييت للرفض. ولعلهم كانوا أقل اصرارا عليه لأنه لم يصدر معه قرار بالغاء التسهيلات الممنوحة لأسطولهم فى الموانىء المصرية أو بالغاء معاهدة الصداقة المصرية ـ السوفييتية كما كانوا يخشون .

وفى بداية أغسطس (آب) كان السوفييت أفاقوا من أول أثر للصدمة، وبعث بريجنيف برسالة الى الرئيس السادات وصلت اليه فى ليبيا. وكان البعض ـ ولا سيما الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء ـ يرون أن فى الرسالة بعض النقاط البناءة ، لكن أحدى فقراتها لم تعجب الرئيس أبداً . فقد جاء فيها قول بريجنيف : «أننا لانستطيع أن نقف موقف اللامبالاة من الاتجاه الذى تسير فيه جمهورية مصر العربية ، لأن ذلك أمر يخص المصالح المشتركة للسوفييت والشعوب العربية معاً. ولعلكم تذكرون ، ياسيادة الرئيس أن القيادة فى كل من بلدينا قد اتفقت على ضرورة الحاجة الى تقوية زحفكم الى الامام وتدعيمه، وزحف كل القوى التقدمية فى الشرق الأوسط. ونشعر بأن من حقنا أن نذكركم بهذا لأنكم انتم انفسكم قد تحدثتم الينا مرات عدة عن النشاطات المتزايدة للقوى الرجعية داخل مصر، وعن الجهود التى تبذلها العناصر اليمينية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بالتحالف مع الاستعمار، لوقف زحف مصر على الطريق التقدمى والعودة به الى الوراء . فالى اين تتجه مصر؟ . . الى أين

تساق بأيدى قوى من داخلها وخارج حدودها؟ وما الذى ستكون عليه العلاقات بيننا فى المستقبل؟ هذه هى الأسئلة التى تثير القلق لدى اصدقائكم وتقدم التشجيع لاعدائكم. أننا نتطلع الى تلقى جواب عن هذه الاسئلة، ونأمل أن تكون الأجابة عنها بكل صراحة ».

ورأى الرئيس فى ماتضمنته هذه الفقرة أهانة ومعنى من معانى التدخل فى شؤون مصر الداخلية، ووضع هو نفسه صيغة رد شديد اللهجة. كذلك فانه طلب نشر نبأ فى «الاهرام» يقول: «علمنا من مصادر عليمة أن رسالة بريجنيف لا تتضمن شيئاً مهماً، ولا ينتظر أن تسفر عن أى أتصالات جديدة بين مصر والاتحاد السوفييتى فى المستقبل القريب». وعاد بعد مناقشة للامر فوافق على عدم نشره، لكنه افهمنى أنه يريد التخفيف من أهمية الرسالة وقال :«أنها لاتستاهل الا أن يمسح بها البلاط». وكان هناك نبأ آخر نشر بناء على طلبه يقول أن «السفير المصرى فى موسكو استدعى الى بلاده فى اجازة ».

والآن . . لم كان الوجود العسكرى السوفييتى غير مرغوب فيه الى ذلك الحد؟ ولم لقى قرار أنهاء خدماتهم الترحيب على رغم الأسلحة والمساعدة التى قدموها لنا؟ ولم أصبح الفريق صادق شخصية مقبولة فى القوات المسلحة كنتيجة للمقاومة المفروض أنه بذلها ضد النفوذ السوفييتى؟

وللاجابة عن هذه الاسئلة، فأنه لابد لنا من أن نعود الى العام ١٩٥٥، والى أول صفقة من السلاح عقدها الرئيس عبد الناصر مع الاتحاد السوفييتى. لقد لقيت تلك الصفقة ذلك الترحيب الكبير فى مصر، لأنها انهت احتكار الغرب للسلاح فى المنطقة، ومكنت مصر من الحصول على أسلحة تدافع بها عن نفسها فى الوقت الذى كانت أمريكا ترفض فيه مد مصر بالسلاح ، وفى الوقت الذى قامت اسرائيل بغارتها على غزة وقتلت ٣٩ شخصاً لتظهر بها أنها أشد القوى عدواناً. لكن الصفقة ، من الناحية العملية ، خلقت مصاعب. فلقد تبين للضباط المصريين أنهم يحصلون على أسلحة لم يتعودوها، يقوم بتدريبهم عليها ضباط سوفييت، وتكتب الارشادات والتعليمات كلها فى اللغة الروسية. وكان الجيش كله مضطراً الى أن يتحول من أسس غربية الى أسس شرقية . وعندما فرضت علينا حرب سيناء بعد عام من توقيع الصفقة استطعنا أن نحقق نصراً سياسياً كبيراً ، لكن الأسلحة السوفييتية لم تبل بلاء حسناً، وأن كان الانصاف يقتضى أن نقول أنها لم تختبر الاختبار الصحيح .

كانت تلك أول مرحلة من مراحل ارتباط مصر مع الاتحاد السوفيتى. وغطت المرحلة الثانية السنين العشر بين حرب السويس وحرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . وكان الرئيس عبد الناصر، قرر أنه لابد للقوات المسلحة من أن يعاد طراز تسليحها، ولابد لذلك من ايفاد بعثات الى

الاتحاد السوفييتي تتعلم على الطبيعة هناك طريقة التفكير العسكري السوفييتي وأستخدام الأسلحة السوفييتية. وكانت أولى البعثات التي أوفدت الى هناك بعثة من رتبتي الفريق واللواء، باعتبار أنه لابد لمن سيتولون قيادة الجيش الجديد من أن يكونوا مؤهلين للقيادة اللازمة. وهكذا سافر رجال مثل الفريق عبد المنعم رياض والفريق احمد اسماعيل والفريق محمد فوزي والفريق عبد المحسن مرتجي والفريق محمد احمد صادق واللواء عبد القادر حسن، والتحقوا بالاكاديمية العسكرية في موسكو. وكان معظم هؤلاء الرجال من خريجي كليات عسكرية في اوروبا الغربية أو أمريكا، وكان من الطبيعي أن يجدوا الجو في موسكو مختلفاً كل الاختلاف عن جو «ساندهيرست» أو«وست بوينت»، وأن يشعروا بالضيق وهم يرون أنفسهم مرة أخرى في قاعات الدرس يستمعون الى محاضرات غالباً ما يلقيها عليهم مدرسون أصغر منهم سناً وأقل منهم رتبة، وينقلها الى العربية مترجمون سوفييت في وقت لابد من الاعتراف بأن مستوى الترجمة الى العربية في الاتحاد السوفييتي كان حينئذ ضعيفاً حقاً. وفضلا عن ذلك، فان هؤلاء الضباط المصريين لم يكونوا - بسبب حاجز اللغة - يشاركون زملاءهم السوفييت المعلومات، وأنهم كانوا يشعرون بأن الدروس التي تلقى عليهم ليست بالقوة التي ينتظرونها وتنقل اليهم في عربية ركيكة، بل أن البعض منهم ممن تعلم من اللغة الروسية ما يكفيهم للاستغناء عن المترجمين كانوا يشعرون بعامل التفرقة في المعاملة لأنهم كانوا مستثنين من حضور بعض المحاضرات في العلوم المتقدمة والتي تتسم بطابع السرية. يضاف الى ذلك أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يزيدوا معلوماتهم بقراءة المجلات والتقارير المتخصصة كما كانوا يفعلون وهم في الغرب، لأن مثل هذه المجلات لم تكن متاحة للاطلاع العام في الاتحاد السوفييتي وأخيراً، فأنهم كانوا بطبيعة الحال يشعرون بأن ظروف المعيشة ونظم التدريس في الاتحاد السوفييتي مختلفة تماماً عما تعودوه في بلادهم.

ثم جاءت كارثة العام ١٩٦٧، وما أعقبها من فترة تبادل للاتهامات في كل مكان. كان الضباط المصريون يقولون أن اللوم فيها يقع على الاسلحة السوفييتية التي كانت لديهم، وكانوا يقولون مثلا أن الدبابات صممت بحيث تصلح للعمل في جو القطب الشمالي ولا تناسب على الاطلاق العمل في الصحراء في عز الصيف. وفي الجانب الآخر راحت مطبوعات الحزب في الاتحاد السوفييتي تتهم الضباط المصريين بأنهم ينتمون الى مجتمع بورجوازي يفتقر الى الخلفية الاجتماعية اللازمة لكفاح مسلح ناجح.

والواقع انى كنت دائماً أصر على أن الجيش المصرى لم يمنح ابداً فرصة القتال في العام ١٩٦٧. فالامر المفجع الذي اصدره المشير عبد الحكيم عامر بالانسحاب من سيناء عبر القناة بعد ساعات قليلة كان معناه أن

ثمانين فى المئة من قوات الجيش لم تشتبك مع العدو ابداً . صحيح أن فى مصر قلة قليلة من نوع «الجندى البطرى»، شأنها فى ذلك شأن أى بلد فى العالم، لكن الغالبية العظمى من كل الرتب فى الجيش كانت مستعدة وقادرة على الصمود والاستشهاد .

وعلى أية حال فإن الرئيس عبد الناصر اتخذ القرار بإعادة بناء القوات المسلحة من القمة الى القاعدة، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف قرر قبول الاستعانة بخدمات الخبراء السوفييت حتى مستوى الكتيبة. وكان لابد لهذا القرار أن يثير الكثير من الشعور بعدم الرضا. وكان السؤال : هل النصائح التى يقدمها هؤلاء الخبراء مجرد نصائح . . . أو أنه لابد من تنفيذها؟ وحين جاءهم الرد بأن هذه النصائح ملزمة لهم فإن الكثيرين منهم شعروا بالضيق، ذلك أنهم لم يكونوا يعتبرون أن هزيمتهم نشأت عن أى قصور من جانبهم يمكن الخبراء السوفييت ـ ومرة أخرى لابد بواسطة مترجمين من عندهم ـ أن يصلحوه ، ثم أنهم هم أنفسهم لديهم خبرة قتال يفتقر اليها مستشاروهم. لقد قاموا بقيادة الدبابات وخاضوا غمار معارك ضد العدو وبطائرات «الميج» وهو ما لم يفعله السوفييت وهم على دراية بالظروف المحلية لايمكن أن تتحقق للسوفييت. يضاف الى ذلك أن التفكير العسكرى السوفييتى لايزال قائماً على أساس ذكريات الحرب العالمية الثانية عن جبهة عرضها ٢٠٠٠ ميل، فى حين أن من غير المحتمل على الاطلاق أن يعمل الجيش المصرى فى جبهة يزيد عرضها على ١٠٠ ميل . (طول قناة السويس). كان السوفييت يتركون فى بعض الاحيان انطباعاً بأنهم يخطبون ود الرتب الاخرى ولا يهتمون بالضابط لأنهم فى نظرهم «جيش طبقة» الخ . . . كذلك ، فأن نوعية الخبراء كانت متباينة الى حد كبير. فقد كان بعضهم مثل الجنرال لاشينكوف الذى جاء مع الماريشال زاخاروف فى العام ١٩٦٧، وبقى فى مصر كرئيس للبعثة السوفييتية يحظون باحترام عالمى. لكن بعضهم الآخر كانوا أقل شأناً، والمرض ـ كما يقول المثل ـ معد، لكن الصحة غير معدية . وكان انخفاض النوعية يبدو بصورة أوضح وأسرع فى السلاح الجوى بوجه خاص، مما أثار الشكوك فى أن السوفييت يستخدمون مصر كمسرح مثالى لتدريب صغار ضباطهم فى كل فصول السنة. ولقيت هذه الشكوك سنداً فى العدد الكبير من الطائرات التى تحطمت وفقدت عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٢ فى عمليات التدريب بطياريها المصريين أو السوفييت والتى بلغ عددها ٦٨ طائرة. وفوق هذا كله كانت هناك الحوادث التى سبق ذكرها مثل تهريب الذهب أو حادث وصول الاميرال جورشيكوف الى الاسكندرية وسفره فى الطائرة منها مباشرة الى القاهرة للتشاور من دون أن يمر على قائد البحرية المصرية فى الاسكندرية للسلام عليه كما تقضى الاصول . فقد اعتبر اللواء بحرى عبد الرحمن فهمى ـ المعروف بتمسكه

الشديد بالتقاليد - هذا الحادث ماساً بكرامته، ورفض أن يسافر الى القاهرة لمقابلة الاميرال السوفييتي .

ولابد أن نذكر هنا أن فترة «حرب الاستنزاف» كانت طوال تلك المدة عاملا مؤثراً جداً في حفز الشعور الوطني في مصر . فقد هيأت للشعب المصري أن يعيش في حالة تعبئة نفسية، ودعمت الجبهة الداخلية لأن المدنيين كانوا يتعرضون للنيران نفسها التي يتعرض لها العسكريون، وحقنت الجيش بشعور المعركة المستمرة. وهذا كله شجع الشعور بالرفض لكل ما كان يعتبر نفوذاً خارجياً أو دعوة الى ضبط النفس .

وكما رأينا ، فان الفريق صادق، القائد العام للقوات المسلحة، كان قد أصبح محط أنظار أولئك الذين كانوا يمقتون المركز الذي اكتسبه السوفييت في مصر . لكن سقوط الفريق صادق لم يستغرق طويلا، وتم بعد سحب الخبراء السوفييت بفترة قصيرة .

ذلك أن الرئيس السادات والفريق صادق كانا منذ زمن طويل يختلفان بالنسبة الى الكثير من المسائل. وكان هناك خلاف أساسي بين وجهات نظرهما بالنسبة الى الطريقة التي تحارب فيها مصر المعركة . كانت خطط «جرانيت» لاتزال تسيطر على تفكير الفريق صادق الذي لم يكن يؤمن باحتمالات الحرب المحدودة التي كان الرئيس يعتقد أنها يمكن أن تحقق مكاسب سياسية كبيرة . وكان الفريق - في نظر الرئيس - متطرفاً جداً في موقفه من السوفييت ، ويميل الى الزج بنفسه في السياسة . فقد كان ، على سبيل المثال، يعارض الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء بشدة، ويتهمه بموالاة السوفييت ، ويعلن هذه المعارضة أمام غيره من كبار الضباط .

لكن التوتر بين الرجلين لم يبلغ ذروته الا بعد ثلاثة أشهر . كان السوفييت عندئذ قد بدأوا يتبعون أسلوبا جديدا بعدما افاقوا من الصدمة، وبدوا راغبين في استعادة الارض التي فقدوها وذلك عن طريق الاسراع بشحن كميات ضخمة من الأسلحة الى درجة اذكر معها أن الرئيس السادات قال لي في أحد أيام : « أنهم يغرقونني بالاسلحة الجديدة». فقد تلقت مصر في الفترة ما بين ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٢ ويونيو (حزيران) ١٩٧٣، كميات من السلاح تفوق ما تلقته منه طوال السنتين السابقتين. وكان الرئيس السادات يشعر بأن فترة ما بعد انتهاء الانتخابات الاميركية هي الفترة التي يجب على مصر أن تقوم فيها بتحرك في الميدان العسكري باعتباره السبيل الوحيد لكسر الجمود في الموقف في الشرق الأوسط .

وفي مساء يوم ٢٤ أكتوبر (تشرين الاول) دعا الرئيس السادات الى أجتماع لمجلس الامن القومي في منزله في الجيزة، حضره ١٥ لواء وفريقا واللواء بحري عبد الرحمن فهمي ، واستمرت المناقشات التي

اشتدت حدتها فى كثير من الفترات ، الى ما بعد منتصف الليل . كان الرئيس يؤيد بشدة فكرة الحرب المحدودة، ويركز على النقطة المفضلة لديه، وهى أنه اذا نجح فى كسب عشرة ملليمترات فقط من الارض على الضفة الشرقية لقناة السويس ، فان هذا سيعزز موقفه الى ابعد حد فى مفاوضاته السياسية والديبلوماسية اللاحقة . لكن عددا من كبار الضباط ابدوا تشككهم، وأعرب الفريق صادق عن أعتقاده أن الاسلحة والمعدات اللازمة لمثل هذه العملية غير متوافرة لديه، بينما اشتبك مساعده الفريق عبد القادر حسن فى جدل مع الرئيس اضطر معه الرئيس الى التهديد بطرده، وترك الاجتماع لفترة، وخرج الفريق صادق واللواء عبد القادر حسن وراءه يعتذران اليه. لكن الاجتماع انتهى الى نهاية محزنة ومن دون التوصل الى قرار حاسم .

وبعد يومين كان الرئيس قد استقر على قرار . ففى الساعة الرابعة بعد الظهر استدعى الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس الاركان وقال له: «أعتبر نفسك قائداً عاما للجيش أبتداء من هذه اللحظة». ثم بعث يستدعى اللواء أحمد إسماعيل وأصدر اليه الأمر بحلف اليمين بأعتباره وزيراً للحربية . وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين أوفد سكرتيره الى منزل الفريق صادق برسالة تقول : «لقد قبل الرئيس أستقالتك »، (وفى الحقيقة فأنه لم يستقل) . وفى اليوم التالى كان وزير الحربية ومساعده وقائد البحرية وقائد المنطقة العسكرية المركزية، ومدير المخابرات ، قد فصلوا جميعاً من مناصبهم .

على أن هناك ملحوظة تجدر الاشارة اليها خاصة بقصة الصدام مع السوفييت . ففى لقائه مع الصحافيين المصريين تحدث الرئيس عن رسالة تلقاها من واشنطن «سراً» تذكره أن مفتاح الموقف هناك . وكانت مجرد صدفة أم الامير سلطان وزير الدفاع السعودى كان فى زيارة لواشنطن قبل أن يصدر الرئيس قراره الخاص بسحب الخبراء مباشرة، كذلك ، فإن كمال أدهم كان فى ذلك الوقت فى زيارة للقاهرة، وسواء كانت هناك أى صلة بين القرار والصدفتين ، فهذا ما لا أعرفه ، وما لا يمكن أحداً منا أن يعرفه ، الا اذا شاء الرئيس أن يطلعنا عليه . ولكن من الواضح أن هناك شخصاً واحدا لم يبلغه مقدماً وهو هنرى كيسنجر . فقد قال لأحد مساعديه بعدما أصبح القرار معروفاً للجميع : «أنى لا أفهم الرئيس السادات . فلو جاء قبل أن يحدث ذلك وأخبرنى به لشعرت بأنى مضطر الى أن أقدم اليه شيئاً فى المقابل . لكنى حصلت عليه كله بدون مقابل » .

وأعتقادى الشخصى أنه سواء أكان الاميركيون قد أبلغوا القرار مقدماً أو لا ، فإن الملك فيصل حاول بعد صدور القرار أن يضغط على الاميركيين بشدة على أعتبار أنها الفرصة للقيام بتحرك ما . وهناك كثير من

الرسائل من المصادر السعودية تؤكد أن الملك فيصل قال للرئيس نيكسون أنه سيجد نفسه شخصياً فى مركز شديد الحرج اذا لم يفعل الاميركيون شيئاً . وشكا من أن العرب يوجهون اليه اللوم بشأن أى عمل يقوم به الاميركيون فى الشرق الأوسط ، ولايفهم السر فى اعتباره ممثل أمريكا فى الشرق الأوسط . ولا بد أنه قد ركز على واشنطن أن الحجة الرئيسية التى يتذرع بها الاميركيون لعدم الحركة زالت بخروج السوفييت من مصر ، فقد ظلوا يؤكدون بصورة مستمرة أن وجود الجنود السوفييت فى مصر هو الذى اضفى على الموقف فى الشرق الأوسط حالة المواجهة العالمية ، أما الآن ، فأنه اذا واصل الاميركيون مساعدة اسرائيل ، فإنهم لن يستطيعوا بعد ذلك أن يزعموا أن تلك المساعدة تقوم على استراتيجية موجهة ضد السوفييت ، أنما ستصبح ببساطة مجرد سياسة لمساعدة عدو العرب الرئيسى لمجرد مساعدته فقط .

الجزء العاشر

ليبيا

كان الرئيس الليبى معمر القذافى ـ لأسباب مختلفة ـ أحد الذين رحبوا بقرار سحب الخبراء السوفييت، لكنه خشى من أن يكون القرار قد وضع الرئيس السادات وحكومته فى مأزق ، اعتقادا منه أن السوفييت قد يحاولون الانتقام لأنفسهم . وأراد أن يكون مصدر عون لمصر ، وأختار أن يقترح لذلك وحدة كاملة بين البلدين : مصر وليبيا .

وكانت فكرة الوحدة دائماً أمنية غالية لدى القذافى وقد سبق أن شرحت كيف أنه أثار موضوع الوحدة بين مصر وليبيا فى اليوم الثانى مباشرة من قيام الثورة الليبية، وذلك فى اللقاء الذى تم بيننا فى القنصلية المصرية فى بنغازى . قال لى يومها أن أيمتنه الشديد بالوحدة العربية هو الذى جعله يطلق على حركته أسم «الضباط الوحديون الاحرار». وقال : «عد الى القاهرة ، وقل للرئيس عبد الناصر أننا لانريد أن نحكم ليبيا ، ونريده أن يتولى الحكم بنفسه ، ويقود ليبيا من المعسكر الرجعى الذى تقف فيه الى المعسكر التقدمى الذى يجب أن تنضم اليه».

وفى أكثر من مناسبة بعد هذا اللقاء ، اقترح القذافى فكرة الوحدة مع مصر. وكان الجواب الذى يتلقاه أن الوحدة يجب أن تتم بالطريقة الصحيحة وبعد أعداد دقيق. وكان يقال له أنه لابد من استيعاب دروس المحاولة السابقة للوحدة بين مصر وسوريا . بيد أنى أجد من الضرورى ـ قبل الدخول فى تفاصيل التاريخ المتقلب للعلاقات بين مصر وليبيا ـ

القاء نظرة على شخصية الرجل الذى أثر أيما تأثير على مجرى الحوادث. أعنى : معمر القذافى .

كان هناك رجلان وخلفيتان صنعتا من القذافى ما هو . أما الرجلان هما: النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، والرئيس جمال عبد الناصر . وهذا المزيج من الفكر الاسلامي أيام النبى والمبادىء الثورية لعبد الناصر كان له تأثيره الكبير جداً على القذافى. ولاسيما فى فترة تكوين شخصيته - وهى فترة مابين حرب السويس العام ١٩٥٦ وحرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ - حين بدأ يدرك ما يدور فى العالم حوله . أما الخلفيتان فهما: الجيش والصحراء. لقد كان الجيش هو المكان الذى اكتشف فيه نفسه لأول مرة ، وكانت الصحراء هى المكان الذى يعدو اليه حين يشعر بالرغبة فى العزلة . كان يحب الجيش بكل مافيه من أوامر وخضوع للنظام . لأن غرائزه ظلت كما كانت . . . غرائز رجل البادية الحر . كان اذا سمع ، مثلا ، أن أحد زملائه فى مجلس قيادة الثورة قد انتقل الى سكن فى المدينة ، يطلب اليه العودة الى الثكنات فوراً . وكانت الصعوبة التى تواجهه هى أنه كان يفتقر الى الخبرة التى تمكنه من هضم كل العناصر المؤثرة التى تتصارع داخل نفسه . لكن نتيجة هذا الصراع تجلت فى هذه الشخصية الفريدة المعقدة بصورة مذهلة .

وهذه حادثة صغيرة لكنها ذات مغزى :

كان القذافى فى القاهرة فى احدى المناسبات ، ودعاه الرئيس عبد الناصر الى تناول طعام العشاء معه، وكانت أول مرة يرى فيها القذافى الجمبرى . وبدأ الذعر على وجهه هو ينظر الى طبقه ويسأل :«ما هذا؟ . . جراد؟! أتأكلون الجراد فى مصر؟ ». وضحك عبد الناصر وقال: «كلا هذا ليس جرادا وأنما جمبرى ». فسأل القذافى :«وما هو الجمبرى». ورد عبد الناصر أنه نوع من السمك . لكن القذافى رفض أن يأكله وقال : «أنا لا أكل السمك لأنه لايذبح على الطريقة الإسلامية، حيث يقول من يتولى عمليه الذبح قبل أن يبدأ الذبح : الله أكبر. أن هذا الجمبرى ميت. ولا يمكننى أكل الميتة» . وضحكنا جميعا بطبيعة الحال . لكن هذا الرجل نفسه أظهر فهما تاما لطريقة استخدام الاذاعة فى مد تأثيره خارج حدود ليبيا. وكانت دعايته مؤثرة فى بعض الاحيان ، وغير مؤثرة أحيانا أخرى ، لكن من المؤكد أنه أستطاع أن ينشىء شبكة اذاعة على درجة عالية من الكفاءة .

. . . وحادثة أخرى تكشف عن التناقض :

يوم أرسل القذافى ، كضابط شاب ، فى بعثة تدريب الى بريطانيا، رفض الاقتراب من لندن ، إنه كان يعتبر أن الخطيئة كامنة فى المدينة . وتوجه من المطار الى معسكر التدريب مباشرة، وظل فى المعسكر طوال فترة التدريب . وعاد منه الي المطار مباشرة. ومنه الى

وطنه. ومع ذلك، فان هذا الرجل هو نفسه استطاع بعد الثورة أن يعالج بنجاح، اكثر المشاكل صعوبة. فقد استطاع خلال الاشهر الستة الأولى لتوليه الحكم أن يخرج الانجليز والاميركيين من بلاده، ويستعيد منهم قاعدتى العضم وهويلس. كما نجح فى المفاوضات التى اسفرت عن عقد اتفاقيات افضل مع شركات البترول.

ويبدى القذافى فى بعض الاحيان براءة مذهلة بالنسبة الى مجريات الامور فى عالمنا الحديث، ويبسط الامور الى ابعد الحدود. وعلى سبيل المثال، فلقد ساورنى القلق مرة بشأن الطريقة التى يتدخل بها القذافى فى بلاد كأيرلندا، وحاولت اقناعه بأن الثوار الايرلنديين لايمثلون حركة تحرير بالمعنى الذى نفهمه. وكثيرا ما حاولت ان اقنعه بأن قضية بنجلاديش قضية تقرير مصير، وأن الدولة الجديدة تستحق الاعتراف بها من قبل ليبيا. لكنه لم يستطع أن يراها بهذه الصورة، فقد كانت باكستان فى نظره أكبر دوله اسلامية فى العالم، أما بنجلاديش فليست الا حركة انفصالية ممزقة .

وكأى من أبناء البادية، فان القذافى يستطيع أن يتغير فى لحظة، من موقف الى موقف ضده على طول الخط. وكان مفتونا بلعبة القوى. وعلى رغم انه فى الأصل رجل صبور، الا أنه قادر على أن يظهر أشد أنواع فروغ الصبر. وعندما بدأ تصنيع بلاده اراد لكل شىء أن يتم على الفور. لم يكن لديه وقت للدراسات أو الابحاث العلمية، ولا للعطاءات أو مفاوضات العقود وغيرها. كان لديه المال. وكان كل ما يهمه بالنسبة الى أى أمر يريد قضاءه أن يعرف السرعة التى يمكن قضاؤه فيها. ومع ذلك، فانه بدأ حركته الثورية ولا يزال طالبا فى المدرسة الثانوية. وطوال تلك السنوات، منذ أن كان فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره حتى بلغ السابعة والعشرين وشعر بأن الوقت قد حان لتوجيه ضربته - استطاع أن يحكم زمام السيطرة على نواة حركة سريه للتآمر، والابقاء على ولاء من اشتركوا فيها، وعلى صمتهم وصبرهم .

وليست قوة مشاعرة الدينية بحاجة الى تعريف. فقد ظل لسنوات يرفض التعامل مع الاتحاد السوفييتى لأنه يعتبره بلد الالحاد. وعندما جاء كوسيجين الى مصر، كان تعليق القذافى: «أننى لا أفرق بين كيسنجر وكوسيجين .. كلاهما غريب عنا». وقد حاول عبد الناصر أن يغير من رأيه وقال له أثناء زيارته الأولى لليبيا: «أننا لانستطيع . يا معمر، أن نضع الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على قدم المساواه فعلى رغم أن الاتحاد السوفييتى دولة ملحدة كما تقول، فانها تقف معنا وفى حين أن الولايات المتحدة دولة مسيحية، كما يدعون، فانها تقف ضدنا». لكن القذافى مضى فى هجومه على الاستعمار والالحاد والاتحاد السوفييتى من دون تمييز، الى أن اضطر عبد الناصر الى تحذيره ذات

مرة فى بنغازى من أنه اذا استمر فى هذا الهجوم، فانه سيرفض أن يقف معه على منصة واحدة. وكان رد القذافى: «حسنا . . سألزم الصمت». فقال عبد الناصر : «لا . . أنا لاأريدك أن تفعل ذلك، بل اريدك أن تميز بين الصديق والعدو» .

لكن القذافى ظل على اقتناعه ، ورفض أن يعترف بأن الماركسية عقيدة لها أى صله بمشاكله. وقد حاولت أن اقنعه خلال الكثير من لقاءاتى معه بأنه مهما بدا من أن الماركسية قد لحقتها تطورات كبيرة فى كثير من النواحى، فانها جزء أساسى من الفكر السياسى لعالمنا المعاصر. لكنه ابى أن يرى ذلك. وكان كلما جاء الى القاهرة يأتى لزيارة «الاهرام» حيث كنت ارتب له لقاءات مع بعض اصحاب خيرة العقول فى مصر، يناقشهم ويناقشونه فى كل موضوع. اعتقد أنه كان يستمتع بهذه اللقاءات على رغم ما لابد أن يكون شعر به من رعب نتيجة الكثير مما كان يسمعه فيها. وكثيرا ما كان يطلب ورقا يسجل عليه ما يدور فى هذه المناقشات. واذكر أنه سجل فى احداها ما ملأ ثلاثة «بلوك نوتات». بل أنه فى كثير من الاحيان كان يسجل النقاش بالحرف. وقد عرضت عليه أن تقدم اليه المناقشات مكتوبة، لكنه فضل أن يسجلها بنفسه .

وكان لابد أن تتأثر نظرة القذافى الى الامور بالحالة التى كان عليها العالم العربى يوم تولى الحكم فى ليبيا. فلم يكن خريف العام ١٩٦٩ فترة سعيدة فى حياة العرب . كانت مصر لاتزال تعيش حالة «اللا سلم واللا حرب» كنتيجة لهزيمة العام ١٩٦٧، حيث كان من الصعب على كائن من كان أن يرى الطريق واضحا أمامه. وكان المال يتدفق غزيرا من البترول، لكن معظمه كان فى أيدى انظمة الحكم المحافظة. وكان الجميع يحاولون أن يجدوا لأنفسهم مكانا لقدم فى ليبيا، تغريهم الى ذلك ثروتها البتروليه وموقعها الاستراتيجى . . . الجزائريون، والمصريون، وجناحا البعث المتنافسان فى كل من سوريا والعراق، ناهيك عن الامريكيين والفرنسيين والبريطانيين. بل أن الملك فيصل نفسه حاول خطب ود القذافى، وقال فى أحد الأيام : «ومن لى برجل كان يمكن أن أتصور يوما أن يكون أفضل من هذا الشاب الذى يقوم الآن بالتبشير بالعقيدة الخالصة للاسلام ؟». لكن العرب كلهم - واخشى أن يكون هذا بلا تمييز - كانوا يتقولون بعضهم على بعض. وكان السودان يدعى لنفسه علاقة خاصة مع ليبيا، لأن ثورته قامت قبل الثورة الليبية بوقت قصير - فى ١٥ مايو (آيار) - ويصف الثورتين بانهما «الثورتان الاخت». وحاول الرئيس نميري فى احدى المناسبات أن يحكى للقذافى عن «تجاربه الثورية»، لكن القذافى كان يرى أن تقدم أى ثورة بثلاثة أشهر على ثورة أخرى لا تعطى أسبقية كبيرة فى التجارب .

وهكذا . . فسرعان ما وجد القذافي ورفاقه انفسهم غارقين وسط الآراء والافكار والنصائح المتعارضة بحيث حاروا في ما يتبعونه منها وكانت النتيجة الوحيدة التي توصلوا اليها. هي أنه ليس هناك شخص يمكن أن يثقوا فيه حقيقة. باستثناء عبد الناصر الذي كانوا يتقون فيه كشخصية أسطورية. لكنهم لم يكونوا يروه الا قليلا . واذكر أني كنت في طرابلس مع الرئيس عبد الناصر في احد أيام العام ١٩٧٠. وكنا ننزل في قصر ولي العهد السابق الذي تحول الى قصر للضيافة. حين انتحى بي القذافي جانبا (وكان هو نفسه لايزال يعيش في الثكنات) وقال لي «لابد أنك تعرف كل شيء عن ثورة السودان. أليس كذلك؟». وقلت . انني أعرف أشياء قليلة». فقال: «حسنا . . أنهم يقولون لي أن نميري كنجيب (اللواء محمد نجيب رئيس جمهورية مصر السابق) وليس كعبد الناصر. فهل هذا صحيح . هل هو مجرد صورة . . . أو انه زعيم حقيقي؟ وضحكت . لكن ذلك كان نوع المعلومات التي يغذونه بها طول الوقت. والتي جعلت من العسير عليه أن يعرف هذا من ذاك . وكان في باديء الامر يصدق كل ما يقال له. لكنه أصبح في ما بعد يتشكك في الكثير مما يقال له بعدما تبين أنه كثيرا ما خدع.

كان القذافي انسانا بسيطا نقي السريرة وجد نفسه في عالم معقد مليء بالمؤامرات والمناورات. وفي أواخر أيام مؤتمر القمة في الرباط الذي كان أول مسرح دولي يظهر عليه القذافي. جاءني يقول: « مالذي ستكتبه عن هذا المؤتمر؟ . . . أنه بحسب تقديري مؤتمر فاشل . . وقلت: «اذا كنت سأكتب أي شيء. فالارجح أنه سيكون عنك». وقال مندهشا: «عني أنا ؟ ومالذي يمكن أن تقوله عني؟». قلت: «سأكتب مقالا أجعل عنوانه : طرزان في نيويورك. لأنك كنت فيه الرجل القادم من الطبيعة العذراء الى المدينة المعقدة».

وقد حزن القذافي حزنا شديدا لوفاة عبد الناصر. ولم يكن حزنه لمجرد أن اعجابه بعبد الناصر كان يفوق اعجابه بأي مخلوق اخر وحسب. انما لأنه ظل يؤمن بالدور المركزي لمصر في العالم العربي. صحيح أن الكثير مما في مصر كان يثير شعورا بالصدمة في نفسه ـ كالملاهي. والمراقص ـ لكن أيمانه لم يهتز ابدا بأن مصر هي المفتاح. لذا. فقد شعر بعد وفاة عبد الناصر بأن هناك فراغا في العالم العربي كبيرا جدا يتعذر على أي رجل آخر أن يملأه. (ولست اظن. كما يقال في بعض الاحيان. أنه اراد أن يملأ الفراغ بنفسه). ومن هنا كان رأيه ضرورة وجود قيادة جماعية من مصر وسوريا وليبيا .

ومن ناحيتي أنا. فقد كنت دائما من المؤمنين بوحدة تجمع بين مصر وليبيا . ومازلت عند ايماني بها . كان رأيي أن هناك فرصة تاريخية فريدة متاحة للدولتين لتجميع مواردهما. وضم اراضيهما وشعبيهما

واقتصاديهما فى بلد واحد يمكن أن يصبح خلال عشر سنوات أو نحوها دولة واحدة قوية، وقوة كبرى فى المركز الاستراتيجى لشمال افريقيا وعلى الجسر بين افريقيا وآسيا. وكان يمكن هذه الدولة أن تصبح نواة حقيقية يتحقق من حولها الحلم القديم بشعب عربى متحد. ولم يخطر ببالى ابدا أن يكون تحقيق هذا الرسم العظيم رهنا بشخصية أناس بعينهم. صحيح أن الشخصيات مهمة، لكن من الممكن وضع الشخصيات فى الاماكن المناسبة لمجرد أن تظهر الرغبة فى تحقيق الهدف. كذلك، فانى لم اكن ابدا ممن يؤمنون بأن هناك شيئاً أسمه رجال ثوريون، أنما هناك مواقف ثورية فقط. والرجل الثورى هو الذى يرى الموقف ويستجيب له. وما حدث فى العام ١٩٧١ والعام ١٩٧٢ أيام الازمة والحالة القريبة من اليأس التى سادت العالم العربى كان واحدا من هذه المواقف. لو كنا انتهزنا الفرصة لكنا خطونا خطوة كبيرة الى الامام نحو نظام أفضل فى هذا العالم.

ونستطيع بنظرة نلقيها على العلاقات بين مصر وليبيا فى هذه الفترة، أن نرى أنها مرت بثلاث مراحل. الاولى، تبدأ من يوم قيام الثورة الليبية حتى وفاة عبد الناصر (سبتمبر ١٩٦٩ حتى سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠). وكان الليبيون يعتبرون انفسهم ما يمكن أن يوصف بـ «أبناء» الثورة المصرية. والثانية، تبدأ من يوم وفاة عبد الناصر الى يوم سحب الخبراء السوفيات من مصر (سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ حتى يوليو (تموز) ١٩٧٢. وكان القذافى خلالها حائرا بالنسبة الى ماحدث فى مصر - من صراع حول السلطة الى العلاقات المصرية السوفييتية والثالثة، تبدأ من يوليو (تموز) ١٩٧٢ حتى حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣. وقد قدمت ليبيا خلالها اقتراح الوحدة الكاملة، وقبلته مصر وناقشته، لكنها فى النهاية غضت النظر عنه.

لقد قدم الاقتراح فى ٢٦ يوليو (تموز)، وقبله الرئيس السادات فى ٣١ يوليو (تموز)، وسافر الى بنغازى فى ٢ أغسطس (آب) لبحث طرق تنفيذه ووسائله. واتفق هناك على ان تتم الاستعدادات لتنفيذه خلال مدة تزيد قليلا عن سنة - حتى أول سبتمبر (ايلول) ١٩٧٣ - وشكلت لجان مشتركة لبحث كل جانب من جوانب الدولة الجديدة، بحيث تشمل صيغة لدستور جديد، وتشكيل مجلس شعب جديد، والتنسيق بين النظم التشريعية والاقتصادية والتعليمية الخ . . . وكان هناك شىء واحد تم الاتفاق عليه بسرعة، وهو اسم الدولة الجديدة. لقد لتفق على تسميتها مرة أخرى «الجمهورية العربية المتحدة» (ولما كان القذافى يعرف حب المصريين لأسم بلادهم، فانه اقترح أن يطلق أسم مصر على محافظة القاهرة، فى حين أن أسم مصر تغير أيام الوحدة مع سوريا الى اسم «الاقليم الجنوبى».

وان هى الا فترة قصيرة، سرعان ما تبين لى بعدها ان الأمور لاتسير على مايرام. فكالعادة فى مثل هذه الحالات كان الكثيرون ممن وقع الاختيار عليهم أعضاء فى هذه اللجان اشخاصا من السهل جدا على حكوماتهم أن تستغنى عن خدماتهم. وكان أن بدأوا يختلفون المصاعب، ويركزون على اوجه الاختلاف بين البلدين ويقللون من قيمة أوجه التشابه. وضاعفت من امر هذه العقبات البيروقراطية تلك الاختلافات الشخصية بين الرئيسين . فقد كان الرئيس القذافى يرى أن الرئيس السادات ليس ثوريا بالدرجة الكافية، فى حين كان الرئيس السادات يرى أن الرئيس القذافى شاب تنقصه التجارب وربما الاتزان. وجاء وقت اتهم فيه الرئيس القذافى الرئيس السادات بأنه ـ فى قرارة نفسه ـ لايريد الوحدة . عندما ساورت الشكوك الرئيس السادات فى أن هدف الرئيس القذافى من الوحدة ليس الوحدة فى ذاتها، بمقدار ما هو السعى الى توسيع ميدان طموحه، قال الرئيس القذافى أنه مستعد لأن يستقيل لمجرد اتمام الوحدة. لكن الرئيس السادات لم يصدقه، وقال له انه يمثل الجيل المقبل للثوريين، وأن دورة سيأتى أن كان مستعدا للانتظار. ولم يجد الرئيسان معونة من جانب الرسل الذاهبين بينهما لتخفيف حدة خلافاتهما، بل لعل هؤلاء الرسل زادوا من حدة الخلافات بدلا من تخفيفها .

ومع بداية العام ١٩٧٣ كانت الآمال فى امكان تحقيق أى شيء ، قد بدأت تتضائل. ثم وقع حادث خطير كاد يتسبب فى ازمة يتجاوز نطاقها حدود العلاقات المصرية ـ الليبية وحدها. فقد ضلت احدى الطائرات المدنية الليبية وجهتها فوق سيناء، وهى فى طريقها الى القاهرة واسقطتها مدافع المقاتلات الاسرائيلية وقتل من فيها وعددهم ١١١ راكبا من بينهم وزير الخارجية الليبية السابق صالح بويصير. واستشاط القذافى غضبا كما هو متوقع، وكان تفكيره بالغريزة أن يرد بعمل انتقامى سريع ضد مرتكبى الجريمة، وكان مصمما على الا تصبح ليبيا واحدة من تلك الدول العربية التى تخضع بضعف لأعمال العدوان الاسرائيلى. وحاول الرئيس السادات تهدئته، وقال له اننا نستعد لمعركة مع اسرائيل ستكون خير انتقام لحادث الطائرة الليبية ولغيره من اعمال الاهانة الكثيرة التى تعرض لها العرب، واوضح له انه اذا قامت الطائرات الليبية بضرب حيفا (وكان هذا احد اقتراحات القذافى) فان اكثر النتائج احتمالا لمثل هذا العمل أن تقوم الطائرات الاسرائيلية بضرب آبار البترول الليبية، وأن ما قد يترتب على ذلك لا يمكن أن يساعد قضية العرب .

ومما زاد الموقف تعقيدا أن الاشاعات انطلقت حينئذ تقول أنه كان فى امكان السلاح الجوى المصرى أن يخرج لأنقاذ الطائرة الليبية وارشادها الى طريق آمن لو اراد. وكان السلاح الجوى المصرى قد ذكر أن حالة الجو

لم تكن يومها تسمح بالخروج بسرعه لعملية الانقاذ. لكن الرد من جانب القذافى كان: اذا كانت حالة الجو قد سمحت للطائرات الاسرائيلية بالخروج، فكيف لاتسمح به للطائرات المصرية؟ وشهد اليوم الذى شيعت فيه جنازة ضحايا الطائرة فى طرابلس تظاهرات معادية لمصر، وطبع ابن صالح بويصير ـ أحد الضحايا ـ منشورات تتهم المصريين بالجبن، لكن القذافى أمر بالقبض عليه ووضعه فى السجن. فقد كان لايزال يحب مصر على رغم خيبة أملة الشديدة فيها.

ثم تحدث هذه القصة الشديدة الغرابة.

كانت اسرائيل تستعد للاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس دولتها فى ١٥ مايو (ايار)، واستأجر عدد من اثرياء اليهود فى الولايات المتحدة واوروبا الباخرة «كوين اليزابيث ٢» لتبحر بهم من ميناء ساوثهامبتون الى ميناء اشدود الاسرائيلى، واتخذت، بطبيعة الحال، احتياطات أمن مشددة لحماية الباخرة طوال الرحلة باعتبار أن من عليها يشكلون هدفا رائعا لهجوم من جماعة أو أخرى من جماعات المقاومة الفلسطينية. لكن من اتخذوا هذه الاحتياطات نسوا مصدرا محتملا آخر يمكن أن يكون خطرا على الباخرة.

وقد غادرت الباخرة «كوين اليزابيث ٢» ميناء ساوثهامبتون يوم ١٥ ابريل (نيسان). وفى يوم ١٧ ابريل (نيسان) تلقى قائد احدى الغواصات المصرية الراسية فى مياه طرابلس اشارة تطلب اليه التوجه لمقابلة الرئيس القذافى. وراح الضابط المصرى الشاب يسائل نفسه فى عجب عما يمكن أن يكون الغرض من وراء هذا الطلب، لكنه نفذ الامر ووجد الرئيس القذافى يبسط أمامه خريطة لمنطقة شرق البحر الابيض المتوسط. وقال له فى لهجة بدا فيها الود الشديد: «أنى اتحدث اليك بصفتى مواطنا عربيا وقائدا للقوات المسلحة الليبية. أنت الآن تعمل هنا .. معنا. فهل تستطيع أن تحدد موقع الباخرة «كوين اليزابيث ٢» فى البحر المتوسط؟ هل من الممكن ذلك بسهولة؟». ورد الضابط المصرى بأن ذلك سهل. وكان السؤال الثانى للقذافى: «فى مثل هذه الحالة .. هل يمكنك أن توجه الى الباخرة طوربيدين وتغرقها؟».

ورد الضابط بأن ذلك ممكن من الناحية النظرية، لكنه عمل خطير، ولا بد من أن يصدر له أمر مباشر قبل أن ينفذه. وقال القذافى: «حسنا... أنى أصدر الأمر اليك .. وأن شئت أن يكون أمرا كتابيا فانا مستعد لأن اكتب لك».

وعاد الضابط المصرى الى غواصته واصدر الامر الى رجاله بأن يكونوا على استعداد للابحار فى عملية عاجلة وسرية. وكان القذافى قد اصر على أن تختفى الغواصة تحت الماء لمجرد خروجها من ميناء طرابلس لأن من المؤكد أنها موضوعة تحت المراقبة. ونفذ الضابط المصرى الامر. لكنه

صعد بها الى سطح الماء بمجرد حلول الظلام وبعث برسالة بالشيفرة الى قيادته فى قاعدة الاسكندرية يبلغها الامر الصادر اليه. وقد ذهل قائد البحرية فى الاسكندرية لما سمع، واتصل بالفريق احمد اسماعيل، القائد العام للقوات المسلحة، فاتصل بدوره بالرئيس السادات الذى اصدر تعليماته باصدار الاوامر بعودة الغواصة الى الاسكندرية. واذكر أن الرئيس السادات أتصل بي تلفونيا فى ذلك اليوم وقال: «يبدو أن القذافى يريد أن يضعنا فى مأزق.. فهو يحاول أن يغرق الباخرة «كوين اليزابث ٢». وقد راعه أن يتصور مايمكن أن ينجم من مضاعفات دولية من مثل هذا الهجوم بلا استفزاز على باخرة بريطانية فى عرض البحر عليها مثل هذه الحمولة من الركاب. وقال أنه لن يبلغ القذافى الاجراء الذى اتخذه، بل سيقال له بعد ان تصل الباخرة «كوين اليزابث ٢» الى ميناء اشدود أن قائد الغواصة لم يستطع أن يحدد موقعها فى البحر، وبالتالى فانه لم يستطع أن ينفذ الأمر الصادر اليه باغراقها. لكن الرواية لم تنطل على القذافى، ولم يستطع أن يفهم كيف يسمح لاسرائيل بأن تسقط طائرة مدنية فى رحلة بريئة ويمنع هو الرد عليها بالمثل. وكان شديد التأثر لما حدث. وصحيح أن الباخرة «كوين اليزابث ٢» قد انقذت، لكن العلاقات المصرية الليبية لم تنقذ..

وبمرور الاسابيع تلو الاسابيع راح شعور القذافى باليأس يتزايد. أن خطته البسيطة للوحدة ضاعت وسط التفاصيل، وهو قد منع من أن يقوم بعمل انتقامى يرى أن من حقه القيام به. وبدأ العرب فى نظره عاجزين من جميع الوجوه. وفى يوم ١٢ يونيو (حزيران) اقدم على خطوة غير عادية بطبع منشورات يعلن فيها استقالته، وحملها الى شوارع طرابلس وحاول أن يوزعها على أساس أنه اذا كان زملاؤه فى مجلس قيادة الثورة لن يوافقوا على استقالته، فانه سيحصل على الموافقة عليها من الشعب مباشرة. وقد جرت مناقشات طويلة فى مجلس قيادة الثورة فى هذا الشأن وقرر القذافى بعدها الا يبقى فى ليبيا بل يسافر الى مصر، وهكذا، فإنه ركب الطائرة وصحب معه والدته وزوجته وطفله الحديث الولادة وكل كتبه وحاجياته الشخصية واتجه القاهرة. وقصد باختياره القاهرة مقرا لأقامته، أن يظهر أن استياءه ليس موجها ضد مصر.

ونزل القذافى فى قصر الطاهرة كمنفى اختيارى، لكن تبين فى ما بعد أنه ليس بالضيف السهل على الرئيس السادات الذى رأى، بعد تفكير، أن خير مايمكن أن يفعله للقذافى هو ان ينزل الى الشارع يعرض على الشعب المصرى افكاره عن الوحدة ويستمع من افراده الى آرائهم وتعليقاتهم. وفى ذلك الوقت كانت فى مصر عناصر كثيرة تجتر اشجانا قديمة، ولها شكواها تعلنها، ولكن لم يكن بينها كلها ما هو متصل اتصالاً حقيقياً بالمناقشة الاصلية. ذلك أن تحرير المرأة، أو العقوبة التى

يفرضها الشرع الاسلامى على السارق لم يكونا المشكلة الحقيقية، وكان من الممكن أن يتم الاتفاق بشأنها فى ما بعد عندما يتم الاتفاق على المبدأ الاساسى للوحدة ويبدأ تنفيذه. ولكن تلك الموضوعات التى وجد القذافى نفسه مضطرا الى مناقشتها أينما ذهب. وقد راعه حجم المعارضة الشديدة التى لقيها فراح يقول لنفسه: اذا كانت مصر لا تريد الوحدة، فساعود الى ليبيا». وعاد بالفعل.

وترتب على هذا العمل الاجهاضى عمل آخر هو: «الزحف الليبى على القاهرة». وكان من بين الحجج التى كثيرا ماترددت ضد الوحدة هى أنها مشروع من وضع القذافى وحده وأن جماهير الشعب الليبى لاتؤيده. وكان القذافى منذ شهر فبراير (شباط) الى يوم اختفائه فى القاهرة مشغولاً تماما بما سماه « الثورة الثقافية». وعندما عاد من القاهرة يحمل شعور اليأس وخيبة الأمل، اصر على استقالته لاتزال قائمة، وأن على «الشعب» أن يتولى الامر بنفسه ويخلصه من عذاب الحكم. وعند هذه النقطة طرأت على ذهن احدهم - ولا أظنه القذافى نفسه، بل أحد زملائه على الارجح - فكرة ارسال ٤٠ الف ليبى فى زحف على القاهرة، حيث ينضمون هناك الى الآف من المصريين ويتوجهون مجتمعين الى قصر عابدين باسم الجماهير فى ليبيا ومصر يطلبون الى الرئيس السادات الدمج الكامل والفورى لبلديهما.

وكنت فى اوروبا، عندما سمعت بالاستعدادات لهذا الزحف، واعترف أنى رأيت فيه ظاهرة صحية. فقد بدأ اشبه بمظاهرة حقيقية للضمير السياسى، اذ لاشك أن حشد ٤٠ الف ليبى من بين سكان بلد يقل تعداده عن مليونين يقطعون فى زحفهم مسافة الف وخمسمائة ميل هو فى ذاته انجاز ضخم. ولا شك فى أن عشرة أمثال هذا العدد من المصريين يمكن أن ينضموا اليهم، وسيخلف مثل هذا الحشد المطالب بالوحدة انطباعا لا تمكن مقاومته، وسيكون من شأنه أن يخترق حاجز التأخير الناجم عن البيروقراطية والمنازعات التافهة التى تعرقل المشروع.

لكن البعض احسوا بالخوف من فكرة الزحف. وقيل أن عددا من الليبيين سيكونون مسلحين، وانهم يعتزمون بمجرد وصولهم الى القاهرة تحطيم الملاهى الليلية والمطاعم الموجودة على طريق الهرم فى تظاهره من العنف الدينى. وهكذا قامت معالجة هذا الزحف على اساس أنها مسألة أمن، لا على أساس أنها حدث سياسى، وسد الطريق من مرسى مطروح الى العلمين بعربة من عربات السكك الحديدية، كما وضعت الالغام فى منطقة أخرى منه. وبلغ الذعر ببعض المسؤولين حد القول أنه سيكون من المستحيل على مصر أن تعارض الاحتلال الاسرائيلى لسيناء ما دامت تسمح بأن تتعرض «لغزو» من ليبيا. وبعث الرئيس السادات ببرقية غاضبة الى القذافى الذى رد عليها أنه استقال وليس مسؤولاً عن الزحف.

وعاد الرئيس السادات فبعث ببرقية اخرى اشد غضبا من البرقية الأولى، كان من نتيجتها أن تقرر عقد اجتماع بين ممثلين عن الاتحاد الاشتراكى فى مصر وممثلين عن الثورة الثقافية فى ليبيا. وتم الاجتماع بالفعل فى مرسى مطروح واتفق خلاله على اختيار وفد من ٣٠ الى ليبيا يتوجهون الى القاهرة ويقابلون الرئيس السادات. عندما قابلوه بدوا اقل شراسة مما حاولت الاشاعات أن تصورهم به. بل أن الكثيرين منهم بكوا وهم يستمعون الى الرئيس يتحدث اليهم عن آماله بالنسبة الى الوحدة.

وكان من المقرر أن تنفذ الوحدة بين البلدين فى أول سبتمبر (ايلول)، وكلما اقترب الموعد ازداد التساؤل عما سيحدث. وفى يوم أغسطس (آب) كان الشعور بالقلق نتيجة الانتظار وعدم الاستقرار على رأى قد استبد بالقذافى الى درجة اصدار بعدها امرا باعداد طائرته للسفر، وهبط فى مطار القاهرة دون سابق اعلان. ولم تكن فى المطار سيارة تنتظره فركب سيارة أجره حملته الى قلب المدينة ونزل فى فندق من فنادق الدرجة الثانية. وكان الرئيس السادات يومها خارج مصر فى زيارة للسعودية وسوريا وقطر، لكنه لمجرد عودته حدد موعدا لاجتماع يتم بينه وبين القذافى فى قرية الرئيس: ميت ابو الكوم. وكان ذلك فى يوم ٢٧ أغسطس (آب). ولم يكن الاجتماع طيباً. وبذلت خلاله محاولات للتوصل الى صيغة حل وسط يمكن أن تحفظ ماء الوجه، واعدت بالفعل وثيقة يوقعها الرئيسان وتتضمن الاتفاق على اعلان مبدأ الوحدة فى أول سبتمبر (ايلول) واجراء استفتاء عليه فى البلدين بعد ذلك بثلاثة أشهر. وكنت حاضرا هذا الاجتماع، وساورنى احساس قوى بأن الأمر لن يسفر عن شيء. فقد كنت أرى الشعور بخيبة الأمل يتزايد لدى الجانبين. وكان القذافى يشعر بأننا لن نخوض المعركة ابدا، على رغم أن الاستعدادات لعملية «بدر» كانت تتصاعد طول الوقت، وكان العد التنازلى لها على وشك أن يبدأ. لكن الرئيس السادات كان يشعر بأنه لايستطيع أن يذيع السر للقذافى لأنه يعرف أن القذافى لا يوافق على فكرة العملية، وكان هناك دائما الخطر أن تتسرب بعض المعلومات عنها. ومع ذلك، فإن الانصاف يقتضى أن نقول أن ليبيا ساهمت بما يقارب الالف مليون دولار فى الاعداد للمعركة.

وقبل بضعة أيام من بدء المعركة وقع حادث آخر يعتبر مثلا لذلك النوع من سوء الفهم الذى لازم العلاقات بين الرئيسين. كان الطلبة الليبيون فى جامعة الاسكندرية قد طلبوا الى القذافى أن يلقى خطابا فى الاحتفال الذى يقيمونه بالذكرى الثالثة لوفاة الرئيس عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر (ايلول). وطلب القذافى اذنا من الرئيس السادات بذلك، لكن الرئيس رد عليه أنه هو نفسه سيلقى خطابا فى الاجتماع الذى تقيمه اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى فى القاهرة فى ذلك اليوم، وأن من الخطأ ـ

فى رأيه - أن يتحدث كلاهما فى وقت واحد وفى مكانين مختلفين. واقترح عليه أن يظهر معه على المنصة نفسها فى القاهرة يوم ٢٨، ثم يسافر الى الاسكندرية فى اليوم التالى لحضور اجتماع الطلبة الليبيين. ووافق القذافى على الاقتراح. ووصل الى مطار القاهرة بعد ظهر يوم ٢٨ نفسه، وتوجه الى ضريح عبد الناصر للصلاة، ثم ذهب الى منزل عبد الناصر لتحية السيدة عقيلته، وانطلق مدفع الافطار بينما هو هناك، وبقى لتناول طعام الافطار (وكان ذلك فى رمضان) ثم توجه الى قصر الطاهرة الذى كان من المقرر أن ينزل فيه كالمعتاد، فى انتظار أن يمر الرئيس عليه ليصحبه معه الى الاجتماع. وكان موعد الاجتماع ساعتها قد ازف، فترك الرئيس السادات رسالة يرجو فيها القذافى أن يلحق به. لكن القذافى احس بأن كرامته اهينت، وقرر الا يذهب الى اللجنة المركزية. ومر الرئيس بقصر الطاهرة بعد انتهاء الاجتماع ليعرف ما الذى حدث للقذافى، وقيل له أنه ذهب الى مسجد سيدنا الحسين فى قلب المدينة القديمة. وفى صباح اليوم التالى طار القذافى - وكان لا يزال يعالج مشاعره - عائدا الى ليبيا من دون أن يقابل الرئيس السادات.

ولسوء الحظ، فانه عندما بدأت المعركة بالفعل، وعلى رغم أن القذافى استقبل نشوبها بحماسة، وجرد الحوانيت الليبية من الاطعمة الموجودة فيها، والمستشفيات من الادوية وكدسها فى لوريات تنقلها الى مصر، فانه ارتكب خطأ جسيما فى ما صرح به علانية من أنه كانت له دائما تحفظات بالنسبة الى التصور الذى قامت عليه خطة المعركة، وأن كان قد اضاف انها ما دامت قد بدأت فان على الجميع أن يبذلوا ما فى استطاعتهم لضمان نجاحها. ولم يكن هذا مقبولا فى وقت كان الكثيرون فى مصر يقاتلون ويستشهدون، وكان له تأثيره بالنسبة الى حسن نيته. وقد اوفد القذافى فى الايام الأولى للمعركة اثنين من اعضاء مجلس الثورة - اولهما عبد المنعم الهونى ثم عمر المحيشى بعده باسبوع - لمراقبة تقدمها. وبعد وقف اطلاق النار جاء القذافى الى القاهرة بنفسه، وتصور يومها أنه ممنوع من دخول غرفة العمليات بينما يسمح لبعض الامراء السعوديين بدخولها. ولم يصدق الرئيس السادات، حين قال له أنه لم تكن هناك ترتيبات لأية عمليات تعد فى ذلك الوقت.

وعندما استطاع الاسرائيليون أن يعبروا القناة الى الضفة الغربية لقناة السويس شعر القذافى بأن شكوكه بالنسبة الى خطة العملية كان لها ما يبررها. وقد اعترض على وقف اطلاق النار، وحاول الاتصال تلفونيا بالرئيس السادات ليشرح اعتراضاته التى ضايقت الرئيس السادات. فقد كان الرئيس يشعر - وله الحق - بأنه يعرف عن حقائق الموقف اكثر بكثير مما يعرف القذافى. وكان الرئيس السادات يحس تماما بالشكوك التى تساور القذافى تجاهه، واذكر قوله فى احد الايام بعد بدء

المعركة بفترة وجيزة: «الآن وقد بدأتها، فانى ارجو ان يدرك القذافى وغيره ممن كانوا يظنون الا هم لى الا التذرع بكسب الوقت، انهم كانوا مخطئين».

الجزء الحادى عشر

العلاقات بين مصر والولايات المتحدة

لم يكد يعاد انتخاب نيكسون رئيسا للولايات المتحدة فى العام ١٩٦٨، حتى بعث اليه عبد الناصر ببرقية تهنئة. وكان الرئيسان تقابلا لأول مرة فى اوائل العام ١٩٦٣، عندما زار نيكسون القاهرة ـ وهو خارج الحكم ـ ومعه خطاب تقديم من الرئيس كينيدى. واصدر عبد الناصر يومها تعليمات أن يلقى نيكسون أحسن معاملة ممكنة، وقال: «علينا جميعا أن نذكر أنه هو الذى نائبا للرئيس ايزنهاور فى العام ١٩٥٦ أيام حرب السويس». وهكذا، اعدت له طائرة خاصة نقلته الى اسوان لزيارة السد العالى، وقال بعد عودته من أسوان أن رأيه أن قرار امريكا بسحب تمويل السد، كان افدح خطأ ارتكب فى عهد ايزنهاور، وأن كان قد وجه اللوم فى اتخاذ القرار الى جون فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركية آنذاك.

وبعد البرقية التى بعث بها عبد الناصر الى نيكسون تمت زيارة سكرانتون للقاهرة، ثم رحلة الدكتور محمود فوزى الى واشنطن فى العام ١٩٦٩ مبعوثا خاصا لعبد الناصر للاشتراك فى تشييع جنازة ايزنهاور، وبعدها جاءت زيارة سيسكو فى العام ١٩٧٠، ثم مبادرة روجرز، ثم زيارة اليوت ريتشاردسون للاشتراك فى تشييع جنازة عبد الناصر. أضافة الى هذه الزيارات كلها استمرت الاتصالات بالوسائل الديبلوماسية العادية على رغم أن العلاقات بين البلدين كانت مقطوعة منذ حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧.

ومع بداية العام ١٩٦٧ ساد القاهرة اقتناع متزايد بأن وزارة الخارجية الاميركية لاتستخدم فى عهد حكومة نيكسون الا فى المسائل الديبلوماسية الروتينية، وأن المسائل الكبرى فى الشؤون الخارجية يتولاها هنرى كيسنجر فى البيت الابيض. فقد كان كيسنجر هو الذى وضع تسوية حرب فيتنام، كما أنه هو الذى أجرى مفاوضات الوفاق مع الصين. واذا كان لمشاكل مصر نفسها أن تلقى الاهتمام اللازم فى واشنطن، فلا بد من أن تكون هذه المشاكل «ساخنة» الى درجة تدفع كيسنجر الى معالجتها.

وطوال العام ١٩٧٢ كانت الاتصالات بين مصر والولايات المتحدة تتم عن طريقين، أحدهما هو الاتصال المباشر بين وزارتى الخارجية فى البلدين، والثانى الاتصال غير المعلن بواسطة المخابرات المصرية والمخابرات الامريكية (التى كان نشاطها دائما كبيرا فى الشرق الاوسط بوجه خاص). أضافة الى ذلك، فقد بذلت محاولات لايجاد وسائل جديدة للاتصال ، ووجدت نفسي مشتركا فى واحدة منها على الاقل. وكان ذلك، حين قام دونالد كانديل رئيس مجلس ادارة «بيبسى كولا» بزيارة للقاهرة عام ١٩٧٢ . وكان كانديل صديقا شخصيا لنيكسون الذى كان محاميا للشركة وقد اتصل بى عن طريق محام مصرى بارز هو الدكتور زكى هاشم الذى تولى بعد ذلك منصب وزير السياحة، وكان اقتراحه أن يتم لقاء بين كيسنجر وبينى تدور فيه مناقشات استكشافية، وعرض أن يكون ذلك فى منزله فى كنيكتيكت خلال عطلة نهاية أسبوع طويلة. وعندما عاد الى واشنطن اثار الفكرة مرة أخرى مع الدكتور أشرف غربال المشرف على المصالح المصرية فى واشنطن فى ذلك الوقت «ومع الدكتور محمد حسن الزيات مندوب مصر الدائم لدى الامم المتحدة. وتم الاتفاق على موعد مقترح للاجتماع ، وبعث الدكتور الزيات بتقرير عن الموضوع الى الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء الذى حوله بدوره الى الرئيس السادات. وعندما ناقش الرئيس الفكرة معى كنت مترددا ، وكان رأيى أنه لابد من تقوية موقفنا الداخلى وموقفنا العالمى، قبل أن ندخل فى أى محادثات جادة مع أى شخص حتى لو كانت مجرد «محادثات استكشافية». وعليه ، فقد بعثت الى دونالد كانديل ببرقية أعتذر فيها عن عدم الموافقة على الاجتماع. ولكن الفكرة ، فى أى حال ، ساعدت على فتح الشهية فى القاهرة لاجتماع يتم على مستوى عال .

وتم هذا الاجتماع اخيرا فى الساعة الحادية عشرة والنصف، من صباح يوم الجمعة ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٧٣ . وكانت فى الاجراءات التمهيدية له لمسة ذات طابع مسرحى . فقد كان الاقتراح الأول بشأنه أن يعقد (سرا بطبيعة الحال) فى قاعدة امريكية بالقرب من برشلونه فى اسبانيا ،لكن فكرة عقده فى قاعدة امريكية لم تلق حماسة فى القاهرة. وعندما تم الاتفاق على أن يعقد الاجتماع فى واشنطن ، ووقع الاختيار على حافظ اسماعيل مستشار الرئيس السادات لشؤون الأمن القومى (ونظيره كيسنجر فى امريكا) مندوبا خاصا عن مصر ، فانه تقرر اخفاء الغرض الحقيقى للزيارة، وهو الاجتماع مع نيكسون وكيسنجر ، واتفق على أن تتم رحلته عن طريق بون ولندن حيث أجرى محادثات مع كل من فيلى برانت وادوارد هيث . وقبل أن يبدأ اجتماعه بنيكسون استقبله كيسنجر فى البيت الابيض ، واوضح له أنه هو نفسه لن يبقى فى اثناء اجتماعه

بالرئيس الا فترة قصيرة حتى لايترك انطباعا أنه سيحل محل وزارة الخارجية فى معالجة مشكلة الشرق الأوسط . وقال أنه لايريد أن ينشر شىء فى الصحف أو غيرها عن هذا اللقاء الخاص الذى تم بينهما ، وسيجتمعان مرة أخرى بصفة سرية فى منزل دونالد كانديل فى كنيكتيكت .

واستقبل نيكسون حافظ اسماعيل فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض . وحضر المقابلة مع حافظ اسماعيل الدكتور محمد حافظ غانم مستشار الرئيس. وكان مع نيكسون - اضافة الى الفترة القصيرة التى حضرها كيسنجر - أحد مساعدى كيسنجر ، وهو الجنرال سكوكروفت الذى تولى كتابة محضر الاجتماع. وكان الجزء الاول منه، كالعادة، مفتوحاً لمصورى الصحف والتلفزيون . وقد رحب نيكسون خلاله بحرارة بالمبعوث الخاص للرئيس السادات، وبعد ذلك انسحب المصورون وبدأ الاجتماع مناقشاته .

وتحدث نيكسون . . . قال أنه سعيد لأن مصر وافقت على المضى فى عقد الاجتماع (ذلك لأن حادث اسقاط المقاتلات الاسرائيلية للطائرة المدنية الليبية كان وقع قبل ثلاثة أيام فقط ، وترددت فى مختلف أنحاء العالم العربى أصوات تنادى بالغاء الاجتماع) وقال أنه لايستطيع أن يقبل الاعذار التى قدمتها اسرائيل بشأن الحادث، ولا يستطيع أن يصدق البيان الذى أصدرته مسز مائير ، وقالت فيه أنها وحكومتها لم تعرفا شيئاً عن الحادث الا بعد وقوعه. وكان التعبير الذى استخدمه بالضبط هو «أنا لا أشترى هذا» .

ثم انتقل نيكسون الى الحديث عما أحس به من متعة فى أثناء زيارته لمصر فى العام ١٩٦٣، ومن احترام شديد للرئيس الراحل عبد الناصر. وقال أنه يريد أن يقوم بدوره فى بناء سلام دائم فى الشرق الأوسط لكنه لايستطيع أن يعرف مقدماً الشكل الذى يجب أن تأخذه التسوية النهائية . وقال أيضاً أنه لايود أن يفرض رأيه على أحد ، وأنه لابد من أن نذكر أنه فى حين أن مصر تريد المحافظة على سيادتها، فان اسرائيل تريد المحافظة علي أمنها (وهذا الاسلوب الذى ينزل بالمشكلة الى مجرد معادلة بسيطة بين السيادة والامن مصدره - على الارجح - هنرى كيسنجر ، وهو أسلوب بدأنا نسمعه بعد ذلك مرارا وتكرارا). ثم طلب من حافظ اسماعيل أن يقدم عرضا صريحا لوجهة نظر مصر، وأضاف : «على رغم أخطائى كلها ، فان عدم المحافظة على الوعود ليس واحدا منها !».

وراح حافظ اسماعيل يشرح تحليله للموقف: تحدث عن الخطر الشديد الناجم عن الحالة الراهنة، وعن دور مصر التاريخى فى المنطقة ، وعن اصرارها على البقاء خارج مناطق النفوذ كما عبرت عنه فى سحب

الخبراء السوفييت . وقال أن السبب الوحيد للخلافات بين الولايات المتحدة ومصر هو التأييد العسكرى والسياسى الكامل من جانب الولايات المتحدة لاسرائيل، وحذر من يوم تتحدى فيه اسرائيل مركز امريكا نفسها فى الشرق الأوسط كما سبق أن تحدت بريطانيا. وذكر أن السبب الرئيسى للأزمة فى الشرق الأوسط هو الصدام بين طائفتين هما اليهود الفلسطينيون، وأنه لابد لأسرائيل من أن تحاول الاتفاق مباشرة مع الفلسطينيين . وقال أنه اذا كانت اسرائيل تريد السلام، فعليها أن تسلك مسلك دولة فى الشرق الأوسط، ولا تواصل اعتمادها على التأييد من جانب العالم الخارجى، كما أن عليها أن تضع نهاية للهجرة وتقطع صلاتها بالعالم الصهيونى وتتخلى عن مطالبها بحق الجنسية المزدوجة لمواطنيها .

وقال نيكسون أنه يرى - كما حدث بالنسبة الى الصين والى تسوية مشكلة فيتنام - أن تجرى المناقشات مع مصر فى المستقبل على مستويين: أحدهما عن طريق وزارة الخارجية وتكون كلها فى العلن. والثانى عن طريق وسائل الاتصال السرى التى يشرف عليها الدكتور كيسنجر وتتم من دون معرفة وزارة الخارجية . وهذا الطريق هو السبيل للوصول الى تسوية حقيقية . وقال أنه لابد من ضمان السرية المطلقة حتى لاتعرف اسرائيل شيئاً مما يجرى ولو فى الوقت الحاضر على الاقل. (وقد طلب نيكسون من الجنرال سكوكروفت الا يسجل هذه العبارة فى المحضر. وأن كنا نفترض الآن بعد كل ما اظهرته محاكمات قضية «ووترجيت» أن الاشرطة كانت تسجل كل شىء طول الوقت) ولابد أن تظل الاتصالات مستمرة مع كيسنجر ، وأن يكون كلامنا معه صريحاً . . . كأننا نتحدث الى الرئيس نفسه. وختم كلامه بقصة شخصية أعرب عن رغبته فى أن يرويها. قال أنه منذ يومين كان يتناول طعام العشاء مع ابنته، وسألها عن البلد الذى تود أن تعود لزيارته أكثر من غيره من بين البلاد التى زارتها فقالت : أنها مصر . وكان الانطباع الذى خرج به حافظ اسماعيل من هذا الاجتماع الذى استغرق ٧٠ دقيقة أن نيكسون كان مرتاحاً ، وأن كلامه عن حسن النية تجاه مصر كان أصيلاً. كما أنه أحس أن لدى نيكسون رغبة حقيقية فى أن يقوم بدور شخصى فى حل مشكلة الشرق الأوسط .

ولم تكن الاجتماعات السرية الثلاثة التى عقدها حافظ اسماعيل مع كيسنجر فى منزل دونالد كانديل منتجة الى حد كبير ، وأن تكن القت بعض الضوء على الطريقة التى يتبعها كيسنجر فى عمله. فقد وضع كيسنجر ثلاثة مبادىء لتعامله مع مصر، هى: «الثقة المتبادلة» و«عدم الخداع» و«السرية المطلقة». وقال أن أمريكا لاتستطيع أن «تفرض» أى شىء على اسرائيل ، وأن كانت هناك طرق للضغط عليها لايمكنها أن

تتجاهلها، والحكومة الامريكية من جانبها مستعدة لاستخدام هذه الطرق اذا توافرت لذلك «أسس أدبية» يمكن اظهارها للرأى العام الامريكى.
وقال أيضاً أنه ليس لدى الولايات المتحدة اعتراض على صداقة مصر مع الاتحاد السوفييتى ، ولكن اذا كانت مصر تظن أنها تستطيع أن تدق أسفينا فى العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفييتى ، فانها ستجد نفسها مخطئة . والولايات المتحدة مستعدة من جانبها لأجراء مناقشة عامة مع الاتحاد السوفييتي بشأن مشاكل الشرق الأوسط، أما مناقشة التفاصيل ، فانها تفضل أن تكون بينها وبين الاطراف المعنية مباشرة.
ثم انتقل كيسنجر بعد ذلك الى الحديث عن معادلته المفضلة عن السيادة والامن، وقال أن أى انسحاب من جانب اسرائيل معناه التخلى عن أساس محدد وملموس للأمن ، ولابد لأسرائيل من أن تقتنع بأن الأمن الملموس ليس كل شىء . وعلى المصريين أن يستقروا على رأى بالنسبة الى ماهم مستعدون لأن يعرضوه فى مقابل بعض الانسحاب الاسرائيلى . وكان واضحاً من كلام كيسنجر أن مصر ، البلد المحتلة أرضه، هو الجانب المطالب بتقديم تنازلات . فقد قال لحافظ اسماعيل أن الضمانات الشفوية لاتكفى ، وأن التنازلات المطلوبة من مصر تنازلات سياسية وأقليمية .

ومما يؤسف له أن أى آثار طيبة كان يمكن أن تنجم عن هذه الاتصالات ، قد ضاعت نتيجة للزيارة التى قامت بها جولدا مائير للولايات المتحدة، بعد ذلك بأيام قليلة . فقد أعلن فى نهايتها أن اسرائيل ستحصل على شحنة ضخمة جديدة من طائرات «فانتوم» و «سكاى هوك». وكان واضحاً من حجم الصفقة أن الولايات المتحدة كانت تتعهد مرة أخرى بتأمين قدرة اسرائيل الهجومية . وقد ترك ذلك شعوراً بخيبة أمل شديدة لدى الجانب المصرى .

وباستعراض هذه المرحلة ، يمكننا أن نرى ستة خطوط كان لها تأثيرها على السياسة الاميركية فى الشرق الأوسط .

١ ـ أن الامريكيين يريدون الابقاء على السوفييت خارج المنطقة، وخارج نطاق أى أشتراك فعلى فى شؤونها . وذلك لأنهم ، من ناحية ، يعارضون أن يكون للسوفييت وجود فيها ولأنهم، من ناحية أخرى، يخشون خطر صدام بين القوتين العظميين يترتب عليه .

٢ ـ أنهم يريدون أن تظل الخيوط المختلفة للمفاوضات منفصلة: أن يجروأ مفاوضات للتسوية بين مصر واسرائيل ، وبين اسرائيل وسوريا ، وبين اسرائيل والفلسطينيين (اذا اصبح ذلك فى الامكان يوما) الخ . . . شرط أن تتم كلها على انفراد وليس كجزء من تسوية شاملة .

٣ ـ أن كل تسوية منفصلة يجب أن يتم التفاوض بشأنها مرحلة بعد مرحلة .

٤ ـ أن الامريكيين ـ موافقة منهم على النظرية الاسرائيلية ـ

مقتنعون بأنه لايمكن أن تكون هناك عودة الى حدود العام ١٩٦٧ .

٥ ـ أن المشكلة الفلسطينية يجب أن ينظر اليها كمشكلة لاجئين فقط .

٦ ـ أن النتيجة النهائية يجب أن تكون «ايقونه امريكية» وسلاما أمريكيا يضمن المصالح الامريكية فى المنطقة .

الجزء الثانى عشر

الضغوط نحو الحرب

تحدثنا بما فيه الكفاية عن المشاكل الداخلية التى واجهت الرئيس انور السادات خلال السنوات الثلاث الاولى لتوليه الرئاسة . وأجد لزاما علينا ـ قبل وصف المعركة التى توجت تلك السنوات ـ أن نلقى نظرة سريعة على الضغوط من الداخل ومن الخارج التى كانت تدفع الرئيس بعناد نحو الحرب .

١ ـ مع حلول العام ١٩٧٣ كان الاقتصاد المصرى تحت وطأة ضغط يكاد يكون غير محتمل . فتطوير الصناعة ، والسد العالى ، وما استنزفته حرب اليمن، جعلت من السنوات الاولى وسنوات الوسط فى الستينات فترة تحدد فوق الطاقة . ثم جاءت هزيمة العام ١٩٦٧ والحاجة الى اعادة كاملة تقريباً لبناء الجيش وتجهيزه. وقد انفقت مصر على المجهود الحربى خلال خمس سنوات بين ١٩٦٨ و١٩٧٣، ما يراوح بين ٨ بلايين و٩ بلايين دولار. وكانت هذه الحقبة بالنسبة الى الشعب المصرى حقبة تضحية وتقشف لايمكن أن نتوقع من أى شعب أن يتحملها الى ما لا نهاية .

٢ ـ كانت الثقة فى النظام كله فى خطر منذ العام ١٩٦٧ . وقال الرئيس الفرنسى ديجول ذات يوم أن أى نظام يفشل فى حماية حدود بلاده يفقد شرعيته أوتوماتيكيا . وكان هذا القول ينطبق على مصر . بل أنه حتى فى حياة عبد الناصر كانت هناك بعض عوارض التمرد على رغم المكانة العظيمة التى ظل يتمتع بها . ثم حدثت وفاته، واعقبتها صدمة وشعور بالحيرة ، ثم جاءت الذروة العكسية لـ «سنة الحسم» وانفجر الشباب، وأمكن احتواء انفجاره ، لكن الغليان استمر تحت السطح .

٣ ـ منذ العام ١٩٦٧ والقوات المسلحة فى حالة تعبئة عامة تقريبا. ظلت فى الصحراء سنة بعد سنة تتدرب وتقوم بالمناورات . وكان الضباط والجنود ـ على حد تعبير الرئيس السادات ـ «يأكلون الرمل». ولم تكن لهذا كله نهاية ظاهرة فى الافق. وكانت مظاهر التوتر تبدو على كل مستوى . وحدث فى يوم ، أن قاد أحد الملازمين قافلة من سبع عربات مصفحة الى قلب القاهرة، ودخل أحد المساجد وراح يخطب منددا

بالحكومة. ثم حدثت المناقشة الصاخبة التى ادت الى اقالة الفريق صادق. وكان بعض المجندين، وكثيرون منهم من خريجى الجامعات، ظلوا فى التجنيد مدة خمس أو ست سنوات، وكانوا يشعرون بأن دراستهم ضاعت هباء وأن فرص حصولهم على وظائف مدنية يؤدون فيها اعمالا مفيدة، مشكوك فيها . وكان الجيش تواقا الى أن تثبت جدارته وله الحق فى ذلك . وكان ابرز ما كشفت عنه حرب ٦ اكتوبر (تشرين الاول) هو الاسلوب المثالى الذى اتسم به تصرف جميع رجال الجيش على اختلاف رتبهم . فلم يكن من الممكن أن يظهروا من النظام أفضل مما اظهروا ، ولا من الروح المعنوية أكثر مما توافر لهم .

٤ ـ مع حلول العام ١٩٧٣ كانت مصر اصبحت موضع سخرية العالم العربى . فقد ظلت تقول انها زعيمة العرب حامى حماهم، لكنها بعد توقف حرب الاستنزاف عام ١٩٧٠ بدت فى وضع غريب. كانت تطلب من الغير أن يستخدموا ما لديهم من سلاح البترول، فى حين أنها هى نفسها لم تظهر دليلا على استعدادها لأستخدام ما لديها من أسلحة . وكان كل يوم يمر يوم ذل فى حياة مصر .

٥ ـ وصل الموقف الى نقطة سيطرت فيها على اصدقائنا فى الخارج ـ فى افريقيا وآسيا، بل حتى فى لندن وباريس ـ حالة قريبة من اليأس فقد قدموا الى مصر كل ماطلبته من تأييد، ومع ذلك فلم يحدث شيء ولعل أفضل مثل على ذلك ما اظهره مسيو جوبير وزير الخارجية الفرنسية آنذاك من رد فعل لما تحدث به السفير المصرى فى باريس فى اثناء اجتماعه معه ذات يوم عن خطورة الموقف فى الشرق الأوسط ، وما اكده من أنه اذا لم يتم اتخاذ اجراء ما ، فان الموقف سينفجر، وقد رد مسيو جوبير بقوله: « لم لا ؟. . فلينفجر ».

٦ ـ كان مسلك اسرائيل من أشد القوى الضاغطة على الرئيس السادات. وقد بلغت العجرفة بالساسة الاسرائيليين حد غير معقول، وبلغت ذروتها مع اقتراب موعد الانتخابات الاسرائيلية العامة الذى كان مقرراً له يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الاول). وطوال الربيع والصيف كانت الاحزاب والمرشحون فى الانتخابات يزايدون بعضهم بعضا بالنسبة الى مشروعاتهم الخاصة بالاراضى العربية المغتصبة. وقد غير الائتلاف العمالى ، تحت ضغط من الجنرال ديان، موقفه بالنسبة الى ضم الاراضى المحتلة. فالضم عن طريق الزحف أو «خلق الحقائق» ـ كما كانوا يسمونه ـ بدأ يشتد. وأصبح ديان يتحدث علانية عن مشروعاته بالنسبة الى ميناء ياميت فى رفح لعزل مصر للأبد عن أى أتصال بقطاع غزة. وقال الرئيس السادات: «أن كل كلمة تقال عن ياميت اعتبرها خنجراً موجهاً إلى شخصياً ولاحترامى لنفسى ».

٧ ـ وأخيراً، فقد كان هناك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ الشعور بأن هذه هي فرصة مصر الأخيرة. وقلت للرئيس يوما : «أخشى أن يكون هناك ما يشير الى أن الوفاق سيصبح حقيقة تفرض نفسها علينا قبل أن نفرض أنفسنا عليها. أن الوفاق سيفرض الشروط على مشكلة الشرق الأوسط بدلاً من أن تفرض مشكلة الشرق الأوسط شروطها عليه». وكان رد السادات متسما بدهاء شديد اذ قال: «ربما كان فى استطاعتنا أن نمسك بالجزء الأخير من ذيل الوفاق .

الفصل الرابع

الحَرب

وكانت خطة العملية « بدر » ممتازة ، على رغم أن ما حققته من نجاح في البداية لم يستغل استغلالا كافيا . فقد كانت الأيام الخمسة الاولى للعملية فترة نجاح للسلاح العربي كاد يبلغ حد الكمال . ومهما قلنا من الثناء للرجال من كل الرتب الذين صنعوه ، فإننا لن نفيهم حقهم . ثم أعقبت هذه الايام الخمسة خمسة ايام من السكون أخذ الاسرائيليون في نهايتها عنصر المبادرة ، وتحولت الايام الخمسة الأخيرة من أيام القتال الخمسة عشر إلى مصلحة إسرائيل .

في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من يوم السبت ٦ أكتوبر (تشرين الاول) فتحت نيران ٤ آلاف من المدافع وقذائف الصواريخ والمورتار في الجبهة المصرية و١٥٠٠ في الجبهة السورية . وكان هذا الجحيم من نيران المدفعية مصوبا ومعززا بطلعات ل٣٠٠ طائرة . وبعد خمس عشرة دقيقة كان ٨٠٠٠ جندي يعبرون قناة السويس على ١٠٠٠ قارب من القوارب المطاط ، وسقط الحصن الاول من حصون خط بارليف في أيدي الجيش الثاني في الساعة الثالثة تماما ، وبدأ بعدها الكثير من هذه الحصون يتساقط تباعاً . وفي هذا الوقت كان المهندسون يحطمون بمدافعهم المائية الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقنال ، واستطاعوا خلال أربع ساعات والنصف أن يفتحوا الثغرات في ٨٠ موقعاً منه . وعند الساعة الخامسة وعشر دقائق سقطت الدفعة الأولى من الأسرى الضباط الاسرائيليين في أيدي الجيش الثاني شمالي الاسماعيلية . وفي الساعة السابعة والنصف ، كانت التشكيلات الأولى للجيشين المصريين ، قد تمركزت على الضفة الشرقية للقناة على جبهة عرضها ١٧٠ كيلومتراً ، ونجح ثمانون الفا من الرجال في أثنتي عشر موجة في أن يتوغلوا في سيناء على عمق يراوح بين ثلاثة وأربعة كيلوميترات . ويثبتوا أقدامهم

داخل منطقة خط بارليف الحصينة..

وكان لا بد لاحتلال هذه المواقع من عدم تمكين القوات المدرعة الاسرائيلية من الاشتباك مع من يقومون من رجالنا بإحتلالها . ولم يكن من الممكن تحقيق ذلك ـ كما تبين فيما بعد ـ إلا عن طريق مواجهة قوات العدو المدرعة بسلاح متحرك مضاد للدبابات يستطيع جندي المشاة أن يحمله بمفرده . وقد ظل الضباط والجنود الذين عهد إليهم بهذه المهمة يركضون من دون توقف منذ اللحظة التي نزلوا فيها على الضفة الشرقية الى أن قطعوا مسافة الخمسة كيلومترات التي تفصل بينهم وبين المواقع التي سيحتلونها . ولم تظهر لهم الوحدات الأولى من المدرعات الاسرائيلية إلا بعد ثلاث أو أربع دقائق من وصولهم إلى تلك المواقع ، وكان دهشتها لحجم ودقة النيران التي قوبلت بها كبيرة ، كما أن الخسائر التي منيت بها في عرباتها المصفحة كانت فادحة .

ولم يكن نجاح السلاح في الجبهة السورية أقل في البداية من روعته في الجبهة المصرية . وقد إستغلت القوات البرية السورية عنصر المفاجأة لتامة في التغلب على الخنادق الاسرائيلية المضادة للدبابات ، وتقدمت بسرعة كبيرة.، وسقط العديد من المواقعه الاسرائيلية الحصينة خلال الساعات الأولى للمعركة ، كما سقطت نقطة المراقبة الاسرائيلية في جبل الشيخ ـ بثروتها من المعدات الاكترونية المعقدة ـ في أيدي القوات السورية . . . سليمة لم يمسها عطب ، ونقلت محتوياتها على الفور إلى دمشق لفحصها واستعمالها فيما بعد . وقد صارع الاسرائيليون بشن هجوم مضاد استخدموا فيه الدبابات ، والطائرات ، لكن نيران المدافع السورية المضادة للدبابات وللطائرات انزلت بهم خسائر جسيمة . كذلك ، فقد صدت القوات السورية محاولة انزال للجنود قام بها الاسرائيليون في اللاذقية بغرض التخفيف من تركيز الهجوم عن طريق اجبار السوريين على سحب بعض قواتهم من الجبهة لاستخدامها فى حماية تلك المناطق غير الحصينة فى المؤخرة . وكان الهجوم السورى يتقدم في محورين رئيسيين ، ينقسم كل منهما بعد ذلك إلى محورين . وعند منتصف ليل السبت ، كان اعنف الهجومين في اتجاه « فيق » و « جسر بنات يعقوب » و« العال » قد وصل تقريبا إلى المواقع المحددة له ، وإن لم يتقدم الهجوم في الاتجاه الشمالى نحو « القلع » بمثل تلك السرعة..

وفي الساعة السادسة من مساء يوم السبت اتصل السفير السوفييتي فينوجرادوف تليفونيا يطلب موعدا لمقابلة الرئيس السادات . وتمت المقابلة في الساعة السابعة ، ونشأ فيها سوء فهم حول امكان وقف إطلاق النار لم تتضح حقيقته إلا بعد أيام عدة . ذلك أن الرئيس الاسد كان قبل بدء المعركة قد استدعى السفير السوفييتي في دمشق دوم محيي الدينوف لمقابلته ، وابلغه أن الموقف على الجبهة دقيق جداً بسبب

التهديدات الاسرائيلية، وأن التوتر بلغ نقطة الغليان، وحذر من أن القتال قد نشبت خلال ساعات. وقال السفير أنه يريد أن يسأل عما اذا كانت هناك أيه مساعدة يمكن حكومته أن تقدمها. وكانت لدى الرئيس، بطبيعة الحال، بعض مطالب عسكرية أبلغها السفير، لكن السفير سأل عما اذا كان هناك مايمكن أن يفعله فى الميدان السياسى، وقال: «اتريدوننا أن نقوم بأى اجراء فى مجلس الأمن اذا حدث وانهار وقف اطلاق النار؟». ثم إجتمع مجلس الأمن وعرض فيه إقتراح بوقف إطلاق النار وكان رد الرئيس الاسد أنه لايجد ضرراً فى هذه الحالة من الى أنه اذا سار القتال لمصلحة سوريا، فان تقديم مشروع قرار بوقف اطلاق النار لن يؤثر على موقفه، أما اذا سار القتال لمصلحة اسرائيل، فان مشروع القرار ربما يصبح عندئذ مفيداً. وهكذا بعث محيى الدينوف بهذه المعلومات الى موسكو، وأبلغتها بدورها القاهرة. وكانت التعليمات التى تلقاها فينوجرادوف من بريجنيف عندما أتصل به تلفونياً هى: ١ - أن يبلغ الرئيس السادات تهنئة الاتحاد السوفييتى على العبور الناجح والسريع للقناه. ٢ - أن يبلغ الرئيس السادات أنه ليس لدى السوريين - بعدما تأكد نجاح العبور - اعتراض على فكرة التقدم بمشروع قرار لوقف اطلاق النار. وطوال ذلك اليوم كان الاتصال بين الدولتين العظميين مستمراً، وكان من الواضح أن الاتحاد السوفييتى - كما هو حاله دائماً - كان أكثر اهتماماً بتحركه السياسى المقبل فى حين كان العرب أكثر انشغالاً بالموقف العسكرى الراهن.

وقد دهش الرئيس السادات حين سمع هذه المعلومات، وسأل فينوجرادوف عن مصدرها، وكان رده أنه تلقاها «من موسكو». وقال الرئيس السادات أنه كان من الممكن أن يفهم الاقتراح بوقف اطلاق النار لو أنه جاء من واشنطن، لأن المعركة تسير فى مصلحة العرب. ثم قال محتجاً أن من المستحيل عليه أن يتصور وقف اطلاق النار بينما خمس من الفرق تعبر القناة الى سيناء، والقوات المدرعة فى طريقها اليها. وقال أيضاً: «نحن نريد السلام ... لكن السلام لن يتحقق قبل أن يخرج آخر جندى اسرائيلى من سيناء».

وعند منتصف الليل من يوم السبت كانت عشرة من الكبارى قد اقيمت عبر قناة السويس، معظمها من طراز «ب م ب» السوفييتى. وفى العادة، فإن عملية اقامة كل كوبرى منها تستغرق عشر ساعات، لكن براعة سلاح المهندسين المصرى ومئات التدريبات التى أجريت على العبور خلال السنوات الست الماضية خفضت المدة الى ست ساعات. وكان كل كوبرى من هذه الكبارى مزوداً بـ ١٥ معدية تعمل كلها بسرعتها القصوى وأضافة الى الوحدات التى كانت تعبر القناة، فان قوات المظلات ووحدات

الكومانـدس الخاصـة كانت «ترش» كالملح فوق سينـاء. . . حيث قامت بقطع مواصلات العدو ونقط مراقبته، واستطاعت أن تجعل من منشآت البترول فى ابو زنيمة وسدر وبلاعيم كتلة من اللهب، فحرمت اسرائيل من آبار البترول فى جنوب سيناء بعدما ظلت تستغلها منذ استولت عليها فى العام ١٩٦٧. واضافة الى ذلك ، فإن هذه القوات قامت بغارة ناجحة على شرم الشيخ ، كما فرض الاسطول حصاراً على باب المندب وتأكد بذلك زيف المزاعم الاسرائيلية بأن السيطرة على شرم الشيخ ضرورية لأمن اسرائيل .

وبعد ظهر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) وبينما اهتمام اسرائيل كله مركز على الخطر المحدق بخط بارليف، انزل بالمظلات من طائرات الهليكوبتر فوق سيناء ما يقرب من ٥٠ وحدة من وحدات الكوماندوس الخاصة، تضم كل وحدة منها نحو ٣٠ رجلاً. وكان قائد أحدى هذه الوحدات ـ وهو المقدم ابراهيم الرفاعى ـ قد أصبح اسطورة فى الجيش المصرى. فقد اشترك فى ما بين العام ١٩٦٧ والعام ١٩٧٣ ما يراوح بين ٨٠ و٩٠ غارة على مواقع مختلفة فى سيناء. وقبل بداية المعركة بأيام عدة انزل هو ورجاله فى المظلات فى مناطق بعيدة وراء خطوط العدو. وقد استشهد فى اثناء عملية قام بها رجاله لوضع المتفجرات تحت أحد الكبارى التى اقامها الجنرال شارون عبر القناة فى الدفرسوار فى المراحل الأخيرة للمعركة . وكان ساعتها يقف على احد الطرق بجانب الكوبرى حين تلقى أصابة مباشرة من قذيفة دبابة اسرائيلية وبعد استشهاده أصبح واحداً من ١٤ رجلاً فقط منحوا ـ بعد استشهادهم ـ ارفع وسام للشجاعة فى مصر، وهو: نجمة سيناء .

وفى خلال الساعات الأولى للمعركة كانت القوات الاسرائيلية لاتزال ترنح تحت وطأة صدمة المفاجأة وسمعت القيادة المصرية قادة الدبابات الاسرائيلية يزأرون بالشكوى والحيرة تملكهم من النيران التى بدت كأنها تنصب عليهم من كل مكان فى الصحراء . واستقبلت القيادة المصرية بارتياح شديد ذلك القرار الذى اصدره الجنرال بيليد للطيارين ـ وأمكن التقاطه ـ يطلب اليهم فيه البقاء بعيداً عن القناة مسافة ١٥ ميلاً . فقد فسر القرار بأنه دليل على الخسائر الاسرائيلية فى الجو التى لم تعد محتملة . وكانت هذه أول مرة تشعر فيها القيادة الاسرائيلية بأنها فقدت السيطرة فى الجو ، كما فقدت ـ على الارجح ـ السيادة فيه، ولعلها احست كذلك أن عنصر التكافؤ لم يعد متوافراً لها فوق منطقة المعركة.

وقبل فجر يوم ٧ اكتوبر (تشرين الاول) اصدرت القيادة الاسرائيلية فى سيناء امراً الى جميع القوات العاملة فى حصون خط بارليف خيرتها فيه بين الاستسلام (بعد تدمير كل الاسلحة والمعدات) أو محاولة الانسحاب شرقاً والانضمام الى القوات فى خطى الدفاع الثانى والثالث.

وفى الساعة الثامنة وعشر دقائق من صباح اليوم نفسه أبلغ مركز القيادة التكتيكى الاسرائيلى فى ميتلا أن الوحدات المصرية تحاصر المنطقة تماماً. وكانت تلك اعمق نقطة توغلت فيها القوات المصرية خلال المعركة .

والى هنا سار تنفيذ خطة المعركة بدقة الساعة . والفضل فى هذا النجاح الذى فاق أعظم احلام أولئك الذين صنعوا الخطة يجب أن يعود بلا شك الى القادة الشبان والى صف الضباط وجنود المشاة والمدفعية والمدرعات الذين افاض الكثيرين منهم بعد ذلك فى الحديث عن الحياة التى احسوا بها تدب فيهم ، بعد سنوات ملل التدريب الطويلة، وكيف أنهم اصبحوا آخر الامر يعيشون حقيقة الحرب، واصبحت الفرصة متاحة أمامهم لمسح عار الهزيمة والذل الذى ظل الجيش المصرى يئن منه طوال ست سنوات .

وخلال يوم الاحد استطاعت فرقة المشاه الـ ١٨ تحرير القنطرة شرق، وتحقق بتحريرها وعد كان قائد الفرقة قطعه على نفسه للرئيس السادات. فقد كان الرئيس يبدى اهتماماً خاصاً بمصير المدينة ، لأنها المدينة التى خدم فيها وهو برتبة بكباشى فى سنتى ١٩٥٠ و١٩٥١ قبل الثورة. ثم جاءت الأنباء فى اليوم التالى بأن السوريين دخلوا القنيطرة .

ولقد كان الاسرائيليون يفاخرون دائماً بأنهم يحتلون المنطقة من «القنطرة الى القنيطرة»، فلما وصلت انباء احتلال القنيطرة بعث الرئيس السادات الى الرئيس الاسد برسالة قال فيها: «ألف مبروك للقنيطرة والقنطرة . . . .». ومع أن هذه الرسالة أرسلت بالفعل الا أنها لم تذع ابدا، لما اتضح بعد ذلك من أن الانباء التى اذيعت عن احتلال السوريين للقنيطرة ، كانت سابقة لأوانها .

وكانت الهجمات المضادة الاسرائيلية فى الجبهة السورية قد بدأت تتزايد ، وبلغت من العنف حدا افقد اكثر الهجوميين السوريين نجاحا ـ وهو الهجوم الجنوبى نحو جسر بنات يعقوب والعال ـ قوته الدافعة . وكان من الواضح أن القيادة العليا الاسرائيلية قد قررت تركيز جهدها فى الجو والبر فى الشمال ، بهدف جذب القوات السورية واخراجها من المعركة، بحيث تحول كل قواها بعد ذلك ضد المواقع المصرية فى سيناء .

ويوم الاحد عقد الرئيس السادات اجتماعا آخر مع السفير السوفييتى فينوجرادوف . ويبدو أن الرئيس لم يكن فى يوم السبت قد اخذ الكلام عن وقف اطلاق النار مأخذ الجد، لكن السفير فى هذه المرة قال أن السوريين اتصلوا بموسكو بشأن خسائرهم فى الدبابات ، وأن موسكو ترى أن شحن دبابات جديدة من اوديسا (وهو المركز المعتاد للشحن) الى اللاذقية سيستغرق وقتاً طويلا، وأن على السوريين أن يتصلوا بالعراقيين ويحصلوا على الدبابات منهم، على أن يقوم الاتحاد السوفييتى

بتعويضها للعراقيين فى ما بعد. وقد اكد فينوجرادوف صحة ما جاء فى كلام الرئيس الاسد للسفير السوفييتى فى دمشق محيى الدينوف ، من أن الرئيس الاسد لايعترض على وقف اطلاق النار اذا قدم اقتراح به. وهكذا ، فانه عندما خرج السفير بدأ الرئيس السادات يكتب رسالة الى الرئيس الاسد .

قال الرئيس فى الرسالة : أن وقف اطلاق النار الآن معناه أن تصبح اسرائيل فى مركز أقوى مما كانت عليه عندما بدأ القتال، وأنه مصر على أن من الخطأ تصور أن الهدف من القتال هو كسب أرض، فالهدف الحقيقى منه هو استنزاف دم العدو، وذلك يحتم علينا بالضرورة أن نكون مستعدين لتحمل خسائر جسيمة. وقال أيضاً: أنى لا أستطيع أن اوافق على وجهة نظرك، واقترح عليك أن تدفع بفرقتك الاحتياطية المدرعة الى المعركة ، وتسحب فى الوقت نفسه ـ اذا دعت الضرورة ـ احدى فرق المشاه من الجبهة للدفاع عن دمشق ».

وفى يوم الاثنين ٨ اكتوبر (تشرين الاول) واصلت الدبابات وقوات المشاه والمدفعية، والمعدات الثقيلة والخدمات الادارية والطبية تدفقها عبر القناة الى سيناء فى سيل متصل . وكانت عملية تعبئة قوات الاحتياط الاسرائيلى قد بدأت عندئذ فى سيناء، ودفع بها الى المعركة فى هجوم من اربع شعب . لكن الاسرائيليين ارتكبوا الاخطاء نفسها التى ارتكبها الجانب المصرى فى العام ١٩٧٠ . فقد كان عدد الوحدات التى استخدموها فى الهجوم قليلاً ، وكان التنسيق بينها معدوما ، واسفر عن ابادة لواء الدبابات الـ ١٩٠ الذى يقوده الكولونيل عساف ياجورى. واضطرت القوات الاسرائيلية بعده الى الانسحاب واتخاذ مراكز دفاعية على بعد يراوح بين ١٥ الى ٢٠ كيلو مترا شرق القناة. وكان فشل هذا الهجوم هو الذى آثار النزاع بين الجنرال كونين والجنرال شارون .

وفى نهار ذلك اليوم تحرك لواء مدرع من الجيش الثالث لاحتلال حصن عيون موسى، والعمل بوجه خاص على اسكات بطاريتى الدبابات الاسرائيليتين المزودة بمدافع بعيدة المدى عيار ١٥٥ ملليمترا، واللتين قامتا بتدمير مدينتى السويس وبور توفيق خلال حرب الاستنزاف .

وكانت القيادة المصرية ترى أن الموقف اصبح يحقق لها الآن جداراً دفاعيا قويا على الضفة الشرقية للقناة لابد أن تصطدم به أى قوات اسرائيلية تتقدم من وسط سيناء فى منطقة المناورات بين الممرات والقناة. وكانت القيادة ترى أيضاً أن تشدد القوات المصرية ضرباتها ضد قوات العدو كلما اشتدت محاولاته للهجوم عبره، وكان هذا التكتيك فى تقديرها افيد من التحول الى الهجوم .

لكن الصورة على الجبهة السورية كانت أقل اشراقاً . فالقوات الاسرائيلية هناك كانت استعادت عامل المبادرة ، وصدرت الاوامر الى

القوات السورية بأن تتحول الى الدفاع، وتركز على الاحتفاظ بالاراضى التى حررتها، وتستعد للصمود فى وجه الهجمات الاسرائيلية المضادة التى لابد آتية .

وفى يوم الاثنين جاء رد الرئيس الاسد على البرقية التى كان الرئيس السادات قد ارسلها اليه فى اليوم السابق. وقد نفى الرئيس الاسد أنه يريد وقف اطلاق النار، وقال أنه حائر فى فهم ما قاله فينوجرادوف للرئيس السادات، فالمعركة بالنسبة الى سوريا تسير سيراً حسناً، والقوات السورية تنزل بالعدو خسائر فادحة، فضلا عن انها حررت حتى الآن اكثر من نصف مرتفعات الجولان. كذلك، فانه قال أن خسائر القوات السورية ليست بالضخامة التى يتطلب تعويضها الاستنجاد بالعراق. وأن فى الاحتياط السورى ما يكفى لتعويضها. واكد الرئيس الاسد أن أى امر على مثل هذه الدرجة من الأهمية، كوقف إطلاق النار، لاتمس اثارته قبل الاتفاق عليه بينهما كحلفاء .

وكعادتى اليومية فى تلك الفترة ، فانى توجهت ، مغرب اليوم ، الى مقابلة الرئيس فى قصر الطاهرة. وكان سعيداً وفى حالة معنوية طيبة. وصعدت معه الى الطابق الثانى، حيث خلع بدلته العسكرية وارتدى البيجاما والروب دى شامبر قبل أن يجلس لتناول طعام الافطار. ورن جرس التلفون قبل أن نبدأ الاكل، وكان السفير السوفييتى على الخط يبلغ الرئيس بالجسر الجوى للسلاح الذى يتوقع أن يبدأ قريباً . اذكر أن الرئيس قال لفينوجرادوف (بالانجليزية التى يتقنها فينوجرادوف تماما) : «حسنا . . حسنا. . بديع . . بديع ! قل للرفيق بريجنيف أنى أشعر بالامتنان له من اعماق قلبى. قل لبريجنيف أن الاسلحة السوفييتية هى التى حققت معجزة العبور». وعندما انتهت المحادثة سألته عن رأيه فى حقيقة موقف السوفييت ، فقال أنه يعتقد أنه تبين لهم أن الحالة تمضى فى اتجاه مرض جداً، وأنهم يرون فى ذلك فرصتهم لأستعادة معظم أو كل هيبتهم فى الشرق الأوسط . وقال: « لا أظنهم سيضيعون هذه الفرصة ».

وبقيت مع الرئيس حتى ساعة متأخرة من الليل، فقد كان يشعر بعدم القدرة على النوم. وطلب أن يشاهد فيلماً، وأقترح أن يكون فيلما من أفلام رعاة البقر، كما طلب الى أن اشاهد الفيلم معه، لكنى كنت أحس بارهاق شديد، واكاد لا أقدر على فتح عينى. وقد ضحك وهو يقول لى : «طيب . . اذهب لتنام». مررت بمكتبى فى «الاهرام» قبل أن أعود الى منزلى لأرى أن كانت هناك أنباء جديدة، وعرفت أن الرئيس نيكسون قد طلب عقد اجتماع لمجلس الأمن القومى. وطلبت الرئيس بالتلفون لأبلغه النبأ، وكان ساعتها لايزال يشاهد الفيلم، وسألنى عما اذا كنت ارى فى ذلك ما يعنى أن نيكسون قد يبدأ اتخاذ اجراء قوى ضد العرب. فقلت:

«لا أظن ذلك ، لأنه لو كان يريد حقيقة أن يتخذ منا موقف الشدة لما لجأ الى مجلس الامن، وهو يعرف أنه عرضة لمواجهة «فيتو» من الاتحاد السوفييتي أو الصين، يقيد يديه تماما». وبدا أن الرئيس اقتنع بهذا التفسير .

وعند غروب يوم الثلاثاء كانت، المراكز التي تم الاستيلاء عليها على الضفة الشرقية لقناة السويس قد عززت بنقطتي ارتكاز للجيش يراوح عمقها بين ١٠و١٢ كيلو مترا. وكان الهدف المبدئي من الحملة قد تحقق. ومن الانصاف أن نقول أن الجيش المصري والشعب المصري كانا يعيشان في ذلك اليوم أسعد لحظات حياتهما منذ أيام السويس في العام ١٩٥٦ .

لكن الأيام الاربعة التالية كانت تحمل في طياتها قصة مختلفة . كان الهجوم خلال تلك الايام الاربعة قد فقد قوته الاولى الدافعة. وعلى رغم أن القوات المصرية في سيناء نجحت خلالها في صد الهجمات الاسرائيلية عليها الا أنها لم تنتهز الفرصة لشق طريقها نحو الممرات في قلب شبه الجزيرة. وكانت هذه الفترة هي التي يسمونها فترة «وقفة تعبوية» والتي اثارت نقاشا حاداً بين القيادات السياسية والعسكرية المصرية والسورية لم ينته الى اتفاق بشأنه حتى الآن .

فقد كان السوريون يرون أن الهجوم المصري يجب أن يستمر الى أن تصل القوات المصرية الى الممرات، وتكون القوات السورية قد وصلت عندئذ عند نهر الأردن وبحيرة طبرية، لاستغلال نجاحها في التقدم نحو الناصرة . وعندها - وعندها فقط - يمكن أن يكون لفترة «الوقفة التعبوية» ما يبرزها . أما وجهة النظر المصرية، فكانت تقول أنه كان من المتفق عليه اصلا أن تكون هناك «فترة وقفة تعبوية» عقب اجتياز خط بارليف، تتهيأ الفرصة خلالها لأعادة تجميع القوات، بحيث تكون جاهزة لصد هجمات العدو المضادة المتوقعة ، وبعدها يمكن أن يستمر التقدم نحو الممرات .

ولربما كان شبح الهزائم السابقة هو سبب احجام من كانوا يتولون القيادة عن الاقدام على اية خطوة تتسم بالمغامرة . وقد يكون السبب أن سلامة الجيش أهم في نظرهم من محاولة استغلال أي درجة غير مرئية من النجاح . وايا كان السبب ، فقد كانت هناك في الفترة مابين يوم ٨ اكتوبر ويوم ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) فرصة . . . وضاعت. واعتقادي الشخصي أنه لو كان التقدم نحو الممرات قد استمر ، والاستيلاء عليها قد تم، لأمكن تحرير سيناء كلها، مع ما يترتب على تحريرها بنصر كهذا، من نتائج سياسية لايمكن تقديرها .

وفي تلك الاثناء كانت الهجمات الاسرائيلية المضادة على الجبهة السورية تزداد شدة في البر وفي الجو على السواء، وناشدت القيادة

السورية المصريين، القيام بعمل سريع لتخفيف الضغط عليهم. فقد دفعت القيادة الشمالية للقوات الاسرائيلية الى المعركة صباح يوم ٩ اكتوبر (تشرين الاول) بلواءين جديدين للدبابات. وفى ضوء الفشل أمام المقاومة العنيدة غير المتوقعة من جانب القوات السورية فى القطاع الشمالى والحجم الكبير للخسائر التى تكبدها العدو، فانه احال ليلة ٩ - ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) الى جحيم. فقد استمر سلاحه الجوى فى غاراته على دمشق وحمص بقسوة بالغة فى محاولة لأضعاف الروح المعنوية للشعب واسقاط النظام. وتحولت القنيطرة الى مسرح قتال وحشى تكبد فيه الجانبان خسائر فادحة. فقد كانت القنيطرة بالنسبة الى السوريين عاصمة لأقليم سورى، لكن قيمتها فى نظر الاسرائيليين كانت فى موقعها الحيوى بالنسبة الى خططهم الدفاعية فى منطقة الجولان المحتلة.

وبحلول يوم الاربعاء كانت القوات السورية فى وضع صعب. فالهجمات الاسرائيلية المتصاعدة تنزل بها خسائر بالغة اضطرت القيادة السورية الى أن تدفع الى الميدان بالدبابات الـ ٥٠٠ التى تتكون منها فرقة الدبابات الثالثة، والتى كانت ترابط حول دمشق وفى شمالها باعتبارها احتياطاً استراتيجيا. ووجه القائد العام للقوات المسلحة السورية نداء الى نظيره المصري يطلب فيه الرد على اسرائيل لضربها دمشق وحمص. لكن ذلك بدا امراً صعباً. وعندئذ اتصل السوريون فى هذا الشأن بالعراقيين، فوافقوا فى بادىء الامر، لكنهم عادوا فاعتذروا بعدم توافر الوقت الكافى لقاذفاتهم للقيادة بالعمل المطلوب.

وفى ضوء هذه الظروف اصبحت العلاقات بين القيادتين فى كل من القاهرة ودمشق مشدودة.

وفى ليلة ٩ اكتوبر (تشرين الاول) كان الرئيس السادات فى قصر الطاهرة فى انتظار نتائج معركة الدبابات المستمرة بعنف، حين تلقى رسالة من السفير السوفييتى فينوجرادوف يطلب فيها مقابلته. وتمت المقابلة، فى مكتب الرئيس، وبدا الرئيس بعدها متوتراً. فقد ذكر فينوجرادوف خلالها أن الموقف دقيق على الجبهة السورية، وأن السوريين خسروا حتى الآن عددا كبيراً من الدبابات بلغ ٦٠٠ دبابة، وقال أن اجتماع مجلس الأمن الذى دعا الأمريكيون الى عقده قد حان وأن السوفييت يجدون انفسهم أمام هذا الموقف فى ورطه. فهم لا يزالون عند ظنهم أن السوريين يرغبون فى وقف اطلاق النار، لكنهم يعرفون أن المصريين لايريدونه. لذا فهم حائرون فى ما يفعلونه، اذا ما قدم الى المجلس اقتراح بوقف اطلاق النار. أن موقفهم سيبدو غريباً سواء استخدموا حق الفيتو لوقفه أو امتنعوا عن التصويت عليه.

وطلب الرئيس السادات الى السفير السوفييتى أن يتوقف عن الخوض

فى الحديث عن نوايا السوريين، وقال له أنه تلقى رسالة من الرئيس الاسد نفسه ويعرف وجهة نظره تمام المعرفة، وأن المهم بالنسبة اليه (الرئيس) هو الجسر الجوى الذى وعده السوفييت به. وقال أن الامريكيين يفعلون كل ما يستطيعونه لتزويد الاسرائيليين بما يطلبون من سلاح، ويريد أن يعرف مالذى سيفعله السوفييت؟ اذا كانوا يريدون التراجع عن «وعدهم فهم احرار، وسيشكرهم على ما فعلوه ولن يجهر بالشكوى لأن الحقيقة كلها كفيلة بأن تظهر .

وعندما أكد فينوجرادوف أنه لايسعى الى الضغط على مصر لوقف اطلاق النار ، قال الرئيس السادات أنه يريد تحقيقاً فى موقف السفير السوفييتى فى دمشق ، وأضاف: « أريد تحقيقاً رسميا . . وأريد أن أبلغ بنتائجه». وبعدئذ بدأت اعصابه تهدأ ، وأكد للسفير مرة اخرى أن انتصارات العرب ستدعم الى حد كبير سمعة السلاح السوفييتى ومركز الاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط .

وبعد ذلك بقليل ، ذهبت أنا نفسى الى قصر الطاهرة. وكان موعد الافطار يقترب. ولاحظت لمجرد أن دخل الرئيس أن ثمة ما ضايقه، وسألته . فذكر لى تفاصيل اجتماعه بالسفير السوفييتى واطلعنى على مسودة خطاب يفكر فى أن يوجهه الى الشعب عن طريق الاذاعة والتلفزيون. وقال أنه كان يفكر فى القائه بعدما بدأ القتال، ثم رأى أن يؤخره الى أن يتأكد من سير المعركة. لكن بداية الخطاب ـ الذى طلب منى أن اقرأه بصوت عال ـ بدت غير مناسبة . فقد كانت تقول : «يسعدنى أن أكون معكم جميعاً فى هذه الساعة المجيدة من تاريخنا . . . » . ولم أكمل فقد قاطعنى الرئيس ليقول : «الحقيقة أنها ساعة صعبة؟ . . أن الجبهة السورية تتعرض لضغط شديد . .». وكان يتمشى فى القاعة ذهابا وجيئة، ثم قال: «لابد من تغييره. . ولنذهب الى الشعب ونقول له أننا سنقاتل الى النهاية. وفى استطاعتى أن أخاطبه كما خاطب تشرشل الشعب البريطانى فى العام ١٩٤٠ ». ثم أمسك بسماعة التلفون وطلب الى الفريق أحمد اسماعيل أن يحضر الى القصر.

وخرجت لأستقبل الفريق احمد اسماعيل ، وتركت الرئيس يملى رسالة للرئيس حافظ الاسد. وقد احتضننى احمد اسماعيل وهو يقول أن هذه هى المرة الأولى التى خرج فيها من تحت الارض منذ أن بدأ القتال، ثم راح يحكى لى عن وحدة رجال الكوماندوز التى استطاعت وحدها أن تدمر بلاعيم وابو رديس ، وبعد ذلك انتقل الى الحديث عن دور العراق. فقد اوفدت الحكومة العراقية مبعوثا خاصا الى موسكو طلب من بودجورنى أن يتوسط لدى شاه أيران ليخفف الضغط على الحدود الشرقية حتى تستطيع القوات العراقية أن تتقدم لمساعدة سوريا. وقد وعد بودجورنى بأن يتصل بالشاه ، لكنه اعرب عن دهشته لعدم مسارعة الدول

العـربيـة كلهـا الى مسـاعـدة مصر وسوريـا، وتسـائـل :«لماذا لاتساهم هذه الـدول بكـل ما تملك فى المعـركـة؟ لماذا حصـل العـراق والجزائـر على كل هذا السـلاح منـا؟ هل سيبدأ العـراق حربـا ضد الكـويت. . أو تبدأ الجزائـر حربـا ضد المغـرب؟ مالـذى تنتـظرونـه؟» ثم وجـه الى المبعـوث العـراقى التحـذير نفسـه الـذى وجهه فينـوجـرادوف فى القـاهـرة ، وقـال فيـه أنـه لمجرد أن تحقق اسرائيل نصراً فى الجبهة السورية فأنها ستركز كل طاقتها ضد مصر.

وكـنت أنـا نفسـى متلهفـاً على معـرفـة حقيـقـة المـوقـف، فاتصـلت بفينـوجـرادوف ورتبت معـه لقـاء يتم فى منـزلـه فى ساعـة متـأخـرة من ذلـك المسـاء . ووصلت الى المنـزل فى السـاعـة العـاشرة، وكـان سكـرتـير السفير فى انتـظارى فى الحـديقـة المـظلمـة . وكـان الـظلام يسود المنزل كله بسبب حالـة الاظـلام فى البـلاد لدواعى الحـرب، لكنى سمعت انغـام الكـونشرتـو الـرقـم ٢ لرخمـانينـوف تنبعث من البيـانـو، ودخلت من باب يؤدى الى قاعـة استقبـال صغـيرة على الجـانب الايمن للمنـزل ، واستـطعت أن أرى السفـير يلعب البيـانـو على ضوء شمعـة واحـدة. وبقيت واقفـا حيث أنـا نحـو ثلاث أو أربـع دقـائـق اصغـى الى المـوسيـقى حتى احس السفـير بأن هنـاك من يقف على قرب منـه فرفـع رأسـه، وسـمعنى أقـول وأنـا اصفق :«بـرافـو». ورد بابتسـامـة :«أن هـذه هى الـطريقـة التى الجـأ اليها للاسترخـاء . . وهى ـ فى ساعـات التـوتـر ـ الـطريقـة الـوحيـدة التى استـطيع أن استرخى بها». ثم راح يحدثنى عن المقـابلة العـاصفـة التى تمت بينـه وبـين الـرئيس ، وقـال أن بريجنيف وجـريتشكـو اتصـلا به تلفـونيـا وانهما كليهـما يعتقـدان أن اسرائيل تشـدد الضغط على سوريـا فى محاولـة لأخـراجهـا من المعـركـة، وبعـدهـا تركـز كل قواتهـا ضد مصر. وقـال: «لقـد كنت طوال اليـوم فى اجتـماعـات مستمـرة مع ملحقينـا العسكـريـين . وأقـول لك الحق، أنهم غير مرتـاحـين الى النحـو الـذى يتـطور اليـه المـوقف . ولست ادرى السر فى عدم تقـدم قواتكم . لماذا لم تدعمـوا مكـاسبكم وتبـدأوا الانـدفـاع الى الممـرات؟ أن هذا ليس بالامـر المنـطقـى الـذى يجب على جيشكم أن يفعله فقط، لكنـه يسـاعـد أيضـاً على تخفيف الضغط عن السـوريـين». ثم قال أن الـوقت ضيق جدا أمـام العـرب للحصـول على النتـائـج، فالـزمن المحـدد للقتـال محدود، ولابـد للعـرب من أن يعـدوا أنفسهم للمرحلة التـاليـة . . وهى المرحلة السيـاسيـة. وقـال أن من بين الاسئلة التى وجههـا اليـه بريجنيف بالتلفـون فى ذلـك اليـوم: «مـاهى حدود أهـدافهم المحـدودة؟». (كـان الـرئيس السـادات لايـزال يؤكـد للسـوفييت أن هذه حرب «أهـداف محدودة») وأكـد لى أنـه ليس هنـاك أى سبـب على الاطـلاق للشكـوك التـى أعـرب عنهـا الـرئيس الـسـادات من أن الاتحـاد الـسـوفـيتى يتراجـع نتيجـة للخـوف، وقـال أن العكس صحيـح لأن الجسر الجـوى لمصر وسـوريـا قد بدأ بالفعـل. وقلت لفينـوجـرادوف أن الامـريكيين سمحـوا للاسرائيليـين منـذ أول يوم من أيـام القتـال بأن ينقلوا فى طائـراتهم

مايشاؤون من السلاح والعتاد من الولايات المتحدة ، وأن شركة «العال» الاسرائيلية اوقفت كل رحلاتها حتى تتمكن من نقل معدات الحرب الى اسرائيل . فرد فينوجرادوف أنه سيكون من الصعب الاستمرار فى الجسر الجوى اذا كانت أحدى الدول العربية تريد وقف اطلاق النار ، بينما الاخرى تعارضه . ثم قال: «أن فى استطاعتنا أن نفعل أى شىء ، لكن لابد لنا من أن نعرف بالضبط ما المطلوب منا أن نفعله».

وذكر فينوجرادوف أنه وخبراءه العسكريين يشعرون بأشد القلق تجاه الموقف العسكرى، ويرون أن كثافة حشود القوات المصرية فوق شريط من الارض محدود فى الضفة الشرقية يعرضها لخطر كبير . وقال : «ذلك لأنه اذا بدأ الاسرائيليون عملية ضرب المنطقة، فان خسائركم ستكون اسوأ من أى شىء تعرضتم له فى العام ١٩٦٧». وقد حاولت طوال كلامه أن أسمعه برغبة شديدة فى الفهم والتعاطف . فقد كان من الواضح أن الرئيس ضغط عليه بشدة فى اثناء اجتماعه به بعد الظهر، ولا سيما عندما وجه الى الرئيس سؤالاً أخيراً عما يسعى الى تحقيقه سياسيا من القتال ، لأن السوفييت ـ كما كان حالهم دائما ـ كانوا يفكرون فى الخطوة التالية التى يجب عليهم أن يخطوها . وقد وجه الرئيس اليه نظرة قاسية وقال: «أنك الآن تتحدث الى القائد الأعلى للقوات المسلحة. وأنا لم أسمع سؤالك السياسى لأنى اعتقد أن شاغلى الأول يجب أن يكون المعركة والقتال. واذا كنت تريد أن تتحدث عن الموقف السياسى فاذهب وناقشه مع الدكتور فوزى». وسألنى فينوجرادوف رأيى فقلت له، أن عليه بالتأكيد أن يقابل الدكتور فوزى كما اقترح عليه الرئيس. وقد قابله بالفعل فى اليوم التالى .

وعدت الى بيتى من منزل السفير السوفييتى مستغرقا فى تفكير عميق . ذلك أنى سمعت قبل بضع ساعات فى أثناء مناقشة للموقف مع اثنين من كبار خبرائنا العسكريين تأكيدات أن الموقف العسكرى «مثالى» وأن الاسرائيليين يحشدون قواتهم المدرعة فى منطقة بين الممرات والقناة، مما لايتيح لهم الا مساحة محدودة للمناورة، ويمكن قواتنا من أن تضربهم بقسوة. وفى الحقيقة، فان اللواء حسن أبو سعدة قائد فرقة المشاة الثانية التى كانت أول من اشتبكت مع القوات الاسرائيلية على نطاق واسع وأحد خيرة القادة الذين ظهروا فى هذه الحرب ، كان قبل ذلك بساعات قد اسر قائد اللواء الاسرائيلى ١٩٠ المدرع بعدما دمره تماماً .

لكن ما سمعته من الجانب السوفييتى عزز تصورى بالنسبة الى الممرات، ذلك أنى كنت أعتقد دائماً أنه لابد لنا من أن نتقدم نحو الممرات ونحتلها، حتى لانعرض قواتنا لهجمات العدو اذا تركناها فى العراء بين القناة والممرات .

واتصلت بالرئيس تلفونيا فى قصر الطاهرة فقيل لى أنه خرج مع ابنته وخطيبها فى جولة فى قلب القاهرة ليحس بنبض الجماهير ويشعر بشعورها. وتركت رسالة ارجوه فيها أن يتصل بى . وأتصل بى بالفعل فى الساعة الواحدة والنصف صباحاً. وقلت له أنى اجتمعت مع فينوجرادوف، ونقلت اليه تقييم السفير وهيئة خبرائه للموقف . ورد الرئيس أنه مختلف معهم، وقال: «وكما قلت لحافظ الاسد، فان الارض ليست مهمة، أنما المهم هو استنزاف العدو. وأنا لا أريد أن أرتكب خطأ الاندفاع الى الامام بسرعة كبيرة لمجرد كسب المزيد من الارض. ولابد لنا من أن نجعل العدو ينزف». وكان من العسير على أن أنام بعد أن أويت الى فراشى لأن الآراء المتعارضة حول الطريقة التى يجب أن تدار بها المعركة كانت تدور . . . وتدور فى ذهنى .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى اتصلت تلفونيا بالفريق احمد اسماعيل وابلغه وجهة نظر السوفييت حول ضرورة تقدم قواتنا لأحتلال الممرات. فقال: «اتعرف». . تلك كانت نيتى . . لكنه لابد لنا الآن من تعديل خططنا نظراً الى الوضع على الجبهة السورية. ذلك أنه لابد لنا، اذا ما تحول العدو وركز كل هجماته علينا، من أن نتجنب بأى ثمن أن تكون قواتنا منتشرة بطريقة خطيرة».

وفى يوم الخميس ١١ اكتوبر (تشرين الاول) كان السوريون لايزالون يفقدون أرضا فى القطاع الشمالى، بينما كان الاسرائيليون يضاعفون من هجماتهم ويشددونها ويتوغلون مسافة كبيرة على طريق القنيطرة ـ دمشق. وبدأ فى تلك الاثناء أن تدخل العراقيين وشيك . فقد تلقى الرئيس السادات رسالة من الرئيس العراقى أحمد حسن البكر يقول فيها أنه ظل طوال اليومين الماضيين يحاول عبثا الاتصال بالقاهرة، وأنه لا يجد وسيلة على الاطلاق للاتصال بدمشق، ويرجو من الرئيس السادات أبلاغ الرئيس الاسد أن العراق يضع تحت تصرف سوريا اربعة اسراب من الطائرات، وأن القواعد الجوية المتقدمة فى العراق مفتوحة لأستخدامها من جانب القوات الجوية السورية والاردنية .

وفى ذلك اليوم نفسه، بعث ياسر عرفات ببرقية الى الرئيس السادات يقول فيها أن اللجنة التفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تحاول بكل الوسائل أن تدفع بوحدات من رجال المقاومة الى منطقة الاغوار، يمكن أن يكون فى اشتراكها ما يؤدى الى فتح جبهة ثالثة. كذلك ، فان أبو اياد اتصل تلفونيا بالرئيس ليقول أن ياسر عرفات أبلغه أن هناك ١٠٠٠ من رجال المقاومة يقفون على الحدود منذ أربع وعشرين ساعة فى انتظار اذن من السلطات الاردنية بعبور الحدود الى منطقة الاغوار ، وأن السلطات الاردنية ترفض التصريح لهم بالدخول ، وهم يرجون الرئيس السادات الاتصال بالملك حسين لمنحهم الاذن. لكن الرئيس كان يشك فى احتمال

الـوصـول الى نتيجـة تذكـر فى مثـل هذا الاتصـال، وكـان تصـوره أن الملك حسـين لن يدخـل المعـركـة، الا بعـد أن يتـأكـد تماماً من أن الاسرائيليـين قد انهكوا الى درجة لاتمكنهم من توجيه ضربات كبيرة اليه.

وفى الـوقت نفسـه كان الاحتكـاك لايـزال مستمـراً مع القـذافى، وقـد تأثـر الـرئـيس الـسـادات مما صرح به الـقـذافى علانـيـة من أنـه غير موافـق على الخـطة الشـاملة للهجـوم . وكـانت وصلت من القـذافى برقيـة لم يكن لها تأثـير يذكـر فى تحسـين الموقف . كانت البـرقيـة تقـول: «تحياتى . ابعث اليك بكـل ما نملـك من الـقـذائـف المضـادة للطائـرات ومـعـهـا حامـيـة طبرق. كما أن الاوامـر صدرت الى لواء مدرع بأن يتحـرك الى القـاهـرة فوراً . فضـلاً عن أن الاسـواق والمخـازن جردت مما فيهـا. وقـد بلغنى أنـك تأثـرت لبعض ما نقل عنى أنى قلتـه. وحقيقـة ما قلتـه هو: أنـه حتى ولـو سارت المعـركـة فى غير مصلحتنـا ، لاسمح الله ، فأن ذلـك سيكـون نتيجـة لتفـوق اسلحة العدو ، لا نتـيجـة أى قصـور من جانب جنـودنـا. ويكفى أن الجنـدى الاسرائيـلى يفـر الآن أمـام الجـنـدى المصرى . أن ذلـك ليس نصراً عظيـماً للشـعـب المصرى وحـسـب، لكـن له أهميـتـه الـكـبرى خارج مصر. (ولايمكننى أن اتصـور أى شىء يغـايـر ذلـك فى الـوقت الحـاضر). لكـنى أود أن أبلغـك ، ياسيـدى الـرئيس، أن شعبنـا يشعـر بالاستيـاء لعـدم ذكـر أى شىء فى كل ما تذيعـه أذاعـات القـاهـرة عن مسـاهمتـه السيـاسيـة فى المعـركـة ، بينما تبالـغ هذه الاذاعـات فى كل ما تقـولـه عن مسـاهمـة الملك فيصـل. أن ليبيـا لاذكـر لها على الاطـلاق. وهـذا أمـر يبعث على الاسف ياسيـدى الـرئيس ، لكن المهم الآن هو ارادة القتال . كان الله معك فى هذا الوقت . القذافى».

وبعـد ضهـر يوم ١١ اكتـوبـر (تشرين الاول) كنت فى قصر الـطاهـرة فى انـتـظار لقـاء الـرئـيس حين دخلت السيـدة قرينتـه. أن هذه السيـدة قامت خلال الحـرب بدور شهـم. كانـت دائـماً مع الجنـود فى المستشفيـات تحمـل الى الـرئـيس خطابـاتـهم ورسـائـلهـم المـرحـة الـتى كان لها تأثـير كبـير فى تشـجيعـه. وتـركـت الحـديث مع عبـد الـفـتـاح عبـد الله وزيـر شؤون الـرئـاسـة عنـدمـا خرج الفـريق احمـد اسماعيـل من مكتب الـرئيس . وكـان هنـاك طبق من الفـاكهـة على مائـدة قريبـة، أخـذ منه الفـريق احمـد اسماعيـل - الـذى لم يكـن لديـه متسـع من الـوقت يأكـل فيـه خلال الأيـام الخمسـة المـاضيـة - عنقـوداً من العنب راح يأكـل حباتـه وهـو يلف ويـدور فى الغـرفـة ويحكى لنـا عن المعـركـة، ويعيـد ويكـرر قصـة الاستيـلاء على خط بارليف وعن انهيـار الجنـرال جونـين. وفى اثنـاء ذلـك استـدعيت لمقـابلة الـرئيس ، فدخلت مكتبـه ، ووجـدتـه متعبـاً يخلع بدلتـه العسكـريـة ويـرتـدى بيجاما رمادية الـلون مخططة. قال أنـه يعـتـقـد أن المـوقـف على الجبـهـة الـسـوريـة بدأ يتحسن، وأن الامـدادات تتـدفق هنـاك، بعضهـا من العـراق . وقـال أنـه أبلغ الاتحـاد الـسـوفييتى أن أى أسلحـة مرسلة الى مصر يمكن أن تفيـد منهـا

سوريا، يجب أن تحول الى دمشق . وقال أيضاً أنه تلقى رسالة من الملك حسين عن طريق رئيس الاركان الاردني تقول أن الملك ضد فكرة فتح الجبهة الاردنية، لأن بلاده تفتقر الى وسائل الدفاع الجوي، وأنه لذلك يفضل أن يبعث بوحدات من جيشه لتقديم العون في الجبهة السورية.

وهنا دخل الفريق احمد اسماعيل الغرفة . وكان بادي السعادة . فقد تلقى رسالة بأن السوريين يحتوون الهجوم الاسرائيلي بنجاح. وقال له الرئيس: «لقد عرفت أنها أنباء طيبة لمجرد أن رأيت تعبير وجهك». ثم رن جرس التلفون، وكان المتحدث هو الرئيس الجزائري هواري بومدين. قال أنه سمع الخطاب الذي القاه دافيد اليعازر وقال فيه : «أننا سنضربهم . . وسنهزمهم . . وسنحطم عظامهم». وقال بومدين: «يبدو لي أنهم بدأوا يفقدون أعصابهم».

وكان من بين الانباء الطيبة التي وردت في تلك اللحظة أيضاً أن الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي (ورئيس دولة الامارات) الذي كان في لندن في ذلك الوقت، قد حول الى مصر مبلغ ١٠٠ مليون دولار .

وكان الرئيس في حالة نفسية طيبة. قال لي أنه سيصلي الجمعة في مسجد صغير كان صلى فيه وهو في الرابعة من عمره عندما جاء الى القاهرة مع والده لأول مرة. وقال أنه صلى في ذلك المسجد في الاسبوع الماضي من دون أن يلحظه أحد. وقال: «أن المسجد لايزال كما كان عليه تماماً منذ خمسين عاماً، باستثناء أنه كان عندذاك يضاء بالشموع ، أما الآن فهو يضاء بالكهرباء».

وكان الجو في قصر الطاهرة يتسم بالتفاؤل الشديد، وراح الحديث يدور حول ما سنفعله بعد انتهاء المعركة . وكنت اشعر بأن هناك اسئلة كثيرة بحاجة الى الاجابة. كما أنني كنت قلقاً بالنسبة الى الموقف الدولي .

ولقد قال لي كيسنجر في ما بعد أن الامريكيين كانوا يظنون في الاصل أن الاسرائيليين سيكونون في خلال ٤٨ ساعة من بدء القتال في موقف يمكنهم من القيام بهجوم مضاد مدمر ضد القوات المصرية في سيناء. وأن امريكا أنها تقدم الينا المساعدة باقتراحها وقف اطلاق النار وانسحاب الجانبين الى خطوط ما قبل يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) . فقد كان التصور الامريكي أنه اذا لم يصدر قرار بوقف اطلاق النار ولقيت مصر الهزيمة العسكرية الساحقة التي يتوقعها الامريكيون لها، فانهم سيجدون انفسهم عندئذ أمام أحد تطورين، كليهما غير مرض بالنسبة اليهم . فاما أن يتدخلوا لكبح جماح اسرائيل، وأما أن يضطر المصريون الى الالتجاء الى السوفييت لأنقاذهم ، مع ما يعنيه ذلك من عودة السوفييت الى مصر في مركز اقوى بكثير من قبل. لكن الصورة تغيرت.

فقد ادرك الامريكيون أن مصر ليست فى خطر يعرضها لهزيمة أخرى مفاجئة نكراء، بل على العكس ،فان القوات المصرية قدمت عرضاً رائعاً.
وكان كيسنجر ـ حتى قبل أن يتولى منصب وزير الخارجية ـ على اتصال بحافظ اسماعيل عن طريق شبكات الاتصال المغلقة. وقد بعث الى حافظ اسماعيل يوم ٩ اكتوبر (تشرين الاول) . برسالة عن طريق تلك الشبكات على نمط الرسالة نفسها التى سلمها الى الدكتور محمد حسن الزيات فى واشنطن. وكانت الرسالة تقول: «حسنا. . انكم قلتم كلمتكم ، ولكن الى أين نمضى من هنا؟ أننا لايمكننا أن نتوقع استمرار الموقف الحاضر لوقت طويل، وحين يتغير، فانه سيتغير لغير مصلحتكم». وفى اليوم التالى بعث اليه حافظ اسماعيل برد على رسالته املاه الرئيس السادات بنفسه .

وقد تضمن الرد خمس نقاط .

١ ـ يجب أن يكون هناك وقت لأطلاق النار يعقبه انسحاب فى زمن محدد، وتحت اشراف الامم المتحدة، لجميع القوات الاسرائيلية الى ما وراء خطوط ماقبل ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

٢ ـ أن حرية الملاحة فى مضايق تيران يجب أن تكفل بوجود للأمم المتحدة فى شرم الشيخ لفترة محددة .

٣ ـ بعد الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية كما هو مبين فى النقطة الأولى ، يتم انهاء حالة الحرب مع اسرائيل .

٤ ـ بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من قطاع غزة توضع المنطقة تحت اشراف الامم المتحدة الى حين أتاحة الفرصة لسكانها لممارسة حقهم فى تقرير مصيرهم واتخاذ قرار بشأن مستقبلهم .

٥ ـ خلال فترة محددة بعد انهاء حالة الحرب، يعقد مؤتمر سلام تحت رعاية الأمم المتحدة تحضره كل الاطراف المعنية ، بما فيها الفلسطينيون ، وكل الدول الاعضاء فى مجلس الامن . ويبحث المؤتمر كل المسائل المتعلقة بالسيادة ، والأمن ، وحرية الملاحة .

ومساء يوم الجمعة ١٢ أكتوبر (تشرين الاول) ، طلب سير فيليب آدامز السفير البريطانى فى القاهرة مقابلة الرئيس. واستقبله الرئيس عند منتصف الليل وتسلم منه رسالة من ادوارد هيث رئيس الوزراء البريطانى يطلب فيها من مصر الموافقة على وقف اطلاق النار فى المراكز الحالية، ويشير الى أن ذلك تنازل من جانب اسرائيل أجبرت على الموافقة عليه. ونوقشت الرسالة فى صباح اليوم التالى، وكان الاجتماع أن مصر لايمكن أن تقبل وقفاً لأطلاق النار فى الوقت الذى تتقدم قواتها فيه، ولاسيما أن هجوماً كبيراً من المقرر أن يبدأ على الجبهة المصرية فى اليوم التالى. وقد تلقى السفير البريطانى الرد من اسماعيل فهمى وزير الخارجية أن

مصر لايمكن أن تقبل وقف اطلاق النار الا اذا قامت اسرائيل بخطوة إيجابية تبين أنها بدأت تجلو عن المناطق التى احتلتها فى العام ١٩٦٧. كما أبلغه الوزير النقاط الخمس التى أرسلت الى كيسنجر.

وقد استمرت «الوقفة التعبوية» طوال أيام ١٠ و١١ و١٢ و١٣ اكتوبر (تشرين الاول). وبحلول مساء يوم ١٣ كان ما يمكن أن يسمى المرحلة الأولى من المعركة التى حققت مصر فيها نصراً مذهلاً قد انتهت. وكان المفروض أن يكون يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) هو يوم اطلاق المدرعات المصرية فى زحف نحو الممرات.

وقد انقسمت الآراء بين ضباط القيادة فى القيادة العامة والقيادات التابعة حول الهجوم. فقد كان البعض يرون أن اللحظة المثالية لم تنتهز، ولكن لاتزال هناك فرصة طيبة للتقدم، ربما استطعنا بتشديد الهجوم أن نعوض الزمن المفقود. لكن البعض الآخر كان يرى أن الفرصة ولت وأن الوقت متأخر للقيام بالهجوم، ومن الافضل أن نركز على مراكزنا الدفاعية فى الضفة الشرقية للقناة.

وكانت القوات الاسرائيلية التى فقدت توازنها خلال الثمانى والاربعين ساعة الأولى بفعل الضربات الشديدة التى تلقتها، قد بدأت تفيق من الصدمة. ولم يكن الزحف المصرى فى مولده، فى حين أن الموقف على الجبهة السورية كان يثير القلق. وقد اتسمت الرسالة الثالثة عشرة من الرسائل التى بعثت بها دمشق تناشد فيها مصر العمل على تخفيف الضغط الاسرائيلى عنها بقدر اكبر من الحدة.

وكجزء من الاستجابة لهذه النداءات صدرت الاوامر يوم ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) الى قائدى الجيشين الثانى والثالث ببدء هجوم فى الاتجاه الشرقى يستخدمان فيه القوات المدرعة، واستخدام قوات المشاة فى الدفاع عن نقط الارتكاز التى تم الاستيلاء عليها عند القناة. وكان الموقف يشابه فى بعض نواحيه موقفاً آخر فى واحدة من معارك احد شهور اكتوبر (تشرين الاول) اتخذه قائد حذر آخر هو الجنرال مونتجومرى الذى اطلق قواته المدرعة بعد تسعة أيام استغرقها فى تحطيم تحصينات العدو، واحتفظ بقوات المشاة فى المؤخرة تحافظ على الميزان الاستراتيجى فى مسرح العمليات. وقد يكون حذر مونتجومرى انعكاساً لأهتمامه بتجنب الكارثة التى تعرض لها الجنرال ريتشى. تماماً كما كان حذر الفريق احمد اسماعيل انعكاساً لأنشغاله بالكارثة التى تعرض لها المشير عبد الحكيم عامر فى العام ١٩٦٧.

وكان الهدف من الهجوم أن تقوم قوات الجيشين المدرعة بالتوغل مسافة ٣٠ كيلو متراً نحو المخارج الغربية للممرات فى سيناء والاستيلاء على الطريق الجانبى الذى اقامه الجيش الاسرائيلى، بحيث يتم تحييد

الاحتياط الاسرائيلى المرابط حول الطريق . كذلك ، فانه كان على المدرعات أن تمنع تقدم المدرعات الاسرائيلية من مناطق الاحتياط الى منطقة العمليات ، بحيث تتهيأ الظروف الملائمة أمام القوات المصرية لتبدأ تقدمها الأخير شرقاً. لكن ما كان متاحاً أمام مصر أن تنجزه يوم ٧ اكتوبر (تشرين الاول) لم يعد متاحاً لها أن تنجزه يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) .

فلمجرد أن بدأت المدرعات المصرية تقدمها فى الساعات الاولى من صباح يوم الاحد، وابتعدت عن الغطاء الذى توفره لها وسائل الدفاع الجوى أصبحت هدفاً للضربات الاسرائيلية من الجو. كذلك، فان الاسلحة المضادة للدبابات والقذائف المحمولة بطائرات الهليكوبتر التى كانت اسرائيل قد تسلمتها أخيراً من امريكا استطاعت أن تلحق اضراراً شديدة بالدبابات المصرية . وعلى رغم ذلك، فان عدداً كبيرا من قادة الدبابات المصريين وجنودها شقوا طريقهم الى الامام بشجاعة منقطعة النظير فى وجه هذا الغزو لميدان المعركة من جانب هذه الاسلحة التى ابتكرتها التكنولوجيا الامريكية. ولم يحدث للحظة واحدة أن انخفضت روح القتال لدى الجنود المصريين عن الذروة التى كانت عليها .

وكما حدث فى الهجوم المضاد الاسرائيلى يوم ٨ اكتوبر، (تشرين الاول)، فإن الهجوم المصرى بدأ من اربع شعب بالطريقة المتدرجة نفسها غير المنسقة. واستخدمت فى تعزيزه وحدات من فرقتى الدبابات اللتين تتخذان موقعهما غربى قناة السويس كاحتياط عام. وكان ذلك اجراء نجمت عنه فى ما بعد نتائج خطيرة. وقد فسرت حكومة اسرائيل، بقوة دفع متزايدة، وكانت الدبابات والمدفعية الامريكية تنقل بالطائرات الى ميدان القتال مباشرة. وفى تلك الاثناء كان الامريكيون والاسرائيليون قد عرفوا أن احتياط مصر الاستراتيجى قد دخل المعركة، بعدما عبرت القناة الى سيناء الفرقة المدرعة الحادية والعشرون التى كانت تتخذ موقعها خلف الجيش الثانى، كما عبرها لواء من الفرقة الرابعة التى كانت ترابط خلف الجيش الثالث .

وقد استطاعت دقة تصويب القذائف المضادة للدبابات التى وصلت حديثاً الى ميدان القتال أن توقف تقدم القوات المصرية على مسافة تراوح بين ١٢ و١٥ كيلو مترا من نقطة بدايته، مع تكبيدها خسائر كبيرة. وتلقت الوحدات المصرية المهاجمة بعد ذلك امراً بالتراجع الى الخطوط التى بدأت منها الهجوم .

ومن المفارقات أن الموقف على الجبهة السورية الذى يتحمل جزئياً على

الاقل مسؤولية الهجوم المصرى الذى توقف كان قد بدأ يوم ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) يظهر الدلائل على التحسن. وخلال ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر (تشرين الاول) كانت اسرائيل تستعد لتوجيه الضربة القاضية التى وعد بها الجنرال اليعازر ضد سوريا، وحشدت جميع القوات المتوافرة لديها لتوجيه هذه الضربة، وتلقت من رئيس الازكان الاسرائيلى امراً مشابهاً للامر الذى اصدرة الجنرال مونتجومرى لقواته فى العلمين وقال فيه: «صيد طيب .. أيها السادة». وكانت القوات السورية تعيد تجميع صفوفها، وساعدها فى تلك اللحظة المؤاتية أن اللواء الثانى عشر العراقى كان وصل الى ميدان القتال ودخل المعركة على الفور فى منطقة نوى، وبدأ التقدم الاسرائيلى فى الجنوب يبطىء، ودفعت للاسرائيليين فيه ٢٠ دبابة و٤٠ مدرعة. ومن حسن الحظ أن اللواء الثانى عشر العراقى كان أيام نشاط القيادة العربية الموحدة قد اشترك فى المناورات فى هذه المنطقة، وكان الكثيرون من ضباطه وجنوده على معرفة بالارض التى سيقاتلون فيها.

وفى يوم ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) استمر التقدم الاسرائيلى فى اتجاه دمشق، وظهرت له جوانب أكثر خطورة. فقد بدأت المطارات ومواقع الصواريخ السورية تتعرض لضرب شديد من الجو، ولكن - فى الوقت الذى كانت الحاجة اكثر ما تكون مساساً اليه - ظهر على مسرح القتال تشكيل جديد لتدعيم الوحدات السورية التى اعادت تجمعها. وكان هذا التشكيل هو لواء الدبابات الاربعين للجيش الاردنى. وكان بدوره على معرفة بأرض المعركة. واتخذ مواقعه على الفور الى يسار اللواء العراقى. وهنا رأينا قيادة عربية موحدة حقيقية تمارس عملها فى الميدان، حيث كان العراقيون والاردنيون والسوريون يقاتلون جنباً الى جنب. وكان المغاربة مشتركين فى القتال منذ البداية. كما انضمت اليهم يوم ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) كتيبة آلية سعودية. وقد كان لهذه التعزيزات اثرها فى تهديد الجناح الايمن للتقدم الاسرائيلى نحو دمشق، كما أن هجوم الجيش المصرى فى سيناء نجح فى سحب بعض الوحدات الاسرائيلية من المعركة فى الجبهة السورية. وعلى رغم ذلك، فان الغارات الجوية الاسرائيلية ازدادت حدة خلال يومى ١٧ و١٨ أكتوبر (تشرين الاول)، وشهد الصباح المبكر ليوم ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) محاولة أخرى للتقدم فى الطريق الى دمشق. لكن المحاولة صدمت ودمر للاسرائيليين فيها أو اعطب ٥٢ دبابة و١٧ مدرعة.

ونجت دمشق. ولست اعتقد أن دخول دمشق كان ممكناً كما صورت القيادة الاسرائيلية، بل ولست اعتقد أن دمشق كانت هدفاً. وحتى على فرض أن اسرائيل كانت تملك القوة لتحقيقه - وهذا فرض جدلى يصعب

اثباته ـ فان اسرائيل تعرف مقدماً أن السيطرة على هذه المدينة المعروفة بوطنيتها الشديدة والتى يسكنها مليونان من البشر، كان سيتطلب اعداداً كبيرة من القوات. يضاف الى ذلك أن الانفجار فى العالم العربى ورد الفعل المحتمل لمثل هذا الموقف فى بقية انحاء العالم، ولاسيما فى الاتحاد السوفييتى، كانا ولا شك كفيلين بأن يجعلا الاسرائيليين يترددون فى الاقدام عليه حتى ولو كان هدفاً سعوا الى تحقيقه، أو كان فى متناول ايديهم، وهو أمر موضع شك كبير .

وبعد فشل الهجوم المصرى الذى بدأ يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الاول)، صدرت الاوامر للجيشين فى شرقى القناة أن يتخذوا مراكز دفاعية، ويتشبثوا بالارض التى احتلوها، ويقاوموا هجمات العدو. وكانت وجهة نظر الرتب العليا من ضباط القيادة المصرية أن من الافضل العودة الى الخطة البديلة التى تقوم على اساس جعل الاسرائيليين يضربون رؤوسهم ويحطمونها فى جدار النيران المنصبة عليهم من نقط الارتكاز بدلا من المجازفة بالاشتباك معهم فى معركة متحركة فى عمق سيناء أغلب احتمالاتها أن تكون لهم اليد الطولى فيها .

ذلك أن المبدأ الذى اتبعته اسرائيل منذ قيامها هو نقل المعركة دائماً الى ارض العدو، وباعتبارذلك خير وسيلة للدفاع عنها. لكنها لم تطبق هذا المبدأ اتوماتيكيا على المناطق المحتلة بعد العام ١٩٦٧. على أساس انه اذا اختار المصريون القتال داخل سيناء فان الاسرائيليين سيكونون سعداء بقتالهم هناك. كذلك، فان اسرائيل كانت فى الوقت نفسه مصممة على توجيه ضربة وقائية الى القوات المصرية اذا اكتشفت دلائل على وجود حشود هجومية لها على الضفة الغربية للقناة حتى تقضى عليها فى المهد. وكان المخططون المصريون يضعون هذا فى اعتبارهم ، واعدوا بالفعل خطة لمواجهة هجوم تقوم به القوات الاسرائيلية على الضفة الغربية للقناة اطلق عليها اسم «الخطة ٢٠٠»، وخصصوا لها القوات التى ستقوم بتنفيذها. وكان الدفرسوار أحد ثلاثة اماكن محتملة لأستخدامها فى العبور الى الضفة الغربية .

وكانت الخطة تقوم على تصور إختراق الدفاعات المصرية عند نقطة الالتقاء بين الجيشين ، وعبور القناة بقوات ومعدات كافية لقطع المواصلات المصرية، وتدمير عدد كاف من مراكز الصواريخ لفتح فجوة فى غطاء الدفاع الجوى المصرى تمكن الطائرات الاسرائيلية من الاشتراك فى المعركة. ولمجرد أن تؤمن القوات الاسرائيلية ركيزة لنفسها فى الضفة الغربية، فانها عندئذ تتفرق فى وحدات صغيرة وتنتشر بسرعة فى منطقة واسعة ويعود بذلك الى الجيش الاسرائيلى دوره التقليدى بأنه : «فى كل مكان لكنه ليس فى أى مكان».

ولم يكن الامر يحتاج الى مهارة شديدة من جانب القيادة الاسرائيلية لتحديد مكان نقطة الالتقاء بين الجيشين المصريين، لأن هذه النقطة كانت حددت فى العام ١٩٦٩ فى المراكز الدفاعية التى اقيمت على القناة وظلت فى مكانها نفسه الى يوم تحولت مصر الى الهجوم. وكانت طائرات الاستطلاع الامريكية التى تحلق على ارتفاعات شاهقة وتتخذ من اليونان قاعدة لها هى التى اكتشفتها وابلغتها اسرائيل. وهذه المنطقة التى ترتفع خلف الدفرسوار وفايد تكفل لأية قوات غازية غطاء كبيرا. لأن الارض هناك خصبة، تغطيها الاشجار، كما أنها مليئة بالخنادق التى حفرت ليستخدمها الجيش المصرى بعد العام ١٩٦٧. واحتلال مطارات الدفرسوار وفايد، ومطارات كبريت وكسفريد الى الغرب منها يساعد سرعة الهجوم الى حد كبير.

وكان الرأى أنه اذا تم تنفيذ خطة شارون بنجاح، فسيكون ذلك عاملا منشطاً للروح المعنوية الواهنة بين الاسرائيليين. وفضلا عن ذلك، فـ... اذا تمكن السلاح الجوى الاسرائيلى من ضرب مواقع الصواريخ المصرية الباقية، فان الجبهة كلها تصبح معرضة للهجوم من الجو، وكان امـ... الاسرائيليين أن يترتب على ذلك انتشار حالة من الذعر، فقد تعود القوات المصرية نتيجة لها الى التراجع غرباً، بصورة غير منظمة كما حدث فى العام ١٩٦٧.

وقد تصرف الجنرال شارون والجنرال تال على هدى القول المأثور لنابوليون - كما فعل سلفاهما ديان ويادين فى العام ١٩٤٨ - وهو أن «من يسيطر على تقاطع الطرق فى المعركة يصبح سيد الارض». وكان اهم تقاطعات الطرق غربى القناة، التقاطع الواقع الى الشرق من الاسماعيلية، والتقاطع المعروف باسم تقاطع عثمان احمد عثمان، والتقاطع المشهور عند الكيلو ١٠١ الى الغرب من مدينة السويس. وقد احتلت قوات شارون هذه التقاطعات عندما تأكد الاسرائيليون من أن احتياط مصر الاستراتيجى قد دخل المعركة، وصدر لشارون فى النهاية الاذن الذى ظل يطلبه لبدء هجومه عبر القناة يوم ١٥ اكتوبر (تشرين الاول). وكانت هناك فى منطقة الدفرسوار - ابو سلطان فجوة بلا حراسة بالفعل، مسافتها نحو ٤٠ كيلو مترا تفصل بين الجيشين، واستطاعت القوات البرمائية الاسرائيلية التى عبرت البحيرات المرة أن تنشىء لنفسها نقطة ارتكاز سريعة فيها. ومما يثير الدهشة أنه كانت فى خط بارليف نقطتان حصينتان لم تتم تصفيتهما أو انسحاب الجنود الاسرائيليين منهما، وكانتا اداة عون كبير للقوات الاسرائيلية التى عبرت القناة. وقد استطاعت هذه القوات التى كانت تتقدم شمالاً فى صباح يوم ١٦ اكتوبر (تشرين الاول) أن توسع الممر الذى عبرت منه،

لم يأت بعد ظهر ذلك اليوم الا وكانت وحدات عدة كاملة تقف عبر القناة. وقد ابلغت بعض الوحدات المرابطة في المنطقة بما يحدث فيها، لكن الاتصالات بين الجبهة ومقر القيادة العامة كانت سيئة جدا.

ونتيجة للاتصالات مع السوفييت، وفي ضوء الاتصالات مع كيسنجر وهيث رأى الرئيس السادات أن الوقت يدنو من بدء المرحلة السياسية من الحرب، لكن الشك كان يساوره بالنسبة الى قبول اسرائيل للنقاط الخمس التي قدمت الى كيسنجر. لذا فقد قرر أن يتحدث الى مجلس الشعب، وأن ينتهز فرصة هذا الحديث ليعرض مشروع سلام أوسع واشمل، يقدمه الى الشعب المصري، والى العالم كله عن طريق التلفزيون والاذاعة.

قال الرئيس السادات أن مصر ستواصل القتال لاستعادة الارض التى اغتصبتها اسرائيل ولاعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين، لكنهما مستعدة لأن تقبل وقف اطلاق النار، بشرط أن تنسحب اسرائيل فوراً وتحت اشراف دولي من كل الاراضي المحتلة الى خطوط يونيو (حزيران) ١٩٦٧. ولمجرد أن يتم هذا الانسحاب، فإن مصر ستكون مستعدة لأن تحضر مؤتمر سلام تعقده الامم المتحدة، ويبذل الرئيس نفسه مافي وسعه لأقناع الزعماء العرب الآخرين وممثلي شعب فلسطين بالاشتراك فيه. وقال الرئيس أن مصر مستعدة لأن تبدأ العمل فوراً في تطهير قناة السويس، بحيث تفتح للملاحة الدولية.

وكان من المقرر، أن تتحدث جولدا مائير في الكنيست في اللحظة نفسها التى كان الرئيس سيتحدث فيها الى مجلس الشعب - عند الظهر بحسب توقيت القاهرة وتل ابيب - لكنه اعلن قبل الموعد المحدد بوقت قصير أن رئيسة الوزراء الاسرائيلية أجلت خطابها الى الساعة الرابعة بعد الظهر. وكان المفهوم أن الغرض من هذا التأجيل هو اتاحة الفرصة لها للاستماع الى ما سيقوله الرئيس المصري لترد عليه. وعندما القت خطابها، فانها قالت - بين ما قالته - أن القوات الاسرائيلية تقاتل الآن «شرق القناة وغربها». وقد اتصلت تلفونيا بالرئيس لمجرد أن تلقيت التقارير عن خطبة مائير، لكنه قال أنه ليست لديه معلومات تؤيد مزاعمها، واتصل بالفريق احمد اسماعيل الذى قال أنه ابلغ ما يفيد أن «ثلاث دبابات اسرائيلية متسللة» استطاعت عبور القناة. وكان سوء وسائل الاتصال في تلك الفترة اكبر خطأ في المعركة كلها. وعندما عرف الجميع حقيقة ما يحدث كان لاسرائيل في الضفة الغربية للقناة لواء كامل.

وقيل للرئيس أن ما يقال عن «ثلاث دبابات متسللة» كلام مضلل في الارجح، ولابد أن تكون هناك أرض اصلب لما قالته جولدا مائير في الكنيست. لكنه كان يشعر على ضوء المعلومات التى كانت متوافرة لديه

فى ذلك الوقت، بأن هذه المخاوف تبين أننا بدأنا نقع ضحية للحرب النفسية الاسرائيلية. وعندما اتصلت تلفونيا بالفريق احمد اسماعيل بعد ذلك بقليل، قال لى أنه ليس ثمة ما يدعونى الى القلق، وأن المسألة لا تعدو «حركة سيكولوجية، وسنحرق الليلة كل المنطقة الموجودين فيها». وهكذا لم يكن هناك فى الحقيقة من كانت لديه معلومات دقيقة عن الموقف بالضبط فى ذلك الوقت.

وبعدما القى الرئيس خطابه فى مجلس الشعب بعث اليه الرئيس الاسد برسالة تعكس اوجه التوتر السياسى والعسكرى التى بدأت تظهر بين الحليفين. فقد كتب الرئيس الاسد يقول: «لقد كنت افضل ـ ونحن لا نزال وسط المعركة ـ أن أطلع على المقترحات التى اعلنتها فى مجلس الشعب قبل أن تعلنها. ولست أريد أن احذو حذو الآخرين، فاتخذ موقفا مؤيدا أو معارضا لهذه المقترحات لكنى أشعر بأن من حق كل منا أن يعرف أفكار ونوايا الآخر قبل أن يسمعها من الاذاعة. وأنا لست سعيداً بأن اكتب هذه الكلمات، لكننى لا أريد أن أخفى عنك شيئاً من افكارى وآرائى، وما دمنا مشتركين معا فى معركة حياة أو موت».

ورد الرئيس السادات برسالة تقول: «أن المقترحات التى قدمتها بالامس تقوم على أساس السياسة التى اتفقنا عليها معا، وليس فيها جديد يستدعى التشاور، حيث أنها تنصب على الانسحاب الاسرائيلى وحقوق شعب فلسطين. وقد دفعنى الى الاسراع فى القاء هذا الخطاب ما علمته من أن جولدا مائير على وشك أن تلقى خطابا فى الكنيست، واعتقادى بأن علينا أن ندير المعركة السياسية والعسكرية جنبا الى جنب، وأن فى مقدورنا أن نتحرك الى الامام، ولدينا أرض للمناورة فى نطاق المشروع الذى اقترحته. فاذا ما نشأ جديد فلا بد لنا من التشاور بطبيعة الحال. وأنه ليسعدنى أن مشاعرك نحوى لم تتغير . . . . . .».

وكانت الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم نفسه (الثلاثاء ١٦ اكتوبر) (تشرين الاول) عندما وصل رئيس الوزراء السوفييتى كوسيجين الى القاهرة وبدأ على الفور تقريبا مشاوراته مع الرئيس السادات. وكان السوفييت عند ذاك يؤيدون وقف اطلاق النار، كما كان من الواضح انهم على اتصال وثيق بالأمريكيين الذين كانوا يدعون الى وقف اطلاق النار منذ يوم ١٠ أكتوبر (تشرين الاول). وقال كوسيجين أن المعركة بحجمها الحالى من الخسائر فى المعدات تشكل خطراً كبيرا. وقد استمرت مناقشات كوسيجين فى اليوم التالى والى أن غادر القاهرة عائدا الى موسكو يوم الجمعة ١٩ أكتوبر (تشرين الاول).

ويوم الاربعاء ١٧ أكتوبر (تشرين الاول) استقبل الرئيس نيكسون فى واشنطن وفدا من وزراء خارجية الدول العربية الذين كان معظمهم فى نيويورك يحضرون اجتماع الجمعية العامة للامم المتحدة. وقد اختير

اعضاء هذا الوفد من دول مشتركة فى المعركة بصورة مباشرة . والغرض من ذلك ـ كما قال المصمودي وزير خارجية تونس ـ «أن تشتم رائحة البترول من دون أن تكون غالية» . ـ وكان الوفد يتكون من وزراء خارجية السعودية والكويت والمغرب والجزائر . لما كان وزيراً خارجية كل من المغرب والجزائر يعرفان اللغة الفرنسية اكثر من معرفتهما اللغة الانجليزية ، فقد اقترح الوفد أن يحضر الاجتماع أحد المترجمين ، لكن الجانب الامريكي لم يوافق على الاقتراح ، وقال أنه سيعد محضراً بتفاصيلة يوزعه على الحاضرين . لكن ذلك لم يحدث .

وكان كيسنجر هو الذى استقبل اعضاء الوفد وصحبهم لمقابلة الرئيس . وبعد المقابلة جمعهم حديث آخر مع كيسنجر حضرة جوزيف سيسكو . وكان نيكسون لطيفاً فى حديثه معهم . قال أن الولايات المتحدة كانت مضطرة الى أن تهب لمساعدة اسرائيل ، كما تحدث بافاضة عن الجسر الجوى . وقال أن العرب شكوا من أن الجسر الجوى الامريكى بدأ لمجرد أن أظهرت مصر وسوريا دلائل كسب المعركة ، لكن امريكا لم تبدأ جسرها الجوى الا بعدما بدأ السوفييت جسرهم . وأضاف : «وأريد أن أقول لكم أن أمن اسرائيل شيء لايمكننا أن نساوم عليه . أننا لسنا من أنصار التوسع من جانب اسرائيل ، لكننا نريد أن تتوافر لها حدود آمنة» . وقال أن الولايات المتحدة مستعدة لأن تلعب دوراً بناء . وأضاف : «أنكم ، فى العام ١٩٦٧ ، اتهمتمونا بالتواطؤ مع اسرائيل ، لكنكم جئتم الآن تتحدثون الينا ، وفى هذا اختلاف كبير . ومعى هنا وزير خارجيتى . وستتحدثون اليه . وقد يتهمه البعض منكم بأنه يهودى . وهذا صحيح ، لكنه فى الوقت نفسه ، امريكى ، وهو يؤدى دوره فى خدمتى بكفاءة . وأنا واثق من أن مشاعره كيهودى لن تؤثر على ولائه لامريكا أو على ولائه لى . وستجدونه رجلا بناء . وقد قالت مسز مائير لسفيرنا فى اسرائيل ذات يوم : لديكم ولدينا نحن الآن وزيرا خارجية يهوديان . والاختلاف الوحيد بينهما أن وزير خارجيتنا يتقن الانكليزية اكثر مما يتقنها وزير خارجيتكم» . ووصف نيكسون مسز مائير بأنها تتميز بـ «كفاءة كبيرة» . لكنه قال أن مبعث قوتها كان دائماً شعورها بالتفوق العسكرى . أما الآن فالموقف مختلف . وقد أكد نيكسون تصميمه على عدم السماح للازمة الراهنة بأن تتسبب فى مواجهة مع الاتحاد السوفييتى .

وبعد الاجتماع بحث وزراء الخارجية الاربعة مسألة وقف اطلاق النار مع كيسنجر . وقال عبد العزيز بو تفليقة وزير خارجية الجزائر أنه لو كان الجزائريون أو الفيتناميون قد قبلوا وقف اطلاق النار ، لما تكللت مفاوضاتهم السياسية بالنجاح . ورد كيسنجر أن حرب الشرق الأوسط ليست حرب عصابات . ومن الممكن وقفها . واذا فشلت المفاوضات ، فان من الممكن أن تستأنف مرة أخرى . وتساءل بوتفليقة عما سيحدث اذا

خرقت اسرائيل وقف اطلاق النار ، ورد كيسنجر أن اسرائيل لا تستطيع أن تحارب وحدها أكثر من تسعة أيام، تصبح بعدها مضطرة الى الاعتماد تماماً على الولايات المتحدة. فاذا خرقت وقف اطلاق النار ، فان الولايات المتحدة يمكنها أن توقف امداداتها لها. ثم انتقلت المناقشة بعد ذلك الى القرار الرقم ٢٤٢ الذى قال نيكسون وكيسنجر كلاهما انهما مستعدان لبذل كل جهودهما للعمل على تنفيذه . وتساءل الوزراء عن السبب فى عدم تنفيذه، ورد كيسنجر أن السبب، بصراحة تامة، هو التفوق العسكرى الكامل لاسرائيل . وقال أن الضعفاء لايفاوضون. وقد كان العرب ضعافاً ، لكنهم الآن أقوياء . وقد حققوا ما لم يكن فى مقدور احد - بما فيه هم أنفسهم - أن يتصور أمكان تحقيقه . وسئل كيسنجر عما اذا كان فى الامكان أن تنسحب اسرائيل الى خطوط ما قبل العام ١٩٦٧، أو أن تتعهد بأن تفعل ذلك. ورد كيسنجر أنه يخشى الا يستطيع تقديم وعد بذلك، وقال أن العودة الى خطوط ماقبل عام ١٩٦٧ تجعل إسرائيل تواجه الأخطار نفسها التى واجهتها قبل حرب يونيو (حزيران). وقال عمر السقاف وزير الدولة السعودى للشؤون الخارجية أن العرب لا يمكنهم أن يقبلوا نزع سلاح سيناء. ورد كيسنجر قائلاً: ولا اسرائيل يمكن أن تقبل ذلك، لأنها تعتزم البقاء فى سيناء. أما بالنسبة الى حقوق الفلسطينيين ، فان كيسنجر قال بمنتهى الصراحة: أن ما تقترحونه معناه احد امرين، أما نهاية اسرائيل وأما نهاية الاردن . وأكد هو الآخر اصراره على تجنب أى مواجهة مع الاتحاد السوفييتى ، وقال أنه لن يكون هناك تدخل فعلى من جانب امريكا فى القتال مالم يحدث «هجوم على اراضى اسرائيل نفسها» .

وترك كيسنجر لدى الوزراء انطباعاً انه ليس متعجلاً للقيام بأى عمل بالنسبة الى الشرق الأوسط. فقد كان من المقرر أن يسافر الى الصين خلال عشرة أيام . وقال أنه سيطلب ملف الشرق الاوسط بعد عودته من رحلته، ويبدأ العمل بأسلوبه الخاص، وقال أن اسلوبه لايقوم على القاء الخطب أو الطواف بعواصم العالم . وعند هذه النقطة التفت الى سيسكو وقال : «مع كل احترامى لسيسكو». وسأله بوتفليقة عما اذا كان يرى أن الصين تحظى بالاولوية على الشرق الاوسط على رغم القتال الدائر فيه. فرد كيسنجر أن الاولويات يمكن دائماً أن يعاد ترتيبها. وأشار السقاف الى أنه عندما اجتمع بكيسنجر على انفراد، فان كيسنجر قال له أن من الأفضل أن ننتظر مدة ثلاثة أو أربعة اسابيع الى أن تنهك الاطراف المتحاربة بعضها بعضاً، وعندئذ يصبح التوصل الى تسوية ما ممكناً . وفى النهاية قال كيسنجر أن الخطاب الذى القاه الرئيس السادات يوم ١٦ اكتوبر (تشرين الاول) يتضمن بعض النقاط البناءة لكنه لايتفق مع كل ما جاء فيه ، وقال: «أننا لانعتبر الرئيس السادات عدواً لنا».

وبعدما انتهت القوات الاسرائيلية من أقامة نقط ارتكازها على الضفة الغربية اقامت على القناة جسراً عبرت عليه المدرعات تدعمها المدفعية البعيدة المدى والقصيرة المدى والطائرات. ودمرت فى الموجة الاولى لهذا الهجوم عدداً كبيراً من مواقع الصواريخ. وكانت الاسماعيلية هدفاً أول من اهداف المهاجمين ، لكنهم واجهوا فيها مقاومة شديدة ، فتحولوا فى اتجاه الجنوب والغرب يكسبون مزيداً من الارض بسرعة ، الى أن كان يوم ١٧ اكتوبر (تشرين الاول) حيث صدر الامر الى تشكيل مشهود له بالكفاءة هو لواء المظلات المصرى ٢٢ ، بالتحرك للسيطرة على الموقف، وكانت عناصر من هذا اللواء وصلت تقريباً الى تقاطع الطرق الاسرائيلية، كما كان رجال الضفادع البشرية ، بالتنسيق مع قيادة اللواء، قد استعدوا لنسف الجسر عندما تلقوا الامر بالتراجع واقامة جبهة على خط الفرقة نفسه الواقفة بجانبهم لتجنب وجود نتوء . وكان من العسير على العقيد قائد اللواء أن يصدق أن هذا الامر صادر من مقر القيادة المصرية ، وطلب تعزيزاً له، فجاءه التعزيز من ضابط يعرف صوته. لكنه، فى محاولة منه لكسب الوقت ، واتاحة الفرصة لنجاح مهمته ، فانه طلب تعزيزاً للامر من مقر القيادة العامة للقوات المسلحة فى القاهرة. وجاءه التعزيز أيضاً، فاضطر على رغم انفه الى رفع قبضته عن «زمارة» الرقبة الاسرائيلية وكان قاب قوسين أو أدنى منها .

وكانت مدفعية الجيش الثانى تحت اشراف قيادة قديرة للعميد عبد الحليم ابو غزالة، وعناصر من مدفعية الجيش الثالث بقيادة ضابط لاتقل كفاءته عن قيادة ابو غزالة، وهو العميد منير شاس، قد بدأت فى قصف جسور العدو واصابتها بأكثر من اصابة مباشرة حين تلقت القيادتان بدورهما امراً بالانسحاب لتجنب حدوث نتوء .

وقد استطاعت المقاومة المشتركة من جانب القوات العسكرية والمدنيين أن تصد الهجوم الذى استأنفته القوات الاسرائيلية على الاسماعيلية فى محاولة للاستيلاء على تقاطع الطرق . ولو كانت هذه المحاولة قد نجحت لوضعت الجيش الثانى كله فى خطر جسيم . وقال بعض من عاشوا القتال هناك انهم احسوا وكأن الشعار الذى كان يردده الرئيس عبد الناصر أكثر من مرة بالحاجة الى الوحدة بين الشعب والجيش ، وقد بعث حياً. لكن الاسرائيليين استطاعوا مساء يوم ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) أن ينشئوا لأنفسهم نقطة ارتكاز منيعة على الضفة الغربية للقناة قوامها ٤ الوية دبابات ولواء ميكانيكى ولواء مظلات.

ومن المرجح أن الرئيس السادات كان ادرك مدى الاختراق الاسرائيلى عبر القناة فى اليوم السابق - يوم الخميس ١٨ اكتوبر (تشرين الاول) - لأن كوسيجين قدم اليه فى ذلك اليوم صوراً التقطت من الجو لمنطقة المعركة وارسلت اليه فى الطائرة. وقد غادر كوسيجين القاهرة مقتنعاً

بأن مصر مستعدة لحضور مؤتمر للسلام شرط أن تشترك فيه الدول الاربع عشرة فى مجلس الأمن، والسكرتير العام للامم المتحدة ، وكل الاطراف المعنية بها فيها الفلسطينيون . وقيل له أن مصر مستعدة لأن تبحث هذا فوراً ، كما أنها مستعدة لأن تبحث وسائل الوصول الى وقف لأطلاق النار.

وخلال هذه الفترة ظهرت مشكلة أخرى مع الملك حسين . ذلك أن الرئيس السادات كان رأى ، عندما ابلغ لأول مرة أن هناك ١٠٠٠ رجل من رجال المقاومة يريدون الاشتراك فى الهجوم على اسرائيل ، أن الوقت ليس مناسباً للقيام بمثل هذا التحرك ، لكنه رأى الآن أن هؤلاء الرجال يمكن أن يقوموا بمهمات مفيدة كضرب وسائل المواصلات الاسرائيلية، وهكذا ، فانه بعث برسالة الى الملك حسين يطلب اليه فيها أن ينظر الى الموضوع من وجهة نظر ايجابية. وتلكأت حاشية الملك فى الرد طوال يومين بحجة أنه «خارج عمان». لكن الرئيس اصر على ضرورة ابلاغه ، وتلقى رداً انهم «سيحاولون الاتصال بالملك». ومر يومان آخران ، تلقى الرئيس بعدهما رسالة مطولة يقول فيها أن حدود الاردن مع اسرائيل تكاد تكون بلا قوات على الاطلاق ، لأن احد الالوية الاردنية المدرعة ارسل الى الجبهة السورية، بينما يقوم لواء آخر بحماية خطوط المواصلات مع سوريا. وتساءل عما اذا كان من الممكن للعملية التى يقترحها رجال المقاومة ان تسفر عن نتائج تبرر مثل هذه المجازفة، أم انها لن تؤدى ببساطة الا الى تعريض الجبهة الاردنية لأخطار تفتقر الى وسائل مواجهتها. ثم وجه فى الرسالة عدداً آخر من الاسئلة من بينها : ماهى القوة القصوى التى يمكن الفدائيين أن يعدوها؟ وماهى الضمانات التى يمكن أن تقدم الى السكان الاردنيين الذين يعيشون قرب الحدود ، والتى تكفل عدم تعرضهم لانتقام الاسرائيليين ؟ (وكيف التأكد من الطريقة التى سيتحرك بها رجال المقاومة فى تلك المناطق مع مراعاة خطوط المواصلات مع سوريا؟). وفى النهاية ، فان الملك قال فى رده أنه لا يطلب أن تقدم اليه أو الى قيادة الجيش الاردنى اية تفصيلات عن العمليات التى ينوى رجال المقاومة القيام بها . لكن اسلوب التلكؤ الذى اتبعته عمان نجح ، فقد كان وقف اطلاق النار عندئذ ، اصبح وشيكاً .

ولربما كانت هذه مناسبة للاشارة الى ملحوظة داخلية غريبة متصلة بالمعركة . فلقد حدث بعد يوم أو يومين من عبور القناة أن طبعت اجهزة الاعلام فى القوات المسلحة منشوراً وزعته على جميع الجنود العاملين، وأعدت صيغته بأسلوب من التقوى . وكان يقول:«بسم الله الرحمن الرحيم أن النبى صلى الله عليه وسلم موجود معنا فى المعركة. ياجنود الله ...... الخ الخ ». ويمضى فيقول :«أن احد الرجال الصالحين رأى فى المنام النبى محمد صلى الله عليه وسلم يرتدى رداء أبيض ومعه شيخ الازهر يشير بيده ويقول : تعالوا معى الى سيناء. وقيل أن عدداً من

«الرجال الاتقياء» قد شاهدوا الرسول يسير بين الجنود تكسو وجهه ابتسامة رحيمة وتحيط به هالة من النور من كل جانب . ثم يمضي المنشور فيقول : «ياجند الله . . من الواضح أن الله سبحانه وتعالى معكم». ولقد أحسست حين اطلعت على المنشور، أن هذا الاسلوب غير لائق. ذلك أن محاولة الايحاء أن نجاح العبور كان نتيجة لمعجزة، أنما تقلل في الحقيقة من قيمة الدور الذي قام به الجنود الذين اشتركوا في المعركة والذين ضربوا اعظم الامثلة ببسالتهم وانجازاتهم . ولقد كان الايمان في قلوبهم وهم يقاتلون ، لكن انتصارهم كان انسانياً .

وكانت مظاهر الشعور الديني تتزايد مع تصاعد حمى المعركة ، بحيث اضطر الرئيس الى أن يعلن أن قائد أول فرقة عبرت عناصرها القناة كان ضابطاً قبطياً هو اللواء فؤاد غالي. وللمناسبة ، فان فؤاد غالي اصبح في ما بعد القائد الناجح للجيش الثاني .

وكنت بدأت منذ فترة اشعر بالقلق لما يبدو من مظاهر توحي أننا نخسر حرب الاعلام، لأن البلاغات الرسمية بعد الأيام الخمسة الأولى لعبور القناة بدأت تتعثر ، وبدا كأن اجهزة الاعلام اصيبت بنوبة قلبية .فلم يصدر عنها شيء تقريباً، وبدأ الشعب يفقد الثقة فيها، ويعود الى عادته القديمة في الاصغاء الى الاذاعات الاجنبية. وقد ناقشت هذا الموضوع مع الرئيس عندما ذهبت لمقابلته مساء يوم السبت ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول). وكان يجلس في الشرفة في قصر الطاهرة، وكان الظلام حالكاً الى درجة أن الضابط الذي صحبني في الطريق اليه لم يره. وقال لي الرئيس أنه لاينام كما يجب، بينما قالت السيدة قرينته أنها تشعر بالقلق على صحته. وبينما نحن نتبادل الحديث رن جرس التلفون ، وجاء من يقول أن القائد العام على الخط . وحولت المكالمة الى غرفة نوم الرئيس، وقمت معه الى الغرفة وسمعته يقول:«نعم يا احمد .نعم لابد أن نأخذ هذه الفرصة ونرى ما سينجزه كيسنجر في موسكو . اتريدني أن أحضر الى الرقم ١٠؟ حسناً . . سأحضر». وسألت الرئيس: « مالذي حدث؟». فقال أن اللواء سعد الشاذلي وصل من الجبهة ومعه صورة كاملة للموقف وأن «الفريق احمد اسماعيل يرى أن أتوجه بنفسي الى الرقم ١٠». وهكذا ذهب الرئيس وصحب معه عبد الفتاح عبد الله وزير الدولة لشؤون الرئاسة. وكان في انتظاره هناك الفريق احمد اسماعيل والفريق سعد الشاذلي واللواء محمد عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات، واللواء سعيد الماحي قائد المدفعية، واللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية، واللواء محمد علي فهمي قائد الدفاع الجوي .

وظهر في هذا الاجتماع الحيوي خلاف في وجهات النظر. لقد كان الفريق سعد الشاذلي الذي شهد الموقف على الطبيعة يراه شديد الخطورة ، وكانت من رأيه ضرورة سحب بعض الامدادات التي ارسلت

الى الضفة الشرقية عندما تقرر تطوير الهجوم، ولاسيما اللواء المدرع الذى ارسل للانضمام الى الجيش الثالث ، حتى تمكن مواجهة التسلل الاسرائيلى على الضفة الغربية، كما انه دعا الى سحب بعض الدبابات والقذائف المضادة للدبابات من الضفة الغربية، وكان رأيه أن سحب هذه القوات التى ارسلت لتطوير الهجوم لا يؤثر على توازن رؤوس الكبارى، وقال أنه يخشى، اذا لم تتخذ هذه الاجراءات ، ان يحاصر الجيش الثالث، وأن يصبح الجيش الثانى مهدداً .

وكانت وجهة نظر الفريق احمد اسماعيل أن مجرد القيام بسحب أى قوات من الضفة الشرقية سيؤدى بالقطع الى اضعاف الروح المعنوية بين الجنود، وقد ينتهى بانهيار شبيه بما حدث فى العام ١٩٦٧ . وكان رأيه أن الانجاز المصرى الحقيقى قد تحقق فى الشرق من القناة ، ويجب عدم المغامرة به . واتفق الرئيس معه فى الرأى ، وقال أن أى اضعاف للقوات المصرية فى الضفة الشرقية لابد أن يكون له أثر عكسى على موقف مصر فى المفاوضات السياسية الى لا يمكن تأخيرها الآن لفترة طويلة .

وبعد انتهاء الاجتماع تبادل الفريق احمد اسماعيل مع الرئيس على انفراد بضع كلمات فى غرفة أخرى . قال الفريق أنه يتحدث الآن للتاريخ وبصفته مواطناً، وأنه اذا كان الرئيس يرى طريقاً مفتوحاً لوقف اطلاق النار على أساس شروط مقبولة ، فانه سيؤيد قراره. وقال : «أنا لست متشائماً . . فجيشنا لم يمس حتى الآن . لكننا يجب الا نزج بأنفسنا ، فى أى حال من الاحوال ، فى تطور عسكرى يمكن قواتنا المسلحة أن تتعرض بسببه لخطر الابادة ».

وبعث الرئيس السادات برسالة الى الرئيس الاسد قال فيها: «لقد قاتلنا الاسرائيليين الى اليوم الخامس عشر. وكانت اسرائيل وحدها فى الايام الاربعة الأولى ، فاستطعنا أن نعرى موقفها فى الجبهتين . وباعتراف العدو نفسه، فانه فقد ٨٠٠ دبابه و ٢٠٠ طائرة. لكننى كنت فى الجبهة المصرية خلال العشرة أيام الأخيرة، أقاتل الولايات المتحدة أيضاً عن طريق الاسلحة التى ترسلها لاسرائيل. وأقولها بصراحة : أننى لا أستطيع أن أقاتل الولايات المتحدة، أو أتحمل أمام التاريخ المسؤولية عن تدمير قواتنا المسلحة للمرة الثانية. لذلك فانى أبلغت الاتحاد السوفييتى انى مستعد لقبول وقف اطلاق النار فى المراكز الحالية وعلى أساس الشروط التالية :

١ ـ ان يضمن الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة انسحاباً اسرائيلياً وفق ما أقترحه الاتحاد السوفيتى .

٢ ـ أن يعقد مؤتمر السلام تحت اشراف الامم المتحدة لتحقيق تسوية شاملة وفق ما أقترحه الاتحاد السوفييتى .

أن قلبي ليقطر دماً وأنا أقول هذا لك. لكنى أشعر بأن واجبى يقتضى اتخاذ هذا القرار . وأنا مستعد لأن اواجه شعبنا فى اللحظة المناسبة، واقدم اليه حساباً كاملا عن هذا القرار ».

وجاء رد الرئيس الاسد فى اليوم التالى وقال فيه : «لقد تلقيت رسالتك أمس بأعمق المشاعر. أخى . ارجوك ان تعيد النظر فى الموقف العسكرى على الجبهة الشمالية وعلى جانبى القناة. أننا لا نرى سبباً للتشاؤم. وفى استطاعتنا أن نواصل الكفاح ضد قوات العدو، سواء أكانت قواته قد عبرت القناة أو لا تزال تقاتل شرق القناة. وأنا واثق من أننا يمكننا بمواصلة المعركة وتشديدها ، أن نضمن تدمير تلك الوحدات من قوات العدو التى عبرت القناة .

أخى الرئيس السادات . أن من الضرورى بالنسبة الى الروح المعنوية للقوات المقاتلة التأكيد على أنه رغم أن العدو تمكن نتيجة حادث ما من اختراق جبهتنا ، فان هذا لايعنى أنه سيكون قادراً على تحقيق النصر. لقد نجح العدو فى التغلغل فى الجبهة الشمالية منذ أيام عدة مضت ، لكن الوقفة التى وقفناها عندئذ وما اعقبها من قتال شديد، قد عززا آمالنا بالتفاؤل . فقد اغلقنا معظم النقط وسيكون فى امكاننا أن نعالج امر النقط الباقية فى مدى الايام القليلة المقبلة . انى اعتبر احتفاظ جيوشنا بروح القتال امراً لابديل عنه .

أخى العزيز الرئيس . أني واثق من أنك تقدر انى وزنت كلماتى بأقصى العناية، وبادراك كامل الى أننا نواجه الآن اصعب فترة فى تاريخنا . وقد رأيت أن من الواجب على أن اكشف لك عن تفكيرى، ولا سيما فى ما يتعلق بالموقف العسكرى على الجبهة الشمالية . والله معك ».

وتم الوصول الى اتفاق لوقف اطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول). ودخلت معركة سيناء مرحلتها الاخيرة. ولم يكن لدى أى أنسان أى عذر لأبداء الدهشة من أن اسرائيل بدأت تخرق وقف اطلاق النار لمجرد سريان مفعوله، لأن ذلك مبدأ اسرائيلى تقليدى. ففى الجولة الأولى من القتال عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ قبلت اسرائيل وقف اطلاق النار، لأنها أحست بالحاجة الى فترة سكون تتلقى خلالها الاسلحة المهربة اليها من اوروبا أو تقوم باعادة تجميع قواتها . وفى الجولة الثانية عام ١٩٥٦ ، وبعد أن قبل انتونى ايدن وجى موليه وقف اطلاق النار، وصدر الامر العام بالانسحاب من سيناء، فان بن جوريون تعمد تأخير قبول اسرائيل لوقف اطلاق النار الى أن تلقى تأكيداً باستيلاء اللواء المدرع التاسع على شرم الشيخ ، على رغم الاضطراب الذى كان يعرف انه سيسببه لحلفائه نتيجة هذا التأخير. وفى الجولة الثالثة عام ١٩٦٧ تعمدت اسرائيل مرة أخرى تأخير موافقتها على قرار وقف اطلاق النار الذى اصدرته الامم المتحدة حتى يتسنى لها انهاء الحملة لمصلحتها باحتلالها المناطق العليا

لنهر الاردن .

وفى العام ١٩٧٣ لم تكن لدى اسرائيل أية نية لأحترام وقف اطلاق النار وقد زادت قواتها بسرعة فى نقط ارتكازها غربى القناة الى خمسة الوية دبابات ولواءين ميكانيكيين ولواء مظلات . وكانت تقوم بهجمات مضادة يومية على الجيش الثالث بغرض احتلال اكبر مساحة من الارض لأستخدامها اداة للمساومة فى المفاوضات اللاحقة . كذلك ، فان الاسرائيليين اسروا خلال هذه الفترة كل ما استطاعوا اسره من المدنيين والعسكريين للاحتفاظ بهم كرهائن يستخدمونهم فى ما بعد . كما كانوا منهمكين فى حمل كل ما امكنهم حمله من محصول، وماشية ، ومعدات مصانع ، الخ . . . وكان ذلك نهباً بكل مافى هذه الكلمة من معنى .

وفى خلال هذه المرحلة الاخيرة من المعركة ، كان مصير المشاكل الحقيقية يتقرر فى الحوار الدائر بين القوتين العظميين ، وكان حواراً تصاعد بالاعلان الامريكى لحالة التأهب النووى .

على أن هناك جوانب معينة لخطة العمليات تحتاج الى تعليق .

١ ـ كانت هذه المرة الاولى التى استعد فيها العرب استعداداً سليماً للحرب . ولابد من الاشارة بالتحديد الى عملية اقتحام قناة السويس بالقوة واجتياح خط بارليف . وقد كان من عوامل نجاح الاقتحام تركيز الفريق سعد الشاذلى على ادق التفصيلات بالنسبة الى المعدات والتدريب التى تعودها منذ كان جندياً من جنود المظلات . كذلك كان التخطيط على المستويين الاستراتيجى والتكتيكى ممتازاً، وفيه تظهر كفاءة وامتياز اللواء عبد الغنى الجمسى ، رئيس هيئة العمليات، وكان التدريب اكثر من شاق، والاسلحة المستخدمة أفضل المتاح، كما كانت قواتنا على خبرة تامة فى استخدامها . وكان القادة العرب فى المواقف السابقة يتصرفون أو غالباً ما كانت ردود فعلهم ـ بوحى اللحظة بكل ما كان ينجم عن ذلك كوارث .

٢ ـ اذا كان هناك من خطأ فى الخطة وتنفيذها من جانب القيادة ، فان مرده ولاشك الى المبالغة فى الحذر . وقد ظهر ذلك فى تخاوف الفريق احمد اسماعيل الذى كان محقاً كل الحق فى اصراره على الا يكون مشيراً مصرياً آخر كالمشير عبد الحكيم عامر مسؤولا عن تدمير جيش مصر آخر .

٣ ـ أن التوازن بين المتطلبات السياسية والعسكرية فى التخطيط للعملية احتفظ به بطريقة صحيحة . والفضل الاكبر فى ذلك يعود الى الرئيس عبد الناصر، والى الرئيس السادات، والفريق عبد المنعم رياض ، والفريق محمد فوزى ، والفريق احمد اسماعيل ، كما يعود الفضل فيه عند الجانب السورى الى الرئيس حافظ الاسد الذى قام بدور حاسم فى اعادة بناء القوات المسلحة السورية، هو أول رئيس سورى يجمع فى

يديه بين القوتين الاسمية والفعلية معاً .

٤ ـ كانت هذه هى المرة الأولى التى يقوم فيها العرب بدراسة شاملة للعدو الذى كان عليهم أن يحاربوه . ونظرة على مظاهر قصور عجزنا السابق فى هذه الناحية كفيلة بأن تكشف الآن أنها غير معقولة . ذلك أننا كنا نرى ، أنه مادامت اسرائيل دولة لايجوز أن تقوم ، فاننا كنا نتصرف وكأنها ليست قائمة بالفعل . وكانت كل المراجع الادبية والمطبوعات القادمة من الخارج والتى تتضمن معلومات عن اسرائيل عرضه للمصادرة من جانب الجمارك ، بل أن كل صفحة فى أى من هذه المطبوعات فيها اشارة الى اسرائيل كانت تنزع ، كما حدث بالنسبة الى الموسوعة البريطانية و«لاروس» . وقبل العام ١٩٦٧ منعت محاضرة فى كليه الاركان المصرية حاول فيها المحاضر أن يحلل اداة الحرب الاسرائيلية . ولم يتغير هذا الموقف ، الا بعد هزيمة العام ١٩٦٧ وبتأييد من الرئيس عبد الناصر، حيث بدأت الدراسات الشاملة لتقييم المؤسسة العسكرية الاسرائيلية، ووسائلها ، وتقاليدها ، وشخصياتها .

ومع ذلك ، فبرغم أن معلوماتنا عن العدو قد تحسنت ، فأننا ارتكبنا خطأ سوء التقدير الجسيم للقوى التى يمكن أن تواجهنا . وليس هناك عذر فى ضوء وسائل الاستطلاع الحديثة لأن تقوم الخطة العسكرية على أساس وجود ما لايزيد عن ١٠ أو ١١ لواء دبابات اسرائيلى، فى حين أن اسرائيل اثبتت عند بدء القتال أنها تستطيع أن تدفع الى الميدان بـ ١٧ لواء .

٥ ـ على رغم أن مصر خططت للعملية العسكرية بدقة كبيرة ، فانها لم توجه عناية كافية الى الموقف السياسى الذى كان يمكن توقعه نتيجة لهذه العملية . وقد ترتب على ذلك ما نشأ من تردد وسوء فهم بالنسبة الى توقيت وقف اطلاق النار وحجمه .

الرئيس عبد الناصر يستقبل بودغورني في القاهرة .





أسرى اسرائيليون من حرب ١٩٧٣ . .

الفصل الخامس

حالة تأهب نووى

فى الخامس والعشرين من اكتوبر (تشرين الاول)، وبعد ١٩ يوما من بدء القتال ، و٣ أيام من قرار وقف اطلاق النار الذى صدر باتفاق دولى، وكان المفروض أن يكون تنفيذه قد بدأ بالفعل، اصدرت حكومة الولايات المتحدة امرأ باعلان حالة تأهب نووى، فى حركة اثارت دهشة اعدائها اكثر مما اثارت خوفهم ، كما اثارت حالة من الذهول بين الكثيرين من اصدقائها انفسهم .

وتتسائل: هل كان لأتخاذ مثل هذه الخطوة الخطيرة ما يبره؟ . . ثم نمضى لنشرح : كيف تم اتخاذها؟

منذ بداية الازمة ، بل حتى قبل أن تطلق الطلقة الأولى، كانت القوتان العظميان على اتصال مستمر فى ما بينهما بواسطة الخط الساخن (التلفون المباشر) بين البيت والكرملين . وكان الامريكيون فى بادىء الامر يعتقدون أن أى هجوم يقوم به العرب، سيكون رداً على الحشود الاسرائيلية التى تمت فى اعقاب التوتر المتزايد على الحدود السورية بعد المعركة الجوية التى دارت بين السوريين والاسرائيليين يوم ١٣ سبتمبر (ايلول) . وكان هدف الامريكيين ازالة أيه اسباب لسوء الفهم يمكن أن تشعل شرارة حرب لا ضرورة لها . فلما بدأ القتال بالفعل تملكهم الحيرة بدما تبينوا أن السوفييت كانوا على علم بالاستعداد له قبل وقوعه . وكانت وجهة نظرهم أنه اذا كان السوفييت بالفعل طرفاً فى الخطط العربية واخفوا ذلك عنهم، فان موقفهم هذا سيكون له اثره على سريان سياسة الوفاق بينهما، على رغم أن «القواعد» التى تحكم علاقات الدول العظمى لاتتضمن ما يحتم على السوفييت أن يبلغوا مثل هذه المعلومات لواشنطن . والحقيقة أن السوفييت ـ كما سبق أن رأينا ـ كانوا فى ورطة لا يحسدون عليها . فقد كانوا يعرفون أن ثمة شيئاً فى ما تحمله

الرياح، لكنهم لم يكونوا قد ابلغوا بموعد الهجوم أو بمداه. وكان الرئيس السادات قد لمح لفينوجرادوف بطريقة غامضة عن شيء فى هذا الصدد يوم أول اكتوبر (تشرين الاول). كما أن الرئيس الاسد كان اوحى بمثل هذا التلميح الى السفير السوفييتى فى دمشق يوم ٥ اكتوبر (تشرين الاول). ولو كان السوفييت قد نقلوا هذه التحذيرات الى الامريكيين ثم انكشف امر نقاهم لها (وكان سينكشف بطبيعة الحال) لكانوا فقدوا كل مالهم من مكانة لدى العرب. كذلك فانه لو فرض، فى الوقت نفسه، وحدث انفجار ما، فان صمتهم لابد سيكون موضع سوء فهم من جانب الامريكيين. لكن الاحداث كشفت بعد ذلك عن أن الامور سارت على ما يرام، ولم تدم أية شكوك يمكن أن تكون ساورت الامريكيين حول تواطؤ السوفييت مع العرب طويلا، بل سرعان ما تم الاتفاق بين القوتين العظميين على ضرورة توجيه جهودهما كلها نحو محاولة احتواء النزاع، وتجنب الاشتراك بانفسهما فيه، وهو الاهم.

وهكذا، فانهما بدآ منذ يومى ٧و ٨ اكتوبر (تشرين الاول) يبحثان معاً سبل وقف اطلاق النار ووسائله. لكنهما لم يتمكنا من الوصول الى اتفاق بشأن ما اذا كان من الضرورى أن يتضمن وقف اطلاق النار طلباً بانسحاب القوات المتحاربة الى المراكز التى كانت تحتلها عند بدء القتال. فقد كان الامريكيون يرون ان يتضمن القرار نصا على الانسحاب، بينما كان السوفييت يرون أن مثل هذا النص غير علمى نظراً الى النجاح الذى حققه العرب فى البداية، وبالنظر كذلك - وهو الاهم - الى أن مثل هذا الطلب لم يطلب من اسرائيل عندما صدر قرار وقف اطلاق النار فى العام ١٩٦٧. وكان فشل نيكسون فى الوصول الى اتفاق فى هذا الصدد مع الكرملين بعد اتصاله ببريجنيف بواسطة الخط الساخن هو الذى دفعه الى الدعوة الى اجتماع مجلس الامن.

وعندما فشل أول اجتماع عقده مجلس الامن فى هذا الشأن بدأ الاهتمام يتجه نحو مسألة الجسر الجوى لأطراف القتال. وكان الاسرائيليون نظموا هذا الجسر منذ اللحظة الأولى للحرب، وحولوا ما استطاعوا تحويله من طائراتهم المدنية الى الولايات المتحدة حاملة - بموافقة فورية من الرئيس نيكسون - كل ما تستطيع حمله من السلاح والذخيرة. وما كاد المصريون والسوريون يسمعون بهذا الجسر الجوى الاسرائيلى حتى زادوا ضغطهم على السوفييت من أجل أن ينظموا لأنفسهم جسراً جويا مماثلا. ولمجرد أن بدأ هذا الجسر الجوى السوفييتى الى العرب قامت الولايات المتحدة بتصعيد جسرها الجوى الى اسرائيل مستخدمة فيه الطائرات الامريكية نفسها، على رغم الخلاف الذى كان قائماً فى هذا الشأن بين وزارة الخارجية والبنتاجون، حيث كان البنتاجون يخشى أن يؤدى الاندفاع فى شحن كل ما تطلبه اسرائيل من

سلاح (ولاسيما بعدما بلغت المطالب الاسرائيلية بالنسبة الى المدافع للدبابات والقذائف حد الهستيريا) الى رد فعل عكسى لدى الجانب العربى، يحتمل معه استخدام «سلاح البترول» الذى كان مثار خوف شديد .

وبحلول منتصف الاسبوع كانت الصورة بدأت تتضح اكثر واكثر بالنسبة الى مدى ما حققه العرب من نجاح فى المعارك البرية، واصبحوا يميلون الى الاكتفاء بوقف لاطلاق النار غير مصحوب بشرط الانسحاب ، وضغطوا على الاسرائيليين لقبول الفكرة . وكان رئيس الوزراء البريطانى حيث هو الاداة التى استخدمت فى ابلاغ اقتراح ، يقوم على هذا الاساس لكل من الرئيس السادات و الرئيس الاسد وتولى فيليب أدامز السفير البريطانى فى القاهرة إبلاغ الرسالة الى الرئيس السادات فى قصر الطاهرة فى نحو منتصف ليل ١٢ اكتوبر (تشرين الاول) ، واستمع من الرئيس الى ردود فعله السريعة للرسالة . وفى صباح اليوم التالى استقبله وزير الخارجية اسماعيل فهمى فى منزله ، وقدم اليه مزيداً من الايضاح بالنسبة الى ردود فعل الرئيس . على أن هذه البادرة لم تحقق شيئاً محدداً . وفى تلك الاثناء كان السوفييت بدأوا يهتمون بفكرة وقف القتال، بعدما راعتهم السرعة التى لم يسبق لها مثيل التى تلتهم بها المعدات الحربية فى هذا النوع الجديد من الحرب ، وخاصة ذلك العدد الكبير من الدبابات التى دمرت فى الجبهة السورية ، فضلا عما ذكرته مخابراتهم عن استعدادات يقوم بها الاسرائيليون لشن هجوم مضاد واسع النطاق فى سيناء .

وقد اجتمع المكتب السياسى السوفييتى يوم ١٢ و١٣ و١٤ اكتوبر (تشرين الاول) واتخذ فى نهاية اجتماعاته قرارا بايفاد كوسيجين الى القاهرة، ووصل اليها بالفعل فى الساعة الخامسة من يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر (تشرين الاول) وعقد أول اجتماع مع الرئيس عقب وصوله مباشرة ، وناقش معه وقف اطلاق النار الذى كان السوفييت يبحثونه مع الامريكيين . وقد اعرب الرئيس خلال تلك المناقشة عن تمسكه بضرورة أن يكون هناك انسحاب اسرائيلى مصحوب بجدول زمنى محدد، ومؤتمر موسع للسلام. وقال كوسيجين أن المصريين قد اثبتوا جدارتهم فى اثناء المعركة ، وخلقوا بهذا عاملا جديدا تماما فى السعى من أجل تحقيق حل سلمى ، لكنه حذر من أن المد العسكرى ربما يكون بدأ يتحول فى اتجاه آخر، كما حذر من الخطر الذى قد يؤدى اليه استمرار القتال من تورط القوتين العظميين فيه، نتيجة للمطالب المتزايدة بشأن السلاح من جانب الاطراف المتحاربة . وهنا قال الرئيس السادات متسائلاً : «وهل انتم خائفون من اسرائيل؟» فرد كوسيجين قائلا :«أننا لانخاف احدا ، لكن علينا التزاما نحو السلام العالمى، كما أننا ملتزمون بالسعى من أجل حل

عادل ودائم لمشكلة الشرق الأوسط على أساس القرار الرقم ٢٤٢ ».

وقد استمرت محادثات كوسيجين فى القاهرة طوال يومى الاربعاء والخميس، وكان خلالها على اتصال مباشر ودائم مع بريجنيف فى موسكو. وقد صحب معه الى القاهرة ضابطا خبيراً فى تفسير التصوير الجوى، وقدم الى الرئيس خلال احد اجتماعاته معه فى قصر القبة دليلا بالصور يكشف حجم العبور الاسرائيلى فى الضفة الغربية لقناة السويس، ويبين أن ما لايقل عن ٢٧٠ دبابة وسيارة مصفحة قد عبرت القناة بالفعل . وظهر بعض الخلاف حول طبيعة مؤتمر السلام الذى قال عنه الرئيس فى خطابه فى مجلس الشعب أنه لابد أن يكون نتيجة لوقف اطلاق النار . فقد كانت مصر ترى أن يحضر هذا المؤتمر اعضاء مجلس الامن كلهم ومعهم الاطراف المعنية ـ مصر وسوريا والاردن والفلسطينيون بالاضافة الى اسرائيل ـ ولا تمانع فى تشكيل لجنة فرعية للمؤتمر تقتصر عضويتها على الاعضاء الخمسة الدائمين فى المجلس وتمثل فيها الاطراف المعنية ، بينما كان السوفييت يريدون مؤتمرا صغيرا خشية الدور الذى يمكن أن تلعبه الصين فى مؤتمر موسع . وقد غادر كوسيجين القاهرة فى صباح يوم الجمعة ١٩ اكتوبر (تشرين الاول).

وطوال فترة وجود كوسيجين فى القاهرة كان نيكسون على اتصال ببريجنيف عن طريق الخط الساخن ، وبعد عودة كوسيجين الى موسكو تضاعفت الاتصالات بين الاثنين، فقد كانت الحاجة ملحة لأصدار قرار بوقف اطلاق النار يسرى مفعوله فى تلك الليلة نفسها ـ ليلة ١٩ أكتوبر (تشرين الاول) . وكان من بين المسائل التى لابد من الاتفاق عليها قبل اصدار القرار مسألة الربط الذى لابد منه بين وقف اطلاق النار وتنفيذ القرار الرقم ٢٤٢ ، ومسألة الدول التى يتكون منها المؤتمر ، والطريقة والموعد الذى تتوقف فيه الجسور الجوية الى الاطراف المتحاربة . وفى الساعة العاشرة مساء ، وبعد ١٠ ساعات من المفاوضات عبر الخط الساخن ، قال بريجنيف أن من الافضل أمام الاهمية الكبرى لعامل الوقت أن تنتقل هذه المفاوضات الى مرحلة المحادثات المباشرة، واقترح أن يحضر كيسنجر الى موسكو على الفور ومعه تفويض من الرئيس نيكسون بسلطة توقيع اتفاقيات ملزمة .

ووصل كيسنجر الى موسكو فى ساعة مبكرة من صباح يوم السبت ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول) ، وبدأ محادثاته مع الزعماء السوفييت على الفور، وكان من بين نقط الخلاف التى ظهرت منذ البداية اصرار كيسنجر على ضرورة اجراء مفاوضات مباشرة بين اطراف القتال لمجرد سريان مفعول وقف اطلاق النار . وكانت وجهة نظره أن النجاح الذى حققه العرب فى البداية ، ووجود القوات المصرية على الضفة الشرقية لقناة السويس، يجعلان من رفض العرب السابق الجلوس مع الاسرائيليين امرا غير ذى

موضوع . وقال أن حالة اللاحرب واللاسلم قد انتهت ، وحلت محلها حالة لا نصر ولا هزيمة، وأن كل طرف فى القتال حصل على شىء مما يريد ، وبهذا يكون الوقت قد حان لأن يجلس الطرفان معا ويتحدثان . وقال أيضاً أنه ليس فى مقدور القوتين العظميين أن تفرضا تسوية على الاطراف المتحاربة ، وأن مثل هذه التسوية امر لابد أن يتفقوا عليه فى ما بينهم، وكل ما تستطيع القوتنا العظميان أن تقدمه اليهم هو التوجيه والاشراف.

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة فى موسكو كانت التقارير التى تصل الى القاهرة من جبهة القتال تحمل صورة مزعجة وتتزايد تباعا . وكان اللواء سعد الشاذلى قد توجه الى الجبهة بعد ظهر يوم ١٨ اكتوبر (تشرين الاول) يحمل أوامر وخططا لتطويق ما كان لايزال يظن أنه «جيب» التسلل الاسرائيلى عبر القناة . لكنه تبين عقب وصوله الى المنطقة أن الصورة الحقيقية مختلفة كل الاختلاف عن الصورة التى قدمت الى القاهرة، وأن ما هو مطالب بتصفيته ليس «جيبا» ، وانما هو اختراق كبير . كذلك فقد كان هناك من الدلائل ما يشير الى أن الاسرائيليين يستعدون فى الضفة الشرقية للقيام بحركة تطويق فى الجنوب ضد الجيش الثانى .

وكان لابد للرئيس من أن يوازن بين هذه التقارير المزعجة والصورة الاشمل للمعركة . وكانت الحقيقة البارزة فى الصورة هى أن الجيش المصرى قد أثبت نفسه، وأن نظرية الامن الاسرائيلية التى لم تكن تسيطر على عقول الاسرائيليين وحدهم بل كان يشاركهم فيها عدد من الحكومات الاخرى قد تحطمت . وكذلك ، فان الشعب المصرى كشف عن عزيمة قوية على القتال والتضحية والتحمل، لكن الموقف الآن لم يعد قضية مصر ضد اسرائيل ، وانما موقف مصر ضد اسرائيل والولايات المتحدة معا، وفى هذا ما يجعل من الحماقة تعريض جيش باسل لأختبارات لا مبرر لها ، كما يجعل من وقف اطلاق النار أمراً معقولا .

وقد عاد الرئيس الى قصر الطاهرة، واستدعى السفير السوفييتى لمقابلته ، وطلب اليه أن يبلغ بريجنيف استعداده لقبول وقف اطلاق النار، على أساس الشروط التى قدمها الى كوسيجين فى اثناء وجوده فى القاهرة . ووصلت هذه الرسالة الى بريجنيف فى اثناء محادثاته مع كيسنجر . وبدأت المسائل تتحرك منذ تلك اللحظة ، فقد وضعت يوم السبت صيغة القرار الذى سيقدم الى مجلس الامن بوقف اطلاق النار وأبلغت القاهرة به ، كما ابلغت أن مجلس الامن سيعقد اجتماعه يوم الاحد.

واتفق على أن يعود كيسنجر عن طريق اسرائيل ليقدم الى الاسرائيليين صورة عما فعله فى موسكو ، ويشرح لهم نص قرار مجلس الامن . وكان الكثيرون من الاسرائيليين فى ذلك الوقت يعارضون فكرة

وقف اطـلاق النـار، أحسـاسـا منهم بأن النصر أصبـح فى متنـاول ايـديهم. وفى ظنـى أن تقـديـرهـم هذا كان خاطئـاً، لأن الـطرفـين كانـا عنـدئـذ قد انتشرا الى أقصى حد ممكن ، وكـان من المسـتحيـل عليهـم أن يستمـروا بقـوة الـدفـع المطلوبـة لفرض قرار حاسم فى جبهـة القتال نفسهـا. وكـان من بين ما علمنـاه فى ما بعـد أن كيسنجـر بذل جهـداً مضنيـا فى محاولـة اقنـاع الاسرائـيـليـين بأنهم على رغـم امكـان استعـادتهم لعنصر المبـادرة ، فان الايـام الأولى للقتـال قد اثبـتـت خطأ الـكـثير من افـتراضـاتهـم الاسـتراتيجيـة . . . فهم قد تعرضـوا للمفـاجـأة ، وبـرهن العـرب على قدرتهم على العـمـل المنسق فضـلا عن أن أزمـة الـطاقـة تضـع فى ايـديهم ورقـة سيـاسيـة رابحـة . وأكـد على أهميـة كلمـة «المفـاوضـات» التى ينص عليهـا الـقـرار ، وقـال أنها مطلب ظل الاسرائـيـليـون يطالبـون به طوال ٢٦ عامـا. كذلـك فانـه اكـد ، بطبيعـة الحـال ، اهتـمام امـريكـا بتجنب المواجهـة مع السوفييت .

وعنـدمـا سمـع الـرئيس بأن كيسنجـر سيمر باسرائيـل رأى أن نطلب اليـه أن يتـوقف فى القـاهـرة أيضـاً . وارسلت اليـه دعـوة باسم الـرئيس تلقـاهـا وهـو فى اسرائيـل . (استخـدمـت فى توصيـلهـا اليـه شبكـة الاتصـالات « غير المـرئيـة » مع واشنـطن الـتى كانـت تعمـل طيـلة الـوقـت) . لكن الـكـثيريـن من الـزعمـاء الاسرائيليـين ، ولاسيـما جولـدا مائـير نفسهـا ، عارضـوا بشـدة فكـرة توقـف كيسنجـر فى القـاهـرة . فقـد كانـوا يخشـون أن تبـدوا الـولايـات المتحـدة ، اذا ما سافـر كيـسنجـر من الـقـدس الى الـقـاهـرة مبـاشرة ، وكـأنها تحاول بدور الـسـمـسـار الشريـف فى صراع لابـد أن يتحـول ميـزان القـوى فيـه لمصلحـة العـرب اذا استمـر الاتحـاد الـسـوفـيـيتى فى تأييـده لهم . وهـكـذا اعتـذر كيسنجـر للرئيس الـسـادات ، وقـال فى رده أن من المؤسـف الا يستـطيـع الحضـور فى هذه الفترة بالذات ، لكنه يأمل فى ان يزور القاهرة قريباً جداً .

وعقـد مجلس الامن جلستـه فى المـوعـد المحـدد لها وهـو الـسـاعـة العـاشرة والـنصـف من مسـاء يوم الـسبـت (بحـسب توقيـت جرينـتش)، بعـد أن استـدعى جميـع الاعضـاء الى نيـويـورك من حيثـما كانـوا يستمتعـون بقضـاء عطلة نهايـة الأسبـوع، باستثـنـاء منـدوب الصين الـذى اقنعـه المنـدوب الامـريكى وغـيره من المنـدوبـين بعـدم الحضـور لازالـة مخاوف السـوفييت من احتـمال استخـدامـه حق الفيتـو . واستمـع المجلس الى نص القـرار الـذى اعـد فى اثنـاء وجـود كيسنجـر فى موسكـو ووافق عليـه بالاجمـاع. وكـان القـرار، الـذى حمل الـرقم ٣٣٨، يدعـو الى وقف اطـلاق النـار خلال مدة لاتـزيـد على ١٢ ساعـة وبـقـاء جميـع الـقـوات فى المـراكـز التى تكـون فيهـا ، كما يدعـو جميـع الاطـراف الى أن تبـدأ فور وقف اطـلاق النـار فى التنفيـذ الكـامـل للقـرار الـرقم

٢٤٢ ، مع مايستتبع ذلك من «ضرورة بدء مفاوضات بين الاطراف المعنية تحت اشراف مناسب بغرض الوصول الى سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط » .

وكان المفروض أن يصبح قرار وقف اطلاق النار نافذ المفعول فى الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين (حسب توقيت القاهرة) من يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) ، لكن الاسرائيليين لم يأبهوا به منذ البداية . وكانت تلك هى اللحظة التى بدأ فيها الجنرال شارون ما وصفه بأنه «عملية عصابات تقوم بها الدبابات» فى الضفة الغربية لقناة السويس . وقد ثبت فى ما بعد انه قام بالعملية بأمر من الجنرال دايان . وراح اسرائيليون يمارسون اسلوبهم المعتاد فى استخدام الهدنة كغطاء لتحسين مركزهم العسكرى . وقد نجح شارون فى احتلال تقاطع الطرق على طريق السويس - القاهرة ، لكنه فشل فى محاولة احتلال تقاطع الطرق على طريق الاسماعيلية - القاهرة . ثم تقدم بعد ذلك نحو عتاقة . وفى صباح يوم ٢٣ تقدم جنوبا حيث فاجأ القاعدة البحرية فى الادبية واحتلها . وكانت هناك وحدات اسرائيلية اخرى ارسلت بالقوارب عبر القناة لدعم تشكيل وحدات الدبابات فى هجومه على مركز الدفاع الساحلى فى السخنة . وكان من الواضح أن هدف الاسرائيليين هو تطويق الجيش الثالث ، وقطع المواصلات على طريق القاهرة - السويس ، وعزل مدينة السويس .

وعلى رغم أن الجيش الثانى المصرى كان سليما ويقف فى خطوطه بثبات تام ، وأن الجيش الثالث بقيادة اللواء احمد بدوى كان يقاوم الضغط الشديد الذى يتعرض له من جانب قوات العدو ، فانه لم يكن من الممكن تركهما على حالهما الى ما لانهاية . وكان الرئيس السادات يبعث كل ساعة تقريبا برسائل عاجلة الى كل من بريجنيف ونيكسون يوضح فيها أن اسرائيل تخرق وقف اطلاق النار بصورة منتظمة . وفى يوم الثلاثاء ادركت القوتان العظميان أن الموقف يستدعى ضرورة اتخاذ اجراء من جانبهما ، فوجها الدعوة الى اجتماع جديد يعقده مجلس الامن .

وكان نقد مصر لقرار مجلس الامن - ٣٣٨ - أنه لم يتضمن شيئاً عن ارسال قوات الامم المتحدة الى المنطقة للاشراف على تنفيذ وقف اطلاق النار . وقلت أنا فى ذلك الحين أننا نرتكب خطأ الموافقة على « قانون من دون قاض» . وكان مشروع القرار الجديد الذى قدمته امريكا والاتحاد السوفييتى ووافق عليه مجلس الامن تحت الرقم ٣٣٩ أفضل بعض الشىء من القرار الاول ، لكنه كان بعيداً جداً عن تحقيق المطالب المصرية . ذلك أنه - وهو الاهم - لم يطلب العودة الى خطوط قرار وقف اطلاق النار الاول - خطوط يوم ٢٢ أكتوبر (تشرين الاول) فهيأ بذلك لأسرائيل أن تحتفظ بالمكاسب التى حصلت عليها بانتهاكاتها لوقف

اطلاق النار . وقد اشار الرئيس الى ذلك عندما اطلعه فينوجرادوف على النص المقترح للقرار الجديد . لكن فينوجرادوف قال أن ادخال تعديلات على القرار سيعقدالامور . وعندما رد الرئيس أن القرار فى صيغته الحالية غير كاف ، قال فينوجرادوف : «سيدى الرئيس . اتريد منا أن نستخدم الفيتو لوقفه ؟» وتضايق الرئيس من السؤال ، لأنه لم يكن - بطبيعة الحال - يريد من السوفييت أن يستخدموا الفيتو ضده ، وكل ما كان يهدف اليه هو وقف لأطلاق النار يستطيع أن يقف على قدميه ، ولا يتيح للاسرائيليين أى مبررات للمضى فى القتال . وهكذا قبل القرار بصيغته التى عرضت عليه . وكان القرار يتضمن - بعد تأكيده للقرار الرقم ٣٣٨ - دعوة السكرتير العام للامم المتحدة الى «أن يتخذ الاجراءات لكى يرسل على الفور مراقبين من الامم المتحدة للاشراف على الالتزام بوقف اطلاق النار ، مستخدماً لهذا الغرض ، قبل كل شيء ، موظفى الامم المتحدة الموجودين الآن فى القاهرة» . وقد صدرت الموافقة على هذا القرار بالاجماع أيضاً .

ومع ذلك ، فانه فى اليوم التالى لصدور القرار الرقم ٣٣٩ - فى ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) كانت القوات الاسرائيلية لاتزال ماضية فى تقدمها . وقد بعث الرئيس السادات برسالتين طبق الاصل لكل من بريجنيف ونيكسون قال فيهما : « ولابد من أن تكونوا بأنفسكم على الارض لتشهدوا بأعينكم انتهاكات اسرائيل لوقف اطلاق النار » . وفى تصورى أن بريجنيف كان فى ذلك الوقت قد بدأ يشك فى احتمال أن يكون الامريكيون يخدعونه . فعلى رغم أنه كان يثق فى كيسنجر وفى الطريقة التى تطبق بها سياسة الوفاق ، الا أنه لم يكن يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن يواصل الاسرائيليون هذه الانتهاكات الصارخة لقرار بوقف اطلاق النار المفروض فيه أنه قدم بالاشتراك مع حكومة الولايات المتحدة نفسها - ولاسيما بعدما قام كيسنجر بزيارة شخصية لأسرائيل - ما لم يكن هناك بعض التواطؤ مع واشنطن . ومع ذلك فلم يكن هناك فى ذلك اليوم - أو فى أى يوم آخر - أى اقتراح من جانب المصريين أو السوريين بدعوة السوفييت الى ارسال قواتهم الى المنطقة . والمطلب الوحيد الذى قدم ، أو كان موضع تصور ، هو حضور السوفييت والامريكيين الى المنطقة لتولى اعمال الرقابة .

وفى ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) بعث الرئيس نيكسون الى الرئيس السادات برسالتين ، قال فى اولاهما : « لقد طلبت الى وزير الخارجية كيسنجر ، لمجرد أن تسلمت رسالتك ، أن يقدم احتجاجاً عاجلاً الى الاسرائيليين بأن استمرار العمليات الهجومية العسكرية سيكون له أخطر النتائج على مستقبل العلاقات الامريكية الاسرائيلية . وقد ردت الحكومة الاسرائيلية أن من يبدأ بالهجمات هو الجيش الثالث ، وأن القوات

الاسرائيلية تقف موقف الدفاع ، وأن الأوامر الصادرة اليها هى الرد على النار اذا تعرضت للهجوم . ومن هنا تصبح معرفة الحقائق الاصلية مستحيلة . واريد أن أؤكد لك أن الولايات المتحدة تعارض معارضة مطلقة كل الاعمال الهجومية التى تقوم بها اسرائيل ، وهى مستعدة لأتخاذ خطوات فعالة لوضع حد لها . وفى الوقت نفسه ، فان عليك أن تكفل وقف كل الاعمال العسكرية من جانب قواتكم أيضاً . وسيتصل وزير الخارجية كيسنجر بالسيد اسماعيل فهمى بعد ظهر اليوم بشأن امكان اجراء محادثات مباشرة بيننا بشأن الديبلوماسية التى سنتبعها فى المستقبل ».

ولم تكن الجملة التى وردت فى رسالة نيكسون وتضمنت قوله : « ومن هنا تصبح معرفة الحقائق الاصلية مستحيلة » مقنعة تماماً ، بل أن ما جاء فيها عزز شكوك السوفييت بأن الاسرائيليين يسمح لهم عن عمد بالمضى فى انتهاكاتهم . ذلك أن الامريكيين والسوفييت كليهما يقومون بتصوير مناطق المعركة كل ساعة تقريباً . ومن الممكن تماما للمسؤولين فى البنتاجون أن يقارنوا بين ما كان عليه الموقف يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) حين لم تكن السويس قد طوقت ، ولا كانت الادبية قد احتلت ، وبين الموقف الذى اصبح عليه يوم ٢٤ . ولايمكن أن يؤخذ مأخذ الجد ما يقوله الاسرائيليون من أن من العسير على كائن من كان أن يحدد الخطوط التى كانت قائمة يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) لأنه اذا كان هناك من يريد أن يعرف ، فالوسائل لذلك كثيرة . وقد كان جروميكو منذ بضع سنوات يتحدث الى محمود رياض عن الدقة المدهشة لوسائل التصوير الجديدة بالاقمار الصناعية حين قال له : « أننا نستطيع أن نقدم اليك ، اذا شئت ، صورة لسيناء يمكنك بواسطتها أن تحدد مكان جميع الثعابين الموجودة فيها » . وليس المفروض أن يكون الامريكيون متخلفين فى هذا المضمار .

وكانت الرسالة الثانية التى تلقاها الرئيس السادات من الرئيس نيكسون بعد ذلك بقليل تقول : « لقد ابلغنا توا من قبل رئيسة وزراء اسرائيل أن التعليمات صدرت الى القوات المسلحة الاسرائيلية بأن تلزم المراكز الدفاعية ، ولاتطلق النار الا اذا اطلقت عليها النار . واستجابة لاقتراحكم الخاص بارسال مراقبين امريكيين ، فان الحكومة الاسرائيلية وافقت على السماح للملحقين العسكريين الامريكيين بالتوجه فوراً الى منطقة النزاع ليتولوا مراقبة تنفيذ هذه الأوامر . وستقدمون عونا كبيرا لو أنكم صدرتم التعليمات لقواتكم بهذا الشأن » .

وعند هذه النقطة يصبح موقف الحكومة السورية على درجة حيوية من الاهمية . فقد كان السوريون ـ كما سبق أن رأينا ـ يشعرون بالضيق لأننا قبلنا وقف اطلاق النار ، وكانوا يشعرون بضيق اكثر للطريقة التى علموا

بها بقبولنا له . فقد قالوا أن المرة الأولى التى سمعوا فيها بموعده كانت عندما أعلن مندوب مصر فى مجلس الامن قبوله وقف اطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) . وبعد ذلك سافر الدكتور صدقى مبعوثا خاصاً الى الرئيس الاسد لمحاولة اقناعه بضرورة موافقة سوريا على القرار أيضاً.
لكن الرئيس الاسد كان فى حالة نفسية سيئة ، فقد كان مقتنعا بأن الهجوم المضاد الاسرائيلى على جبل هرمون لم يكن لينجح لولا أن الاسرائيليين كانوا يعلمون أن وقف اطلاق النار أصبح وشيكا ، واستطاعوا نتيجة لذلك أن يلقوا بكل ثقلهم فى هذه العملية الاخيرة . وكان لابد ، من ناحية أخرى ، من الغاء هجوم رئيسى كان المفروض أن يبدأ يوم ٢٣ اكتوبر (تشرين الاول) وتشترك فيه القوات العراقية . ومع ذلك ، فانه لم يكن أمام الرئيس الاسد الا قبول وقف اطلاق النار . وقد أبلغ أن مصر تطلب من القوتين العظميين ايفاد مراقبين وموظفين الى المنطقة لمعاينة الموقف بانفسهم . ولم يكن بين السوريين والامريكيين اتصال مباشر فى ذلك الوقت ، وكان الاتصال بينهما يتم أما عن طريق مصر وأما عن طريق السوفييت . وفى يوم ٢٤ أستدعى الرئيس الاسد السفير السوفييتى فى دمشق وطلب منه اتخاذ الاجراءات اللازمة لجلب قوة سوفييتية الى سوريا على الفور . كما بعث الى الرئيس السادات برسالة يسأل فيها عما اذا كان الاتحاد السوفييتى سيرسل قوات (وكلمة قوات يمكن أن تعنى قوات مسلحة أو قوات مراقبة يكون المشتركين فيها فى الحقيقة افراد كما يحدث فى قوات الطوارىء مثلاً) وعلى رغم أن الكلمة التى استخدمها الرئيس الاسد كانت كلمة قوات ، فان السلطات فى القاهرة ظنت أن من الممكن أن يكون الرئيس الاسد قد استخدم الكلمة بمعناها الاوسع . فقد كانت مصر تعرف أن السوريين يشكون فى أن العراقيين يرفضون قبول وقف اطلاق النار ويهددون بسحب كل قواتهم من سوريا ، لذلك فقد تصورت أن من المعقول أن تكون سوريا فى حاجة الى بعض القوات السوفييتية لسد الثغرة التى سيتركها العراقيون . وعلى هذا الاساس ، فان الرئيس السادات رد بقوله : « لقد أبلغنى الاتحاد السوفييتى أنه ارسل ٧٠ مراقباً . وأنا اقدر موقفك ، واوافق على أنك قد ترى من الضرورى أن تطلب جنودا سوفييت اذا كان الموقف - فى رأيك - يستدعى ذلك ».

واستمر تبادل الرسائل بين الرئيسين على الوجه التالى :

الرئيس الاسد : « عندما سألتك عن القوات السوفييتية التى ستحضر الى المنطقة، فأنى كنت اظنها ستحضر بناء على طلب منك. وقد استدعيت السفير السوفييتى فى دمشق وابلغته عن القوات السوفييتية التى سترسل الى مصر، لكننى لم اطلب ابدا قوات سوفييتية تحضر الى سوريا » .

الرئيس السادات : « لقد فهمت من رسالتك أن طلب حضور قوات سوفييتية كان من جانب سوريا ، ووافقت عليه على اعتبار أن الحاجة فى جبهتكم تستدعى ذلك. أما نحن فأننا لم نطلب ابدا قوات سوفييتية ، وانما طلبت فقط مراقبين سوفييت يشتركون فى الاشراف على وقف اطلاق النار . وهذا ما ابلغته لفالدهايم ».

ولا جدال فى أن كل الرسائل المتبادلة بالشفرة بين القاهرة ودمشق خلال مدة تزيد على ساعتين أو ثلاث ساعات قد التقطت من جانب الامريكيين . ومن الجائز أن تترك هذه الرسائل انطباعاً أن هناك من يطلب قوات سوفييتية ترسل الى المنطقة . وكانت النتيجة ، كما عرفنا مما قاله كيسنجر فى ما بعد أن مجلس الامن القومى الامريكى دعى الى اجتماع قيل فيه أن هناك «دليلاً قاطعاً» على أن السوفييت على وشك أن يتدخلوا بالقوة فى الشرق الأوسط . وليس من الممكن أن يكون هناك أى مصدر ملموس لمثل هذا المعنى غير الرسائل المتبادلة بين السادات والاسد. ومن الجائز أيضاً أن تكون بعض وحدات من قوات حلف وارسو قد وضعت فى حالة تأهب كاجراء وقائى . ومثل هذا الاجراء يعتبر اجراء عاديا فى امريكا واوروبا الغربية فى حالة توتر كهذه ، لكنه لايمكن أن يعتبر دليلاً قاطعاً من ذلك النوع الذى تحدث عنه الامريكيون . وهناك أيضاً عامل آخر يمكن أن يكون سببا لسوء الفهم ، وهو ارسال المراقبين من الاتحاد السوفييتى . ولقد ابلغ الرئيس السادات الرئيس نيكسون أن المراقبين السوفييت قادمون ، لكن من الجائز أن تكون واشنطن استنتجت حين علمت بتوجههم الى المنطقة انهم الدفعة الأولى لقوة اكبر بكثير، خصوصا أنه كان من المعروف لدى الامريكيين أن فالدهايم لم يطلب من الاتحاد السوفييتى سوى ٣٥ مراقباً .

كذلك فانه فى اثناء تبادل الرسائل بين الرئيسين السادات والاسد بعث بريجنيف الى نيكسون برسالة عن طريق الخط الساخن لفت فيها النظر الى الانتهاكات الاسرائيلية المستمرة لوقف اطلاق النار ، وقال: «واذا لم تلتزم اسرائيل بوقف اطلاق النار فلنعمل معاً لفرض وقف اطلاق النار ولو بالقوة اذا استدعت الضرورة». وقد رأت واشنطن فى هذا كلاماً شديد اللهجة جداً، وقال كيسنجر أن هذه اللهجة ذكرت الامريكيين بـ «انذار» عام ١٩٥٦ الذى وجهه بولجانين الى ايزنهاور وقال فيه أن الاتحاد السوفييتى مستعد للتدخل «أما مشتركا وأما منفرداً» لفرض الاحترام الواجب لقرار الجمعية العامة للامم المتحدة . وكانت رسالة بريجنيف هذه هى التى اطلعت عليها الحكومة الامريكية عدداً كبيرا من أعضاء مجلس الشيوخ لتبرر بها اعلان حالة التأهب .

وأيا كان الدليل الذى قدم الى مجلس الامن القومى ، فان المجلس قرر - كما قال كيسنجر وبناء على طلب منه - اعلان تأهب من الدرجة

الثالثة . وقد انضم نيكسون الى المجلس فى نهاية مناقشاته وصدق على القرار، وقام وزير الدفاع باصدار التعليمات اللازمة بشأنه لرؤساء الاركان .

وربما كان للامريكيين بعض العذر فى ما ارتكبوه من خطأ فى قراءة الموقف اذا شئنا لهم أن يفيدوا من عامل الشك، على رغم أن اتصالنا الدائم - نحن والسوفييت - بهم كان جديراً بأن يجنبهم الوقوع فى مثل هذا الخطأ الخطير فى الحساب . وقد اعترف كيسنجر نفسه فى ما بعد بأن اعلان حالة التأهب النووى كانت غلطة . وقال : « فلنوافق على أن هناك رئيساً امريكياً وجد نفسه فى موقف صعب ، وقرر أن يتخذ الحد الاقصى من الاجراءات الوقائية حتى يطمئن نفسه ويطمئن الآخرين » . وربما كان الامر ، بالدرجة نفسها، أمر رئيس كان شديد الحساسية - لأسباب داخلية - بالنسبة الى هيبته الشخصية ، وكان حريصاً على أن تكون هناك أزمة كوبا أخرى ، من صنعة هذه المرة . والقول نفسه يمكن أن ينطبق على وزير للخارجية شديد الادراك لأهمية سمعته الخاصة بالديبلوماسية القائمة على القوة .

وكما كان متوقعاً ، فان السوفييت دهشوا لأعلان حالة التأهب الامريكى . وقال بريجنيف فى رسائل الى الرئيس الجزائرى بومدين والى الرئيس الاسد، أنه يعتقد أنها انذار كاذب ناجم عن رغبة امريكية فى التهويل شأن الازمة ، وانها اذا كانت تعنى تحذيراً للاتحاد السوفييتى ، فان عنوان من وجهت اليه الرسالة يكون خطأ . أما زعماء أوروبا الغربية فقد اصيبوا كلهم تقريباً بحالة من الذعر. وحين جاء كيسنجر الى القاهرة بعد ذلك بفترة قصيرة ، فانه اعرب عن شعور شديد بالمرارة تجاه ردود الفعل فى اوروبا ، واندفع فى احد اجتماعاته مع عدد من المسؤولين المصريين الى حد القول : « لايهمنى البتة ما يحدث لإوروبا الغربية ، ويمكنهم - من ناحيتى أنا - أن يذهبوا جميعهم الى الجحيم . أنهم يركعون أمامنا على الركب عندما يحسون بأنهم فى حاجة الينا، لكنهم عندما يحسون بأن فى استطاعتهم الاستغناء عنا، فانهم يتصرفون بطريقة ابعد ما تكون عن المسؤولية ». وكان بين ما قاله عنهم أيضاً ما هو اقسى من هذا بكثير .

وعلى اية حال ، فان اعلان حالة التأهب الامريكى تكشف أشياء كثيرة من نواحى عديدة . فهى تبين كيف اصبحت القوتان العظميان شريكين وعدوين فى وقت واحد . وتبين أيضاً اصرارهما على أن يتجنبا بأى ثمن الدخول فى مواجهة حقيقية بعضهما مع بعض ، واستخدامهما لتبادل كل المعلومات ذات الاهمية لتحقيق هذه الغاية . أذلك فهى تبين أن كلا منهما مستعد للقبول الواقعى لمصالح الآخر فى منطقة جغرافية بعينها (الشرق الأوسط فى هذه الحالة) . ويجدان من الاسهل عليهما . عندما يصل الامر

الى مرحلة تقديم التنازلات ، أن يضغطا على اصدقائهما لتقديمها ، بدلاً من أن يقدموها هم أنفسهم . ولعل فى الجسور الجوية التى استخدمها كلاهما ما ينير الطريق بالنسبة الى الطريقة التى تقوم عليها علاقات الدولتين العظميين . فقد تبين عندما توقفت هذه الجسور فى النهاية أن كمية السلاح الذى قدمته أمريكا الى اسرائيل تكاد تتساوى - طنا بطن تقريباً - مع الكمية التى قدمها الاتحاد السوفييتى الى مصر وسوريا .

الفصل السادس

شكل جديد من الحرب

قدمت الجولة الرابعة للقتال بين العرب واسرائيل التى دارت رحاها خلال شهر اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ شكلا جديداً من أشكال الحرب لا يختلف عن الجولات الثلاث السابقة بين الطرفين المتحاربين فحسب، لكنه يختلف فى بعض نواحيه عن أى قتال دار فى أيه منطقة أخرى من العالم ، كما أنه جدير بالدراسة كمؤشر لأشكال القتال المحتملة التى يمكن أن تنشب فى المستقبل . ويمكن تلخيص الصفات التى تميزت بها حرب اكتوبر (تشرين الاول) بما يلى :

١ ـ كانت حرباً فوق المستوى التقليدى ، وأدنى من المستوى النووى. ولعل خير اسم يمكن ان يطلق عليها هو «الحرب الالكترونية» ، لما شهدته من استخدام واسع النطاق للقوى الموجهة ووسائل الاستطلاع الالكترونى . وكانت غرف العمليات فيها أشبه ماتكون بغرف المراقبة فى محطات توليد الكهرباء ، تدار بالعقول الالكترونية والازرار .

٢ ـ على رغم التطورات الكبيرة فى التكنولوجيا ، فان العنصر الانسانى لعب فى هذه الحرب دوراً على أعظم درجة من الأهمية ، كما كان للعدد فيها أهميته . ولم تكن لدى أى طرف من اطرافها أسلحة سرية لايعرف الطرف الآخر شيئاً عنها . وكان تكاثر وانتشار الاسلحة لدى الطرف العربى والكفاءة التى استخدمت بها هذه الاسلحة، هى المفاجأة التى فوجئت بها اسرائيل .

٣ ـ ربما كانت هذه الحرب أول مثل صادق للحرب المحدودة . . . الحرب المحددة فى اهدافها وفى المدة التى تستغرقها . كذلك فانها كانت محدودة من حيث أن عدد المشتركين فيها من الجانبين لم يزد مع استمرار القتال، كما لم تزد مساحة ميدان معاركها. ففى الضفة الغربية لقناة السويس لم تزد هذه المساحة ابداً ٢٠ كيلو مترا فى الغرب، كما

انها لم تزد فى الضفة الشرقية للقناة عن ٢٠ كيلو مترا شرقاً . وكذلك الحال بالنسبة الى الجبهة الشمالية .

٤ ـ أظهرت هذه الحرب أنه حتى وإن لم تشترك القوتان العظميان فى القتال مباشرة ، فإن الحرب الالكترونية لا يمكن أن تدور بغير اشتراكهما . وقد قال كيسنجر أن اسرائيل لاتستطيع أن تخوض حربا لمدة تزيد على ١٠ أيام من دون أن تتوسل الى الولايات المتحدة لتعويض المعدات التى تكون فقدتها خلال تلك المدة، وهذه الدرجة نفسها من الاعتماد تحكم العلاقات بين العرب والاتحاد السوفييتى . وقد بلغت خسائر الطرفين فى المعدات خلال حرب اكتوبر (تشرين الاول) حداً مذهلاً ، وقدر العدد الاجمالى للدبابات التى دمرت فى ١٥ يوماً من القتال بـ ٣٠٠٠ دبابة . ولو قارنا هذه الخسائر بخسائر الدبابات فى واحدة من اكبر معارك الدبابات فى الحرب العالمية الثانية ـ وهى المعركة التى دارت بين الجنرال مونتجومرى والفيلد مارشال روميل فى شمال افريقيا واستمرت ستة اشهر ـ لوجدنا أن الخسارة فى معركة الحرب العالمية الثانية لم تزد عن ٦٥٠ دبابة . وهذا الاعتماد من جانب اطراف القتال على الدولتين العظميين لايحدد وحسب المدة التى تستغرقها الحرب ، وانما يحدد أيضاً المدى الذى يمكن أى طرف من اطرافها أن يقف عنده فى محاولة فرض ارادته على الطرف الآخر .

٥ ـ أظهرت هذه الحرب أن الدفاع ، اذا احسن تنظيمه ، يمكن أن يكون ، كالهجوم ، عاملاً حاسماً فى المعركة . فكل المعارك المهمة التى دارت بعد هجوم العبور فى القناة كانت معارك دفاعية . بل أن اقتحام القناة وخط بارليف يمكن أن يعتبر عملاً دفاعياً من حيث أنه لم يكن ليتم بنجاح لولا جدار الصواريخ. وفى المراحل الأولى للقتال لم تكن مصر تفكر فى التقدم الى ما بعد منطقة الحماية التى تغطيها الصواريخ ، وانتظرت هجوماً يقوم به الاسرائيليون على الضفة الشرقية للقناة. وعندما جاؤوا يهاجمون ، فان مصر ضربتهم بقسوة ، ثم ضربتهم بالقسوة نفسها عندما جاؤوا يهاجمون مرة أخرى . وكان السبب الاكبر لنجاح اسرائيل فى عبور القناة الى الضفة الغربية أن قواتنا التى بقيت غربى القناة كانت جردت من مدافعها المضادة للدبابات لتستخدمها القوات التى عبرت الى الضفة الشرقية . ومن ناحية أخرى ، فان الجيش الاسرائيلى قاسى ما قاساه لأن قادته كانوا يعتبرونه فى الاصل قوة هجومية وعندما ذهبوا يجمعون السلاح من الولايات المتحدة لم يكن تركيزهم قبل بدء القتال على المدافع المضادة للدبابات ، لكن الآية انعكست بعد بدء القتال وتغيرت اولويات مطالبهم تماماً .

٦ ـ كانت هذه الحرب ايذانا بتأهيل جنود المشاة . فقد كان فى استطاعة جندى المشاه المصرى أن يوقف الدبابات والطائرات بقذائف

«مولوتكا» و «ستريللا» .

٧ ـ وبارتفاع أهمية المشاه سجلت هذه الحرب انزال الطائرات والمدرعات من المركز الذى ظلت تحتله منذ الحرب العالمية الثانية، وأصبح دورها دور الضحية ، لا دور السيد. وكان التأثير النفسى على الطيارين وقادة الدبابات شديداً عندما وجدوا انفسهم عاجزين عن تحديد مواقع عدوهم . ذلك أن المدافع المضادة للطائرات أو القذائف المضادة للدبابات تكون فى العادة هدفاً ثابتاً يمكن تحديد موقعه ، وبالتالى تدميره . لكن أى جندى مصرى بمفرده مسلح بقذيفة «مولوتكا» أو «ستريللا» هو هدف متحرك وغير مرئى يتنقل فى الصحراء ، وتحميه رمال التلال وعشوش الشوك .

٨ ـ برهن نجاح عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف على عدم جدوى خطوط الدفاع الثابتة، وحطم العقيدة الاسرائيلية الخاصة بفاعلية «الحدود الطبيعية الآمنة» . وكان اغلاق باب المندب و «سلاح البترول» اضافة لعامل تحطيم هذه العقيدة .

٩ ـ اكدت هذه الجولة الرابعة الحاجة الحيوية فى الحرب المحدودة الى ضرورة وجود استراتيجية سياسية تتسلم الزمام عندما يتوقف القتال .

١٠ ـ أظهرت هذه الحرب أن القرار بشأن الموعد الذى يتوقع أن تنتهى فيه الحرب لايقل أهمية ـ من وجهة نظر التخطيط ـ عن القرار الخاص بالموعد الذى تبدأ فيه . فالقوتان العظميان لايمكن أن تسمحا لحرب، تمدانها بالمعدات ، بأن تطول الى اجل غير مسمى . ولا بد لها ، عند نقطة معينة ، من أن تتقدما وتجمداها . كذلك فلا بد من أن يوضع تدخل الامم المتحدة موضع الاعتبار ، وكان تقدير الهند لهذا تقديراً صحيحاً فى عام ١٩٧١ . فقد قدرت أن تمضى فترة ١٥ يوما قبل أن يفرض وقف اطلاق القتال عليها وعلى باكستان ، وتمكنت من اتمام عملياتها خلال ١٤ يوماً .

١١ ـ تبين أن السرعة والحركة فى الحرب الالكترونية يمكن أن تلعبا الدور الحاسم فى المعركة . فحتمية المدة المحددة للقتل ، وكذلك تعقيد الاسلحة المستخدمة فيه، تجعلان من الاستجابة الانسانية الحساسة والمرنة امراً اساسياً . والمعلومات الواردة من الجبهة يجب أن تجد من يتلقاها بسرعة، وينقلها بالسرعة نفسها. وقد ذهب بعض المفكرين الاستراتيجيين ، وبينهم الجنرال الفرنسى اندريه بوفر، الى حد القول أنه سيصبح فى الامكان توجيه جميع القوات فى الميدان من غرفة مراقبة مركزية بالطريقة نفسها التى توجه بها العمليات الجوية الآن. وقد حققت مصر خلال حرب اكتوبر (تشرين الاول) بعض النجاح ، وتعرضت لبعض الفشل فى هذه الناحية . فقد تمكنت بالاستغلال السريع لكتاب شفرة اسرائيلى وقع فى ايديها من تحديد موقع مقر القيادة الاسرائيلية فى سيناء ، وكانت النتيجة أن ضربته ودمرته وقتلت قائده الجنرال ابراهام

ماندلر . ومن ناحية أخرى ، فلو أن المعلومات التي بعثت بها الدوريات المصرية الخاصة من المراكز المتقدمة والتي وصلت الى جفجافة يوم ١٧ ، وذكرت فيها أن الطريق أمام القوات المصرية مفتوح ـ لو أن هذه المعلومات قد لقيت تقديراً صحيحاً لأستطاعت القوات المصرية أن تتقدم مباشرة الى الممرات .

١٢ ـ اثبتت هذه الحرب مرة أخرى أن العدد له قيمته . فقد كانت اسرائيل تقول دائماً أن العدد يمكن أن يكون عبئاً، وأن حجم الجيوش العربية لا يمكن أن يعوض نوعية الجيش الاسرائيلي . ومن ناحية اخرى فقد تحدث عبد الناصر فى احد اجتماعاته مع بريجنيف عن بناء جيش قوامه مليون رجل . لكن الجيش لم يبن بهذا الحجم ، وانما استطاعت مصر فى عام ١٩٧٣ بالملايين الـ ٣٦ من سكانها أن توفر العدد الكافى من الجنود المؤهلين التأهيل اللازم لجعل منطقة المعركة غابة من القذائف. كذلك فان الاحتياط من الرجال الموجودين تحت تصرف مصر كانت له فائدته من حيث تمكيننا من تعويض قادة الدبابات والطائرات . وكانت هذه هى المرة الأولى التى استطاع فيها الكم العربى أن يفعل شيئاً لتعويض بعض الميزات فى الكيف الاسرائيلي .

١٣ ـ أظهرت الحرب أن المفاجأة لاتزال ممكنة على رغم كل الاجهزة الالكترونية المتوافرة لدى الطرفين ، والمتوافرة بأشكال اوسع لدى القوتين العظميين بطبيعة الحال . وقد فوجئت القوتان العظميان والعالم كله بصورة عامة بالهجوم المصرى قدر مفاجأة اسرائيل به .

١٤ ـ وأخيراً فان الحرب اكدت مرة أخرى أهمية البعد التاريخي. والتفسير البسيط ـ لهذا الذى حدث فى اكتوبر (تشرين الاول) هو أن الشعب المصرى كان صمم على تخليص نفسه من الشعور بالنقص الذى ظل يحمل ثقله منذ هزيمة ١٩٦٧ . وكانت اسرائيل تعيش فى حالة من الثقة بالنفس مبالغ فيها ، وفى حالة من العمى التام بالنسبة الى طبيعة العناد فى طبيعة الانسان المصرى والعربى. وقد ظل الاسرائيليون والامريكيون يخطئون فى معالجتهم للمواقف بطريقة براجماتية (مغالية فى الواقعية) صرف . فهم لم يكونوا يتعاملون الا مع ما يرونه بأعينهم، مع تركيز على الحاضر واغفال تام للماضى . وما أكثر ما سمعنا فى الحديث مع روجرز وكيسنجر وسيسكو وغيرهم من الامريكيين يقولون : «لا يهمنا أن ننبش الماضى . . . المهم أن ننظر الى الموقف كما هو عليه الآن». فى حين أن موقف اليوم ليس الا من خلق الماضى .

الفصل السابع

البترول

كان من بين النتائج التى اسفرت عنها حرب اكتوبر (تشرين الاول) أن العرب استخدموا لأول مرة ما أصبح معروفاً الآن باسم «سلاح البترول»، وهو سلاح كان الكثيرون من ابناء العالم العربى ينادون باستخدامه منذ مدة طويلة ، وكان الكثيرون فى الغرب يرتعدون خوفاً من احتمال استخدامه . ومع ذلك فانه عندما استخدم لأول مرة لم يلحق أضراراً كبيرة بمن كان المفروض أن يلحق بهم الضرر، كما أنه لم يفد من كان المفروض أن يفيدوا منه .

ولابد لكى نعرف سر اطلاق هذا السلاح بنجاح من نظرة نلقيها على خلفية الصورة التى كان عليها موقف الطاقة فى الشرق الاوسط وفى الغرب، ولا سيما على موقف حكومتين بعينهما فى هذين المعسكرين - حكومتا الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية - باعتبارهما مفتاح هذه المعادلة .

فى بداية ١٩٧٢ تعرضت الولايات المتحدة لما اطلقت عليه الصحف فى ذلك الوقت اسم «ازمة طاقه»، حين اغلقت محطات البنزين ابوابها ، ولم تجد المنازل والمكاتب ما تستخدمه فى تدفئتها . والحقيقة أن ما حدث لم يكن بالفعل نتيجة أزمة طاقة ، وأنها نتيجة أزمة فى سوق البترول ، فالولايات المتحدة بمواردها الواسعة من الفحم واليورانيوم والبترول والزيت الحجرى تملك من مصادر الطاقة اكثر مما تملكه اية دولة أخرى فى العالم ، لكن مشكلتها كانت فى عجزها عن وضع سياسة منسقة للطاقة . وكانت تلك ورطة أشد ما يثير السخرية حولها أن حرب اكتوبر (تشرين الاول) هى التى انقذتها منها !

ومنذ سنوات عديدة والصراع فى الولايات المتحدة محتدم بين شركات البترول ودعاة حماية البيئة . وكانت الظواهر فى اوائل ١٩٧٠ تشير الى أن

كفة الفوز فى هذا الصراع تميل الى جانب دعاة حماية البيئة . فقد اقر الكونجرس فى ١٣ اغسطس (آب) ١٩٧١ قانونى الهواء غير الملوث، والسياسة القومية للبيئة ، كما أقر قانون المياه النقية فى ١٩٧٢ . ثم جاءت المحكمة العليا واصدرت قرارا بوقف انشاء خط انابيب بترول الاسكا فى ١٠ فبراير (شباط) ١٩٧٣ . ولم تستطع شركات البترول ـ التى تعتبر فى الواقع شركات طاقة بحكم ملكيتها لـ ٣٠ فى المائة من مناجم الفحم الامريكية و٤٠ فى المائة من موجودات اليورانيوم، استغلال آبار البترول الجديدة على ساحل كاليفورنيا أو أنشاء معامل التكرير الجديدة. كذلك ، فقد تأجل انشاء معامل الطاقة النووية الجديدة، كما خفض الانتاج فى مناجم الفحم الشرقية، وهى اقرب المناجم الى المراكز الصناعية فى البلاد . وقوبلت النداءات والرجاءات الشديدة التى تقدمت بها هذه الشركات للسماح لها بزيادة سعر البترول ، بالرفض من جانب الحكومة الفيديرالية ، كما لقيت معارضة من جانب الرأى العالم الذى كان يرى أن الارباح التى تحققها هذه الشركات ضخمة بما فيه الكفاية . وكانت وجهة نظر شركات البترول أنه ما لم يسمح لها برفع اسعار بترولها فان استغلال المصادر الجديدة للطاقة فى الولايات المتحدة لن يكون مجزيا من الناحية الاقتصادية . وكان ما تخشاه هذه الشركات هو احتمال زيادة الحصة المسموح باستيرادها من البترول ، وما يستتبع ذلك من خفض فعلى فى سعر البترول المحلى لينافس سعر البترول المستورد الارخص .

وكانت الحكومة الفيديرالية مترددة بين اختيارين : فأما أن تسمح برفع أسعار الطاقة فى داخل الولايات المتحدة، وتسمح فى الوقت نفسه بتوفير اراضى جديدة للاستغلال بما فيها من مصادر للطاقة لم تمس بعد، وتعدل قوانين البيئة ، وأما ان تخفض الاسعار بزيادة تدفق البترول الرخيص السعر من الخارج . وترتب على هذا التردد نقص فى زيوت الوقود فى شتاء ١٩٧٢ ، خفت حدته نوعاً ما بالقرار الذى اصدره الرئيس نيكسون الخاص بزيادة حصص الاستيراد ، وما اعقب ذلك من الغاء نظام الحصص تماما فى ١٩٧٣ . وفى الوقت نفسه ، فان الرئيس نيكسون قدم تنازلاً كبيرا الى شركات البترول وعندما وافق على أن تعفى من الضرائب لمدة ٥ سنوات كل انواع الزيوت التى تستورد لتكريرها فى مصانع التكرير الجديدة . ومع ذلك فان نسبة الزيت التى تم استيرادها فى ١٩٧٢ لم تزد على ٥ فى المائة من احتياجات الطاقة فى الولايات المتحدة . ولم تزد نسبة ما تم استيراده من الدول العربية من هذه الـ ٥ فى المائة عن ١٨ فى المائة .

وكانت الصورة فى المنطقتين الاخريين اللتين تعتبران السوق الرئيسية للبترول العربى ـ وهما اوروبا الغربية واليابان ـ مختلفة تماما . ذلك أن حظ اوروبا الغربية من الطاقة أقل بكثير من حظ الولايات المتحدة .

فهى لاتملك مصادر لليورانيوم، وبريطانيا والمانيا الغربية هما الدولتان الوحيدتان من دول اوروبا الغربية اللتان يتوافر لديهما بعض المخزون من الفحم . وهناك آمال كبيرة معلقة على الزيت والغاز من البحر الشمالى ، لكنه حتى لو تحققت اكثر هذه الآمال تفاؤلا ، فان نسبة الزيت المستورد اللازم لمصادر الطاقة فى اوروبا الغربية يقدر لها أن تزيد فى ١٩٨٠ عما كانت عليه فى ١٩٧٣ ، بحيث تصبح ٨٠ فى المائة بدلا من ٦٠ فى المائة .

أما اليابان فالصورة فيها اسوأ من اوروبا الغربية . فهى تستورد ٩٠ فى المائة من احتياجاتها من مصادر الطاقة ، ومن هذه ٩٠ فى المائة أيضاً من الخليج العربى . يضاف الى ذلك أن اوروبا الغربية واليابان لا تتمتعان بميزة اخرى تتمتع بها الولايات المتحدة ، حيث تمتلك الشركات الامريكية ٦٠ فى المائة من ابار البترول فى العالم العربى ، بينما لايوجد لأوروبا الغربية - باستثناء بريطانيا وفرنسا - أى اتصال مباشر ببترول الشرق الاوسط ، وهكذا تكون الشركات الامريكية هى المستفيد الرئيسى من البترول الذى يبيعه العرب لأوروبا الغربية واليابان .

وكان هدف الامريكيين هو تكوين جبهة مشتركة من الدول الرئيسية المستهلكة لبترول الشرق الاوسط بحيث تضمن استمرار تدفق امدادات البترول الخام بالمعدل السليم والأسعار الصحيحة ، وكذلك تمويل المشروعات الجديدة لتطوير مصادر الطاقة فى بلادهم من الارباح التى تحصل عليها شركات الطاقة (البترول)، وتشجيع الدول العربية المنتجة للبترول على استثمار جزء كبير من ارباحها فى هذه المشروعات . ويبلغ ماتنفقه الشركات فى الوقت الحاضر فى مشروعات التطوير هذه ١٦ ألف مليون دولار ، لابد من زيادتها الى ٥٠ ألف مليون دولار. وهذا الفرق - ٣٤ الف مليون دولار - يجب أن يغطى من الارباح الضخمة للشركات ، ومن الاستثمار الاجنبى (العربى) .

وننتقل الآن من الغرب - مستهلك الطاقة - الى البلاد العربية - منتج هذه الطاقة .

فى عامى ١٩٥٩ و١٩٦٠ خفضت شركات البترول الاسعار التى تدفعها للعرب ثمناً لبترولهم الخام، وكان هذا الخفض سببا فى انشاء منظمة الدول المصدرة للبترول المعروفة باسم «اوبيك» بغرض حماية الدول المنتجه من الاجراءات التعسفية التى قد تتخذها الشركات الاجنبية التى تقوم باستغلال وتسويق بترولها . ولابد من الاعتراف بأن منظمة «الاوبيك» لم تحقق لسنوات طويلة الا القليل من الاهداف التى انشئت من أجلها . فقد ظل سعر البترول العربى ثابتاً على ما هو عليه لمدة ١٠ سنوات متصلة ، وكان النجاح الحقيقى الوحيد الذى حققته هو خفض نفقات تسويق البترول . والحصول على موافقة الشركات بشأن «تنفيق» نسبة الريع (لم تستطع الشركات بعد ذلك أن تعتبر هذه المبالغ التى تدفعها

للحكومات جزءاً من نفقات الانتاج). وربما كان من بين اسباب عدم نجاح «الاوبيك» أن العالم كان يواجه فى أواخر الستينات واوائل السبعينات تخمة فى البترول . وكانت الدول الرئيسية المنتجه للبترول فى الشرق الاوسط ، ولا سيما ايران والمملكة العربية السعودية ، بحاجة الى دخل اضافى ، وكانت تضغط على شركات البترول لتزيد من انتاجها ، وحذت حذوها كذلك دول أخرى جديدة كانت قد بدأت تنضم لمجموعة الدول المنتجة للبترول مثل نيجيريا . وفى ١٩٧٢ بدأت كل الدول الرئيسية تحث حكومات الدول المنتجه للبترول على ضرورة خفض انتاجها . وفى بداية ١٩٧٣ بدأ الحديث يتردد حول «امكانات فوائض ضخمة» من البترول، ونجم عن ذلك قلق حتى لدى ايران نفسها : زعيمة الدعوة الى زيادة انتاج البترول .

وتعتبر السعودية مفتاح الموقف بالنسبة الى تحديد السياسة الخاصة بالبترول فى الشرق الاوسط . ذلك أن معدلات الانتاج فى الكويت وأبو ظبى لابد أن تحدد لفترة طويلة مقبلة، وفى حالة ضرورة الاسراع بزيادة الانتاج فى منطقة الخليج لمواجهة الاحتياجات المتزايدة لبترول فى اوروبا الغربية واليابان ، فلا بد من أن تأتى هذه الزيادة من ايران والسعودية . لكن احتياط ايران من البترول يعتبر صغيراً اذا ما قورن باحتياط السعودية منه (٦٠ ألف مليون برميل فى مقابل ١٣٠ ألف مليون برميل ، بل أن بعض الخبراء يقدرون الاحتياط السعودى بما يصل الى ٤٥٠ ألف مليون برميل) .

وكان الملك فيصل ينادى دائماً بعدم استخدام البترول كسلاح، وشرح الشيخ احمد زكى يمانى وزير البترول السعودى وجهة نظر الملك فى هذا الشأن فى خطاب القاه فى معهد الشرق الاوسط ، وفى شهادة أدلى بها أمام لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ الامريكى فى شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٣. وكان مما قاله أن السعودية مستعدة لتزويد الولايات المتحدة بكل احتياجاتها من البترول شرط أن توافق شركات البترول على أن يصبح العرب فى سنة ١٩٨٠ شركاء فى هذه الشركات بنسبة ٥٠ فى المائة ، وشرط أن تمنح الافضلية للبترول العربى الذى يصدر الى الولايات المتحدة. ووعد بأن تستثمر السعودية مبالغ كبيرة من المال فى الولايات المتحدة ، ولا سيما فى المشروعات البترولية ، ومعامل التكرير ، ونظم توزيع البترول داخل الولايات المتحدة .

لكن السلطات الامريكية لم تبد حماسا كبيرا لهذا العرض ، لأنها لم تكن تريد للولايات المتحدة أن تعتمد اعتماداً كبيرا على مصدر واحد للطاقة أو على دولة واحدة لتزويدها بها ، وكانت تعتبر كل ما يقوله العرب عن استخدام البترول كسلاح سياسى مجرد دخان فى الهواء ، وتستند فى ذلك الى التصريحات المتكررة التى اعلنها الملك فيصل من أن البترول لن

يستخدم كسلاح سياسي . وفضلا عن ذلك ، فانها كانت ترى أن من الممكن - في اسوأ الظروف - اجبار العرب على تصدير بترولهم بالكميات المطلوبة الى دول العالم الاخرى ، وكانت تعتقد أن الجيش الاسرائيلي ليس قادرا تماما على الزحف على القاهرة وحسب ، وأنما في مقدوره أيضاً ، اذا دعت الضرورة - وهو ماكشفه السناتور وليام فولبرايت في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ - أن يحتل من دون مقاومة كلا من الكويت والمناطق الآخرى المنتجه للبترول بما فيها السعودية .

وجاء أول تغير في الموقف لدى الجانب العربي مع قيام الثورة الليبية في عام ١٩٦٩ . ففي شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٠ اصدر الرئيس معمر القذافي قرار بخفض انتاج احد حقول البترول الذي تديره شركة «اوكسيدنتال» الامريكية الى ٨٠٠ ألف برميل في اليوم . واختار القذافي شركة «اوكسيدنتال» بالذات لأنها كانت شركة مستقلة ليس لها مصادر أخرى في الخارج يمكن أن تعتمد على عملياتها، داخل ليبيا نفسها. وقد ساد الشركة شعور بالقلق لهذا القرار لم يكن له ما يبرره ، حيث أن العقود الموقعة بينها وبين ليبيا بنداً يتضمن تحميل المستهلك أى زيادة في أسعار البترول الخام. وعلى أية حال، فانها وافقت على زيادة السعر، وبعد ذلك جاء الدور الى معظم الشركات الاجنبية الاخرى التي تعمل في ليبيا .

وكان القذافي يلعب اوراقه بذكاء . فقد افاد من اغلاق قناة السويس في عام ١٩٦٧ ، ومن قطع خط أنابيب بترول «التابلاين» من السعودية الى البحر الابيض المتوسط نتيجة عملية قامت بها المقاومة الفلسطينية و«بولدوزر» سورى كذلك ، فقد كان هناك نقص عالمي في حمولة الناقلات ، بحيث لم تجد شركات البترول الوقتَ الكافي أو القدرة على تعويض الخسائر التي تعرضت لها في سوريا عن طريق زيادة الامدادات من دول الخليج . وكان حظ ليبيا كبيراً بتضافر هذين الظرفين معاً ، حتى لقد ترددت شائعة على نطاق واسع تقول أن حادث «البولدوزر» الذي قطع خط «التابلاين» لم يكن حادثاً غير مقصود ، وأنما كان حادثاً وقع عن عمد بالاتفاق بين القذافي ونورالدين الاتاسي رئيس الجمهورية السورية في ذلك الوقت . لكن هذه الاشاعة لم تثبت أبداً .

ولقد ظل العرب لسنوات طويلة يتحدثون عن «سلاح البترول» بأسلوب غير واضح ، وكنت أنا واحداً من اوائل من نادوا بالحاجة الى أن يستخدم العرب مركزهم الفريد كمورد رئيسي للطاقة في العالم استخداماً عملياً، وترددت في هذا الشأن مقترحات عديدة. كان البعض يرى تأميم الشركات صاحبة الامتياز في البلاد العربية ، لكن ذلك لم يكن اقتراحاً عملياً . فقد سبق أن أمم العراق في ٢ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ عمليات

استخـراج البـترول الـتـى تقـوم بها شركـة بترول العـراق (اى. بى. سي) فى كركـوك، لكن التـأميم لم يشمـل عمليـات نقـل البـترول وتكـريـره وتسـويقـه، وهـى الانشـطة الـرئيسيـة لشركـة «اى. بي. سي» الـتـى تحصـل منهـا على معـظم أربـاحهـا . ذلـك أن الشركـات الـدولية لاتخسر عنـدمـا تؤمم امتيـازاتها الا ما تحصـل عليـه من ربـح من استخـراج البـترول الخام ، ويمكن تعـويض هذه الخسـارة بسهـولـة عن طريق زيـادة اربـاحهـا من العمليـات الآخـرى. والـواقـع أن العـراق وجد صعـوبة فى تصريف بترولـه المؤمم ، وذكـرت بعض التقـاريـر أنـه استخـدم الحـظر الـذى فرض فى عام ١٩٧٣ كستـار لتصريف جانب منه .

وعقب حرب يونيـو (حـزيـران) ١٩٦٧ بدأ سلاح البـترول يطفـو على السـطح شيئـاً فشيئـاً، بعـدمـا أصبح تقـريبـاً الـورقـة الـوحيـدة المتـوافـرة لدى العرب اثر الهـزيمـة . وظهـرت أول فرصـة للاتفـاق على سيـاسة عربيـة موحـدة للبترول فى مؤتمـر الخـرطـوم الـذى عقـد فى أواخـر شهـر أغسـطس (آب) ١٩٦٧، لكن الحكـومـات والشركـات كليهـما كانتـا تخشيـان بطريقـة عجيبـة الآثـار التى يمكـن أن تترتـب على استخـدام هذا السـلاح . فقـد كانت الشركـات تخشى أن يحدث خفض خطير فى الانتـاج ، حيث كانت الاصـوات تنـادى فى ذلـك الـوقـت بوقـف كل امـدادات البـترول الى أن تنسحب اسرائيـل من الاراضى العـربيـة التى احتلتهـا فى الحـرب . ونتيجـة لقلة ما هو متـوافـر من الحقـائق والأرقـام لدى الحكـومـات العـربيـة ، فانها كانت تخشى النتـائج التى يمكن أن تترتـب على اجـراءاتهـا ، ولم يكـن بينـهـما من يريـد أن يكـرر مأسـاة الدكتور مصدق فى ايران .

وقـد ذهـب عبـد الـنـاصر الى المؤتمـر وفى ذهنـه أن يقنـع بالحصـول على تعـويض لما فقـده نتيجـة للحرب ولأغـلاق قناة الـسويس التى أفـادت الـدول العـربيـة المنتجـه للبـترول منـه . وحـالت كرامتـه بينه وبين الافصـاح عن احتيـاجـاتـه المـاليـة الحقيقية ، لذا ، فانـه كان أكثـر من فوجىء عنـدمـا افتتح الملك فيصل «المزاد» ـ وكان مزاداً بالفعل ـ وقال أن المملكة العربية السعودية مستعدة للمسـاهمـة بمبـلـغ ٥٠ مليـون جنيـه فى الـسـنـة لدعـم الـدول التى تضررت بالعـدوان ، واقترح أن تساهم الكـويت بمبلغ ٦٠ مليونـاً ، وأن تسـاهم ليبيا بمبلغ ٣٠ مليـونـاً . وكـان نصيب مصر من هذا الـدعم مبلغ ١٠٠ مليـون جنيـه سنـويـاً ، أى مايـزيـد بنحـو ١٠ فى المـائة عما قدر لخسـارتها نتيجـة اغـلاق قنـاة الـسـويس . وكـان هذا القـرار رائعـاً حقـاً، وسـواء أكـان المـلك فيصـل هو صاحبـه ، أو كان هنـاك غيره اشـاروا عليـه به كوسيـلة لتجنب استخـدام مدمـر لسـلاح البـترول، فأمـر من المستحيـل معرفتـه فى هذه المـرحـلة . لكـن من المحـقـق أن الـقـرار جعـل لمصر والاردن مصلحـة فى استمـرار الحصـول على هذا الـدعـم من امـوال البـترول ، وكـان له تأثيره فى أن يسكت لفترة طويلة أى حديث جدى عن استخدام سلاح البترول .

ولقد ظل الملك فيصل الى ما قبل حرب اكتوبر بقليل يعارض استخدام سلاح البترول فى المعركة . وقال فى حديث سجل له فى شهر يوليو (تموز) ١٩٧٣ : «أن البترول ليس سلاحاً سياسياً . أنه سلاح اقتصادى يمكننا أن نشترى به أسلحة تستخدم فى المعركة» . كذلك ، فانه أعرب عن سخط شديد عندما قطع خط أنابيب «التابلاين»، وقال أن أقساط الدعم التى وعدت بها مصر والاردن فى مؤتمر الخرطوم ستتأخر شهراً، لأن قطع الخط معناه خسارة مالية للسعودية . والحقيقة أن مصر هى التى طلبت الى السوريين اصلاح الخط، كما طلبت الى المقاومة عدم التعرض له مرة أخرى .

ثم حدث بعد ذلك ما جعل الملك فيصل يغير رأيه . ونحن نعرف أن الاسرة السعودية كانت مختلفة فى ما بينها فى هذا الشأن ، فقد كان بين الامراء من يرى استخدام البترول كسلاح، وكان بينهم من يعارض ذلك . وأيا كان السبب ، فان الملك فيصل أبلغ الرئيس الاسد فى آخر لقاء تم بينهما فى مؤتمر عدم الانحياز الذى عقد فى الجزائر فى ٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٣ قبل حرب اكتوبر (تشرين الاول) ، أنه اذا رأى استخدام سلاح البترول هذه المرة ، فله أن يستخدمه ، وقال :«ولكن اعطنا وقتاً كافيا، لأننا لانريد أن نستخدم البترول كسلاح فى معركة لاتستمر أكثر من يومين أو ثلاثة أيام ثم تتوقف ، وإنما نريد معركة تستمر مدة تكفى لتعبئة الرأي العام العالمي» . وكان قوله هذا متفقاً تماماً مع تفكير المسؤولين فى مصر .

وهكذا شهد عام ١٩٧٣ ازمتين سارتا فى خطين متوازيين : احداهما أزمة طاقة - وهى فى الاصل مشكلة اقتصادية - تبحث عن أداة تفجرها، والثانية أزمة الشرق الاوسط القديمة - وهى فى الاصل أزمة سياسية - تبحث عن وسيط من نوع جديد . وعثرت كل من الازمتين على بغيتها فى الازمة الاخرى : عثرت ازمة الطاقة فى الشرق الاوسط على أداة التفجير التى تبحث عنها، وعثرت أزمة الشرق الاوسط على أزمة الطاقة على الوسيط من النوع الجديد الذى تبحث عنه . لكن الفائدة التى جنتها أزمة الطاقة من أزمة الشرق الأوسط كانت أكبر من الفائدة التي جنتها أزمة الشرق الاوسط من أزمة الطاقة .

ولابد من الاعتراف بأنه لم تكن هناك خطة محددة مرسومة لأستخدام سلاح البترول عندما بدأت حرب اكتوبر (تشرين الاول) . فمصر وسوريا ليستا من الدول المصدرة للبترول ، وكان الرئيس السادات - كما رأينا، على حق فى ما ارتآه من أن من الخطأ مطالبة الحكومات العربية الأخرى بالتعهد مقدماً باتخاذ اجراءات محددة . لكن أمله مع ذلك كان كبيراً فى أن تسارع هذه الحكومات الى تقديم مساعدتها لمجرد بدء القتال .

وكانت شكلت فى وزارة الخارجية المصرية هيئة خاصة عهد اليها بحث

الامكـانـات المختلفة للاجراءات التي يمكن اتخاذهـا ، لكن اللجنة لن تقدم شيئـاً يذكـر . وشـاء الحظ أن تقـدم في الـوقت المناسب ، وقبل بضعة أيام من بدء القـتـال ، وثيقـة لعبت دوراً مهـماً ، في توجيـه سيـاسـة البـترول العـربيـة . وكـان أصـل هذه الـوثيقـة مشروعـاً اعـد في مركـز الـدراسـات الاسـتراتيجيـة في «الاهـرام» في ربيـع ۱۹۷۳ ، بدعـوة وجهتهـا الى الـدكتـور مصـطفى خليـل نائب رئيس الـوزراء السـابق للصنـاعـة والثـروة المعـدنية وأحـد الاداريـين النـابغين ، طلبت اليه فيها اعداد دراسة عن أزمة الـطاقـة في الـولايـات المتحـدة وتـأثـيراتهـا على الـدول العـربيـة. وقبل الـدكتـور مصـطفى خليـل الـدعوة بعـد شيء من التردد ، واتصل بي تلفونياً يوم أول اكتـوبـر(تشرين الاول) ليقـول أنـه انتهى من اعـداد تقـريـره عن الـدراسة، وقدم الى التقرير ، وأطلعت بدوري الرئيس السادات عليه .

ولعلنـا نذكـر أن المهنـدس سيـد مرعي مسـاعـد الـرئيس كان عين رئيساً للجنـة كلفت مهمـة تنسيق السياسـة مع الحكـومـات العـربيـة الأخـرى . وقـد اتصـل سيـد مرعي تلفـونيـاً بالـدكتـور مصـطفى خليـل في السـاعـة الثـامنـة من مسـاء يوم ٦ اكتـوبـر (تشرين الاول) ليبلغـه أن الـرئيس طلب اليـه اعـداد مذكـرة عن الـطريـقـة التي يمكن بها استخـدام سلاح البـترول في الحـرب، كما طلب اليـه أن يحصـل مني على نسخـة من تقـريـره (مصـطفى خليـل). واقـترح سيـد مرعـي أن يتقـابـلا لتبـادل الـرأي . وفي أثنـاء المقـابلة تبرع مصـطفى خليـل بأن يعـد ملخصـاً لتقـريـره من ۱۲ صفحـة يضمنـه التـوصيـات الـتي يرى اتخـاذهـا ، وأتـم اعـداد هذا الملخص في صبـاح الـيـوم الـتـالي وفي السـاعـة الثـانيـة من بعـد ظهـر اليـوم نفسـه ٧ اكتـوبـر (تشرين الاول) عقـد في وزارة الخـارجيـة اجتـماع بين الـدكتـور محمـود فوزي والمهنـدس سيـد مرعي والـدكتـور مصطفى خليـل وأنـا، لمناقشـة سياسـة البـترول . وقـد وافق الـدكتـور فوزي على تقـريـر الـدكتـور مصـطفى خليـل من دون اقـتراح أية تعـديـلات تدخـل عليـه، وتقـرر في آخـر نهار ذلـك اليـوم ايفـاد الـدكتـور مصـطفى خليـل مع المهـنـدس سيـد مرعـي في الـرحلة التي كان مقـرراً أن يقـوم بها سيـد مرعي الى المملكـة العـربيـة السعـوديـة ودول الخليـج لشرح وجهـة نظر مصر بالنسبـة الى الحـرب . وسـافـر كلاهمـا صباح يوم ٨ اكتـوبـر (تشريـن الاول) على طائـرة الـيـوشـن مصريـة كانـت تقـوم باجـلاء المستشـارين التشيكيـين والالمـان الشرقيـين ـ الـذين فاجـأتهم الحـرب وهم في مصر ـ عن طريـق جدة . ومـن هنـاك سافـرا الى الـريـاض على طائـرة خاصة .

وكـانت وجهـة النـظر التي تضمنها تقـريـر الـدكتـور مصـطفى خليل تقول أن البـترول يجب أن يعتـبر سلعـة اسـتراتيجيـة واقتصـاديـة ، لا سلاحـاً في حد ذاتـه ، لأنـه لايمكنـه وحده أن يكسب حربـاً ، وانـما الممكن استخـدامـه كأداة مسـاومـة سيـاسيـة ، خصـوصـاً أنـه كان دائـماً يلعب دوراً بارزاً في سيـاسـة

وديبلوماسية الدول المستهلكة له، وعليه، فلن يكون هناك جديد فى استخدام العرب له كأداة سياسية . كذلك فان من المهم ، من ناحية أخرى ، الا تحاول الدول المنتجه للبترول مناصبة الدول المستهلكة له العداء ، على رغم حق الدول المنتجه فى المطالبة بمقابل معقول. واذا كان العرب يقدمون الى دولة ما سلعة استراتيجية ـ الزيت ـ ويحصلون فى مقابل ذلك على سلعة استراتيجية أخرى ـ السلاح ـ فان من حقهم أن يتوقعوا لتبادل السلعتين استمرار تدفقه، سواء أكانت هناك حرب مع اسرائيل ام لا . فاذا ما اوقف شحن السلاح، فان تصدير البترول يوقف أيضاً. وتضمن التقرير أيضاً أن علينا أن ندرس مواقف الدول الآخرى ونضع سياساتنا على أساس تلك المواقف . فاذا كانت هذه الدول تعارض حربنا ضد اسرائيل ، وهي حرب نعتبرها حقنا المشروع لتحرير الاراضى العربية ، فان من حقنا أن نقف ضدها. واذا كنا لانتوقع من اوروبا أن تؤيدنا فى هذه الحرب ، فان من حقنا عليها الا تظهر لنا العداء، بل أن من المعقول أن نتوقع من حكومات اوروبا الغربية واليابان ممارسة الضغط على الامريكيين لتذكيرهم بأهمية البترول العربى لديها .

أضافة الى ذلك فقد تضمن التقرير ضرورة وجود اتفاق حول الاسعار والانتاج . فالبترول ، كسلعة اقتصادية، يجب أن يتمشى سعره مع سعر مثيلاته من مصادر أخرى للطاقة، لا أن يفترض فيه أن يظل أقل منها دائماً. كذلك فان على الدول المنتجة للبترول الا تزيد انتاجها الى أكثر من المعدل الذى يهيىء لها استخداماً معقولاً لأرباحها . وامتلاك الحكومات العربية لفائض من العملات الورقية لابد على المدى الطويل من أن يلحق الضرر باقتصاديات الغرب، فضلاً عن أنه لايفيد العرب انفسهم فائدة حقيقية . ويجب أن يكون الاتفاق والتفاهم بين المنتجين والمستهلكين هما الهدف ، فلا يقوم أى من الطرفين باجراء مفاجيء أو أجراء فردى ضد الطرف الآخر .

تلك كانت خلاصة وجهة النظر التى عرضها المصريون على الملك فيصل وقد عقد الاجتماع الاول فى مكتب الملك فيصل فى القصر الملكى فى الرياض ، وحضره من الجانب السعودى مع الملك فيصل كل من الامير فهد والسيد رشاد فرعون . وحضره من الجانب المصرى المهندس سيد مرعى والدكتور مصطفى خليل والعقيد سعد القاضى الذى عرض فى الاجتماع خرائط توضح تقدم المعركة. وكان الملك يصغى بصمت تام الى الشرح الذى قدمه سيد مرعى ومصطفى خليل ، مكتفياً بهز رأسه بين الفينة والفينة . كما كان شديد الاهتمام بالتحليل الذى قدمة العقيد سعد القاضى ، ووجه له خلاله عديداً من الاسئلة من بينها : هل سنتقدم الى الممرات ؟ ولماذا لم نحتل جنوب سيناء ؟ الخ . . .

وعقد اجتماع آخر فى الساعة الثامنة مساء بعد تناول طعام الافطار

(كان ذلك فى رمضان) بدأ فيه الملك أكثر انشراحاً واقبالاً . وكان مما قاله : «لقد جعلتمونا نحس جميعاً بالفخر الشديد . كنا من قبل عاجزين عن رفع رؤوسنا ، أما الآن فاننا قادرون على رفعها . انكم اديتم واجبكم وتحملتم الكثير فى تأديته . وقد دمرت مدنكم. وأقل ما يمكن أن تفعله الدول العربية هو أن تساعدكم بالمال وبها تستطيع أن تقدمه اليكم مما تملكه من سلاح وعتاد». ووعد ساعتها بأن يقدم الى مصر هدية عاجلة قدرها ٣٠٠ مليون دولار، وقال أن وحدات من الجيش السعودى ستتوجه الى الجبهة السورية . وأضاف : «أننا لانقدم اليكم أحساناً ، وما نقدمه اليكم من مال هو أقل بكثير مما تقدمونه انتم من تضحيات بالارواح وغيرها».

وأعرب الملك عن موافقته التامة على السياسة كما حددها سيد... ومصطفى خليل . وقد حرص الجانب المصرى على أن يؤكد أن مصر لا تحاول فرض أية سياسة على الدول المنتجه للبترول ، وأنه اذا رأت السعودية أن تطبق ما جاء فى التقرير من توصيات ، فيمكنها أن تطبقها بالطريقة التى تحقق لمصالحها القومية ولمصالح العالم العربى أكبر الفائدة . وشدد على الحاجة الملحة الى منع تكوين جبهة مشتركة من الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان . واقترح ، لتحقيق ذلك ، اصدار بيان بضمان استمرار تدفق البترول الى اوروبا الغربية واليابان ، شرط عدم قيامهما بأى اجراء يلحق الضرر بالعرب ، مع توجيه تحذير ، فى الوقت نفسه ، بفرض حظر البترول على أية دولة تتخذ اجراء يضر بالعرب. كذلك فقد أعرب الجانب المصرى عن اعتقاده أن انتاج البترول يجب أن يجمد عند معدلاته الحالية، كتحذير عام بأن سلاح البترول أصبح موضع بحث ، فاذا لم يلق هذا التحذير استجابة اتبع بخفض صغير لمعدلات الانتاج. اضافة الى ذلك فقد تناولت المناقشة بحث الاجراءات الاشد فعالية ومنها الاجراءات الاقتصادية التى يمكن أن تطبق ضد الولايات المتحدة كتأميم ممتلكاتها فى العالم العربى ، وعقد اتفاقات مباشرة بين الدول العربية المنتجه للبترول والدول المستهلكة له فى اوروبا الغربية واليابان (مستبعدة بذلك الشركات الامريكية التى تقوم بدور الوسيط). وقد ذكر الدكتور مصطفى خليل أن فرض الحظر على الولايات المتحدة لن يكون له تأثير فى الوقت الحاضر ، وأن كان من الممكن أن يبقى عامل تهديد متزايد حتى سنة ١٩٨٠ حين تتوافر المصادر البديلة للوقود فى امريكا .

وقد سأل الملك فيصل عن الخطوات العاجلة التى يوصى باتخاذها ، فرد الجانب المصرى أنه يرى استدعاء القائم بالاعمال الامريكى وتقديم شرح موجز اليه عما تمت مناقشته فى هذه الاجتماعات ، واصدار تعليمات لوزير الخارجية السعودى الموجود فى

واشنطن فى ذلك الوقت بأن يقابل الرئيس نيكسون ويقدم اليه شرحاً مماثلا . وقد عمل الملك بالتوصيتين . وسأل : « وماذا عن صديقنا الليبى؟ . . ما الذى اعطوه لكم؟ » . . ورد سيد مرعى أن القذافى قدم الى مصر ٤٠ مليون دولار و٤ ملايين طن من البترول الخام . وقال الملك : « هذا لايكفى . وكان من الافضل لهم لو انفقوا اموالهم على المعركة بدلا من ان يثيروا بها المشاكل فى البلاد العربية الاخرى » .

وفى اليوم التالى توجهت البعثة المصرية الى الكويت حيث قابلت أميرها الذى اصغى اليها باتمام بالغ ، وقال أن مسألة المعونات المالية يجب أن تعرض على مجلس الوزراء . كذلك ابدى رؤساء كل من قطر وأبوظبى وعمان التى زارتها البعثة بعد الكويت اهتماما مماثلا . وفى البحرين قابلت البعثة اميرها اولا ، ثم اجتمعت مع مجلس وزرائه اكثر من ساعتين دارت خلالهما مناقشات حية اظهر البحرانيون فيها اهتماماً خاصاً بفهم كل ما يمكن أن يترتب على الموقف الجديد من آثار .

ولمجرد ان انتهت بعثة سيد مرعى ومصطفى خليل من مهمتها اجتمع وزراء البترول العرب فى الكويت (يوم ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) لتنسيق السياسة البترولية من أجل الحرب. وكانت أولى التقارير التى تلقتها مصر تقول أن وزراء البترول العرب سيقررون - بناء على توصية من السعودية - خفضا فى الانتاج بنسبة ١٥ فى المائة . واعتبر الرئيس السادات هذه الخطوة بمثابة تضحية كبيرة من جانب الدول للبترول (والحقيقة انها لم تكن كذلك) وطلب أن تخفيض النسبة الى ٥ فى المائة فقط . وفى الوقت نفسه فان الوزراء طالبوا بزيادة ضخمة فى أسعار البترول الخام ، وهو مالم تطالب به مصر ابدا ، بينما لم يأخذوا بأى من التوصيات التى اوصت بها البعثة ، وكانت النتيجة الوحيدة : زيادة مذهلة فى الأسعار وخفضاً معتدلا فى الانتاج ، وهى نتيجة لم يكن من الممكن أن تحقق لشركات البترول الامريكية أفضل مما حققته .

وعلى رغم أن النسبة التى اتفقت عليها الدول المنتجه للبترول للخفض من الانتاج كانت ٥ فى المائة فقط، فان بعض الحكومات العربية خفضت انتاجها بصورة موقته بنسبة ٢٥ فى المائة . وترتبت على ذلك حالة من الذعر سادت الغرب، تماما كحالة الذعر التى سادته لفرض الحظر على الدول التى اعتبر العرب موقفها معاديا لهم ، كالولايات المتحدة وهولندا . وكان مما لفت النظر أن الحظر لم يكن له الا أقل التأثير على الدول التى استهدفها - باستثناء التأثير النفسى بطبيعة الحال - واذكر أنى سألت الشيخ يمانى ، وزير البترول السعودى ، عن الطريقة التى يطبق بها الحظر ، فقال أن الدول المنتجه للبترول تطلب الى ربان ناقلة بترول أن يقطع على نفسه عهدا بالا يفرغ شحنته فى أى بلد خاضع للحظر . وكان هذا هو كل شىء ! وقال : «وماذا نستطيع أن نفعل غير هذا ؟». وبطبيعة

الحال ، كان هناك بين ربابنة الناقلات من قطعوا على أنفسهم العهد واخلفوه ، بينما كان هناك غيرهم يقومون بتفريغ حمولاتهم فى بلد كلندن مثلا ، ومنها تنقل فى ناقلات اخرى الى روتردام. كذلك فان الامدادات نظمت بطريقة تكفل للدول الخاضعة للحظر الحصول على احتياجاتها من البترول من دول لاتطبق الحظر مثل نيجيريا. وربما كانت النفقات فى مثل هذه الحالة اكثر قليلا، لكنها لم تكن لتهم شركات البترول ، لأنها ـ كالعادة ـ كانت تحمل الزيادة للمستهلك .

ومن المتناقضات الغريبة أنه فى الوقت الذى كان المفروض أن تكون هناك أزمة طاقة فى الولايات المتحدة ، وفى الوقت الذى كان المفروض أيضاً أن تخضع الولايات المتحدة فيه لمقاطعة بترولية عربية ، فان ارباح شركات البترول الامريكية سجلت ارقاما لم يسبق لها مثيل . وقد قدر نصيب العرب من ارتفاع اسعار البترول عام ١٩٧٤ بنحو ٦٠ ألف مليون دولار. أما شركات البترول، فانها، اضافة الى نصيبها من ارتفاع اسعار البترول ، تحصل من عملياتها البترولية الاخرى (التكرير والتسويق وغيرهما) على ٧ دولارات تقريبا فى مقابل كل دولار تحصل عليه الدول المنتجه . وفى هذا ما يعطى فكرة عن النفوذ الخيالى الذى تتمتع به شركات البترول فى عصرنا هذا .

وهكذا . . . فان الشركات الامريكية لم تكن لتحلم بنتيجة افضل من هذه النتيجة . فقد استطاعت بمضاعفة اسعار البترول من جانب الدول المنتجة ـ الذى تم بتشجيع منها من دون طلب من مصر ـ أن ترتفع بارباحها الى مدى الصواريخ. وتمكنت فى الوقت نفسه من أن تعرض على الدول المنتجه طبق «المشاركة» الذهبى . وكان معنى هذا بالنسبة اليها أن يرتفع سعر البترول داخل الولايات المتحدة الى النقطة التى ظلت شركات الطاقة تسعى اليها والتى تكفل لأستغلال المصادر الآخرى للطاقة أن يكون مجزيا من الناحية الاقتصادية . وكان الرأى العام فى امريكا مستعداً ـ وسط الحيرة التى سيطرت عليه فى جو الازمة ـ لأن يبتلع زيادة السعر ، وأن يتغاضى عن قانون البيئة الذى كان يرفض التغاضى عنه قبل اكتوبر (تشرين الاول). أما بالنسبة الى الكثير من الدول العربية ، فان ذلك كان يعنى انتفاخاً فى الداخل تستخدمه أما فى مشروعات باهظة الاكلاف ولا مبرر لها ، كنظم دفاع واسعة النطاق ضد اعداء غير معروفين ، وأما تعيدها الى الاقتصاد الامريكى عن طريق استثمارها فيه . وفى كلتا الناحيتين ، فان الولايات المتحدة هى الفائزة .

وقد فرض حظر البترول فى اللحظة المؤاتية تماما للولايات المتحدة، لكنه كان ، اضافة الى مضاعفة السعر، ضربة قاصمة لأقتصاد القوتين المنافستين لأمريكا وهما: اوروبا الغربية واليابان . فقد كانت الولايات المتحدة تواجه قبل فرض الحظر مشكلة فى ميزان مدفوعاتها .وكان

الـدولار ضعيفـاً ، لكن مشكلة ميـزان المـدفـوعـات تحسنت بعـد ذلـك، كما تحسن موقف الـدولار كثـيرا . لقـد صدرت الـولايـات المتحـدة التضخم الـذى كانت تعـانى منـه الى اوروبـا الغـربيـة واليـابـان بارغـامهـا على شراء البـترول باسعاره المتضخمة، ودفع ثمن مشترياتها منه بالدولار .

واذا كان توقيت بدء فرض الحـظر قد جاء منـاسبـا تمامـا لأمـريكـا ، فان توقيت رفعـه كان منـاسبـا تمامـا لها أيضـاً . ذلـك أن القـرار الـذى فرض الحـظر بمـوجبـه كان محدداً ، وكـان يقـضى بأن يبقى الحـظر مفـروضـاً الى حين الـوصـول الى اتفـاق دولى على جدول زمنى للانسحـاب من كل الاراضى العـربيـة المحتلة ، بما فيهـا القـدس العـربيـة، لكن ذلـك كله ضاع فى طى النسيـان . فقـد كانت البـرقيـات والـرسـائـل تنهـال يوميـا من الـرئيس نيكسـون وهنـر كيـسنجـر على الـرئيس السـادات والملك فيصـل ، وتقـول أن من المستحيـل على الحكـومـة الامـريكيـة أن تصـل الى أى شىء مع الكـونجـرس أو الصحـافـة أو الـرأى العـام ـ أو مع اسرائيـل ـ مالم يرفـع الحـظر من دون قيـد أو شرط. ووجـد الـرئيس السـادات والملك فيصـل انهما مضـطران أمام هذه الظروف الى الاستجابة ، قبل أن يتحقق أى من اهدافهما .

وهـكـذا يصبـح المـوقف الامـريكى الآن واضحـاً تمامـاً ، ومن الممكن أن يكـشف عن نفسـه اكثـر واكثـر بالـنسبـة الى مستـقبـل ديبلومـاسيتـه البـتروليـة . أن هذا المـوقف يبـدأ من نقـطة أن العـرب شعب عاطفى ، لا يستقـر على حال، ولايمكن أن يكـون موضـع ثقـة ، الامر الـذى لابـد معـه للدول الـتى تعـتمـد على البـترول العـربى من أن تحـتفظ لنفسهـا بجبهـة مشـتركـة فى الـتفـاوض معـهـم . ومثـل هذه الجبهـة المشـتركـة يمكن أن تتـحقق من ورائهـا فائـدة أخـرى من حيث انها لاتشجـع الاتحـاد السـوفييتى ـ وهـو نفسـه فى موقف قوى بالنسبـة الى الـطاقـة كالـولايـات المتحدة ـ على مهـاجمـة اوروبـا الغـربيـة تكـون ضعيفـة كما انـه لايشجـع اوروبـا الغـربيـة الضعيفـة على التـطلع الى الاتحـاد السـوفييتى فى طلب معـونتـه لحل مشـاكـل الطاقة التى تواجهها .

ومن هذا كله ، يتضـح أن العـرب لم يلعبوا باوراقهم على الـوجـه الصحيـح . فقـد اصـدروا قرار بخـفض فى الانتـاج من دون تمييـز، وبـرفـع فى السعـر افـادت منـه الشركـات صاحبـة الامتيـاز اكثر مما افـادت منه الـدول المنتجة للبـترول ، وفـرضـوا حظراً على تصـديـر البـترول بغـرض تحقيق اهـداف سيـاسيـة محددة ، ثم رفـعـوا الحـظر قبـل ان يتـحـقق أى هدف من هذه الاهـداف ، أو حتى أى جزء منهـا. وكـل ما يمـكن قولـه فى مصلحتهم ، ان الـعـالم رأى الـعـرب يتصرفـون لأول مرة بانـسجـام، كما رأى الـبـترول يستخـدم ـ ولـو بغـير تنسيق ـ كسـلاح سيـاسى . وبـذلـك اصبح البـترول عامـلا له وزنـه ولابـد من وضعـه موضـع الاعتبـار فى ميزان القـوى العسكـريـة

والسياسية فى نزاع الشرق الاوسط. وهذه حقيقة لم يكن لها وجود قبل حرب اكتوبر (تشرين الاول) .

وهناك امور معينة لابد للعرب أن يتخذوا منها اهدافاً يعملون على تحقيقها فى المستقبل . أن عليهم أن يعملوا بأى ثمن لمنع تشكيل جبهة مشتركة من الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان . وخير وسيلة لذلك هي ضمان سد احتياجات أوربا الغربية واليابان من موارد الطاقة البترولية . وليس هناك ما يتعارض مع مصالحهم اكثر من أن يجعلوا من المستهلكين الرئيسيين لسلعتهم الرئيسية ـ وهى البترول ـ اعداء دائمين . ولابد من أن تكون هناك اجراءات دائمة للمنفعة المتبادلة تشمل معدلات الانتاج والاسعار بين منتجى البترول ومستهلكيه . . . تماما كما هى الحال بالنسبة الى السلع الرئيسية الاخرى .

ويجب على العرب كذلك الا تلهيهم امور جانبية كالتأميم أو المشاركة. فلو أنهم كانوا فرضوا ضريبة على الصادرات ، أو غيروا نسبة الربح المقسم بين الحكومات والشركات بدلاً من أن يضاعفوا سعر البترول، لكانوا توصلوا الى معادلة أفضل . وكان فى امكانهم أن يطبقوا معادلة أخرى تقوم على أساس زيادة فى السعر نسبتها ٦٥ فى المائة مصحوبة بتجميد لدخول شركات الامتياز ، وهى المعادلة التى طبقتها فنزويلا . ثم أن عليهم أيضاً أن يعملوا لكى تتم الاتفاقات دائماً بين الدول المنتجة للبترول والدول المستهلكة له، وبذلك يبعدون الوسيط الامريكى ويضعون حداً للارباح الخيالية التى تجنيها الشركات الامريكية ، وللاستنزاف المستمر الذى تتعرض له اوروبا بالنسبة الى احتياط الدولار .

وهكذا . . . فاننا اذا تساءلنا عمن خرج منتصرا فى أول استخدام للبترول كسلاح ، فلا بد أن يكون الجواب : أنها الولايات المتحدة . ولقد كنا حتى الآن نفكر فى عالم تواجه فيه القوتان العظميان ـ وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ـ تحديا من جانب ثلاث قوى جديدة هى : اوروبا الغربية واليابان والصين . لكن الموقف تغير بعد عام ١٩٧٣ . فقد تضاءل التحدى الاوروبى الغربى والياباني تماما، فى حين ظل التحدى الصينى على الهامش كما كان حاله دائماً .

وفى النهاية ، فان الامريكيين هم الذين قرروا أن خير سعر يحدد للبترول ويكون مناسبا لهم هو السعر الذى يراوح معدله بين ما كان مطبقا قبل الحرب وبين معدل يقل عن المعدل الذى رفعته اليه الدول المنتجه للبترول بعد الحرب . لذلك، فانهم شددوا على اوروبا فى محاولاتهم لضمها الى صفهم .

ولاشك فى أن النتيجة ستكون مؤسفة للعرب اذا انضمت اوروبا الى

المعسكر الامريكى فى صراع البترول . ولكن ايا كان ما سيحدث ، فان مما لاشك فيه أن عملاقى الطاقة فى العالم وهما الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى ـ بدرجة أقل ـ هما اللذان اوقفا الحرب ووضعا صيغة السلام . . . لو قدر للسلام أن يتحقق ابدا .

المحتويات

بأسلوبه المعروف ، وشمول معرفته للاحداث والمواقف والرجال ، يتحدَّث محمد حسنين هيكل عن :

- المفاجأة فى حرب رمضان .
- وقفة عبد الناصر الأخيرة والآثار التى ترتَّبت على الهزيمة .
- الثورة الليبية .
- مؤتمر القمة فى الرباط .
- دخول الفلسطينيين .
- محاولة الانقلاب على النميرى .
- مشروع روجرز .
- زيارة عبد الناصر لموسكو .
- مؤتمر القاهرة .
- وفاة عبد الناصر وجنازته .
- المشاكل الداخلية التى واجهت الرئيس أنور السادات فى بداية عهده ، والضغوط التى كانت تدفعه نحو الحرب .
- حكاية راندوبولو .
- المشاكل مع الاتحاد السوفياتى .
- موضوع الوحدة بين مصر وليبيا .
- العلاقات بين مصر والولايات المتحدة .
- البترول .



الثمن ٥٠ ل.ل أو مايعادلها